الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة باتنة -1-

كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية

قسم الفلسفة

الرقم التسلسلي: .....

رقم التسجيل :.....

الوجود عند عبد القادر الجيلاني

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم تخصص فلسفة عامة

إعداد الطالب:

حشاني محمد رضا

اشراف الأستاذ الدكتور:

أ.د. عبد الله العشي

لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الدرجة العلمية	الجامعة الأصلية	الصفة
الحاج دواق	أستاذ	جامعة باتنة 1	رئيسا
عبد الله العشي	أستاذ	جامعة باتنة 1	مشرفا ومقررا
فوزية شراد	أستاذة محاضرة أ	جامعة باتنة 1	عضوا
رشيد دحدوح	أستاذ	جامعة قسنطينة 2	عضوا
رابح مراجي	أستاذ	جامعة قالمة	عضوا
عبد المجيد مسالتي	أستاذ محاضر أ	جامعة المسيلة	عضوا

السنة الجامعية: 2017 - 2018

مقدمة

مقدمة

يعد الفكر الإسلامي حلقة جد هامة ومتميزة من حلقات الفكر الفلسفي والإنساني، وذلك لما له من موقع تاريخي هام جدا من جهة، ولما يتصف به من عمق في طرح ودراسته المسائل المتعلقة بالوجود من جهة أخرى، فنجد مبحث الوجود ضمن هذا الفكر؛ لم يكن هامشيا أو ثانويا بل على العكس من ذلك؛ إن له مكانة هامة لا يمكننا إغفالها أو تجاهلها لأنه ارتبط ارتباطا وثيقا بكل الدراسات المتعلقة بالعقيدة الإسلامية، ومعرفة من يُتَوَجَه له بالعبادة معرفة كاملة يقينية، انطلاقا من الإيمان بكل أسمائه وصفاته أسماء الذات وأسماء الصفات وأسماء الأفعال، كما يرتبط عندهم بمبحث الإلهيات و الطبيعيات ومبحث القيم خاصة الأخلاق والجماليات ، لدرجة أنه يصبح فيها التأكيد على أن صورة الفكر الإسلامي لا تكتمل ولا تتضح بجلاء دون هذه الحلقة ألا وهي مبحث الوجود.

وعلى الرغم من ذلك، فقد بقي الاهتمام الحديث والمعاصر به، قليلا ونادرا إذا ما قورن بالعصور الذهبية التي خلت، ولولا القلة من الأبحاث العلمية الجادة التي قدمها بعض من حملوا على عاتقهم التنقيب على هذه الثورة الفكرية لأمكن القول بأن هذا الفكر يعاني شبه حالة من الإهمال، أو قل على الأقل الجهل بقيمته المعرفية، على حين أننا نجد الكثير من المختصين على معرفة تكاد تكون بما دق وجل من مبحث الوجود اليوناني أو الغربي الحديث والمعاصر!.

لذا حاولت أن يلتفت بحثي هذا إلى مشكلة الوجود عند نموذج من الفكر الصوفي الإسلامي، والمتعلق بالشيخ عبد القادر الجيلاني؛ متطرقا إلى كل ما يمكنه أن يخدم هذا البحث من نظريات في هذا المجال، من دون أن يقع البحث في الادعاء بالإحاطة والشمول والسبر الدقيق، إذ أن هذه الأمور، تتطلب أكثر من بحث واحد، فلابد من تظافر العديد من الأبحاث الفلسفية من أجل إعطاء صورة شاملة تامة عن مشكلة الوجود في هذا الفكر.

محاولا قدر المستطاع أن نستثمر المعالم الأساسية لمشكلة الوجود التي تم تحديد عناصرها عند مفكري الإسلام من الصوفية من أجل أن افك معالمها الخاصة عند عبد القادر الجيلاني.

كما اقدم هذه الدراسة المتواضعة، في ظل الاعتقاد الذي يرى بان هناك ابستيمولوجيا أخرى روحية عرفانية اشراقية – دون فرض هذا الاعتقاد– فهي ترى أن فهم الوجود وفك طلاسمه يكون أكثر وضوحا تحت الإطار و البعد الروحي للإنسان، ومن خلال هذا المنظور يمكن فتح باب البحث الفلسفي، في هذا المجال، على مصراعيه، ومن خلال هذا البعد يمكنني فهم حقيقة الوجود و التعرف عليها بدقة و شمولية، خاصة و أن معظم جوانبها مازالت مبهمة و غامضة أمام الباحثين، و الدليل على ذلك، صعوبة الإشكاليات الفلسفية التي تثار حول إدراك كنه الوجود و مظاهره وغيرها من قضايا فلسفة الوجود.

واخترت عبد القادر الجيلاني كنموذج للدراسة، كونه أحد رجال التصوف الإسلامي في العراق، الذين لهم مقال في هذا المجال،كما اعتمدت في دراستنا هذه، على أهم المصادر للمؤلف في مجال التصوف:كتاب الغنية لطالبي طريق الحق في الاخلاق والتصوف والاداب الاسلامية ، كتاب الفتح الرباني والفيض الرحماني،كتاب فتوح الغيب وكتاب جلاء الخاطر ،كتاب بهجة الاسرار ،كتاب سر الاسرار في التصوف.

و لعل هذه الدراسة، ستمكنني من إيجاد بعض التفسيرات الموضوعية و المؤسسة على قواعد متينة، لكشف طبيعة الوجود عند هذا الأنموذج،معتمدا على نصوص مفكرنا .

أما المنهج المستخدم في إعداد البحث فكان المنهج السردي الوصفي.

ويعود سبب اختياري لهذا الموضوع لجانبين، موضوعي و ذاتي، أما الجانب الموضوعي: فهو الحاجة الماسة لتسليط الضوء على مكونات التراث الإسلامي، و خاصة التراث الصوفي، و جانبه الفلسفي، الذي لا يزال حبيس الدراسات الإسلامية، ذات المنظور الديني، الخاضعة لعلوم الشريعة الفقهية، مهملين في كثير من الأحيان، استثمار تلك الأبعاد الفلسفية و الفكرية الخصبة، لهذا التراث و مكوناته، و كما قلنا أن هذا النوع من الدراسات عندنا مازالت قليلة بالمقارنة مع التي نجدها عند الفلسفة الغربية.

أما الجانب الذاتي، فميلي الشخصي لمثل هذه المواضيع الفلسفية، التي تتناول دراسة الإنسان و الحقائق المحيطة به، من وجهة نظر روحية وجدانية و أخلاقية.

لذا حاولت، في هذه الدراسة المتواضعة و البسيطة، أن أتناول الاشكالية الموجهة للبحث:

-ماطبيعة الوجود عند الشيخ عبد القادر الجيلاني انطلاقا من عقيدته وتصوفه وطريقته الصوفية؟

ومن ثمة ماهي اهم الاليات الصوفية لادراك ومشاهدة حقيقة الوجود حسب عبد القادر الجيلاني؟
-هل اعتقد الشيخ بوحدة الوجود ومن ثمة سلم بالحلول والاتحاد؟أم انكر ذلك و أكد على وحدة الشهود؟

ومنه ارتأيت أن أقسم هذا المشروع إلى خمسة فصول:

ففي الفصل الأول الموسوم **بأهم محطات حياة الشيخ عبد القادر الجيلاني** تناولت في مبحث أهم معالم حياته ممهدا ذلك بلمحة جغرافية عن جيلان والعراق ، ثم انتقلت إلى الأوضاع السياسية والاجتماعية لعصره في العراق ونواحيها، بعدها تطرقت إلى الحالة العلمية، لأتكلم عن مولده ونسبه،ونشاته وطفولته،بعدها تعرضت في مبحث أخر رحلته إلى بغداد لطلب العلم ،تمدرسه عند شيوخ وأساتذة علوم الشريعة و التزكية الروحية، مع ذكر الظروف الصعبة ومجاهداته التى صقلت معالم شخصيته كرجل دين وفقه وتصوف،ومن ثمة نضجه و تمكنه واعتلائه كرسي التدريس والنصح والإرشاد والإفتاء.وأكملت الفصل بمبحث حول مكانته العلمية وموقف العلماء منه ،وأثره من تلاميذ ومؤلفات علمية.

أما الفصل الثاني الموسوم **بأصول العقيدة عند الشيخ عبد القادر الجيلاني** فقد خصصته للحديث عن أهم الآراء والمواقف العقائدية له ،ممهدا بمنهجه في توضيح العقيدة ثم اعرض مفهوم التوحيد عنده من توحيد ربوبية وتوحيد الوهية وتوحيد الأسماء والصفات،لنمر الى موقفه من مسالة الصفات الذاتية والصفات الفعلية،ثم نتطرق لبعض القضايا العقائدية الجزئية وتصديه للابتداع المضلل والاستدراج الشيطاني لتحصين السالكين الطريق الى الله في ظل عقيدة عمل وفعل في الحياة اليومية.

أما الفصل الثالث الموسوم **بمعالم التصوف عند عبد القادر الجيلاني** ،نمهد فيه بالاشتقاق اللغوي للتصوف ،منشأه و أسسه كذا ما قيل في تعريفه وتعريف الصوفي والصوفية بصفة عامة ثم بصفة خاصة عند الجيلاني ، ثم نعرج على أهم المقامات والأحوال حسب الشيخ الجيلاني وعلاقتها بالجانب العملي توكلا وورعا.

و **الفصل الرابع** الموسوم **بعبد القادر وطريقته الصوفية** نتناول فيه تأسيس الطريقة القادرية بعد عرض معنى الطريقة والحقيقة،وتوضيح أهم الآداب والواجبات التي لابد أن يلتزم به الشيخ المربي مع مريديه والمريدين فيما بينهم وبين أطياف الخلق حسب الشيخ عبد القدر الجيلاني،كما نتطرق لانتشار مدارس الطريقة القادرية في أنحاء البلاد ودورها في الجهاد ضد الغزو الصليبي تحت لواء صلاح الدين الايوبي والدولة الزنكية و محاربة الجهل والابتداع.

أما الفصل الخامس الموسوم **بالحب الالهي ومشاهدة الوجود عند عبد القادر الجيلاني** نتناول فيه مبحث خاص بضبط مفهوم كلمة الوجود لغة ثم اصطلاحا ،بعدها نتطرق لنبذة عن مفهوم الوجود في تاريخ الفلسفة واهم التصورات التي صيغة حوله عند أهم الأعلام في أهم المراحل الفلسفية: من فلسفة يونانية فالاسلامية ومن بعدها الفلسفة المسيحية ،الى الغربية.

ثم تعرضنا لدور الزهد في التجرد الباطني من اجل الاستعداد لمكاشفة الوجود،في مبحث مستقل بعدها في مبحث اخر شرحنا دور الذكر كفاعلية لشهود الوجود،ومبحث رابع نتناول بالدراسة للمحبة الصوفية ،انطلاقا من لمحة تاريخية عن ظهورها عن الصوفية.فمفهومها عندها ،وبعدها علاقة الشوق بالمحبة عندهم ،واعتبارهم الحب كمبدا للوجود عند الصوفية،ثم نتعرض لقضية جد مهمة ألا وهي دور الفناء بالحب الالهي لمشاهدة الوجود عند الجيلاني في مبحث مستقل، بعدها نبحث قضية مفصلية اخرى عند علمنا الا وهي :وحدة الشهود لا وحدة وجود اي عند الجيلاني ثم رأينا ان نتطرق لمسالة جد مهمة تتمثل في تبرئة علماء الامة للصوفية من تهمة الحلول والاتحاد ووحدة الوجود.

ولعل أهم صعوبة وجدتها في بحثي هذا،كون كل الدراسات والابحث التي انجزت حول الشيخ عبد القادر الجيلاني وعلى كثرتها تتناول اما: سيرة حياته وملامح شخصيته ،واما تتناول دراسته كرجل دين و فقه وعقيدة على المذهب الحنبلي ، او كرجل من اكابر الصوفية وشيخ مربي للمريدين مؤسس للطريقة القادرية،مع التركيز لدرجة الهوس على سرد الكرامات بطريقة منافية للشرع،مع ان نصوص الشيخ الاصيلة تثبت محاربته بشدة لكل الشبه والتفاهات،والاصعب من ذلك ندرة —ان لن نقل انعدام–الدراسات الاكاديمية التي تناولت الفكر الصوفي الاشراقي والعرفاني للشيخ ،التي لها ابعاد فلسفية كشاكلتها من الدراسات التي تناوات الحلاج وابن عربي والشهرستاني وغيرهم من كبار الفكر الصوفي.

وكل ما ارجوه هو أن اكون قد وفقت ولو بالقدر اليسير في إعطاء صورة لمفهوم الوجود، عند متصوفنا الإسلامي عبد القادر الجيلاني، مع الإشارة إلى أننا لا نزعم العصمة لهذا البحث الذي حاولنا أن يكون موضوعيا دون أن نريده حياديا، فالموضوعية شيء و الحيادية شيء آخر. و غني عن البيان أن الميل والانحياز إلى المعرفة الأصيلة في التراث و المعاصرة يعد في ذاته فعلا موضوعيا.

الفصل الأول: أهم محطات حياة الشيخ عبد القادر الجيلاني.

المبحث الأول: خصائص عصر الشيخ عبد القادر.

المطلب الأول – لمحة جـــــغرافية.

المطلب الثاني – الحالة الســـياسية.

المطلب الثالث – الحالة الاجتماعية.

المطلب الرابع – الحالة العـــــلمية.

المبحث الثاني: ولادته ونسبه.

المطلب الأول – مولـــده ونشأته.

المطلب الثاني – نـــــسبـــــه.

المطلب الثالث – طفـــــولتـــــه.

المبحث الثالث: رحلاته وطلبه للعلم.

المطلب الأول :– رحـــلته إلى بغداد.

أ –انتقاله إلى بغداد.

ب–الشيخ عبد القادر في بغداد.

المطلب الثاني: – طلبه للعلم.

أ –مرحلة التمدرس والتحصيل العلمي.

ب–شيوخه وأساتذته.

ج – ظروف حياته العلمية في بغداد.

المبحث الرابع: انتقاله للتدريس و الوعظ و الإرشاد.

المطلب الأول: –جلوسه للتدريس والإصلاح.

المطلب الثاني: –المشيخة وتربية المريدين.

المطلب الثالث: –علومه ودروسه.

المبحث الخامس: مكانة الشيخ العلمية وآثاره.

المطلب الأول: مكانته العلمية.

أ -صفات الشيخ.

ب- وفاته .

ج-موقف العلماء من الشيخ.

المطلب الثاني: آثار الشيخ وخلفه العلمي.

أ -تلامذته.

ب-مؤلفات الشيخ.

ج-مدرسة الشيخ عبد القادر.

المبحث الأول: خصائص عصر الشيخ عبد القادر

من المعلوم أن للبيئة والمحيط تأثير ودور كبير في تكوين شخصية الإنسان، لذلك لا بأس أن أورد فيما يلي لمحة جغرافية وتاريخية عن منطقة جيلان،التي ينتسب اليها الشيخ عبد القادر الجيلاني نسبا جغرافيا وسكانيا ،مولدا ونشاة، ثم بعدها نحاول ان نأخذ لمحة عن الحالة الاجتماعية والثقافية في ذلك العصر.

المطلب الأول: لمحة جغرافية

جاء في كتاب "مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع" لصفي الدين عبد المؤمن البغدادي المتوفى سنة 739 هـ، وهو مختصر من كتاب "معجم البلدان" لياقوت الحموي: «جيلان: معرب كيلان، اسم لبلاد كثيرة من وراء بلاد طبرستان، وهي قرى كلها في مروج بين الجبال على ساحل بحر طبرستان (أي بحر قزوين).

جيلان: قوم من الفرس من أهل اصطخر نزلوا في طرف البحرين، ونزل عليهم قوم من بني عجل فدخلوا فيهم، فهم يسموه جيلان.

و الجيل: هم أهل جيلان. والجيل: قرية من قرى بغداد على جانب دجلة، ويسمونها: الكيل»[(1)].

وجاء في كتاب (الأنساب) للإمام أبي سعد عبد الكريم بن محمد السمعاني: «الجيلاني: نسبة إلى جيلان، وهي بلاد معروفة وراء طبرستان، سميت باسم من بناها من نسل يافث بن نوح، وجيلان أيضا خشب صلب من شجر العناب»[(2)].

وجاء في كتاب "معجم البلدان" لياقوت الحموي: «جيلان: بالكسر، اسم لبلاد كثيرة وراء بلاد طبرستان، وليس في جيلان مدينة كبيرة، إنما هي قرى في مروج بين الجبال؛ ينسب إليها: جيلاني وجيلي، والعجم يقولون: كيلان، والنسبة إليها: كيلاني»[(3)].

أما أبو الحسن الندوي فيقول في كتابه (رجال الفكر والدعوة في الإسلام) نقلا عن دائرة معارف البستاني: «جيلان أو كيلان ويقال لها أيضا بلاد الديلم وهي في القسم الشمالي الغربي من بلاد فارس، يحدها شمالا ناحية تاليس الروسية، وجنوبا بغرب سلسلة جبال البرز الفاصلة بينها وبين أذربيجان وعراق العجم، وجنوبا بشرق مازندران، وشمالا بشرق بحر قزوين»[4] إذن فجيلا أو كيلان بلاد تقع جنوبي غربي بحر قزوين.

أما كتب الجغرافيا الحديثة فتقول: إن إيران مقسمة إلى أربعة عشر إقليما، أحدها إقليم جيلان الذي يقع في الجنوب الغربي من بحر قزوين، وهو إقليم كثير الأمطار، كثير الأنهار، ذو تربة خصبة، كثير السكان، يزرع فيه جميع

---

(1)– عبد المؤمن البغدادي: مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تح محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط1، 1373 هـ- 1954م، ص368.

(2) – عبد الكريم السمعاني :كتاب الانساب ،د ط،د س ن،مج 2 ،ص146.

(3)– ياقوت الحموي: معجم البلدان،تح فريد عبد العزيز الجندي ، دارالكتب العلمية،بيروت لبنان 1993م-1397هـ،ط1، ص175.

(4) – ابي الحسن الندوي:رجال الفكر والدعوة في الإسلام، رجال الفكر والدعوة في الاسلام، دار ابن كثير،دمشق،ط3،1428هـ - 2007م،ص228.

أنواع الحبوب مع الشوندر والشاي والفواكه والخضروات. وأهم مدنه مدينة (رشت) على ساحل بحر قزوين؛ وقد حدث في هذا الإقليم في سنة 1990 م سلسلة من الزلازل والهزات الأرضية ذهب ضحيتها أكثر من ثلاثين ألف قتيل، ويبلغ طول إقليم جيلان 225 كلم وعرضه من الجبال إلى البحر يتراوح بين 25 كلم و 105 كلم.

فقد استدعى أهل طبرستان وجيلان رجلا علويا من الري اسمه الحسن بن زيد بن محمد من نسل سيدنا الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وكرم وجهه في سنة 250هـ وهزموا تحت قيادته جيوش الدولة الطاهرية. وهكذا تشكلت الدولة الزيدية في طبرستان وجيلان من سنة 250 هـ إلى 316 هـ[5]. وقدم مع الحسن زيد، من الري ابن ابن عمه إدريس بن موسى، ومعه أخوه داود بن موسى بن عبد الله، وهو الجد الرابع للشيخ عبد القادر رحمه الله[6]، كما سيأتي بيان ذلك. ثم حلت الدولة الزيارية نسبة إلى مرداويج بن زيار، من الديلم، (من سنة316 هـ إلى سنة 433 هـ)محل الدولة الزيدية.

---

(5) – د.احمد شلبي:موسوعة التاريخ الإسلامي،مكتبة النهضة المصرية،القاهرة ط1987،12 ج8 ص60.

(6)– ابن الاثير:الكامل،تح عبد القادر الارنؤوطي،مطبعة الملاح ،مصر،ط1، 1389هـ –1969م، ج 7 ص 130–133.

وللأسف اثناء انجاز بحثي هذا –خاصة الشق المتعلق بحياة مفكرنا –وجدت الكثيير من الباحثين العراقيين، قدموا أعمال أكاديمية من رسائل دكتوراه وماجستير حول نسب الشيخ الجغرافي ،ونالوا عليها جوائز دولة علمية ،لا لشيء الا لأنهم ارادو سلب الجيلاني انتسابه الى جيلان فارس قديما ايران حديثا،بدافع غير علمي موضوعي انما بدافع ايديولوجي تغذيه نعرات عنصرية مقيته وطائفية نتنة لاقصاء الاخر ،كالصراع والحرب العراق–ايرانية، و الصراع الشيعي السني.

واكثر من ذلك اخترع فريق منهم : جيلان صغيرة بالعراق ونسبوها اليه؟؟؟وفريق اخر لم يجد مبررات وثوقية لذلك النسب الجغرافي وتأكد أنها جيلان فارس،فراح يجتهد في نفي النسب الجينالوجي عن الشيخ ،لينفي عنه النسب الشريف المحمدي لا لشيئ الا لانه من أرض فارس والعجم ،وللاسف نجد هذه الأسماء جد لماعة ومرموقة في الساحة الاعلامية .للاطلاع اكثر والتاكد من ذلك يمكنكم العودة الى كتب :هكذا تكلم الشيخ عبد القادر الكيلاني و من الشك الى اليقين :قراءة متانية في نسب الشيخ عبد القادر الكيلاني و جغرافية الباز الاشهب :قراءة ثانية في سيرة الشيخ عبد القادر الجيلاني وتحقيق محل ولادته وفق منهج البحث العلمي دراسة تاريخية لجمال الدين فالح الكيلاني.

كما نجد بعض الباحثين اعتاد أن يتحدثوا عن العصر الذي عاش فيه العالم أو الشيخ الذي يقصدون الحديث عن شخصيته وذلك للوقوف على الظروف التي عاشها وعاصرها لما لها من تأثير على نشأته وتكوينه وأفكاره وسلوكه.

وحديثنا عن عصر الشيخ عبد القادر الجيلاني لن يكون اتباعا لذلك العرف أو تقليدا لهذه العادة وإنما سيكون استجابة للحاجة الملحة والضرورة المقتضية التي تحتم بيان مدى تأثير الشيخ عبد القادر وتأثر في العصر الذي عاشه والذي سبق ظهور صلاح الدين الأيوبي[7] وقيامه بالجهاد لاسترداد القدس ودحر الصليبين وإعلاء دين الله عز وجل وذلك لإيضاح مدى تأثير العلماء والمصلحين وقدرتهم على التغيير وتهيئة الأمة للقيام بدورها في الإصلاح والوقوف في وجه الأخطار التي تحدق بها.

وما أشبه الليلة بالبارحة وما أشبه هذا العصر بالعصر الذي سبق عصر الشيخ عبد القادر الجيلاني، وما أحوج الأمة الإسلامية اليوم إلى علماء ربانيين يعالجون أمراضها ويصححون أخطاءها ويوجهون خطاها. ويردونها إلى الجادة الصحيحة بعد أن زلت بها الأقدام إلا ما رحم الله ولم تأخذ العبرة من الدروس القاسية والمحن المؤلمة التي تعرضت لها عبر تاريخها الطويل كلما انحرفت عن منهج الله وحادت عن طريقه.

وهذه الحياة التي توافرت في تلك الأمة قد عملت على إذكائها عدة عوامل لعل من أبرزها وجود العلماء والدعاة الذين جمعوا كلمتها ولموا شعثها وأعادوا بناء ثقتها بنفسها، وبيان دورها في هذه الحياة وأنها إنما كانت خير أمة أخرجت للناس لأنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله فإذا تخلت عن هذا الدور وتقاعست عن هذه المهمة سلبت هذه الخيرية وسقطت من عين الله وهانت على الناس كهوانها على الله.

هذا مايدفعنا للتساؤل عن أهم ملامح الوضع السياسي في الأمة الاسلامية؟ وخاصة في العراق موطن مفكرنا؟

---

[7]- أبو المظفر يوسف بن أيوب التكريتي صلاح الدين الأيوبي المجاهد العظيم والملك الشجاع، تملك بعد نور الدين زنكي واتسعت بلاده وكان خليقا بالإمارة مهيبا حازما ورعا زاهدا ذا همة كبيرة في إقامة الجهاد حتى فتح الله عليه ونصر به دينه وقمع به أعدائه توفي رحمه الله سنة 589 هـ. ابن الاثير:الكامل،مرجع سابق ،ص189.

المطلب الثاني: الحالة السياسية

عاش الشيخ عبد القادر الجيلاني –رحمه الله– في الفترة الواقعة ما بين عامي 470هـ و561هـ وقد تميزت هذه الفترة بالاضطراب السياسي وكثرة الأحداث والتقلبات السياسية وعندما انتقل الشيخ إلى بغداد سنة 488هـ كان ذلك بعد سقوط دولة بني بويه الشيعية ووصول سلاطين السلاجقة إلى الحكم في بغداد وقيام دولتهم السنية وذلك في عهد الخليفة العباسي المستظهر بالله والذي لم يكن يملك من الخلافة إلا اسمها لأن السلطة كانت بيد أمراء الجند ورؤساء القبائل وترتب على هذا قيام الفتنة والتنافس بين سلاطين السلاجقة فعاث الجند فسادا في بغداد وصادروا الأموال ونهبت المتاجر وذاق الناس آلام الجوع والخوف[8].

وقد عاصر الشيخ عبد القادر خمسة من خلفاء بني العباس هم:

1. المستظهر بالله الذي ينتهي نسبه إلى هارون الرشيد، ولد سنة 470هـ وبويع له بالخلافة سنة 487هـ، ومات سنة 512هـ، ومدة خلافته 24 عاما، وكان كريم الأخلاق حافظا للقرآن فصيحا بليغا وقد وقعت في أول عهده فتنة بين الطوائف الدينية فأحرقت محال كثيرة وقتل ناس كثير[9].
2. المسترشد بن المستظهر، ولي الخلافة بعد والده سنة 512هـ وكان رجلا قويا شجاعا مقداما بعيد الهمة عذب الكلام كثير العبادة محبوبا لدى العامة والخاصة قتله الباطنيون سنة 529هـ، وقطعوه قطعا بعد أن دامت خلافته سبعة عشر عاما[10].
3. بعده، تولى الخلافة الراشد بالله سنة 529هـ ، وكانت مدة خلافته قصيرة جدا دامت أحدا عشر شهرا، بعدها جرى خلعه بفتيا الفقهاء، ثم قتل غيلة على أيدي بعض الباطنيين.[11]
4. المقتفي لأمر الله، بويع بالخلافة بعد خلع الراشد وكان شهما مقداما مات سنة 555هـ.[12]
5. المستنجد بالله الذي بويع بالخلافة بعد موت والده وكان رجلا صالحا، توفي سنة 566هـ[13].

وبالجملة فقد اتسمت تلك الفترة بالاضطراب السياسي لوجود النزاعات الحادة بين الخلفاء في بغداد والباطنيين في مصر مما أتاح لبعض الأمراء الاستقلال بإماراتهم كما حدث في الشام ثم حصل التنافس والنزاع بي هؤلاء الأمراء[14].

---

[8] – ابن الجوزي: المتظم في تاريخ الملوك والامم،د تح ،دار الكتب العلمية،بيروت،ط2، 1415هـ-1995م،ج9،ص141.

[9]– ابن كثير:البداية والنهاية،تح عبد الله التركي ،مركز البحوث والدراسات العربية والاسلامية بدار هجر،الرياض،1410هـ-،1990م ج12،ص156.

[10] – المرجع السابق ،ج12،ص223.

[11] – المرجع نفسه ،ج12،ص224.

[12] – المرجع نفسه، ج12،ص259.

[13] – المرجع نفسه،ج12،ص281.

وقد كان لهذا الحال أثره في نفس الشيخ عبد القادر وشخصيته حيث فضل أن يبقى جهده محصورا في حلقات العلم والتربية الروحية وتزهيد الناس في أمور الدنيا إلى جانب قيامه أحيانا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في هذا الجو المضطرب الذي يعتبر القيام فيه بذلك ضربا من ضروب الجهاد[15].

ولعل من المناسب وأنا أتحدث عن الناحية السياسية في ذلك العصر إبان قيام الخلافة العباسية أن أشير إلى بعض المخالفات التي وقعت من معظم الخلفاء ومنها:

1. الإسراف في الأموال العامة وتبديد مقدرات وثروات الأمة وصرفها في غير المصارف الشرعية وإنفاقها على الشعراء والمداحين الذين كان الأولى بهم أن يحثى في وجوههم التراب بالإضافة إلى المبالغة في ترف العيش وبناء القصور.
2. توليتهم لمن ليس أهلا للولاية ممن رق دينه وقلت كفاءته واعتمادهم في الغالب على غير الاكفاء ممن لا يوثق بدينهم وتوليتهم أهم الولايات ووضعهم في المناصب القيادية الحساسة التي كان الأجدر بها أهل الصلاح والتقوى لأن في إسناد الأمانات إلى غير أهلها خيانة للأمة وإضاعة لأمنها وأمانها وتعريضها للضعف والانهيار.
3. تقريبهم لأهل الفسق والمجون في مجالسهم ونواديهم والابتعاد عن مجالسة الصالحين وعقلاء الأمة من أهل العلم والفضل ممن يحمل هموم الأمة ويرعى مصالحها.

كان هذا حقيقة الوضع السياسي المتعفن بالفساد المالي والسياسي والاخلاقي، فكيف ياترى هو حال الوضع الاجتماعي في الأمة وفي العراق خاصة؟

---

(14) – ابن كثير:البداية والنهاية ، مرجع سابق، مج13،ص6.

(15)–المرجع نفسه،مج12،ص270.

المطلب الثالث: الحالة الاجتماعية

من الغالب أن ترتبط الحالة الاجتماعية في أي عصر بالوضع السياسي السائد ولما كانت هذه الفترة قد تميزت بكثرة التقلبات السياسية وكثرة الخلفاء وضخامة الأحداث واختلاط المسلمين بغيرهم من الاديان والطوائف الاخرى، فقد أدى ذلك إلى تنوع الحياة الاجتماعية، وعدم استقرارها على وتيرة واحدة.

ففي عهد المستنجد بالله تذكر كتب التاريخ أنه كان حسن السيرة مع الرعية وأن الناس كانوا في عهده في رغد من العيش للعدل الذي كان يسوس الناس به كما أنه ألغى كثيرا من المكوس والضرائب[16].
أما في العهود الأخرى للخلفاء فقد ساءت الأحوال وفشا الجوع وارتفعت الأسعار وهلك كثير من الناس[17].
وباستقراء أحوال الناس في تلك الفترة يمكن تقسيمهم إلى ثلاث طبقات:

الطبقة الأولى: طبقة الحكام وهم العباسيون في بغداد والفاطميون في مصر، وبعض الأمراء في بلاد الشام، فهؤلاء كانوا يعيشون في غاية التمتع بالشهوات والاستغراق في الملذات وتحصيل أكبر قدر ممكن من أسباب الرفاهية ومن أمثلة ذلك ما ننقله المؤرخون إذ يصف أبن كثير[18] جهاز ابنة السلطان ملك شاه سنة 480هـ فيقول:
«في المحرم منها نقل جهاز ابنة السلطان ملك شاه إلى دار الخلافة على مائة وثلاثين جملا مجللة بالديباج الرومي غالبها أواني الذهب والفضة، وعلى أربع وسبعين بغلة مجللة بأنواع الديباج الملكي وأجراسها وقلائدها من الذهب والفضة وكان على ستة منها اثنا عشر صندوقا من الفضة فيها أنواع من الجواهر والحلي وبين يدي البغال ثلاث وثلاثون فرسا عليها مراكب الذهب ومرصعة بالجواهر ومهد عظيم مجلل بالديباج الملكي عليه صفائح الذهب مرصع بالجوهر[19] ».

ويتحدث عن حياة أبي نصر أحمد بن مروان الكردي والي بلاد بكر وميا فارقين المتوفى سنة 453هـ فيقول:
«كان عنده خمسمائة سرية سوى من يخدمهن وعنده خمسمائة خادم وكان عنده من المغنيات شيء كثير كل واحدة مشتراها خمسة آلاف دينار وأكثر وكان يحضر في مجلسه من آلات اللهو والأواني ما يساوي مائتي ألف دينار»[20].

---

[16]- ابن الأثير :الكامل في التاريخ ،تح عبد الله القاضي،ط1،دار الكتب العلمية،بيروت،1407هـ-1987م،مج9 ،ص109.

[17]- ابن كثير: البداية والنهاية،مرجع سابق،ج13،ص26.

[18] - عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير. ولد سنة 700هـ، وقدم دمشق وله سبع سنوات، وحفظ مختصر أبن الحاجب، ثم صاهر المزي، وصحب ابن تيمية، وكان كثير الاستحضار، وقليل النسيان جيد الفهم، وقد انتهت إليه رئاسة العلم في التاريخ والحديث والتفسير توفي سنة 774هـ. ابن الأثير :الكامل في التاريخ،ص111.

[19]- ابن كثير: البداية والنهاية،مرجع سابق، ج12،ص141.

[20]- المرجع نفسه،ج12،ص82.

الطبقة الثانية: طبقة العلماء وهؤلاء كان لهم دور في تربية الأمة ودعوتها إلى الحق وإعادة ثقتها بنفسها وهو ما سنتحدث عنه بإذن الله عند الكلام على الحالة العلمية.

الطبقة الثالثة: عامة الناس وهؤلاء عانوا كثيرا بسبب الحروب وسوء الأحوال المعيشية وكثرة الفساد مما حملهم إلى الانصراف والاهتمام بمتطلبات حياتهم الضرورية التي تدور حول الغذاء والكساء والمأوى.

وقد أدى هذا إلى انتشار النفاق وسقوط الأخلاق وانهيار القيم وأصبح الحديث عن المثل العليا إما وسيلة يتكسب بها بعض الوعاظ والخطباء أو مثاليات وخيالات ليس لها رصيد في الواقع سوى الاستخفاف بها و عدم الانتباه لها وتزامن هذا الفساد مع شيوع ألوان من اللهو كمصارعة الحمام وانتشار الملاهي والجواري والمغنيات.[21]

مما سبق يتضح لنا ان الوضع السياسي على شاكلة الوضع الاجتماعي ،بل هو نتيجة له ولتأزمه وتدهوره.فما هي حالة الوضع الثقافي والساحة العلمية؟

المطلب الرابع: الحالة العلمية

كانت فترة حياة الشيخ عبد القادر الجيلاني من أفضل الفترات الزمنية التي كثر فيها العلماء الأجلاء، ليس في بغداد وحدها، بل في جميع مدن العالم الإسلامي وقد كان لهؤلاء العلماء دور كبير في إثراء الفكر الإسلامي والمكتبة الإسلامية بكثير من المؤلفات النافعة التي لا يزال العلماء عالة عليه حتى يومنا هذا، ومن يستقرئ كتب التراجم والسير يلاحظ كثرة العلماء وكثرة المؤلفات ومن بينهم الشيخ عبد القادر الجيلاني والذي سندرسه في هذه الرسالة.

وكذلك الإمام ابن الجوزي الحافظ المفسر مفخرة العراق، وعلامة عصره، والذي كان رأسا في التذكير والوعظ وبحرا في كثير من العلوم، وكان حسن السيرة صنف الكثير من الكتب في التفسير والحديث والتاريخ[22]

والشيخ عبد الله بن أحمد بن قدامة المولود سنة 541هـ، والذي كان إماما في القرآن وتفسيره، إماما في علم الحديث ومشكلاته، إماما في الفقه نابغة فيه إماما في علم الخلاف، وفي الفرائض، إماما في أصول الفقه والنحو والحساب[23].

والشيخ أبو الفتح عمر بن محمد بن الحاجب المحدث البارع صاحب المعجم الكبير كان فيه دين وخير وله حفظ وذكاء وهمة عالية في طلب الحديث[24].

---

[21]- ابن كثير: البداية والنهاية ،المرجع السابق،مج12،ص105.

[22] - انظر:الذهبي :سير أعلام النبلاء،تح مج ت اشراف محمد الارناؤوطي،مؤسة الرسالة،ط1405،1هـ-1985م،مج21 ،ص360.انظر كذلك: ابن رجب:الذيل طبقات الحنابلة،تح محمد الفقي، مطبعة السنة المحمدية،مصر،ط1372،1هـ-1925م،كج9،ص139

[23] - انظر الذهبي: سير أعلام النبلاء ،المرجع السابق،مج22،ص169. و انظر:ابن رجب ذيل طبقات الحنابلة، المرجع السابق ج2،ص136.

[24]- الذهبي :سير أعلام النبلاء ،المرجع نفسه،مج22،ص370.

والشيخ أبو عمر بن الصلاح الإمام الحافظ مفتي الشام ومحدثها، كان عابدا زاهدا ورعا[25].

والشيخ المنذري الحافظ الكبير صاحب المؤلفات الكثيرة المشهورة، طلب العلم حتى برع فيه وأصبح عديم النظير في فنونه وكان حجة ثبتا ورعا[26].

والشيخ أبو شامة الإمام العالم الحافظ المحدث الفقيه المؤرخ صاحب التصانيف العديدة كان دينا أمينا[27].

كما شهد هذا العصر حركة ثقافية واسعة ساعدت على قيامها الظروف السياسية والفكرية السائدة في تلك الفترة حيث كان الصراع السياسي والعقائدي بين المسلمين والنصارى وكذا النزاع بين أهل السنة الممثلين سياسيا بالخلافة العباسية وبين الشيعة الممثلين سياسيا بالحكم الفاطمي في مصر بالإضافة إلى ما اتسم به هذا العصر من الخلافات المذهبية الفقهية، وقيام علماء كل مذهب ببذل الجهد في نشر مذهبهم من خلال التأليف والدخول في صراعات مذهبية قسمت الأمة إلى فرق متناحرة متنافرة أشبه ما تكون بالأحزاب والجماعات في زماننا.

وقد أفرز هذا المفهوم المذهبي للإسلام، أو المفهوم الحزبي بالمصطلح المعاصر آثارا خطيرة في ميادين الفكر والتربية والاجتماع والسياسة أجملها الدكتور ماجد عرسان الكيلاني فيما يلي:

1. الآثار الفكرية: حين تحددت أطر الإنتاج الفكري في حدود المذهب فصارت المؤلفات إما اجترارا وتكرارا لأفكار من سبقوا من رجال المذاهب، أو إطراءا وإشادة بتضحياتهم وجهادهم. وظهرت كتب الطبقات المذهبية مثل طبقات الحنابلة، وطبقات الشافعية، كما ظهرت الشروح والحواشي والمختصرات في حين لم تنل المشكلات المعاصرة والحاجات القائمة التي تتعلق بالأمة آنذاك إلا اشارات هامشية محدودة.

كما أفرز هذا التعصب المذهبي نوعا من الإرهاب الفكري ضد المستنيرين من أصحاب المذاهب نفسها وإلزامهم بعدم التفاعل الفكري مع غيرهم من خارج المذهب، إلا أن أخطر هذه الآثار الفكرية هو انقطاع أتباع المذاهب عن الاتصال المباشر بالقرآن الكريم والسنة المطهرة والتوجه إلى مؤلفات رجال المذاهب باعتبارها تمثل الفهم الصحيح للكتاب والسنة.

2. الآثار التربوية: لقد تسرب شيوخ المذاهب إلى المدارس وأثروا فيها وفي مناهجها وأهدافها وأدى هذا إلى فساد أهداف التعليم وغاياته وأصبحت تدور حول تأهيل الدارسين لشغل مناصب الإفتاء والقضاء والهيمنة عليها. وبذلك ذاق مفهوم العلم واقتصر على فقه العبادات والمعاملات في حدود الأطر المذهبية[28].

---

[25]- ابن كثير: البداية والنهاية،المرجع السابق،مج13،ص168.

[26]- ابن كثير:المرجع نفسه،مج13،ص212.

[27]- المرجع نفسه ،مج13،ص250.

[28]- د.ماجد عرسان :هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس،،دار القلم ،دبي،ط1423،3هـ-2003م،ص ص19-32.

3. الآثار الاجتماعية: لقد شكلت المذاهب طوائف اجتماعية أشبه ما تكون بالأحزاب المتناحرة وأصبح المذهب الواحد يضم أخلاطا من الناس منهم المشايخ والتجار والطلبة والعوام وكانت تربط هؤلاء رابطة هشة تقوم على الشكلية والمظهر أكثر من المضمون والجوهر إذ كان يكفي للانتماء المذهبي أن يحضر الاجتماعات وأن يكدس كتب المذهب وأن يتزيا بزي أهله.
4. الآثار السياسية: حين تحولت أهداف العمل الإسلامي على يد المذاهب عن السعي لتمكين الشريعة وهيمنة الإسلام إلى تمكين رجال المذاهب أصبحت السمة البارزة للنشاط السياسي هي مشاركة زعماء المذاهب في إدارات الدولة وتنافسهم في التقرب إلى السلاطين وقيام أصحاب المطامع الشخصية بالانتساب إلى المذاهب لتحقيق مطامعهم، فإذا تولى أحد قادة المذاهب منصبا ركز همه على تمكين أهل مذهبه والنيل من أتباع المذاهب الأخرى.[29]

وهكذا نلاحظ مدى ما ألحقته الصراعات المذهبية من أضرار بالغة بالنشاط العلمي والحالة العلمية في ذلك العصر إلا أن ذلك لا يعني عدم وجود نخبة من العلماء والمربين الذين ركزوا على الجوانب التربوية والتعليمية وتأسيس المدارس ويعتبر الشيخ عبد القادر الجيلاني نموذجا لهؤلاء العلماء، فقد أفنى جزءا كبيرا من حياته في العلم والتعليم والتربية والتوجيه والدعوة والوعظ مما كان له أكبر الأثر في صياغة المجتمع وتهيئته وإعداده للقيام بالمهمات الجسام التي قام بها بعد إعلان الجهاد ورفع رايته لدحر العدوان الصليبي حيث قاد هو والعلماء في عصره انتفاضة روحية إيمانية أوقفت التيارات الفكرية الوافدة وخففت من هيمنة الصراع المذهبي والتي كانت سببا في انتقال الدين من القلوب إلى العقول وحولته من عقيدة يقينية إلى مسائل منطقية ومجادلات فقهية فحمل الشيخ عبد القادر راية التغيير ودعم حملته بوعظه المؤثر والمعتمد على الكتاب والسنة وعمل على إحياء وتقوية العاطفة الدينية وتحويل الأمة إلى ميادين العمل والإعراض عن المناقشات والجدل.

وفي ظل هذه الاوضاع السياسية والاجتماعية المتدهورة ، شاء القدر ان تكون هي البيئة التي سيولد ويترعرع فيها الفتى عبدالقادر الجيلاني.فمن هو علمنا نسبا ومولدا ؟ وكيف نشأ وترعرع؟ وما هي أهم محطات حياته: الشخصية والعلمية خاصة؟

[29]- د.ماجد عرسان :المرجع السابق ،ص ص19-31.

المبحث الثاني: ولادته ونسبه

المطلب الأول: مولده ونشأته

اتفق المؤرخون القدماء والمحدثون على أن الشيخ عبد القادر الكيلاني رحمه الله تعالى قد توفي في سنة 561 هـ، ولكنهم اختلفوا في تاريخ ولادته، فذهب أكثرهم إلى أنه ولد في سنة 470 هـ أو سنة 471 هـ، وقال بعضهم: إنه ولد في سنة 491 هـ. فالإمام الشيخ حسين بن محمد الديار بكرلي قال في كتابه "تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس": «وفي سنة 561 هـ توفي شيخ الوقت أبو محمد عبد القادر بن صالح الجيلي، الواعظ، المفتي الحنبلي المذهب، الزاهد، أحد أعلام بغداد وله تسعون سنة»[30]. ومعنى ذلك أنه ولد في سنة 471 هـ.

وان الجوزي يقول في كتابه "المنتظم": «توفي الشيخ عبد القادر الكيلاني رضي الله عنه ليلة السبت في 8 ربيع الآخر سنة 561 هـ، وبلغ تسعين عاما. أي أنه ولد في سنة 471 هـ» [31]، وذكر الشيء نفسه ابن الأثير في كتابه " الكامل"[32].

ذكر الذهبي في كتابه "العبر في خبر من غبر":«الشيخ عبد القادر الجيلاني، الزاهد، شيخ العصر، وقدوة العارفين، ولد بجيلان سنة 470 هـ»[33]. وقال الذهبي أيضا في كتابه "سير أعلام النبلاء": «قال ابن النجار "محب الدين بن النجار" في تاريخه: دخل الشيخ عبد القادر بغداد في 488 هـ، وعاش تسعين سنة (وفي مرآة الزمان 92 سنة) وانتقل إلى الله في عاشر ربيع الآخر سنة 561هـ»[34].

واورد الشيخ الإمام جمال الدين الملقب بابن الصابوني في كتابه "تكملة إكمال الإكمال في الأنساب والأسماء والألقاب" : «قال محب الدين النجار في تاريخه: عبد القادر بن أبي صالح بن جنكي دوست من أهل جيلان قدم بغداد في سنة488 هـ وله ثماني عشرة سنة، مولده في سنة 471 هـ وتوفي ببغداد في ليلة السبت عاشر ربيع الأول سنة 561هـ»[35].

أما محمد بن شاكر الكتبي صاحب كتاب "فوات الوفيات" فيذكر: «عبد القادربن أبي صالح بن جنكي دوست، قال الشيخ شمس الدين: ولد بجيلان سنة 491 هـ وتوفي ببغداد سنة 561 هـ»[36].

---

[30] – حسين بكرلي :تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس،د ت،د ط،دار صادر بيروت،ج2،ص366.

[31]– ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والامم،تح عمار شلبي،دار الكتب العلمية،بيروت،ط2، 1415هـ-1995م،ج10،ص219.

[32]– ابن الجوزي: المرجع السابق،ج9،ص93.

[33]– الذهبي :العبر في خبر من غبر،ويليه ذيول العبر،تح محمد زغلول،دار الكتب العلمية،بيروت،ط1405،1هـ-1995م ،ج4،ص174.

[34]– الذهبي :سير أعلام النبلاء،المرجع السابق،ج20،ص443.

[35] – ابن الصابوني: تكملة إكمال الإكمال في الأنساب والأسماء والألقاب،تح مصطفى جواد،المجمع العلمي العراقي،ط1، 1377هـ-1957 ، ص

[36] – الكتبي :فوات الوفيات،تح احسان عباس،دار صادر ،بيروت، دط، 1973،ج2،373 .

وفي كتاب الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب تحت رقم 134 : «عبد القادر بن أبي صالح شيخ العصر وقدوة العارفين ولد سنة 490 هـ أو سنة 491 هـ»[37].

أما المحدثون فأجمعوا على أنه ولد سنة 470 هـ (1077م) وتوفي سنة 561 هـ (1165م)، وهو ما اختاره محقق كتاب الفتح الرباني للشيخ عبد القادرأيضا، وأبو الحسن علي الحسني الندوي يقول في كتابه "رجال الفكر والدعوة في الإسلام" : «ولد الشيخ عبد القادر سنة 470 في جيلان أو كيلان ودخل بغداد سنة 488 هـ وتوفي رحمه الله سنة 561 هـ».

والأستاذ فخري نورس الكيلاني يؤكد في كتابه: "الموجز في تاريخ القطب الغوث والباز الأشهب الشيخ محيي الدين عبد القادر الكيلاني"على ان: «ولد شيخنا السيد عبد القادر في إحدى مدن جيلان "نيف" في سنة 470 هـ أي 1077م».

والدكتور ماجد عرسان الكيلاني يؤكد في كتابه "هكذا ظهر جيل صلاح الدين": «ولد الشيخ عبد القادر سنة470 هـ (سنة 1077م) في جيلان وسافر في سنة 488 هـ (1095م) إلى بغداد وعمره ثماني عشرة سنة، وبقي فيها حتى وفاته في سنة 561».

والشيخ يونس الشيخ إبراهيم السامرائي يذكر في كتابه "الشيخ عبد القادر الكيلاني قدس الله سره" : «ولد الشيخ عبد القادر الكيلاني سنة 470 هـ (1077م) وتوفي ببغداد ليلة السبت ثامن شهر ربيع الآخر سنة 561 هـ (سنة 1165م)».

أما موسوعة "اللاروس" الفرنسية فتقول: إنه ولد سنة 1077 م وتوفي سنة 1166 م.

اما الأستاذ محمد العيني، أستاذ جامعة استنبول سابقا، في كتابه "الشيخ عبد القادر الكيلاني" : جاء في كتاب " نتيجة التحقيق " أن « الشيخ عبد القادر ولد في مدينة صغيرة من مدن جيلان اسمها نيف Niff في سنة 470 هـ (1077 م) وبعضهم قال في سنة 471 هـ، وكان الشيخ عبد القادر يقول لمريديه إنه دخل بغداد وله من العمر ثماني عشرة سنة، في السنة التي توفي فيها أبو الفضل عبد الواحد التميمي، وهذا توفي سنة 488 هـ كما جاء في تاريخ ابن كثير، في عهد الخليفة العباسي المستظهر بالله.في الشهر والعام الذي خرج فيه ابو حامد الغزالي من بغداد»[(38)].

على كل حال، لعل أصح الأقوال في مولد الشيخ عبد القادر ووفاته هو ما ذكره ابن الجوزي في كتابه "المنتظم" الذي قال إنه توفي في سنة 561 هـ وبلغ تسعين سنة: وذلك لأن ابن الجوزي كان من معاصري الشيخ عبد القادر رحمهما الله تعالى.

كانت هذه اهم حيثيات مولده في جيلان فارس ، فماحقيقة نسبه؟ الى من ينتسب مفكرنا من جهة والده ومن جهة والدته؟

[(37)]–ابن رجب:الذيل على طبقات الحنابلة،تح محمد الفقي، مطبعة السنة المحمدية،مصر،ط1372،1هـ–1925م،كج9،ص139

[(38)]– د. محمد العيني :"عبد القادر الكيلاني،تر محمد زيان،دار الجمل ،طرابلس،ليبيا،ط 1 ، 1998م ،ص 32

المطلب الثاني: نسبه

هناك اختلاف يسير بين المترجمين حول نسب الشيخ عبد القادر ، فبعضهم ينهي نسبه إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما، وبعضهم الآخر، وهم الأقل، ينهي نسبه إلى الحسين بن علي رضي الله عنهما، وعلى كل حال فإن نسبه ينتهي إلى سيدنا علي بن أبي طالب وسيدتنا فاطمة الزهراء رضي الله عنهما وكرم الله وجهيهما.

كما أن هناك اختلافا يسيرا بين المترجمين في تسلسل آباء الشيخ عبد القادر.

فزين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين أحمد البغدادي ثم الدمشقي المشهور بابن رجب (736-795هـ) يقول في الذيل على طبقات الحنابلة: هو عبد القادر بن أبي صالح بن عبد الله بن جنكي دوست[39] بن أبي عبد الله بن عبد الله وينتهي نسبه إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما. بينما محب الدين النجار يقول في تاريخه: هو عبد القادر بن أبي صالح بن جنكي دوست.. وينتهي إلى الحسن رضي الله عنه.

نجد الأستاذ مصطفى جواد في حاشيته على كتاب "تكملة إكمال الإكمال في الأنساب والأسماء والألقاب" يذكر: «وقال الصفدي في " الوافي بالوفيات "هو عبد القادر بن عبد الله أبي صالح بن جنكي دوست وينتهي نسبه إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما، وقال كمال الدين عبد الرزاق بن الفوطي في " تلخيص معجم الألقاب" محيي الدين أبو محمد عبد القادر بن أبي صالح بن جنكي دوست، له نسب في بني الحسن بن علي رضي الله عنهما »[40].

وفي كتاب "التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول" لصديق حسن خان القنوجي: «عبد القادر بن أبي صالح موسى بن جنكي دوست ينتهي نسبه إلى الحسين بن علي رضي الله عنهما»[41].

اما كتاب " فوات الوفيات" لمحمد بن شاكر الكتبي (توفي سنة 764 هـ): «عبد القادر بن أبي صالح بن جنكي دوست، ينتهي نسبه إلى الحسين بن علي رضي الله عنهما[42].

ونجد كتاب "الأعلام" للأستاذ خير الدين الزركلي يؤكد على انه هو: «عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن جنكي دوست الحسني»[43]

وفي كتاب "عبد القادر الكيلاني" للأستاذ محمد العيني يقول: «هو أبو محمد عبد القادر بن أبي صالح جنكي دوست موسى بن أبي عبد الله بن يحي الزاهد بن محمد بن داود بن موسى بن عبد الله بن موسى الجون بن

---

[39]- جنكي دوست: كلمة فارسية معناها محب الحرب أي المجاهد أو تعني العظيم القدر ابن رجب: المرجع السابق،ص 139،انظر د.فخري الكيلاني :الموجز في تاريخ القطب الغوث عبد القادر الجيلاني،دار الامل ،بيروت،ط1، 1989،ج1،ص52.

[40]-ابن الصابوني :المرجع السابق،ص 339.

[41]- صديق القنوجي :التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول، وزارة الاوقاف ،قطر،ط1، 1428هـ-2007م،ص 166.

[42]-الكتبي:المرجع السابق،ص 374.

[43]- خير الدين الزركلي :الأعلام ،د تح،د ،دار العلم للملايين،ط15، 2002م،ج4،ص47 .

عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم الله وجهه. وأمه فاطمة أم الخير بنت عبد الله الصومعي. ويذكر الشيخ عبد القادر في كتابه فتوح الغيب أن نسب أمه ينتهي إلى الحسين بن علي رضي الله عنهما»[44].

وقد أثبت العلامة علي القاري في كتابه "نزهة الخاطر" نسب الشيخ عبد القادر إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما. ويذكر الشيخ يونس الشيخ إبراهيم السامرائي في كتابه "الشيخ عبد القادر الكيلاني" نسب الشيخ من جهة أمه يتمثل في ان: «أمه هي أم الخير أمة الجبار فاطمة بنت السيد عبد الله الصومعي الزاهد ابن الإمام أبي جمال الدين السيد محمد ابن الإمام السيد محمود ابن الإمام أبي العطاء عبد الله ابن الإمام كمال الدين عيسى ابن الإمام السيد أبي علاء الدين محمد الجواد بن علي الرضا ابن الإمام موسى الكاظم ابن الإمام جعفر الصادق بن محمد الباقر ابن الإمام علي زين العابدين ابن الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين[45].

وكان الشيخ عبد القادر لا يحب أن يذكر نسبه أو أن يتباهى به وكان ينهى أولاده عن ذلك أيضا، تواضعا منه رحمه الله تعالى، وتحقيقا لحديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه » رواه مسلم[46]. وفي ذلك يقول حفيده قاضي القضاة عماد الدين نصر بن عبد الرزاق بن عبد القادر:

نحن من أولاد خير الحسنين ... من به أصـــلح بين الفئتين
يشبه المختـــار في أعلاه إذ ... كان أدناه شبيها بالحسين
سر كتـــــمـان أبينا أصله ... أنه قـــــال بأن الفقر زين[47]

وهو في ذلك يثبت أيضا أن نسبهم يتصل بالحسن وليس بالحسين رضي الله عنهم أجمعين.

ويرى الشيخ يونس السامرائي أن للشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى صلة نسب بكل من أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما فيقول: إن جدة الشيخ عبد القادر من جهة أبيه (أي والدة أبيه) واسمها أم سلمة هي من ذرية عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما. ووالدة عبد الله المحض أحد أجداد الشيخ عبد القادر واسمها حفصة هي بنت عبد الله بن عمر الخطاب رضي الله عنهما[48].

اذن فعلمنا شريف النسب ،حسني من جهة أبيه،حسيني من جهة أمه،فهو حيدري فاطمي محمدي اللهم صل على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم تسليما.

---

[44]- د. محمد العيني :عبد القادر الكيلاني،المرجع السابق ،ص 32.

[45]- يونس السمرائي: الشيخ عبد القادر الكيلاني،دار لكتب العلمية، بيروت،ط1، 1978،ص178.

[46]- ابن الاثير:جامع الأصول في احاديث الرسول،تح عبد القادر الارناؤوطي و التتمة بشير عون،مطبعة الملاح-دار البيان ،مصر،ط1، 1389هـ-1969م، ج6 ص562.

[47]- ابن الصابوني: المرجع السابق ، ص 359.

[48]- يونس السمرائي: المرجع السابق ،ص58.

فكيف نشأ وترعرع الفتى عبد القادر؟هل شدته نوازع الطفولة والصبى الطبيعية؟ ام كانت له طموحات وأحلام تعكس همته القوية؟

المطلب الثالث: طفولته

ولد الشيخ عبد القادر في مدينة صغيرة اسمها نيف Niff[49] في إقليم جيلان الذي يقع في القسم الشمالي من إيران، جنوبي بحر قزوين، وهو إقليم خصب التربة، كثير الأنهار، غزير الأمطار.

ويبدو أن الشيخ عبد القادر كان آخر أولاد أبويه، لأنه عاش يتيما، فقد توفي أبوه بعد ولادته بقليل لذلك عاش في كنف جده لأمه السيد عبد الله الصومعي، فكان ينسب إليه عندما كان في جيلان فيقال ابن الصومعي. وكان آخر أولاد أمه لأنها حملت به قبيل سن يأسها بقليل، حتى قال بعض أصحاب التراجم إنها حملت به وهي في الستين من عمرها، ونسبوا ذلك إلى أنها قرشية- أي أصلها من قريش — وهذا الحمل المتأخر من خواص نساء قريش[50]؛ وليس على ذلك من دليل، ولم يكن الناس في ذلك الوقت يهتمون كثيرا بتسجيل أعمار العامة من الرجال بله النساء. وقد رأينا كيف اختلفوا في تاريخ ولادة الشيخ عبد القادر نفسه بين سنة 470 هـ وسنة 490 هـ، وعلى كل حال فإن ذلك يدل على أنه كان آخر أولاد أمه. ويبدو أنه كان له أخ واحد، لأنه عندما سافر إلى بغداد قسمت أمه ما معها من مال بينه وبين أخيه، ويقول ابن العماد الحنبلي في "شذرات الذهب": إن أخاه كان اسمه عبد الله وكان أصغر منه، وكان رجلا صالحا، عاش في جيلان وتوفي فيها وهو شاب[51]. ولكن كيف حملت أمه مرة أخرى بأخيه إذا كانت حملت به وهي في الستين من عمرها؟ ! لذلك أرجح أن أخاه كان أكبر سنا منه، والله تعالى أعلم.

كانت أمه صالحة تقية سليلة أئمة أطهار أبرار، وكان جده عبد الله الصومعي زاهدا عابدا حتى لقبوه بالصومعي. وكان أبوه صالحا، فنالته بركة صلاح أبيه، وتربى في كنف أمه النقية وجده الزاهد العابد، فرباه على التقوى والصلاح ومكارم الأخلاق، فنشأ عابدا صالحا تقيا، زاهدا في الدنيا، مقبلا على الأخرى، طموحا إلى معرفة أصول الشريعة وفروعها، ومداخلها ومخارجها. ولم يكن في بلاد جيلان ما يرضي طموحه ويروي ظمأه من علوم الشريعة لذلك أخذت تحدثه نفسه بالسفر إلى بغداد حاضرة الدنيا في ذلك الزمان. وكان أهل جيلان

---

[49]- يقول ياقوت الحموي في "معجم البلدان" إنه ولد في مدينة بشتير. - ياقوت الحموي: معجم البلدان،تح فريد عبد العزيز الجندي ، دارالكتب العلمية،بيروت، ط1، 1993م-1397هـ،ص258.

[50]- الذهبي: قلائد الجواهر ،المرجع السابق،ج20ص 3.

[51]- ابن عماد:شذرات الذهب في اخبار من ذهب، تح عبد القادر الارناؤوطي ومحمود الارناؤوطي، دار ابن كثير،دمشق، ط1، 1406هـ-1986م،ج4 ،ص199.

يدينون بالمذهب الحنبلي[52] في ذلك العهد، بعد النصر العظيم الذي نالته الملة الاسلامية على يد حاميها ورافع لوائها أحمد بن حنبل رحمه الله، مما جعل ذكره يسير في البلاد ويتغلغل في قلوب العباد. وكانت بغداد مثوى أحمد بن حنبل أيضا حبيب أهل جيلان، وهذا مما زاد في حنين الشيخ إلى بغداد.

وقد ذكر بعض المؤلفين بعض الأحوال التي عرضت للشيخ في طفولته وشبابه، وعدوها من الكرامات، وهي **لا تزيده رفعة ومجدا وفقدانها لا يقدح فيه شيئا، فالكرامة الكبرى هي ماكان فيها فائدة للأمة وتمكين للعقيدة، وهي كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه: ﴿فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من أن تكون لك حمر النعم﴾[53]، الاستقامة هي اعظم كرامة، وغيرها لا يسمن ولا يغني المريد من جوع ولا تقربه الى الله زلفى بل هي من عوارض الطريق لما فيها من حظوظ النفس،لذا لايلتفت اليها اصحاب الهمم السماوية من اهل الله .**

أما أن تكون ولادته في شهر رمضان ثم لا يأخذ ثدي أمه في النهار فهي لاتجدي شيئا. ولكننا نأخذ منها أن ولادته، رحمه الله تعالى، كانت في شهر رمضان من سنة 470 هـ.

وأما أن يكلمه الثور في الحقل ويقول له: أنت لم تخلق لتكون فلاحا، **فإنها لاتجدي شيئا أيضا**[54]، ولكننا نأخذ منها أنه كانت لهم قطعة أرض في جيلان، وكان يعمل فيها بالزراعة، وكان عندهم دواب من البقر أو غيرها، وكان يتعهدها ويأخذها إلى الحقل يرعاها ويحرث الأرض بها. وكانت نفسه تحدثه بأن هذا العمل غير جدير به، ولا يرضي طموحه ونفسه التواقة إلى دراسة الشريعة والتبحر فيها. وأخيرا أفضى بمكنون قلبه إلى أمه فارتاعت وحزنت وبكت ما شاء الله أن تبكي، لأنها شعرت بأنه إذا ذهب إلى بغداد، وهي في مثل هذا السن المتقدمة فلن تراه بعد ذلك أبدا. وأخيرا انصاعت لإرادة ابنها، ضحت بآمالها في سبيل آماله، وداست على أحلامها في سبيل أحلامه؛ وهذا شأن الأم دائما وأبدا، تضحية وفداء في سبيل الأبناء. ولكنهم كانوا رقيقي الحال، وما يأتيهم من الزراعة يجعلهم يعيشون عيش الكفاف، وبغداد كان حاضرة الدنيا في ذلك الزمان، وهذا يعني الغلاء وارتفاع الأسعار، والشيخ الصغير معتاد في بلده جيلان على الغذاء الوفير الرخيص فمن أين له مثله في بغداد. وهي كما قال احدهم:

بغداد دار مشرقة تضـــيق فيها النفقة
قارون لو حل بها جازت عليه الصدقة

لكن الغذاء واللباس وكل حطام الدنيا لا يهم الشيخ الصغير في شيء، بل كل ما يهمه هو أن يجلس إلى شيوخ بغداد وفقهائها ويغرف من علومها وفقهها ويرضي طموحه الذي يؤرقه ويحقق أحلامه وآماله التي تشرئب لها همته.

---

[52]- د. محمد العيني : المرجع نفسه، ص 36.

[53]- رواه البخاري، كتاب المغازي رقم 4210.

[54]-.الذهبي:قلائد الجواهر، في ذكر الغوث الرفاعي واتباعه الاكابر،تح محمد علي،دار الكتب العلمية،بيروت،دط،د ت.ص3.

المبحث الثالث: رحلاته وطلبه للعلم.

المطلب الأول: رحلته إلى بغداد:

أ-انتقاله الى بغداد:

وأخذت الأم تجهز ابنها الشاب للسفر وهي تكفكف دمعا لا يجف وتدافع لوعة لا تنقضي، فهي تعلم علم اليقين أنه فراق الأبد، وهم لا يزالون أحياء، ولكن هذه إرادة ابنها فليكن ما يريد، ومن فوقها إرادة الله سبحانه وتعالى ولا راد لمشيئته، ولعل في ذلك حكمة ستظهر بعد حين.

وكان مع أمه ثمانون دينارا خلفها أبوه، هي كل ما تملك من حطام الدنيا فأرادت أن تعطيها جميعها للشاب ليستعين بها في سفره وغربته في بغداد، ولكنه أبى أن يأخذ إلا نصفها أي أربعين دينارا وترك النصف الأخر لأخيه، فوضعتها أمه في كيس صغير وثبتت الكيس في فتحة كمه من ناحية إبطه ليكون بعيدا عن أعين اللصوص والنشالين. وانتظروا موعد خروج القافلة التي تتجه من جيلان إلى بغداد فانضم إليها الشيخ الشاب وهو لا يحمل معه شيئا من المتاع إلا نفسا طموحة تواقة، وإيمانا صادقا متغلغلا في أعماق قلبه، وأخلاقا كريمة نشأ وتربى عليها وأربعين دينارا تحت إبطه. وأوصته أمه حينما ودعته: يا بني إياك أن تكذب فإن المؤمن لا يكذب، يا بني كن صادقا أبدا، يا بني كن صادقا أبدا، كما ربيتك، فهذا هو أملي فيك.

وسارت القافلة تغذ السير نحو مدينة همدان في وسط إيران حتى وصلتها، فاستراحوا فيها بضعة أيام ثم أخذوا أهبتهم للتوجه إلى بغداد، وذلك في سنة 488 هـ .

كانت القافلة قد وصلت همدان بسلام واستراحت فيها بضعة أيام ثم غادرتها إلى بغداد، وهنا كان أول امتحان للفتى، ولعقيدته، و لإيمانه ولأخلاقه وصدقه. ولقد نجح في الامتحان أيما نجاح وإليكم التفصيل:

بعد أن غادرت القافلة همدان متجهة إلى بغداد، وبعد أن قطعت قسما من الطريق فوجئت بجماعة من قطاع الطرق واللصوص على خيولهم السريعة يحيطون بها من جميع الجهات ويدعونها للاستسلام[55]. فأسقط في يد أصحاب القافلة وأناخوا رحالهم صاغرين، وبدأ اللصوص يفتشون أفراد القافلة فردا فردا ورحالها رحلا رحلا ويأخذون منها ما خف وزنه وغلا ثمنه، وجلس الفتى ينتظر دوره في التفتيش، ومر عليه أحد اللصوص وهو يسأل كل فرد يمر به عما معه، وكانوا كلهم ينكرون أنهم يملكون شيئا فيفتشهم ويستخرج أموالهم ويستولي عليها، إلى أن وصل إلى الشاب فرآه فتى غريرا لم تكتمل لحيته بعد، يرتدي ثيابا بسيطة لا تدل على ثروة ولا جاه، وليس عليه هيئة التجار، فأراد أن يمر به مر الكرام ويتجاوزه إلى غيره، ولكنه ألقى عليه السؤال الذي كان يلقيه على الآخرين، وهو يسير إلى غيره، قال: هل معك شيء، وتابع خطاه يريد أن يسير لأنه كان متيقنا من أن الجواب سيكون بالنفي، ولكن الجواب الذي أتاه جعله يتسمر في مكانه ويفتح فمه وآذانه دهشة، فقد أجابه الفتى: نعم معي

[55]- كان ذلك في أرض (ربيك)، قرب همدان، وكان عدد اللصوص ستين فارسا ،انظر الذهبي :قلائد الجواهر،المرجع السابق مج20ص9.

أربعون دينارا، ولم يصدق اللص أذنيه، فأعاد السؤال فأتاه الجواب نفسه: نعم معي أربعون دينارا، وظن اللص أن الفتى يستهزئ به أو يمزح معه وبعد أخذ ورد تأكد اللص من أن الفتى يقصد ما يقول، فتعجب من ذلك أشد العجب، وقال له: تعال معي إلى رئيس جماعتنا. وهناك أعاد الرئيس عليه السؤال نفسه فأتاه الجواب نفسه: إن معي أربعين دينارا، فقال له: أي هي؟ فأخرجها له من تحت إبطه، فتعجب الرجل، وعدها فوجدها أربعين دينارا، فقال للفتى: ما الذي دفعك إلى الاعتراف بها وهي مخبأة في هذا المكان الأمين، ونحن ما كنا نظن أنك تملك شيئا؟ قال: لأن أمي أوصتني عندما سافرت أن أصدق دائما وأن لا أكذب أبدا لأن المؤمن لا يكذب، وقد سألني هذا الرجل: هل معك شيء فلم أكذب عليه. فتأثر رئيس الجماعة تأثرا كبيرا بما سمع واغرورقت عيناه بالدموع، وهو الذي لم يعرف البكاء في حياته، والظاهر أنه كان لديه بقية من إيمان، فالتفت إلى الفتى وقال له: أنت توصيك أمك فتحفظ وصيتها ولو كان في ذلك ذهاب كل ما تملك ونحن مضى علينا كذا وكذا سنة نخون عهدنا مع ربنا و نقطع الطريق وننهب الأموال ونروع الآمنين، ونسمي أنفسنا مسلمين، اشهد يا بني أنني قد تبت من الآن عن كل ذلك، ودعا أصحابه وقص عليهم قصة الغلام فتأثروا بها جميعا ووافقوا رئيسهم على التوبة مما يأتون من أعمال تخالف شريعة الله تعالى. وردوا جميع المتاع والمال الذي نهبوه من القافلة إليها، وسارت القافلة بعد ذلك آمنة مطمئنة بحمايتهم إلى أن وصلت بغداد، وكان ذلك ببركة الفتى الصغير عبد القادر الجيلاني. **أليست هذه أعظم كرامة له، وأليست أنفع وأجدى من أن لا يأخذ ثدي أمه في نهار رمضان ومن أن يكلمه الثور؟** فهو بذلك قد فتح قلوبا غلفا وأحيا نفوسا ميتة، ورفع البلاء عن أمة الإسلام ومكن للإيمان في قلوب بعض أبنائها، والنبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: ﴿فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من أن تكون لك حمر النعم .وفي لفظ اخر :خير لك مما طلعت عليه الشمس﴾[56].

لقد كان هذا أول امتحان للفتى ، كان امتحانا لقوة إيمانه وتقواه، كان امتحانا لقوة شخصيته وضميره، وكان امتحانا لتغلبه على هواه، وقد نجح في الامتحان نجاحا كبيرا. وبانت ملامح مستقبل الفتى الشيخ، وبان أنه سيكون له شأن وأي شأن، فقد بدأ الغيث قطرا، وسينهمر بعد ذلك، وسيسلم على يديه مئات الكفار والمشركين وسيتوب على يديه آلاف العصاة والخاطئين. وهذه أكبر كرامة يمكن أن ينالها ولي، فهي سنة الأنبياء والمرسلين.

ووصلت القافلة إلى بغداد، ودخل عبد القادر بغداد في سنة 488 هـ، في السنة التي توفي فيها أبو الفضل عبد الواحد التميمي[57]، وهي السنة نفسها التي **ترك فيها أبو حامد الغزالي التدريس في المدرسة النظامية في بغداد** وآثر العزلة والاختفاء وسافر منها إلى الشام والحجاز. وخلفه في المدرسة النظامية أخوه أحمد الغزالي، ثم أبو عبد الله الطبري بأمر من السلطان بركيارق ووزيره فخر الملك بن نظام الملك[58].

---

[56]- رواه البخاري، كتاب المغازي 4210.

[57]- د. فخري الكيلاني :القطب الغوث ،مرجع سابق، صفحة 5.

[58]- د.محمد العيني : المرجع السابق، ص36.

ب-الشيخ عبد القادر في بغداد:

عندما وصل عبد القادر إلى بغداد في سنة 488 هـ، وكان عمره ثماني عشرة سنة، كانت في أوج عظمتها وقوتها واتساعها وغناها، كما كانت في أوج تقدمها العلمي والثقافي، وذلك في زمن الخليفة المستظهر (حكم من سنة 487 إلى سنة 512 هـ) والسلطان السلجوقي بركياق بن ملكشاه، وقد عاصرالشيخ عبد القادر في بغداد خمسة خلفاء هم المستظهر والمسترشد (حكم من سنة 512 إلى 529هـ) والراشد (من سنة 529 إلى سنة530 هـ)، والمقتفي (من سنة530 إلى سنة 555 هـ)والمستنجد (من سنة 555 إلى سنة 566 هـ).

أمضى عبد القادر في بغداد ثلاثا وسبعين سنة، من سنة 488 إلى سنة 561 هـ، عاصر فيها كثيرا من الفتن والاضطرابات العسكرية والسياسية والثقافية والفقهية، فلم يكن للخلفاء العباسيين من الحكم إلا اسمه، أما الحكم الفعلي فهو بيد السلاطين السلاجقة، وكان الخلاف والانقسام قد وقع بينهم بعد وفاة ملكشاه في سنة 485 هـ، فاشتعلت الحروب بين بيركيارق ومحمود ولدي ملكشاه ثم بين بيركيارق وعمه تتش ثم بين سنجر ابن ملكشاه وابن أخيه محمود بن محمد بن ملكشاه ثم بين محمود وأخيه مسعود، ثم وقعت الحرب بين مسعود سلطان الموصل والخليفة العباسي المسترشد بالله فدارت الدائرة على الخليفة المسترشد وكان شجاعا خطيبا فصيحا محببا إلى العامة والخاصة، وهو آخر خليفة رؤي خطيبا ، ولكن جيوشه انكسرت أمام جيوش مسعود في رمضان سنة 529 هـ (1134م)، فأسره مسعود ووضعه في خيمة، في معسكره، فضجت العامة في بغداد لأسر الخليفة حتى أمر سنجر ابن أخيه مسعود أن يطلق سراحه، ولكن أحد الإسماعيلية استغل وجود الخليفة في الخيمة بدون حراسة فدخل عليه وقتله، ثم تجددت الحرب بين مسعود والراشد بالله ثم بينه وبين المقتفي لأمر الله، وهكذا فتن واضطرابات لا تنتهي[59].

هذا عدا ما كان يقع بين مذاهب أهل السنة من فتن وقتل وسلب ونهب لأتفه الأسباب، فكانت تقع الفتن بين الحنابلة والحنفية من الاختلاف على تفسير آية من القرآن الكريم او من أجل شرب النبيذ، وتقع الفتن بين الحنابيلة والشافعية من أجل الجهر بالبسملة في الصلاة الجهرية، واشتدت هذه الفتن بعدما ألف أحد علماء الحنابلة أبو يعلى (توفي سنة458 هـ)، كتاب الصفات، حيث ألصقت بالحنابلة تهمة التجسيم، أي أنهم يجعلون لله سبحانه وتعالى أعضاء وحركات كأعضاء وحركات الإنسان، ونتيجة ذلك ضعف المذهب الحنبلي وأخذ الناس ينفضون عنه وكاد ينقرض، لولا أن تجدد بعد ذلك على يد الشيخ عبد القادر رحمه الله.

ويمكن أن نقسم حياة الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى في بغداد إلى فترتين: الأولى من دخوله بغداد في سنة 488 هـ إلى توليه التدريس في مدرسته في سنة 521 أي فترة الدرس والتحصيل. والثانية من توليه التدريس في مدرسته سنة 521 إلى حين وفاته في سنة 561 هـ وهي فترة التدريس والتعليم والوعظ والإرشاد.

---

[59] -ابن رجب :المرجع السابق،ص139.

المطلب الثاني: طلبه للعلم.

أ- مرحلة التمدرس والتحصيل العلمي:

سأل رجل الإمام الشافعي فقال: يا أبا عبد الله، أيما أفضل للرجل، أن يمكن له، أو يبتلى؟ فقال الشافعي: لا يمكن للرجل حتى يبتلى، فإن الله سبحانه ابتلى نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمدا صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فلما صبروا مكنهم. قال علي بن الجهم:

وارحمتا للغريب بالبلد النا زح ماذا بنـــــفسه صنعا

فارق أحبابه فما انتفعوا بالعيش من بعده ولا انتفعا

وهكذا فقد **ابتلي** عبد القادر في أول حياته في بغداد، وامتحن امتحانا قاسيا، وتعرض للفتن والفقر والجوع والحرمان حتى كان يقتات أحيانا من حواشي الأنهار ويمشي على الشوك حافيا، وينام في البراري والخرب، حتى قالوا عنه مجنون، وكانت تحدثه نفسه أحيانا أن يترك بغداد إلى غير رجعة، ثم لا يلبث أن يعود عن عزمه، ويقول: لابد من إكمال الطريق وبلوغ الهدف الذي جئت من أجله.

عندما دخل عبد القادر بغداد، كانت من بين أكبر عواصم العالم ، يسكنها نحو مليونين من البشر، وكانت بغداد كلها، في تلك السنة، سنة 488 هـ تتكلم عن اختفاء أبي حامد الغزالي من المدرسة النظامية، ومن بغداد كلها، فقد كان الغزالي هو الأستاذ الرئيس في المدرسة النظامية ببغداد، كلفه بالتدريس فيها نظام الملك قبل اغتياله في سنة 485 هـ، ولكنه قبيل اختفائه في سنة 488هـ دخل في أزمة نفسية عنيفة سببها له تفكيره في في أمور الحياة والكون. فقد أعياه الوصول إلى الحقيقة. فهل يصل إليها عند طريق الحواس. وهي قد تخطئ في كشف حقائق الكون أحيانا فتضل ويضل معه صاحبه؟ هل يصل إليها عن طريق العقل الذي يبين خطأ الحواس من صوابها؟ ولكنه قد يخطئ أحيانا أيضا فيضل ويضل معه صاحبه، فما هو الطريق إذن؟ ها هو طريق المتكلمين، أم طريق الفلاسفة، وقد فندها جميعها وردها، أم طريق التصوف وقد قال عنه: «فظهر لي أن أخص خواصهم – أي الصوفية- ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم بل بالذوق والحال » «فعلمت يقينا أنهم أرباب الأحوال لا أصحاب الأقوال وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته، ولم يبق إلا ما لا سبيل إليه بالسماع والتعلم بل بالذوق والسلوك، ويكون ذلك بقطع علاقة القلب عن الدنيا وبالتجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى، وإن ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه والمال والهرب من الشواغل والعلائق» «وعلمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، فجميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به»[60]. ودخل من جراء ذلك في دوامة من التفكير أخذت عليه ليله ونهاره فامتنع عن الطعام والشراب إلا ما يقيم الأود، وامتنع عن الكلام فلم يعد يستطيع التدريس، فهرب من المدرسة ومن أهله وذويه ويمم شطر الشام، وانزوى في الجامع الأموي

[60]- ابي حامد الغزالي:المنقذ من الضلال ،تح جميل صليبا وكامل عياد، دار الاندلس،بيروت،ط7، 1967م، ص ص 123،126، 131.

بدمشق حيث لا يعرفه أحد. وهداه تفكيره أخيرا إلى أن «أدلة القرآن مثل الغذاء ينتفع به كل انسان، وأدلة المتكلمين مثل الدواء يتنفع به آحاد الناس ويستضر به الأكثرون». ومن دمشق ذهب إلى الحجاز ثم عاد إلى بغداد في سنة 498 هـ بعد أن غاب عنها عشر سنوات، ولكنه أبى أن يعود إلى التدريس في المدرسة النظامية مرة أخرى، فانسحب غلى نيسابور ثم إلى طوس[61] حيث وافته المنية في سنة 505 هـ.

وسنرى أن عبد القادر مر بهذه الأزمة الوجودية النفسية أيضا ولكن الغزالي مر بها وهو في أوج نشاطه الفكري، وكان مدرسا في المدرسة النظامية، أكبر مدارس بغداد في ذلك الوقت، بينما الشيخ عبد القادر مر بها وهو في مرحلة الدراسة والتحصيل، والغزالي فر إلى الشام والحجاز، أما الشيخ عبد القادر ففر إلى البراري والخرب.

وقد استمرت فترة الدراسة والتحصيل عند الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى من سنة 488 إلى سنة 521 هـ أي ثلاثا وثلاثين سنة لا نعرف فيها عنه الكثير، وذلك لأنه أمضى قسما كبيرا منها بعيدا عن الناس وعن الدراسة والتحصيل في خرب المدائن، وإيوان كسرى وغيرها حتى كان يدعى بعبد القادر المجنون.

دخل عبد القادر رحمه الله تعالى بغداد، ذلك الخضم الهائل من البشر، وهو في سن الثامنة عشرة، فتى غريرا، لم يعتد على هذا النوع من الحياة، ولا يعرف أحدا في بغداد، ولا يملك من حطام الدنيا سوى أربعين دينارا، وماذا تفعل أربعون دينارا في بغداد. ولكنه كان يملك عقيدة متمكنة من قلبه وروحه، وأخلاقا مستقيمة، وهدفا وضعه لنفسه حينما غادر جيلان، وهو أن **يصبح عالما عاملا** مخلصا، ويملك عزما ثابتا على أن يبلغ هذا الهدف. ولولا ذلك كله لضاع في هذا الخضم الذي رمى نفسه فيه، كما نرى اليوم من ضياع كثير من الذين يذهبون إلى ديار الغرب للدراسة والتحصيل.

وفي هذه الفترة التي وجد فيها عبد القادر في بغداد كان كثير من علماء المسلمين قد ظهروا وكثير من مؤلفاتهم قد انتشرت، فبالإضافة إلى الغزالي وكتبه، كان قد ظهر الراغب الأصفهاني (توفي سنة 502 هـ 1108م) وكتابه المفردات، وأبو القاسم عبد الكريم القشيري، ونجم الدين أبو حفص النسفي صاحب التيسير، والواحدي (توفي سنة 537 هـ) صاحب البسيط والوسيط والوجيز، والزمخشري (توفي سنة 537هـ) صاحب الكشاف، وكان قد نشر كثير من كتب الحديث وتصانيفه، وصحيحه ومسنده. وكذلك كتب الفقه على اختلاف مذاهبه. وظهر أيضا الماوردي (توفي سنة 450 هـ 1058م) صاحب الأحكام السلطانية، وأبو الحسن الأشعري والباقلاني (توفي سنة 403 هـ)، والشهرستاني من علماء علم الكلام، وظهر من الفلاسفة، الشيخ الرئيس ابن سينا (توفي سنة 428 هـ) ومن الأدباء: الحريري (توفي سنة 516 هـ) صاحب المقامات، والطغرائي (توفي سنة 515 هـ) صاحب لامية العجم. كل هذه المؤلفات وغيرها كانت مبذولة في بغداد وتتداولها أيدي الناس[62].

ومنذ أن وصل عبد القادر إلى بغداد بدأ يسأل عن مدارس الفقهاء والمحدثين وعن حلقاتهم في المساجد وأخذ يرتادها وينهل منها.

---

(61) – هي مدينة مشهد الآن في إيران.

(62)– محمد العيني :مرجع سابق ، ص39.

ب–شيوخه وأساتذته:

لقد تلقى الفتى عبد القادر علوم الشريعة وعلوم التزكية على يد جيش من العلماء الأعلام نورد اهمهم :

1– أبو سعيد : المبارك بن علي المخرمي شيخ الحنابلة تفقه بالقاضي أبي يعلي وبنى مدرسة باب الأزج درّس بها بعده تلميذه الشيخ عبد القادر الجيلاني بعد أن طوَّرها وأدخل عليها بعض التوسعة والتجديد، وكان نزيهاً عفيفاً، وقد فتحت عليه الدنيا، فبنى داراً وحماماً وبستاناً، مات سنة 513هـ.

2– أبو الوفاء علي بن عقيل بن عبد الله البغدادي : الإمام العلامة البحر شيخ الحنابلة الحنبلي المتكلم صاحب التصانيف ولد سنة 431هـ وكان يتوقد ذكاءاً وكان بحر معارف وكنز فضائل لم يكن له في زمانه نظير [63] . وقد نقل عنه الذهبي قوله : عصمني الله في شبابي بأنواع من العصمة وقصر محبتي على العلم وما خلطت لعاباً قط ولا عاشرت إلاَّ أمثالي من طلبة العلم وأنا الآن في عشر الثمانين أجد من الحرص على العلم أشد مما كنت أجده وأنا ابن العشرين وبلغت لاثنتي عشرة سنة وأنا اليوم لا أرى نقصاً في الخاطر والفكر والحفظ وحدَّة النظر بالعين لرؤية الأهلة الخفية إلاَّ أن القوة ضعيفة [64] . قال ابن الجوزي : كان ابن عقيل ديناً حافظاً للحدود توفي له ابنان فظهر منه من الصبر ما يتعجب منه وكان كريماً ينفق ما يجد وما خلفَّ سوى كتبه وثياب بدنه توفي سنة 513هـ [65] ، وينقل الذهبي عن أبي المظفر سبط ابن الجوزي قول ابن عقيل : حججت فألتقطت عقد لؤلؤ في خيط أحمر فإذا شيخ أعمى ينشده ويبذل لملتقطه مائة دينار فرددته عليه فقال : خذ الدنانير فامتنعت وخرجت إلى الشام وزرت القدس وقصدت بغداد فأويت بحلب إلى مسجد وأنا بردان جائع فقدموني فصليت بهم فأطعموني وكان أول رمضان فقالوا : إمامنا توفي فصل بنا هذا الشهر ففعلت فقالوا : لإمامنا بنت فتزوجت بها وأقمت معها سنة وأولدتها ولداً ذكراً فمرضت في نفاسها فتأملتها يوماً فإذا في عنقها العقد بعينه بخيطه الأحمر فقلت لها : لهذا قصة، وحكيت لها، فبكت وقالت : أنت هو والله لقد كان أبي يبكي : ويقول : اللهم أرزق ابنتي مثل الذي رد العقد عليَّ وقد استجاب الله منه ثم ماتت فأخذت العقد والميراث وعدت إلى بغداد [66].

3– حماد بن مسلم الدباس : كان الشيخ عبدالقادر من تلامذته [67] وقد أثنى ابن تيمية على الجيلاني وشيخه حماد حيث قال : فأمر الشيخ عبد القادر وشيخه حماد الدباس وغيرهما من المشايخ أهل الاستقامة رضي الله

---

[63]– الذهبي:سير أعلام النبلاء ،المرجع السابق مج19، ص428.

[64]– محمد العيني :الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص 38.

[65]– الذهبي:المرجع السابق ،مج19،ص446.

[66]– الذهبي : المرجع السابق ،مج19،ص447.

[67] – المرجع نفسه، مج19،ص449 .

عنهم : بأنه لا يريد السالك مراداً قط وأنه لا يريد مع إرادة الله عز وجل سواها بل يجري فعله فيه فيكون هو مراد الحق [68].

4- أبو محمد جعفر بن أحمد البغداي السراج : الشيخ البارع المحدث المسند بقية المشايخ كتب بخطه الكثير وصنَّف الكتب كان صدوقاً ألفَّ في فنون شتَّى وكان ممن يفتخر برؤيته ورواياته لديانته ودرايته ثقة مأمون عالم صالح ولد سنة 417هـ وتوفي سنة 500هـ [69].

5- أبو عبد الله يحي بن الإمام أبو علي الحسن بن أحمد بن البناء البغدادي الحنبلي : كان الحافظ عبد الله بن عيسى الأندلسي يثني عليه ويمدحه ويطريه ويصفه بالعلم والفضل وحسن الأخلاق وترك الفضول وعمارة المسجد وملازمته ولد سنة 453هـ وتوفي سنة 531هـ [70]. هؤلاء من أشهر شيوخه الذين أخذ عنهم وكان لهم الأثر الكبير في حياته [71].

6- أما علماء الحديث: سمع الحديث من أبي غالب محمد بن الحسن الباقلاني، وأبي بكر أحمد بن المظفر، وأبي القاسم ع لي بن بيان الرزاز، وأبي محمد جعفر بن أحمد السراج[72]، وأبي سعد محمد بن خشيش، وأبي طالب بن يوسف. وتفقه على أبي الوفا علي بن عقيل[73]، وأبي الخطاب محفوظ بن أحمد الكلوذاني الحنبلي، والقاضي أبي سعد المبارك بن علي المخرمي (توفي سنة 528 هـ)[74] وأبي الحسن محمد بن القاضي أبي يعلى الفراء الحنبلي، وقرأ الأدب وعلم البيان والبلاغة على أبي زكريا يحي التبريزي (توفي سنة 502هـ) وأخذ علم التصوف عن أبي محمد جعفر بن أحمد السراج (توفي سنة 509 هـ) وعن القاضي أبي سعد (أو أبي سعيد) المخرمي الذي أخذ الطريقة عنه وتفقه على يديه وخلفه على مدرسته[75]. وقرأ القرآن وعلومه وقراءاته وتفسيره على أبي الوفا علي بن عقيل الحنبلي وأبي الخطاب محفوظ الكلوذاني. ومن شيوخه أيضا أبو الغنائم محمد بن محمد بن علي الفرسي وعبد الرحمن بن أحمد بن يوسف وأبو البركات هبة الله مبارك وغيرهم... واستمر هذا الدرس والتحصيل حتى برع في الأصول والفروع وأنواع الخلاف وعلوم القرآن والبلاغة والأدب، وانصب أكثر اهتمامه على دراسة المذهب الحنبلي ثم درس معه المذهب الشافعي أيضا. ودام هذا الدرس والتحصيل ثلاثا وثلاثين سنة ولكنه لم يكن متصلا، بل متقطعا على حسب الظروف والأحوال.

---

[68]- ابن تيمية :مجموع الفتاوى،تح عامر الجزار-انور الباز،دار الوفاء،بيروت، ط2008،1م،ج10،ص455.

[69]- الذهبي :سير أعلام النبلاء،المرجع سابق ، مج19،ص228.

[70]- المرجع نفسه ،مج20،ص6.

[71]- القحطاني: الشيخ عبد القادر الجيلاني،دارالشعلة الاباضية،عمان،ط1، 1989م .ص 43.

[72] - هو مؤلف مصارع العشاق توفي سنة 509 هـ.

[73] - توفي سنة 513 هـ وكان شيخ الحنابلة في بغداد.

[74] - محمد العيني،المرجع السابق ، ص 36.

[75]- لتوسع اكثر: انظر كذلك :سير أعلام النبلاء للذهبي، والذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب، وفوات الوفيات لمحمد بن شاكر الكتبي.

ب- ظروف حياته العلمية:

دخل الفتى عبد القادر بغداد ومعه أربعون دينارا، وماذا تفعل أربعون دينارا في بغداد؟ فسرعان ما نفدت فاضطر أن يعمل ليعيش، فكان يأكل من عمل يده[76]. وماذا عساه أن يعمل بيده وهو لا يحسن سوى الفلاحة والزراعة، وهي ليس لها سوق في بغداد، لذلك فليس أمامه سوى حمل الأثقال وخدمة الناس ليكسب قوت يومه، وكانت والدته ترسل إليه بين الحين والآخر مبلغا من المال، على حسب ما يتيسر لها، فيصل إليه بعض هذا المال ويضيع بعضه الآخر لأنه ليس له مكان ثابت ولا عنوان معروف، وذاق الجوع والحرمان، حتى كان يقتات أحيانا بخرنوب الشوك وقمامة البقل وورق الخس الذي ينبت بجانب النهر، وما كان يمد يده إلى أحد أو يسأل أحدا.

قال في أحد مجالسه: «كنت أقتات بخرنوب الشوك وقمامة البقل وورق الخس من جانب النهر، وبلغت الضائقة في غلاء نزل ببغداد إلى أن بقيت أياما لم آكل فيها طعاما فذهبت أتتبع المنبوذات لآكلها فما ذهبت إلى موضع إلا وغيري قد سبقني إليه حتى وصلت إلى مسجد ياسين بسوق الريحانيين –وفي رواية الرياحين فدخلت وقد كدت أصافح الموت، فإذا بشاب أعجمي يدخل ومعه خبز وشواء، وجلس يأكل فرآني، فقال: بسم الله يا أخي، فأبيت، فأقسم علي، فأكلت متقاصرا، فقال: من أين أنت؟ وما شغلك؟ قلت: أنا متفقه من جيلان، فقال: وأنا من جيلان، فهل تعرف شابا جيلانيا يسمى عبد القادر الزاهد؟ فقلت: أنا هو. فاضطرب وتغير وجهه، وقال: والله، لقد وصلت إلى بغداد ومعي بقية نفقة لي، فسألت عنك فلم يرشدني أحد ونفذت نفقتي، ولي ثلاثة أيام لا أجد ثمن قوتي إلا مما كان لك معي، وقد حلت لي الميتة، فأخذت من وديعتك هذا الخبز والشواء، فكل طيبا فإنما هو لك، وأنا ضيفكالآن بعد أن كنت ضيفي. فقلت له: وما ذاك؟ فقال: أمك وجهت لك معي ثمانية دنانير. فطيبت نفسه ودفعت إليه باقي الطعام وشيئا من الذهب، فقبله وانصرف»[77].

وهكذا كان لا ينسى الإحسان وهو في أشد الحاجة والحرمان. وكان يقول أيضا: « كان لباسي جبة صوف وعلى رأسي خرقة وكنت أمشي حافيا على الشوك فأقتات بخرنوب الشوك وقمامة البقل وورق الخس من شاطئ النهر، وكنت أتظاهر بالخرس والجنون»[78].

كان عبد القادر يرى الناس ينصتون إلى خطبة الخطيب في يوم الجمعة وإلى وعظ الوعاظ في المساجد والمجالس، ثم يخرجون إلى الشوارع والبيوت وكأنهم لم يسمعوا شيئا، وكان يرى أصحاب السلطان يقتصرون على جباية الأموال وأخذ البيعة لأنفسهم ولأولادهم، ويرى العلماء يشتغلون بالفتوى والتأليف ويدعون الناس شاردين في شهواتهم ومخالفاتهم، وهكذا أصبح العامة أحرارا في تصرفاتهم بغير علم، جامحين في شهواتهم، هملا وقطعانا لا يضبطهم راع، وضعفت في كثير منهم الرغبة في الطاعات وتقاصرت الهمم وخمدت النفوس. وتبين له الفرق الكبير

---

[76]- الكتبي :فوات الوفيات،تح احسان عباس،دار صادر ،بيروت، دط، 1973،ج2، ص373.

[77]- الذهبي :سير أعلام النبلاء، المرجع السابق ، ج20 ص444 ،و ابن رجب :الذيل على الطبقات ،ص 134.

[78]- الشعراني :الطبقات الكبرى ،تح محمد عطا، دار الكتب العلمية ،بيروت،ط1410،1هـ- 1990 م، ج1 ،ص126.

بين الحياة المستقيمة التقية في جيلان، وبين الحياة الصاخبة بالمخالفات في بغداد، بل بين ما كان ما يسمعه عن بغداد من أنها مدينة الزهاد وبين ما يراه فيها اليوم من موبقات ومنكرات، إن الناس يصلون، ولكن صلاتهم لا تنهاهم عن الفحشاء والمنكر، وإنهم يصومون ولكن صيامهم لا يزكي أنفسهم ولا يجعلهم يشعرون بألم الفقراء والمعدمين، وإنهم ينفقون، ولكنهم لا ينفقون أموالهم فيما شرع الله تعالى، وإنهم يسمعون المواعظ لكنهم لا يتأثرون بها، وإن العلماء يتكلمون ويعظون لكنهم لا يؤثرون، إن ثمة حلقة مفقودة، جعلت الناس هكذا يسدرون، وإلى شهواتهم يوفضون، فما هي؟ وكان يمشي في شوارع بغداد فيرى المنكرات في كل مكان، يرى الكذب والخداع والغش، يرى عدم الرحمة بالفقير وبالغريب، يرى مجالس الخمر والشراب في كل مكان، يسمع غناء القينات وضرب الأوتار من خلال الأبواب، ويسمع ترديد الشباب لقصائد صريع الغواني وأبي نواس، كما رأى في السنة التي دخل فيها بغداد، سنة 488 هـ في شهر ربيع الآخر منها، عبد الملك وزير الخليفة المستظهر يفتتح قرب بغداد مكانا للهو والرقص والغناء، مما حمل الشيخ ابن عقيل، شيخ الحنابلة آنذاك، على أن يتصدى له وينتقده أشد انتقاد[79].

كان يرى كل ذلك وهو شاب في مقتبل العمر، ممتلئ صحة وقوة. ولم يستطع أن يتزوج حتى الآن، ويرى أمامه المنكرات، فضاق ببغداد، وأحس فيها بالاختناق. وأصيب بخيبة أمل قوية فأراد أن يترك بغداد وينجو بنفسه وبدينه منها، ولكن كيف ذلك ولم يتحقق هدفه بعد، لقد جاء ليصبح عالما عاملا مخلصا، ولا يزال في أول الطريق، فكيف العمل؟ لذلك وقع في حيرة شديدة وفي أزمة نفسية عنيفة، وفي صراع بين البقاء والهرب، وأخيرا رأى أفضل حل هو الهروب المؤقت ليعيد بناء روحه وشخصيته من جديد تتلاءم مع هذا الواقع الجديد وتستطيع أن تؤثر فيه وترده إلى سواء السبيل. حاول في أول الأمر أن يهرب من بغداد إلى غير رجعة، ولكنه كان قبل أن يجتاز باب الحلبة[80] يشعر بقوة خفية ترده إليها، كان في صراع نفسي شديد، كان يرى نفسه كالقرآن في بيت زنديق، أو كصالح في ثمود، فيريد أن يهرب، وفي الوقت نفسه. يريد أن يهدي هذا الزنديق ويرده إلى سواء السبيل، وأن يصلح هؤلاء القوم لعلهم يهتدون. وفي إحدى المرات ذهل عن نفسه وخرج من بغداد وسار على غير هدى، سار مسافة خمسة عشر يوما عن بغداد حتى وجد نفسه في بلاد (تستر)، ثم عاد مرة أخرى إلى بغداد[81]، وكأن هاتفا كان يدفعه إليها وهو يقول: سيكون فيك منفعة لها. وكانت تضيق نفسه أحيانا حتى يغمى عليه.

قال ابن النجار في تاريخه: «كتب إلي عبد الله بن أبي الحسن الجبائي قال: قال لي الشيخ عبد القادر: لحقني مرة حال قوي وحملت إلى المارستان فطرقتني الأحوال حتى حسبوا أني مت، وجاءوا بالكفن وجعلوني على المغتسل، ثم سري عني ذلك الحال فنهضت»[82].

---

[79]- محمد العيني: المرجع السابق ، ص 42.

[80]- باب في سور بغداد.

[81]- المرجع نفسه ،ص45.

[82]- الذهبي: سير أعلام النبلاء ،المرجع السابق،ج 20 ،ص 444، و انظر الشعراني: الطبقات الكبرى ،المرجع نفسه،ج1 ص 126.

وكانت تضيق نفسه أحيانا حتى يصرخ صراخا شديدا، قال: «كنت أشتغل بالعلم فيطرقني الحال فأخرج إلى الصحارى فأصرخ وأهج على وجهي، فصرحت ليلة فسمعني العبارون ففزعوا وجاؤوا فعرفوني فقالوا: عبد القادر المجنون! أفزعتنا »[83]. قال : «إنه لترد علي الأثقال الكثيرة لو وضعت على الجبال تفسخت ، فإذا كثرت علي الأثقال وضعت جنبي على الأرض وتلوت: ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (*) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾[84]. ثم أرفع رأسي وقد انفرجت عني تلك الأثقال»[85].

و أخيرا آثر الابتعاد عن بغداد والانحياز إلى البراري والخرب القريبة منها مؤقتا، ريثما يعيد بناء شخصيته ونفسه لتكون أكثر تلاؤما مع الواقع الجديد والمجتمع الجديد وأكثر تأثيرا فيهما، وقد استمرت هذه الفترة سنوات عديدة، يصل بها بعضهم إلى خمس وعشرين سنة، وبعضهم الآخر أربع عشرة سنة (الأستاذ محمد العيني أستاذ جامعة استنبول سابقا). فقد عاش في برج مهجور قريب من بغداد سنوات عديدة حتى سمي ذلك البرج ببرج الغريب أو برج العجمي. وعاش في خرائب المدائن وإيوان كسرى عدة سنوات أخرى (1-3سنوات).

وعندما أحس من شخصيته الاعتدال، ومن نفسه القوة على الكفاح وتحمل الصعاب ومواجهة المنكرات، عاد إلى بغداد، وإلى حلقات الدرس من جديد، ولكنه قرر منذ الآن أن يضيف إلى علوم الفقه والحديث والأدب وعلوم القرآن، علم تربية الروح وتزكيتها وتقويتها، علم التصوف. وكان ثمة في بغداد عالم انتهت إليه تربية المريدين وانتمى إليه معظم مشايخ بغداد في ذلك الوقت هو الشيخ حماد بن مسلم الدباس (توفي سنة 525 هـ) ومن أقواله: «القلوب ثلاثة، قلب يطوف في الدنيا وقلب يطوف في الآخرة وقلب يطوف بالمولى». ومن أقواله أيضا: «أقصر طريق إلى الله تعالى هو حب الله تعالى»[86].

عندما التحق عبد القادر بشيخه الجديد حماد الدباس، توسم فيه شيخه الجديد الخير والفلاح، لذلك أراد أن يختبر صبره وصدقه وقوة احتماله، فصار يعامله بقسوة وشدة ليظهر معدنه الحقيقي، هل ينكص على عقبيه أم يبقى ثابتا صلبا، انظروا إليه يقول: «خرجت مرة إلى باب الحلبة فقال لي قائل: إلى أين تمشي؟ ودفعني دفعة خررت منها وقال: ارجع فإن للناس فيك منفعة. قلت: أريد سلامة ديني، قال: لك ذاك؛ وعرفت أنه حماد الدباس، وقد كشف لي بعد ذلك جميع ما كان يشكل علي. وكنت إذا غبت عنه لطلب العلم وجئت، يقول: إيش جاء بك إلينا، أنت فقيه مر إلى الفقهاء. وأنا أسكت. وفي يوم الجمعة من شهر كانون الثاني، خرجت مع الشيخ حماد الدباس وجماعته لنذهب إلى مسجد الرصافة، وعندما وصلنا إلى جسر اليهود على نهر دجلة، وكنت أسير خلف الشيخ، توقف فجأة ودفعني فألقاني في الماء، في شدة البرد، فقلت لنفسي: غسل الجمعة، بسم الله الرحمن الرحيم؛ وكان علي جبة صوف، وفي كمي أجزاء – أي أوراق مكتوبة- فرفعت كمي لكي لا تهلك

---

[83] – ابن رجب: الذيل على طبقات الحنابلة ،المرجع السابق،ص 134.

[84] – سورة الانشراح[الاية:5-6]

[85] – الشعراني: الطبقات الكبرى، ج 1 ،ص126.

[86] – المرجع نفسه،ج1، ص127.

الأجزاء، وتركوني ومشوا؛ فعصرت الجبة وتبعتهم، وقد تأذيت بالبرد كثيرا[87]. و كان الشيخ يؤذيني، وإذا جئت يقول: جاءنا اليوم خبز كثير وفالوذج فأكلنا وما خبأنا لك شيئا، فطمع في أصحابه، وقالوا: أنت فقيه، إيش تعمل هنا فلما رآهم يؤذونني، قال لهم: لم تؤذونه؟ والله ما فيكم مثله، إنما أؤذيه أنا لأمتحنه فأراه جبلا لا يتحرك»[88].

نستنتج من هذه القصة عدة أمور: الأمر الأول: أن عبد القادر قد درس الفقه أولا ثم تحول إلى التصوف. والأمر الثاني : أنه قد تقدم في دراسة الفقه تقدما ملموسا، فالشيخ حماد وتلاميذه يعرفون أنه متفقه.وعندما سقط في الماء اغتنم ذلك ونوى الغسل ليكسب ثواب غسل الجمعة، لأن الغسل لا يصح دون نية، ولا يفعل ذلك إلا فقيه. والأمر الثالث: أن الشيخ حماد كان يمتحنه وقد نجح في الامتحان نجاحا كبيرا. والأمر الرابع: أن عبد القادر كان يتصف بالحلم ولولا ذلك لغضب من شيخه غضبا شديدا، والخامس: أنه كان رابط الجأش ثابت الجنان. والسادس: أنه يريد أن يبلغ الهدف الذي رسمه لنفسه مهما واجه في سبيله من صعاب.

ثم يقول علمنا: «قدم رجل من همذان يقال له يوسف الهمذاني انتهت إليه تربية المريدين بخراسان توفي سنة 535هـ ودفن بمرو وكان يقال إنه القطب، ونزل في رباط فمشيت إليه فلم أره، فقيل لي: هو في السرداب، فنزلت إليه، فلما رآني قام وأجلسني، ثم ذكر لي جميع أحوالي، وحل لي المشكل علي، ثم قال لي: تكلم على الناس، فقلت: يا سيدي أنا أعجمي، فكيف أتكلم على فصحاء بغداد؟! فقال لي : أنت حفظت الفقه وأصوله والخلاف والنحو واللغة وتفسير القرآن، ولا يصلح لك أن تتكلم! اصعد على الكرسي وتكلم، فإني أرى فيك عذقا[89] سيصير نخلة»[90].

نستنتج من هذه القصة أن عبد القادر قد اشتد عوده وأن دراسته قد بدأت تؤتي أكلها وأن تصدره للتدريس قد بات وشيكا. كما تدلنا أيضا على أن اللغة العربية كانت قد بدأت تنحسر أمام اللغات الدخيلة في إيران، في مطلع القرن السادس الهجري، حيث كان الحكم للسلجوقيين الأتراك. نستدل على ذلك من قول الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى عندما طلب منه الهمذاني أن يتصدر للكلام فأجابه: كيف أتكلم على فصحاء بغداد وأنا أعجمي من جيلان، ومعنى ذلك أن اللغة العربية لم تكن سائدة في ذلك الوقت في جيلان.

وفي السنوات الأخيرة من الدراسة انقطع عبد القادر إلى شيخه في الفقه القاضي أبي سعد —وفي رواية أبي سعيد– المبارك بن علي المخرمي (نسبة إلى المخرم وهي محلة في بغداد كان فيها قصور بني بويه، وبعضهم يقول المخزومي وهو خطأ، وقد توفي في سنة 528 هـ)[91] ولازمه حتى وفاته وأخذ الطريقة منه. وكان المخرمي قد بنى

---

(87) – حدث ذلك في شهر كانون الثاني الموافق منتصف شعبان سنة 499 هـ،انظر الذهبي:قلائد الجواهر، المرجع السابق، ص 27.

(88)– الذهبي :سير أعلام النبلاءج20،ص،439 .انظر: د.محمد العيني : عبد القادر الكيلاني ،ص 48.

(89)– العذق: عنقود البلح.

(90) – الذهبي: سير أعلام النبلاء ، المرجع السابق،ج 20 ،ص 439.انظر كذلك الطبقات الكبرى للشعراني:المرجع السابق، ج1،ص163.

(91) – د. محمد العيني: المرجع السابق ،ص 42.

مدرسة بباب الأزج في بغداد، وكان يدرس فيها الفقه على المذهب الحنبلي، وعندما تقدمت به السن صار يكلف عبد القادر بإلقاء الدرس عنه ابتداء من سنة 521 هـ[92]حتى وفاته في سنة 528[93]. وبذلك انتهت مرحلة الدراسة والتحصيل في حياة الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى، وبدأت مرحلة التعليم والإرشاد والإصلاح منذ سنة 521 هـ، ونضجت وقويت بعد سنة 528 هـ وهي الفترة الثانية من حياته في بغداد.

والظاهر أن الأحوال التي كانت تطرأ على عبد القادر في خلواته ومجاهداته قد استقرت قبيل هذه الفترة بسنوات. والدليل على ذلك أنه تزوج. ولا نعرف تاريخ زواجه في أي سنة كان، ولكننا نعرف أن أكبر أولاده هو عبد الله الذي ولد في سنة 508 هـ[94]، وهذا يعني أنه تزوج قبل ذلك بسنة أو سنتين. ثم تكرر زواجه حتى أصبح عنده أربع زوجات، وذلك بعد أن اكتمل فتحه وتمكينه.

يقول الشيخ السهروردي في كتابه "عوارف المعارف"، في الباب الحادي والعشرين: قال بعض الصالحين للشيخ عبد القادر: لم تزوجت؟ قال ما تزوجت حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم –أي في المنام– تزوج، وقال: كنت أريد الزوجة مدة من الزمان ولا أتجرأ على التزوج خوفا من تكدير الوقت، فلما صبرت إلى أن بلغ الكتاب أجله، ساق الله سبحانه وتعالى إلي أربع زوجات[95].

---

[92] – ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة ،ص 134 و الكتبي: فوات الوفيات،المرجع السابق،ج2،ص373.

[93] – ملاحظة: ذكر الشيخ أبو الحسن الندوي في كتابه (رجال الفكر والدعوة في الإسلام ص250) أن أبا سعيد المبارك بن علي المخرمي، أستاذ الشيخ عبد القادر رحمهما الله تعالى، وصاحب مدرسة باب الأزج التي آلت فيما بعد إلى الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى، وقد توفي سنة 511 هـ وعزا ذلك إلى كتاب "البداية والنهاية" لابن كثير، وبعد الرجوع إلى الكتاب المذكور: ج12 ص 185 طبعة دار الفكر، تبين أنه توفي سنة 513 هـ وليس سنة 511 هـ.بينما يقول الأستاذ محمد علي العيني في كتابه (الشيخ عبد القادر الكيلاني ص 42)إنه توفي سنة 528 هـ، ولكنني أرجح أن تكون وفاته في سنة 521 هـ أو قبلها بقليل أ بعدها بقليل؛ لأنه لو كان قد توفي سنة 511 هـ أو سنة 513 هـ فمن الذي قام على مدرسته في باب الأزج حتى سنة 521 هـ التي تولى الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى التدريس فيها؟ وإن كان قد توفي سنة 528 هـ التي انتهى فيها بناء المدرسة من جديد بعد هدمها وتوسيعها، وفوضت عند ذلك إلى الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى، وسميت باسمه، فكيف تم ذلك كله في حال حياة المخرمي صاحبها الأصلي رحمه الله تعالى؟

[94]– الذهبي: قلائد الجواهر ،المرجع نفسه،ج20،ص44.

[95]–السهروردي:عوارف المعارف ،المرجع السابق، ص196 .

المبحث الرابع: انتقاله للتدريس والوعظ و الإرشاد

المطلب الأول: جلوسه للتديس والإصلاح

لكي يكون التعليم والإرشاد والإصلاح ناجحا، لا بد له من ركائز يرتكز عليها، وقد نجح الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى في مرحلة التعليم والإرشاد والإصلاح نجاحا كبيرا، فما هي الركائز التي أهلته لهذا النجاح؟

إنها الصفات والشمائل التي فطر عليها منذ أن نشأ في جيلان، وأتى بها إلى بغداد، ثم طريق التزكية الذي سلكه في بغداد بعد أن درس الفقه وبرع فيه.

لذلك علينا أن نمحص هذه الركائز ونتعرف إليها، قبل المضي مع الشيخ في مرحلته الجديدة، مرحلة التمكين والإرشاد والإصلاح وتربية المريدين:

1. ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[96].
2. «ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس».حديث حسن رواه ابن ماجه.
3. لو زهد العلماء في الدنيا لخضعت لهم رقاب الجبابرة. من كلام الفضيل بن عياض.

هذه هي ملامح المرحلة الجديدة من حياة عبد القادر في بغداد، اعتزاز بالله تعالى وبرسوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، فهو، قبل ذلك، في أيام محنته وفقره لم يسأل أحدا شيئا أو يطلب من أحد شيئا، وهو قد زهد في الدنيا بل طلقها ثلاثا، وزهد فيما عند الناس فأقبل عليه الناس، وأتته الدنيا وهي راغمة، وخضع له الخلفاء والوزراء والكبراء.

يقول ابن رجب: «ظهر –أي الشيخ عبد القادر– للناس وجلس للوعظ بعد العشرين وخمسمائة، وحصل له القبول التام من الناس، واشتهرت أحواله وأقواله وكراماته ومكاشفاته وهابه الملوك فمن دونهم»[97].

وهكذا بدأ كلامه ووعظه وإرشاده قطرا ثم انهمر، والظاهر أنه بعدما نصحه يوسف الهمذاني أن يجلس للناس ويتكلم، قد تصدر للكلام وجلس للدرس. وكان هذا العمل شاقا عليه في البدء ثم يسره الله تعالى له، فهو يقول: «كان يغلب علي الكلام ويزدحم على قلبي إن لم أتكلم به حتى أكاد أختنق ولا أقدر أن أسكت، وكان يجلس عندي رجلان وثلاثة ثم تسامع الناس وازدحم علي الخلق حتى صار يحضر مجلسي نحو سبعين ألفا»[98].

ويقول ابن الجوزي: «درس بمدرسة شيخه المخرمي فتكلم على الناس بلسان الوعظ وظهر له صيت بالزهد، وضاقت المدرسة بالناس، وكان يجلس عند سور بغداد مستندا إلى الرباط، ويتوب عنده في المجلس خلق كثير»[99].

---

[96] – سورة المنافقون[الآية 63]

[97] – ابن رجب: الذيل على طبقات الحنابلة ،ص 134.

[98] – الذهبي: سير أعلام النبلاء المرجع السابق،ج20 ،ص 439.

[99] – ابي الطيب القنوجي:المرجع السابق، ص 159.

وكان شيخه القاضي أبو سعد (وفي رواية أبو سعيد) المبارك بن علي بن الحسين المخرمي، قد بنى لنفسه مدرسة بباب الأزج في بغداد، وكان يدرس فيها الفقه على المذهب الحنبلي، وقد انقطع إليه الشيخ عبد القادر في سنوات دراسته الأخيرة، ثم صار يساعده في التدريس، وكان الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى يأخذ علم التصوف عن شيخه حماد بن مسلم الدباس (توفي سنة525) وعن شيخه في الفقه أبي سعد المخرمي أيضا الذي أعطاه الطريقة.

وكانت سلسلة طريقته كما ذكرها ابن الملقن في كتابه (طبقات الأولياء) كما يلي: أبو محمد عبد القادر بن أبي صالح الجيلي عن أبي سعيد المبارك بن علي المخرمي عن الشيخ أبي الحسن علي بن محمد بن يوسف بن عبد الله القرشي عن أبي الفرج عبد الرحمن بن عبد الله الطرسوسي، عن أبي الفضل عبد الواحد بن عبد العزيز التميمي، عن والده الشيخ عز الدين عن الشبلي عن الجنيد، عن سري السقطي، عن معروف الكرخي، عن داود الطائي، عن حبيب العجمي، عن الحسن البصري، عن علي رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم. أو عن الجنيد عن جعفر الحذاء عن أبي عمر الإصطرخي عن أبي تراب النخشبي عن شقيق البلخي عن إبراهيم بن أدهم عن موسى بن يزيد الراعي عن أويس القرني عن عمر وعلي رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم[100] .

أما الأستاذ محمد العيني فيذكر سلسة أخرى لهذه الطريقة هي كما يلي: الشيخ عبد القادر عن أبي سعد المبارك المخرمي عن أبي حسن علي بن محمد بن يوسف الخاكياري عن أبي الفرج يوسف الطرسوسي عن أبي الفضل عبد الواحد التميمي عن الشبلي عن أبي القاسم الجنيد عن سري السقطي عن معروف الكرخي عن الإمام علي الرضا عن الإمام موسى الكاظم عن الإمام جعفر الصادق عن الإمام محمد الباقر، عن الإمام زين العابدين عن الإمام الحسين رضي الله عنه عن الإمام علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم[101].

وعندما توفي شيخه أبو سعد المخرمي، لم يجد تلاميذه أفضل من الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى يفوضون مدرسته إليه. فجلس فيها للتدريس والفتوى والوعظ والإرشاد. ولكنها ضاقت بالناس فخرج إلى المصلى، خارج سور بغداد ليلقي دروسه هناك[102]. ثم اشترى أهل الخير مدرسة المخرمي من ورثته ووسعوها وبنوها من جديد على شكل مدرسة للعلم ورباط للمريدين والتلاميذ، وتم ذلك كله بأموال الأغنياء وعمل الفقراء. وصارت تدعى بمدرسة الشيخ عبد القادر الكيلاني، وهي لا تزال موجودة حتى الآن في بغداد وتسمى المدرسة القادرية.

لم يكن من السهل أن ينقلب الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى، من رجل فقير، يحب العزلة عن الناس، يهيم في البراري والخرب حتى لقبوه بعد القادر المجنون، إلى رجل علم وفقه وسلوك، يعلم الناس ويعظهم، فيتلقونه

---

(100) – ابن الملقن: طبقات الأولياء تح نور الدين شريبه، مكتبة الخانجي،القاهرة،ط 4، 1415هـ- 1994م،ص 494.

(101) – محمد العيني :المرجع السابق ، ص51.

(102) – ابي الطيب القنوجي: المرجع السابق، ص 159 و الذهبي :سير أعلام النبلاء ج 20، ص 439.

بالقبول، ويزدحمون عليه حتى يضيق بهم المكان، ويبنون له مدرسة ورباطا لا يزالان يحملان اسمه حتى الآن. إن هذا ليدل على نوع نادر من الرجال وعلى نوع فذ من السجايا والأخلاق.

وهو سبب نجاحه في مهمته التي نذر نفسه لها منذ أن خرج من مسقط رأسه في جيلان، فكان له ما أراد. ولله سبحانه وتعالى رجال إذا أرادوا أراد؛ و «رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره». رواه مسلم[103].

إن شابا يافعا يأتي من جيلان وحيدا فقيرا جاهلا فيتشرد في براري بغداد وخربها سنوات عديدة. ثم ينتهي به الأمر إلى أن يهابه الملوك والكبراء، ثم يبقى يذكر اسمه بكل تقدير واحترام على ألسن ملايين البشر من الناس حتى الآن؛ لا بد، إلا أن يكون ذا صفات وأخلاق متميزة التي فطر عليها،. وهما الركيزتان اللتان استطاع بهما أن يصبح إماما لأولياء عصره، وعلما من أعلام الإصلاح في القرن السادس الهجري.

[103]- ابن الاثير :جامع الأصول،مرجع سابق، ج 4 ص 677.

المطلب الثاني: المشيخة وتربية المريدين

رأينا كيف أن الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى قد تتلمذ على القاضي أبي سعيد (أو أبي سعد) المبارك بن علي المخرمي الذي كانت له مدرسة خاصة في باب الأزج من بغداد، و أن الشيخ قد جلس للدرس فيها منذ سنة 521 هـ، و بعد وفاة القاضي المخرمي، فوض تلاميذه مدرسته إلى الشيخ عبد القادر، و أقبل الناس على درس الشيخ حتى ضاقت بهم المدرسة، فاشتراها الأغنياء من تلاميذه و هدموها و أعادوا بناءها بعد أن وسعوها، بأموال الأغنياء و عمل الفقراء حتى إن امرأة فقيرة جاءت بزوجها إلى الشيخ و قالت له: هذا زوجي لي عليه من مهري عشرون دينارا ذهبا، وقد وهبت له نصفه بشرط أن يعمل في مدرستك بالنصف الباقي، فقبل الزوج. أي أنها أعفت زوجها من المهر كله إذا هو عمل في المدرسة بما يعادل عشرة دنانير، فكان الشيخ رحمه الله تعالى يشغله في المدرسة و يعطيه يوما أجرته و يوما لا يعطيه، لعلمه بأنه فقير محتاج إلى أن عمل بخمسة دنانير فقط فأعفاه من الباقي و قال له: أنت حل من الباقي.[104]

و قد اكتمل بناء المدرسة في سنة 528 هـ، فقسمها الشيخ إلى مدرسة يدرس فيها التلاميذ، يتلقون الدروس منه في شتى العلوم، و إلى رباط، يعيش فيه المريدون، ينامون و يأكلون و يتربون تربية روحية و خلقية على يديه و بإرشاداته، ثم يتفرقون في البلاد يدعون الناس إلى ما دعاهم الشيخ إليه و يرشدونهم إلى ما أرشدهم الشيخ إليه و هكذا انتشرت طريقته في الآفاق. و قد ازدحم الناس عليه، لأن كلامه و مواعظه كانت تنفذ إلى قلوبهم وأرواحهم و عقولهم، فتفعل فعلها فيهم، فقد كانت تخرج من قلب عالم مخلص عامل، لذلك كثيرا ما كانت تذرف في مجلسه الدموع، و يرتفع فيها صوت البكاء و النحيب. و كان يحضر مجلسه نحو سبعين ألف إنسان، ويبلغ عدد المحابر أحيانا أربعمائة محبرة. كما كان يكثر في مجلسه التائبون من العصاة حتى بلغ عددهم مائة ألف تائب، والمسلمون من الكفار حتى أسلم على يديه خمسة آلاف مشرك و كافر[105]. و كان الناس يجيئون إلى مجلسه في الليل على ضوء الشموع والمشاعل و على ظهور الخيل والبغال و الحمير و الجمال[106]. وأصبحت مدرسته تدعى بمدرسة الشيخ عبد القادر، منذ سنة 528 هـ، و لا تزال باقية حتى الآن حيث تضم، اليوم، مسجدا ومكتبة وتكية و غرفا يأوي إليها الفقراء و أبناء السبيل.

---

(104) – محمد التادفي:قلائد الجواهر في مناقب عبد القادر،مطبعة عبد الحميد الحنفي،المشهدالحسيني،مصر،1356، ص 5.

(105) – المرجع السابق، ص 19.

(106) – المرجع نفسه، ص13.

المطلب الثالث: علومه و دروسه

رأينا أن الشيخ رحمه الله قد درس القرآن و تفسيره كما درس الفقه مذهبا و خلافا و فروعا و أصولا، وقرأ الأدب و البلاغة و سمع الحديث و رواه و أخذ علم الطريقة و تأدب به، كل ذلك على أعلام عصره من العلماء والفقهاء والمحدثين والمتصوفة أمثال أبي الوفاء علي بن عقيل، و القاضي أبي سعد المبارك بن علي المخرمي، وأبي زكريا يحيى بن علي التبريزي، و أبي غالب محمد بن الحسن الباقلاني، و أبي جعفر السراج، و حماد الدباس وغيرهم، حتى قال عنه الحافظ عماد الدين بن كثير: «دخل بغداد فسمع الحديث و اشتغل به حتى برع فيه، و كان له اليد الطولى في الحديث و الفقه و الوعظ و علوم الحقائق. و كان يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر».[107]

فلا عجب بعد ذلك أن كثرت علومه و تنوعت دروسه. حتى قال ابن رجب عنه في ذيل طبقات الحنابلة: «كان يتكلم في ثلاثة عشر علما، كانوا يقرؤون عليه درسا في التفسير و درسا في الحديث و درسا في المذهب، و كان يفتي على مذهب الشافعي و أحمد بن حنبل، و درسا في الخلاف، و درسا في الأصول، و في النحو، و كان يقرأ القرآن بالقراءات بعد الظهر».[108]

و قال محمد بن الحسيني الموصلي « سمعت أبي يقول كان سيدنا الشيخ عبد القادر يتكلم في ثلاثة عشر علما، و كان يذكر في مدرسته درسا في المذهب و درسا في الخلاف، و كان يقرأ طرفي النهار، التفسير و علوم الحديث و الأصول و النحو، و يقرأ القرآن العزيز بالقراءات بعد الظهر. و قال عمر البزاز كانت الفتاوى تأتي سيدي الشيخ عبد القادر من بلاد العراق و غيره، فلا تبيت عنده فتوى، و كان يفتي على مذهب الإمامين الشافعي و أحمد ابن حنبل رضي الله عنهما، و كانت تعرض فتاواه على علماء العراق فيعجبون منها. قال ابنه الشيخ عبد الرزاق: جاءت فتوى من بلاد العجم إلى بغداد بعد أن عرضت على علماء العراق فلم يتضح لأحد منهم فيها جواب شاف، و صورتها: ما يقول السادة العلماء في رجل حلف بالطلاق الثلاث أنه لا بد له أن يعبد الله عز وجل عبادة يتفرد بها دون جميع الناس في وقت تلبسه بها، فما يفعل من العبادات أفتونا مأجورين أثابكم الله الجنة؟ فأتى بها إلى والدي فكتب على الفور: يأتي مكة المكرمة و يخلى له المطاف و يطوف أسبوعا و تنحل يمينه، فما بات المستفتي ببغداد الليلة و توجه إلى مكة شرفها الله تعالى».[109]

«و قال الحافظ أبو العباس أحمد البندنيجي حضرت أنا و الشيخ جمال الدين بن الجوزي رحمه الله تعالى مجلس سيدنا الشيخ عبد القادر رحمه الله عليه فقرأ القارئ آية فذكر الشيخ في تفسيرها وجها فقلت للشيخ جمال الدين: تعلم هذا الوجه؟ قال: نعم. ثم ذكر وجها آخر، فقلت له: أتعلم هذا الوجه؟ قال نعم. فذكر الشيخ فيها أحد عشر وجها. و أنا أقول له: أتعلم هذا الوجه؟ و هو يقول: نعم. ثم ذكر الشيخ فيها وجها آخر، فقلت له:

---

[107]- محمد التدفي: قلائد الجواهر،مرجع سابق، ص 8.

[108]- ابي الحسن الندوي:رجال الفكر والدعوة في الإسلام، رجال الفكر والدعوة في الاسلام، دار ابن كثير،دمشق،ط3،1428هـ -2007م،ص 258.

[109]- محمد التدفي، قلائد الجواهر،مرجع سابق، ص 38.

أتعلم هذا الوجه؟ قال: لا. حتى ذكر فيها كمال الأربعين وجها يعزو كل وجه إلى قائله، و الشيخ جمال الدين يقول: لا أعرف هذا الوجه، و اشتد عجبه من سعة علم سيدنا الشيخ رضي الله عنه. ثم قال الشيخ: نترك القال و نرجع إلى الحال: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ محمد رسول الله، فاضطرب الناس اضطرابا شديدا و خرق الشيخ جمال الدين بن الجوزي ثيابه».[110]

و كان يحضر مجالس الشيخ كبار علماء العراق و مشايخه كعلي بن الهيتي و بقا بن بطو و موسى بن ماهين (أو ماهان) و أبي النجيب السهروردي و ابن أخيه شهاب الدين السهروردي و عثمان القرشي و أبي عبد الله محمد القزويني و عثمان البطائحي و قضيب البان، و أحمد القزويني، و عبد القادر البغدادي و القاضي أبي يعلى الفراء و أبي القاسم البزاز و أبي بكر المزين[111] وكثير غيرهم.

وكان للمدرسة مشايخ من تلاميذه يشرفون عليها منهم أحمد بن المبارك المرقعاتي، و محمد بن الفتح الهروي، أما الرباط فكان يشرف عليه تلميذه الشيخ محمود بن عثمان بن مكارم النعال.[112]

كان الشيخ يمضي أيامه في المدرسة، و يخرج يوم الجمعة إلى المسجد، وكان يلقي درسا عاما في الوعظ والإرشاد، صباح الجمعة و مساء الثلاثاء في المدرسة، و صباح الأحد في الرباط، و استمر على ذلك ثلاثا وثلاثين سنة، من سنة 528 هـ إلى سنة 561 هـ.

و كان يفد إلى مدرسته الفارون من الغزو الصليبي في الشام، فيتعلمون في مدرسته و يتربون في رباطه ثم يعودون إلى بلادهم دعاة و مرشدين، و من أشهرهم: ابن نجا الواعظ، مستشار صلاح الدين، و الحافظ الرهاوي، و موفق الدين بن قدامة صاحب المغني، مستشار صلاح الدين أيضا، و قريبه الحافظ عبد الغني.

و كان يدرس في مدرسته، و يتخرج منها، ثلاثة آلاف طالب، في كل سنة،[113] أي تخرج منها نحو مائة ألف طالب في المدة التي أمضاها الشيخ رحمه الله تعالى في التدريس.

و كان يوضع للشيخ منصة عالية (منبر) ليجلس عليه عند إلقاء الدرس، و كان الناس جميعهم على كثرتهم، يسمعون صوته، البعيد منهم كالقريب.

وكان يدعى أحيانا لإلقاء الدرس في المدرسة النظامية في بغداد، التي أسسها نظام الملك في سنة 457 هـ وزير السلطان السلجوقي ملك شاه، و بإلحاح من الجمهور و من المسؤولين، كان يذهب إليها، وبسبب بعدها كان يمتطي بغلة له، عند الذهاب و عند وصوله يتلقاه المشرفون عليها وتلامذتها وطلابها بالتقدير والاحترام.[114]

---

(110)- المرجع نفسه، ص 38.

(111)- محمد التاذفي :قلائد الجواهر ،المرجع السابق، ص 22.

(112)- د.ماجد عرسان: المرجع السابق، ص 206.

(113) - محمد العيني :المرجع السابق، ص 88.

(114) - المرجع نفسه، ص 66.

وفي إحدى المرات، بينما كان يلقى درسا فيها عن القضاء والقدر، وأن ما قدر في علم الله تعالى فهو كائن لا محالة، لذلك جاء في الدعاء المأثور: اللهم لا نسألك رد القضاء ولكن نسألك اللطف فيه وأثناء ذلك سقطت عليه حية كبيرة من السقف، كأن الله سبحانه وتعالى كان يريد أن يختبر صدقه ومدى إيمانه بما يقول، فهرب كل من كان في المجلس وبقي هو جالسا لم يتحرك منه عضو واحد، وعند ذلك تركته الحية جالسا في مكانه وخرجت من المجلس كما خرج الناس، وعندما سئل عن ذلك قال: وهل هي إلا دويبة يحركها القضاء والقدر.[115]

وهذه القصة شبيهة بقصة مماثلة وقعت للوزير عون الدين أبي المظفر يحي بن محمد بن هبيرة وزير المقتفي لأمر الله و ابنه المستنجد بالله (وهو من معاصري الشيخ عبد القادر توفي في سنة 560 هـ) جاء في مقدمة كتابه "الإفصاح عن معاني الصحاح": «وحضر يوما في دار الخلافة بالمرخم من التاج، فجلس به وحضر أرباب الدولة للصلاة على جنازة الأمير إسماعيل بن المستظهر، فسقط من السقف أفعى عظيمة المقدار على كتف الوزير، فما بقي أحد من أرباب الدولة و حواشي الخدمة إلا خرج أو قام عن موضعه إلا الوزير، فإنه التفت إلى الأفعى وهي تسرح على كمه حتى وقعت على الأرض وبادرها المماليك فقتلوها، ولم يتحول الوزير عن بقعته ولا تغير في هيئته ولا عبارته ».[116]

كان عبد القادر يدرس، هو و من يساعده من المشايخ، لطلاب مدرسته علوما شتى، قد تصل إلى ثلاثة عشر علما، كما ذكرنا سابقا، وكان يقرأ لطلابه، من كتابه "الغنية لطالبي الحق" في فقه العبادات وعقيدة أهل السنة و الجماعة، و الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما يلقي عليهم دروسا في التفسير، والقراءات و الحديث و الخلاف و الأصول و النحو و الأدب إلخ... ويخصص لهم دروسا في الوعظ والإرشاد، و ينهاهم عن الفلسفة وعلم الكلام، ويحثهم على الجمع بين الفقه والتصوف السني، على أن يكون الفقه حاكما على التصوف، فكثيرا ما كان يقول في دروسه: « كل حقيقة لا تشهد لها الشريعة فهي زندقة، طر إلى الحق عز وجل بجناحي الكتاب والسنة.»[117]

وكان ينتقد في دروسه خصومات العلماء و اختلافاتهم كما ينتقد ظلم الحكام وجورهم وبخل الأغنياء وتبذيرهم، فيقول: « يا خونة في العلم والعمل، يا أعداء الله ورسوله، كم تنافقون الملوك و السلاطين حتى تأخذوا منهم حطام الدنيا و شهواتها و لذاتها. أنتم و أكثر الملوك في هذا الزمن ظلمة وخونة في مال الله عز وجل في عباده. اللهم اكسر شوكة المنافقين و اخذلهم أو تب عليهم، واقمع الظلمة وطهر الأرض منهم أو أصلحهم. أمين».[118]

---

[115] – الشعراني:المرجع السابق، جـ1، ص 261 و الذهبي: قلائد الجواهر، ص 34.

[116] – ابن هبيرة:الافصاح عن المعاني الصحاح،تح فؤاد عبد المنعم احمد، دار الوطن، الرياض،ط1 ،1417هـ،8مج. جـ1، ص 20.

[117]– عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني والفيض الرحماني تح انس مهرة،دار الكتب العلمية،بيروت،ط، 2010م، ص 44.

[118]– المصدر نفسه، ص 51.

وكان يحارب الفرق الضالة، في دروسه، ويحاول أن يوفق بين مذاهب أهل السنة والجماعة، فكان يفتي على المذهبين الشافعي و الحنبلي، ولا يتحرج من ذلك، حتى قال عنه الإمام النووي: « إنه كان شيخ السادة الشافعية والسادة الحنابلة»[119].

وكان يبدأ دروسه بالبسملة والحمدلة و ينهيها بالآية الكريمة: ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾[120].

ومن مواعظه في دروسه: «يا غلام، قصر أملك، و قلل حرصك، صل صلاة مودع، لا ينبغي لمؤمن أن ينام إلا و وصيته مكتوبة تحت رأسه، فإن أيقظه الحق عز وجل في عافية كان مباركا، و إلا فيجد أهله وصيته ينتفعون بها بعد موته و يترحمون عليه. ليكن أكلك أكل مودع، و وجودك بين أهلك وجود مودع، ولقاؤك لإخوانك لقاء مودع. أوجد في قلبك: أنا مودع. كيف لا يكون كذلك من أمره في يد غيره... الزم ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم تسليما، و هو الكتاب و السنة، فإن من تركهما تزنق، ومن ربقة الإسلام مرق... العبادة ترك العادة، أبطلوا التعلق بالدنيا و الآخرة والخلق وتعلقوا بالحق عز وجل، لا تبهرجوا فإن الناقد بصير. اتقوا الشرك في الأصل، والمعاصي في الفرع، ثم تعلقوا بحبلي الكتاب والسنة ولا تخلوهما من أيديكم» [121].

وهذا **مثال من تفسيره للقرآن الكريم**: « تفسير بسم الله الرحمن الرحيم: قال أبو بكر الوراق: بسم الله روضة من رياض الجنة، لكل حرف منها تفسير على حدة: فالباء على ستة أوجه: بارئ خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه: ﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ ﴾ [122]، بصير بخلقه من العرش إلى الثرى، بيانه: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [123]. باسط رزقه من العرش إلى الثرى. بيانه: ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ [124]. باق بعد فناء خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (*) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [125]، باعث الخلق بعد الموت من العرش إلى الثرى للثواب و العقاب بيانه: ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴾ [126]، بار بالمؤمنين من العرش إلى الثرى، بيانه: ﴿ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾. [127].... الرحمن الرحيم: قيل: هما بمعنى واحد،

---

[119]–محمد العيني:المرجع السابق،ص89.

[120]– سورة البقرة [الآية 201].

[121]– عبد القادر الجيلاني:المصدر السابق، المجلس،62 ص 286.

[122] – سورة الحشر [الآية 24].

[123] – سورة الرعد [الآية26].

[124] – سورة الحجرات [الآية18].

[125] – سورةالرحمان[الآية 26].

[126] – سورة الحج[الآية 07].

[127] – سورة الطور[الآية 28].

وهو ذو الرحمة، وهما من صفات الذات. وقيل: هما بمعنى ترك عقوبةمن يستحق العقوبة، و إسداء الخير إلى من لا يستحقه، وهما من صفات الفعل، وقال بعضهم: الرحمن: للمبالغة فمعناه الذي وسعت رحمته كل شيء، والرحيم دون ذلك في الرتبة. و قال آخرون: الرحمن، العاطف على خلقه جميعهم مؤمنهم و كافرهم، برهم و فاجرهم بأن خلقهم و رزقهم ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [128]، والرحيم: بالمؤمنين خاصة بالهداية والتوفيق في الدنيا وبالجنة والرؤية في الآخرة ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [129] فالرحمن خاص اللفظ عام المعنى، و الرحيم عام اللفظ خاص المعنى.

الرحمن خاص من حيث إنه لا يجوز أن يسمى به احد غير الله تعالى، عام من حيث إنه يشمل جميع الموجودات من طريق الخلق والرزق والنفع والدفع. و الرحيم عام من حيث اشتراك المخلوقين في التسمي به، خاص من طريق المعنى لأنه يرجع إلى اللطف والتوفيق. قال ابن عباس رضي الله عنهما: اسمان دقيقان، احدهما أدق من الآخر... »[(130)].

[128] - سورة الاعراف[الآية 156].

[129] - سورةالاحزاب [الآية 43].

[(130)] –عبد القادر الجيلاني :الغنية لطالبي طريق الحق ، تح صلاح بن عويضة، دار الكتب العلمية،بيروت ط1417،1هـ –1997م ج1، ص 112.

المبحث الخامس: مكانة الشيخ العلمية وآثاره

المطلب الأول: مكانته العلمية

أ- **صفات الشيخ:**

1. **صفاته الخَلقية:**

يقول الأستاذ محمد العيني في كتابه عن الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى:

«إنه يميل إلى الطول، تبدو عليه أمارات النبل والاستقامة، عريض الجبهة، يميل لونه إلى السمرة، يصل شعره إلى كتفيه، عريض المنكبين، متناسق الأعضاء، عذب الصوت جهوريه، ذو نطق مميز، نظراته حادة ثاقبة تجعل من الصعب على جليسه أن يديم النظر إليه، لحيته متوسطة الكثافة ولكنها طويلة، رمادية اللون -بعدما تقدمت به السن- دقيقة النهاية، هيئته العامة توحي بالبساطة المحببة كما توحي بالطيبة والنبل والجمال أيضا»[131].

أما الشيخ يونس إبراهيم السامرائي فيقول عن صفاته نقلا عن موفق الدين بن قدامة المقدسي: «كان شيخنا عبد القادر نحيف البدن، ربع القامة، عريض الصدر واللحية، طويلها، أسمر، مقرون الحاجبين، ذا صوت جهوري، وسمت وقدر وعلم»[132].

ولا بد أن عبد القادر، كان قوي البنية، متين الصحة، فقد ذكرنا كيف أنه أسقط في نهر دجلة في الشتاء البارد وكان عليه جبة من الصوف، فعصرها ثم لبسها وسار بها ولم يصبه مرض شديد من جراء ذلك.

ويقول ابن النجار في تاريخه: «سمعت أبا محمد الأخفش يقول: كنت أدخل على عبد القادر في وسط الشتاء وقوة برده، وعليه قميص واحد وعلى رأسه طاقية، والعرق يخرج من جسده وحوله من يروحه بالمروحة كما يكون في شدة الحر»[133]. هذا مع العلم بأن بغداد شديدة البرودة في الشتاء، وهذا يدل على متانة بنيته وقوة روحانيته رحمه الله تعالى.

---

[131]- محمد العيني : عبد القادر الكيلاني،ص62.

[132] - يونس السمرائي: الشيخ عبد القادر الكيلاني،دار لكتب العلمية، بيروت،ط1، 1978 م ،ص 10.

[133] - الذهبي،:سير أعلام النبلاء، المرجع السابق،ج 20،ص 443،انظر كذلك: ابن رجب:الذيل على الطبقات ،ص 134.

2 .صفاته الخُلقية:

أما صفاته الخلقية فيقول الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن يوسف البرزالي الإشبيلي: «كان مجاب الدعوة، سريع الدمعة، دائم الذكر، كثير الفكر، رقيق القلب، دائم البشر، كريم النفس، سخي اليد، غزير العلم، شريف الأخلاق، طيب الأعراف، مع قدم راسخ في العبادة والاجتهاد»[134] «ومع جلالة قدره كان يقف مع الصغير والجارية، ويجالس الفقراء ويفلي ثيابهم، ولا يقوم لأحد من العظماء وأعيان الدولة، ولا يلم بباب وزير ولا سلطان»[135].

وقد ذكر أبو الفداء في تاريخه أن الخليفة المقتفي طلب من وزيره أن يدعو له علماء العراق فدعاهم، فلما حضروا سأل الخليفة وزيره هل حضروا جميعهم، فأجابه: نعم ماعدا الشيخ عبد القادر وعدي بن مسافر، فقال له: لم يحضر أحد إذن. وقال مفتي العراق محيي الدين أبو عبد الله محمد بن حامد البغدادي: «كان أبعد الناس عن الفحش أقرب الناس إلى الحق، شديد البأس إذا انتهكت محارم الله عز وجل. لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لغير ربه»[136].

ولو تحرينا الأخلاق التي فطر عليها الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى، ونشأ عليها في جيلان، ثم حملها معه إلى بغداد، لوجدنا أبرزها: الصدق، الكرم والإيثار، والصبر، والحلم، بالإضافة إلى التقوى والورع. فلنلق نظرة سريعة على هذه الأخلاق التي فطر ونشأ عليها؛ والتي مكنته من العيش بسلام في خضم المجتمع الصاخب في بغداد، حتى وصل إلى شاطئ السلامة والأمان.

الصدق: رأينا، سابقا، كيف أن أهل الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى، ربوه على الصدق وكرم الأخلاق والتقوى، فنشأ صادقا لا يكذب، وقد مرت معنا قصته مع اللصوص وقطاع الطرق، عندما كان في طريقه من جيلان إلى بغداد، وكيف كان صدقه سببا في توبتهم على يديه، وإقلاعهم عن السرقة وقطع طريق المسلمين. وكان يقول رحمه الله تعالى: الصدق هو استواء السر والعلانية، وهو يأتي بعد درجة النبوة تحقيقا لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾[137].

---

(134)- محمد التادفي: قلائد الجواهر ،ص9

(135)- الشعراني : الطبقات، ج1،ص 127.

(136)- محمد التادفي :المرجع السابق، ص8.

(137)- سورة النساء[الآية 69].

الكرم والإيثار: كان رحمه الله تعالى مفطورا على الكرم والإيثار، يجود بما معه ولو كان به خصاصة، وكان يحب إطعام الطعام؛ فكان، بعد أن أقبلت الدنيا عليه، يأمر كل ليلة بمد السماط، ويأكل مع الأضياف، ويجالس الضعفاء، ويصبر على طلبة العلم، ويصدق من يحلف له[138].

وكان يقول: «فتشت الأعمال كلها فما وجدت فيها أفضل من إطعام الطعام، أود لو أن الدنيا بيدي فأطعمها الجياع، كفي مثقوبة لا تضبط شيئا، لو جاءني ألف دينار لم أبيتها»[139]. ويقول: «سأل سيدنا عيسى عليه السلام إبليس: من أحب الخلق إليك؟ فقال: مؤمن بخيل، قال: ومن أبغضهم إليك؟ قال: فاسق كريم. قال: لم ذلك؟ قال: لأني أرجو المؤمن البخيل أن يوقعه بخله في المعصية. وأخاف أن تمحى سيئات الفاسق الكريم بكرمه»[140].

وقال: «أقمت ببغداد عشرين يوما ما أجد ما أقتات به، ولا أجد مباحا، فخرجت إلى إيوان كسرى أطلب مباحا، فوجدت سبعين رجلا من الفقراء كلهم يطلبون؛ فقلت ليس من المروءة أن أزاحمهم، فرجعت إلى بغداد، فلقيني رجل لا أعرفه، من أهل بلدي، فأعطاني قراضة[141]. وقال: هذه بعثت بها أمك إليك معي، فأخذت منها قطعة واحدة تركتها لنفسي، وأسرعت بالباقي إلى خراب الإيوان، وفرقت القراضة على أولئك السبعين فقالوا: ما هذا؟ قلت: إنه قد جاءني هذا من عند أمي؛ وما رأيت أن أختص به دونكم. ثم رجعت إلى بغداد واشتريت بالقطعة التي معي طعاما، وناديت الفقراء فأكلنا جميعا»[142]. وهكذا كان يظهر كرمه، رحمه الله تعالى وهو أشد ما يكون حاجة وفقرا. وهكذا كان من الذين ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[143].

الصبر: كان صبورا على المكاره، صبر صبْر الكرام على الجوع والعري والفقر وإساءات الناس إليه، وحيفهم عليه في أول أمره، ثم صبر عن زخارف الدنيا وبهارجها وشهواتها بعد ذلك. انظر إليه يقول: «ما كنت أهرب من كلام الشيوخ وخشونته، بل كنت أخرس أعمى –بين أيديهم– الآفات تنزل علي منهم وأنا ساكت؛ وأنت لا تصبر وتريد أن تفلح، لا ولا كرامة لك»[144]. «معنى الصبر أنك لا تشكو إلى أحد ولا تتعلق بسبب،

(138) – محمد التادفي :المرجع نفسه، ص 8.
(139) – الذهبي:سير أعلام النبلاء، ج20 ،ص449.
(140) – عبد القادر الجيلاني :الفتح الرباني والفيض الرحماني ،المصدر السابق، المجلس 29،ص67.
(141) – قطعا من النقود.
(142) – محمد التادفي: المرجع السابق، ص9.
(143) – سورة الحشر [الآية 9]. الخصاصة الفقر والحاجة.
(144) – عبد القادر الجيلاني:المصدر السابق، المجلس 38، ص83.

فمن أراد العلم فعليه بالصبر، ومن رغب في الغاية فعليه بالصبر حتى النهاية، والغاية هي الله سبحانه وتعالى ورضاه، وهذا ليس له نهاية».

الصبر على البلاء: وقد صبر على البلاء صبرا جميلا وتحمله أمدا طويلا، لذلك كان يقول: «لا تهرب من البلاء، فإن البلاء مع الصبر أساس لكل خير، أساس النبوة والرسالة والمعرفة والمحبة. فإذا لم تصبر على البلاء فلا أساس لك، ولا بقاء لبناء إلا بأساس، أرأيت بيتا ثابتا على مزبلة ربوة»[145]. ويقول: «لا بد من الاختبار والابتلاء ولا يما للمدعين، لولا الابتلاء والاختبار لادعى الولاية خلق كثير؛ ومن جملة علامة الولي صبره على أذية الخلق والتجاوز عنهم»[146]. وخلاصة القول:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت*** ويبتلي الله بعض القوم بالنعم

الحلم: لقد رأينا صورا من حلم عبد القادر رحمه الله تعالى، عندما رماه شيخه حماد الدباس في نهر دجلة، فلم يغضب، بل عصر جبته ولبسها وتبعهم إلى حيث يذهبون، وكذلك عندما كان تلاميذ الشيخ حماد يتهكمون عليه ويسيئون إليه، فلا يغضب منهم، حتى نهاهم شيخهم عن ذلك. والحلم هو صفة الرجال العظام على مر العصور، فهو أحد صفات النبوة، وهو الذي سود الأحنف بن قيس، وقيس بن عاصم، وغيرهما في أقوامهم.

يقول: «لا يضحك في وجه فاسق إلا العارف، نعم يأمره وينهاه ويتحمل أذاه، ولا يقدر على هذا إلا العارفون بالله عز وجل، كيف لا يرحمون العصاة وهم موضع الرحمة، مقام التوبة والاعتذار. العارف خلقه من أخلاق الحق عز وجل فهو يجتهد في تخليص العاصي من يد الشيطان والنفس والهوى، إذا رأى أحدكم ولده أسيرا في يد كافر أليس يجتهد في تخليصه، فهكذا العارف، الخلق جميعهم عنده كالأولاد»[147].

التقوى والورع: أمور الشيخ عبد القادر كلها تدل على التقوى والورع منذ أن نشأ وترعرع في جيلان من أرومة شريفة النسب كريمة المحتد ومن والدين صالحين وجد زاهد صالح، فربوه على الصلاح ومكارم الأخلاق، وتجلى ورعه في الطريق من جيلان إلى بغداد فلم يكذب، واعترف أمام قطاع الطرق بأنه يملك أربعين دينارا، كما تجلى في بغداد حينما لم تؤثر فيه المغريات على كثرتها، وحاول أن يهرب من بغداد خوفا على دينه منها، ثم تغلب ورعه على هواه، فثبت وكان من الناجحين المفلحين، ثم تجلى ورعه بعد ذلك، عندما أقبلت الدنيا عليه، فلم يلتفت إليها، ولم يغير شيئا من سلوكه الذي كان عليه قبل إقبالها، بل استعملها لإطعام الفقراء وإغاثة الملهوفين، وإيواء التائهين وأبناء السبيل.

---

(145) – المصدر نفسه، المجلس 12،ص39.

(146) – عبد القادر الجيلاني:الفتح الرباني والفيض الرحماني،المصدر السابق: المجلس53،ص 109.

(147) – المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

وجماع الأمر كله أن أخلاق الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى كانت كأخلاق الأولياء والصالحين والصديقين من السلف الصالح رضي الله تعالى عنهم، لذلك هابه الملوك والأمراء وحصل له القبول عند الناس فأقبلوا عليه حتى ضاق بهم المكان، وحتى كان يعد في بعض مجالسه أربعمائة محبرة تنقل عنه ما يقول، وكان يحضر مجلسه نحو من سبعين ألفا[148]، يسمع بعيدهم وقريبهم سواء.

وكان تأثيره رحمه الله تعالى في السامعين كبيرا لذلك كثيرا ما كانت تذرف في مجالسه الدموع، ويرتفع فيها صوت البكاء. وقد حل ابنه عبد الوهاب محله مرة في إلقاء الدرس، فلم تذرف دمعة في مجلسه ولم يحصل بكاء، فسأل أباه عن ذلك فقال له: لأنك عندما ألقيت درسك كنت تستمد من علمك، أما أنا فكنت أستمد من الله تعالى وأنظر إليه[149].

ب- وفاته:

[148] - محمد التادفي: قلائد الجواهر ، المرجع السابق، ص15.

[149] - محمد العيني:عبد القادر الكيلاني، المرجع السابق، ص 68.

اجمع المؤرخون على ان الشيخ عبد القادر قد توفي في سنة561هـ ليلة السبت عاشر ربيع الآخر وقيل ثامن ،وقيل حادي عشر ربيع الآخر سنة561هـ الموافق لسنة 1166م وقيل لسنة 1165م وله من العمر تسعون سنة بالرجوع الى المتخصص بتدقيق التواريخ الميلادية والهجرية ومقارنتها بعضها بعضا الأستاذ احمد رضوان المراد .أفاد أن أول شهر ربيع الآخر سنة 561هـ هو يوم الخميس الموافق ل:1166/02/03م.فتكون وفاته الشيخ ليلة السبت عاشر من ربيع الآخرة سنة هـ الموافق ل:1166/02/13م عل التحقيق.

وقيل :انه لم يمرض في حياته مرضا شديدا سوى مرض موته الذي دام يوما وليلة فقط.[150]

وقد سأله ابنه عبد العزيز عن مرضه فقال له:لا يسالني احد عن شيء،أنا أتقلب في علم الله عز وجل ، إن مرضي لا يعلمه احد، ولا يعقله احد، وسأله ابنه عبد الجبار، ماذا يؤلمك من جسمك؟ فقال: جميع أعضائي تؤلمني إلا قلبي فما به أم وهو مع الله عز وجل ،وكن يقول: أنا لا أخاف من أي إنسان أنا لا أخاف من الموت ولا من ملك الموت، وكان يرفع يديه ويمدهما وهو يقول: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، ثم أتاه الحق وسكرة الموت فجعل يردد: استعنت بلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ سبحانه وتعالى هو الحي الذي لا يموت ولا يخشى الموت، سبحان من تعزز بالقدرة وقهر عباده بالموت، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ محمد رسول الله، وقد تعذر عليه التلفظ بكلمة: تعزز، فظل يرددها حتى تلفظها ، ثم اخذ يردد: الله الله الله، حتى خفي صوته ولسانه ملتصق بسقف حلقه، ثم خرجت روحه الكريمة رحمة الله عليه[151].

وقد غسله أولاده وصلى عليه ابنه عبد الوهاب ومن حضر من أولاده وتلاميذه ومريديه ودفنوه في مدرسته ليلا، وعندما انتشر نبا وفاته احتشد أهل بغداد جميعهم في باب الازج، وارتفعت أصواتهم بالبكاء، وحاولوا الدخول إلى المدرسة ليودعوا شيخهم الوداع الأخير،ولكن أبواب المدرسة ظلت مغلقة حتى علا النهار ففتحت للناس[152]

وقبيل وفاته سأله ابنه عبد الوهاب عن الوصية فقال له: عليك بتقوى الله عز وجل وطاعته. ولا تخف أحدا سوى الله، ولا ترج أحدا سوى الله، وكل الحوائج كلها الى الله عز وجل، واطلبه جميعها منه، ولا تثق بأحد سوى الله عز وجل ،ولا تعتمد إلا عليه سبحانه وعليك بالتوحيد،التوحيد التوحيد جماع الكل التوحيد[153]. ثم قال مروا باخبار الصفات على ما جاءت، الحكم يتغير، والعلم لا يتغير، الحكم ينسخ، والعلم لا ينسخ [154] .

ج- موقف العلماء من الشيخ

---

(150) –محمد العيني: المرجع نفسه ، ص76.

(151) – محمد التادفي :المرجع السابق،ص131.

(152) – محمد العيني :المرجع السابق ، ص.77

(153) – عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني وافيض الرحماني ،المرجع السابق ،ص 373 انظر كذلك :عبد القادر الجيلان:فتوح الغيب، تح عبد العليم الدرويش،مطبعة مصطفى الحلبي،مصر،ط1392،2هـ- 1973م. ص130.

(154) – عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني وافيض الرحماني، المصدر السابق ،ص374،

جمع الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى من الصفات الحميدة والأخلاق الكريمة والتقوى والورع ما جعل العلماء القدماء والمحدثين يلهجون بذكره ويثنون عليه، ويجمعون عل احترامه وتقديره، حتى ابن تيمية وابن كثير وابن القيم وغيرهم ، نظرا لأنه **أخضع التصوف للفقه وخلّصه من كثير ممّا اعتراه من الشطط والمخالفات التي كادت أن تحيد بالخط الذي رسمه له المتصوفة الأوائل وهو إصلاح النفس و المجتمع**، ما عدا واحدا من العلماء القدماء، وهو ابن الجوزي، فقد شذّ عن هذا الاجتماع ، فكان ينتقد الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى، حتى قيل إنه صنف كتابا ينقم فيه عليه أشياء كثيرة لأنه فارق سيرة السلف الصالح من أمثال الحسن البصري رحمه الله تعالى، على حسب دعواه[155]. مع أن أبا الفرج عبد الرحمان بن علي المعروف بابن الجوزي كان من معاصري الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى، فقد ولد سنة 508 هـ وقيل سنة 511 هـ وتوفي ليلة الجمعة 23 رمضان سنة 597 هـ . ولكن المعاصرة حجاب، كما يقولون. وقد تتلمذ ابن الجوزي على الوزير عون الدين يحيى بن هبيرة، وزير القائم بأمر الله والمستنجد بالله، وكان الوزير ابن هبيرة صديقا للشيخ عبد القادر رحمهما الله تعالى، يجلّه ويحترمه ويثني عليه ويرسل إليه بالهدايا، فكيف لا يجل التلميذ ويحترم من كان أستاذه يجله ويحترمه؟ كما أنّ كثيرا من المؤمنين القدماء كانوا ينتقدون ابن الجوزي لأنه ما كان يراجع ما يكتب لذلك كثرت أغلاطه في تصانيفه، كما كانوا يأخذون عليه كثرة الثناء على الكبراء، والتعاظم على الفقراء وكثرة الدعاوى. وقد قال ابن قدامة المقدسي : إننا لم نرض تصانيفه في السُّنة ولا طريقته فيها[156].

أمّا موفق الدين بن قدامة المقدسي، صاحب المغني ، فكان يقول عن الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى : «دخلنا بغداد سنة إحدى وستين وخمسمائة فإذا الشيخ عبد القادر مما انتهت إليه الرياسة بها علمًا و عملاً وحالاً واستفتاءً، كان يكفي طالب العلم عن قصد غيره، من كثرة ما اجتمع فيه من العلوم والصبر على المشتغلين، وسعة الصدر، كان ملء العين. وجمع الله فيه أوصافا جميلة وأحوالاً عزيزة، وما رأيت بعده مثله. ولم أسمع عن أحد يحكى من الكرامات أكثر مما يحكى عنه، ولا رأيت أحداً يعظّمه الناس من أجل الدين أكثر منه»[157].

واكد سلطان العلماء، شيخ الشافعية عز الدين بن عبد السلام : إنه لم تتواتر كرامات أحد من المشايخ إلا الشيخ عبد القادر ، فإن كراماته نقلت بالتواتر[158].

وذكر محب الدين عبد الله بن النجار ، في تاريخه : «عبد القادر بن أبي صالح جنكي دوست من أهل جيلان، أحد الأئمة الأعلام، صاحب الكرامات الظاهرة، كان من الأولياء المجتهدين، والمشايخ المرجوع إليهم في أمور الدين، وأحد أئمة الإسلام العالمين، العاملين»[159].

---

(155) – ابن رجب:"الذيل على طبقات الحنابلة" ،المرجع السابق،،ص 134.

(156) – المرجع نفسه ، ص135.

(157) – محمد التادفي: المرجع السابق،ص ص 6-7 .

(158) – ابن رجب :المرجع السابق،ص 134، وانظر كذلك:الذهبي:سير أعلام النبلاء، المرجع السابق،ج 20 ،ص 443.

(159) – ابن الصابوني: المرجع السابق، ص 359، ص 377.

كما أورد أبو سعد عبد الكريم السمعاني : كان عبد القادر أبو محمد من أهل جيلان إمام الحنابلة وشيخهم في عصره، فقيه ، صالح ، ديّن، خيّر ، كثير الذكر، دائم الفكر، سريع الدمعة .. حصل له القبول التام عند الناس وانتفعوا بكلامه ووعظه، وانتصر أهل السنة بظهوره.

وذكره شيخ الإسلام شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني : «كان الشيخ عبد القادر متمسكا بقوانين الشريعة، يدعو إليها وينفر عن مخالفتها، ويشغل الناس فيها، مع تمسكه بالعبادة والمجاهدة، ومزج ذلك بمخالطة الشاغل عنها غالبا كالأزواج والأولاد ، ومن كان هذا سبيله كان أكمل من غيره، لأنها صفة صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم[160]».

اما ابن رجب في "طبقاته" : عبد القادر بن أبي صالح الجيلي ثم البغدادي، الزاهد، شيخ العصر وقدوة العارفين وسلطان المشايخ ، وسيد أهل الطريقة، محيي الدين، ظهر للناس، وحصل له القبول التام، وانتصر أهل السنة الشريفة بظهوره، وانخذل أهل البدع والأهواء، واشتهرت أحواله وأقواله وكراماته ومكاشفاته، وجاءته الفتاوى من سائر الأقطار، وهابه الخلفاء والوزراء والملوك فمن دونهم.

كما اثنى عليه الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن يوسف الإشبيلي في كتاب "المشيخة البغدادية" : عبد القادر الجيلاني فقيه الحنابلة والشافعية ببغداد وشيخ جماعتهما ، له القبول التام عند الفقهاء والفقراء والعوام، وهو أحد أركان الإسلام ، انتفع به الخاص والعام، كان مجاب الدعوة، سريع الدمعة، دائم الذكر، كثير الفكر، رقيق القلب، دائم البِشْر، كريم النفس، سخي اليد، غزير العلم، شريف الأخلاق، طيب الأعراق، مع قدم راسخ في العبادة، والاجتهاد[161].

وايضا الحافظ عماد الدين بن كثير في " تاريخه" : الشيخ محيي السنة والدين عبد القادر بن أبي صالح الجيلي دخل بغداد فسمع الحديث واشتغل به حتى برع فيه . وكان له اليد الطولى في الحديث والفقه والوعظ وعلوم الحقائق، وكان له سَمْت حسن، وصمت عن غير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنه كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر للخلفاء والوزراء والسلاطين والقضاة والخاصة والعامة ، يصدعهم بذلك على رؤوس الأشهاد ، ورؤوس المنابر وفي المحافل، ولا يأخذ في الله لومة لائم، وكان فيه زهد كثير، وله أحوال خارقات للعادات، ومكاشفات، وبالجملة كان من سادات المشايخ الكبار، قدس الله سره، ونوّر ضريحه[162].

اما الشيخ حسن قضيب البان، شيخ الموصل وهو من معاصري الشيخ عبد القادر رحمهما الله تعالى : «الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى قائد ركب المحبين ، وقدوة السالكين، وإمام الصديقين، وحجة العارفين، وصدر المقربين، في هذا الوقت»[163].

---

(160) – محمد التادفي:المرجع السابق ،ص 23 .

(161) – المرجع السابق، ص 7 .

(162) – محمد التادفي: المرجع نفسه، ص 6 .

(163) – محمد التادفي: المرجع نفسه، ص 22 .

كما ذكر الإمام أبو العباس الشهي بابن فضل الله في كتاب " مسالك الأبصار" : « الشيخ عبد القادر بن أبي صالح الجيلي الحنبلي، علم الأولياء، سيد طائفة كانوا بالنهار لا يفتُرون، وبالأسحار هم يستغفرون .. كان له مجلس يوالي فيه الانتحاب ويحرك فيه الأصحاب، وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب .. توكل على الله حق اتكاله »[164].

أما الإمام العلامة الشيخ عفيف الدين أبو محمد عبد الله بن سعد اليافعي اليمني ثم المكي الشافعي في "تاريخه" :« قطب الأولياء الكرام، شيخ المسلمين والإسلام، ركن الشريعة وعلم الطريقة .. شيخ الشيوخ ، قدوة الأولياء العارفين الأكابر أبو محمد عبد القادر بن أبي صالح الجيلي قدّس سره ونوّر ضريحه، تحلّى رضي الله عنه بحلى الشريعة وتجمل بتيجان الفنون الدينية ، وتزوّد بأحسن الآداب و أشرف الأخلاق .. قام بنص الكتاب والسنة خطيبا على الأشهاد، ودعا الخلق إلى الله سبحانه و تعالى فأسرعوا إلى الانقياد ... و أبرز جواهر التوحيد من بحار علوم تلاطمت أمواجها... و أبرأ النفوس من أسقامها وشفى الخواطر من أوهامها ... وكم ردّ إلى الله تعالى عاصبا ... تتلمذ له خلْق كثير من الفقهاء »[165].

ولا ننسى شيخ الإسلام الشيخ محيي الدين النّووي رحمه الله تعالى في كتابه " بستان العارفين" قال : « ما علمنا فيما بلغنا من الثِّقات الناقلين كرامات الأوليا أكث مما وصل إلينا من كرامات القطب شيخ بغداد محيي الدين عبد القادر الجيلي رضي الله عنه ، كان شيخ السادة الشافعية والسادة الحنابلة ببغداد، وانتهت إليه رياسة العلم في وقته، وتخرّج بصحبته غير واحد من الأكابر ، وانتهى إليه أكثر أعيان مشايخ العراق، وتتلمذ له خلْق لا يُحصَوْن عددا من أرباب المقامات الرفيعة ، وانعقد عليه إجماع المشايخ والعلماء رضي الله عنهم بالتبجيل والإعظام، والرجوع إلى قوله والمصير إلى حكمه، وأهرع إليه أهل السلوك من كل فج عميق، وكان جميل الصفات، شريف الأخلاق، كامل الأدب والمروءة، كثير التواضع دائم البِشر، وافر العلم والعقل، شديد الاقتفاء لكلام الشرع وأحكامه ، مكرِّما لأرباب الدين والسنة، مبغضا لأهل البدعة والأهواء ، محبا لمريدي الحق ، مع دوام المجاهدة ، ولزوم المراقبة إلى الموت ، وكان له كلام عالٍ في علوم المعارف شديد الغضب إذا انتهكت محارم الله سبحانه وتعالى، سخي الكف، كريم النفس على أجمل طريقة ، وبالجملة فلم يكن في زمنه مثله رضي الله عنه»[166].

وأيضا الشيخ أبو العباس أحمد بن أبي الحسن علي الرفاعي (500هـ- 578هـ) – من ذرية الإمام موسى الكاظم رحمه الله تعالى – وهو من معاصري الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى : «الشيخ عبد القادر من يستطيع

---

[164] – المرجع نفسه ، ص 135 .

[165] – المرجع نفسه ، ص 136 .

[166] – محمد التادفي:المرجع نفسه، ص 137 .

وصف مناقبه؟ ومن يبلغ مبلغه؟ ذاك رجل بحر الشريعة عن يمينه ، وبحر الحقيقة عن يساره، من أيهما شاء اغترف لا ثاني له في وقتنا هذا »[167].

وقد ذكر صاحب كتاب "قلائد الجواهر" كثيرا من الأقوال الأخرى في الثناء على الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى، لجملة من العلماء والصالحين، بعضهم كان معاصرا للشيخ رحمه الله تعالى، وقد مرّ ذكر بعضها في أثناء هذا الكتاب.

ونأتي الآن إلى الشيخ تقي الدين أحمد بن تيمية في الشيخ عبد القادر رحمهما الله تعالى، فهو يثني عليه ثناء عاطرا ، وإذا مرّ ذكره قال : قدس روحه أو رضي الله عنه ، انظر يقول في كتاب "القدر": يقول الشيخ عبد القادر قدّس الله روحه : كثير من الرجال إذا وصلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا .. أما أنا فنازعت أقدار الحق بالحق للحق .. فالعبد مأمور بأن يجاهد في سبيل ويدفع ما قدّر من المعاصي بما يقدّر من الطاعة، فهو منازع للمقدور المحظور بالمقدور به من الله تعالى[168].

و أمّا أئمة الصوفية المشهورين مثل الجنيد وأتباعه والشيخ عبد القادر وأمثاله، فهؤلاء من أعظم الناس لزومًا للأمر والنهي .. فالشيخ عبد القادر كلامه كله يدور على اتباع المأمور وترك المحظور والصبر على المقدور[169].

كما ذكر ابن تيمية قول : « الشيخ عبد القادر رضي الله عنه وعلامة فناء إرادتك يفعل الله أنك لا تريد مرادا قط، فلا يكن لك غرض ولا مرام، لأنك لا تريد مع إرادة الله سواها، ساكن الجوارح، مطمئن الجنان، مشروح الصدر، منور الوجه ، قلت : هذا مقام آخر للشيخ عبد القادر، وهو الذي يذكره أئمة الدين»[170].

واثنى عليه بتمسكه بالكتاب والسنة قائلا:« فقد بيّن الشيخ عبد القادر رضي الله عنه أنّ لزوم الأمر والنهي لابد منه في كل مقام »[171].

والمؤلفون المحدثون لهم أقوال حميدة أيضا في الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله تعالى ، فهذا أمير البيان شكيب أرسلان يقول : « كان الشيخ عبد القادر الجيلاني متصوفا عظيما، وصلت طريقته إلى إسبانيا، ثم انتقل مركزها

---

(167) – ابن الملقن:طبقات الاولياء،تح نور الدين شريبه، مكتبة الخانجي،القاهرة،ط 4، 1415هـ- 1994م ، وانظر ايضا :محمد التادفي:المرجع السابق، ص 66 .

(168) – ابن تيمية: مجموع الفتاوى،كتاب القدر، المرجع السابق،ج 8، ص 306 .

(169) – المرجع السابق، ج 8، ص 369 .

(170) – المرجع نفسه،كتاب السلوك ،ج 10، ص 508 .

(171) – المرجع نفسه ، ج 10، ص 522 .

إلى فاس بعد سقوط غرناطة ، وبواسطتها زالت البدع من بين البربر، وتمسّكوا بالسنة والجماعة، كما اهتدى على يدها زنوج غرب إفريقيا »[172].

والدكتور أحمد الشلبي صاحب موسوعة التاريخ الإسلامي يقول : « عُرف الجيلاني بالتسامح وحب الجار وإغضاء الطرف عن الغني وملذات الحياة، ومن تسامحه أنه كان إذا ذُكر عنده أهل الكتاب لم يزد عن أن يعبر عن حسرته لانحرافهم عن طريق النور ، ويدعو الله أن يهديهم سَواء السبيل، ومن حبه للجار أنه كان لا ينعم بطعام أو مال دون جيرانه، فكان يوزع عليهم كل ما يرد إليه من الهدايا والأموال ويدعوهم إلى مشاركته طعامه ، وكان عزوفه عن الغِنى سببا في عيشه فقيرا على الرغم من أن الملوك والسلاطين كانوا يتقربون إليه بالهدايا والأموال ، ولكنه كان يوزعها في الحال على الحاضرين وعلى الجيران والمريدين ، وأكثر أتباعه ساروا على هذا النمط من خُلُق أستاذهم ، وكان هذا هو السبب في انتشار الطريقة القادرية وكثرة أتباعها »[173].

والشيخ عبد الله بن محمد الخليفي، إمام وخطيب المسجد الحرام، يذكر الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى ويقول عند ذكره : قدّس الله روحه، يقول في كتابه "دواء القلوب والأبدان من وساوس الشيطان"[174] : « وذكر الشيخ عبد القادر الجيلاني قدّس الله روحه ، في كتاب "الغنية" عن ابن عباس رضي الله عنهما : إذا كانت ليلة القدر يأمر الله تعالى جبرائيل عليه السلام أن ينزل إلى الأرض ومعه سكان سدرة المنتهى ، سبعون ألف ملك، ومعهم ألوية من نور. فإذا هبطوا إلى الأرض ركّز جبرائيل لواءه والملائكة ألويتهم في أربعة مواطن : عند الكعبة وقبر النبي صلى الله عليه وسلم ومسجد بيت المقدس وطور سيناء. ثم يقول جبرائيل عليه السلام : تفرقّوا ، فيتفرّقون ، فلا يبقى دار ولا حجرة ولا بيت ولا سفينة فيها مؤمن أو مؤمنة إلا دلفت الملائكة فيها إلا بيت فيه كلب أو خنزير أو جنب من حرام أو صورة تماثيل ، فيسبحون ويقدسون ويهللون يستغفرون لأمة محمد صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان وقت الفجر يصعدون إلى السماء »[175].

وأبو الحسن الندوي يقول عنه : « في القرن السادس الهجري، وقد تباعد الزمان عن النبوة وآثارها وبركاتها واتسعت الدنيا وكثرت أسباب الغفلة واللهو ، نهض في بغداد ، قلْبِ العالم الإسلامي، رجل قوي الشخصية ،

---

(172) – احمد حران:حاضر العالم الإسلامي:اشبيليا للنشر،الرياض،ط1، 1422هـ-2009م .

(173) – د.احمد شلبي:موسوعة التاريخ الإسلامي،مكتبة النهضة المصرية،القاهرة،ط1984،7م، ج 6، ص 211 .

(174) – د.احمد شلبي:المرجع السابق، ج 6، ص 192 .

(175)– عبد القادر الجيلاني: الغنية لطالبي طريق الحق،المرجع السابق، ص 192 .

قوي الأيمان ، قوي العلم ، قوي العلم ، قوي الدعوة ، قوي التأثير ، هو الشيخ عبد القادر ، فجدد دعوة الإيمان والإسلام الحقيقي ، والعبودية الخالصة . وحارب النفاق ، وفتح باب البيعة والتوبة على مصراعيه ، يدخل منه المسلمون ، يجدّدون العهد والميثاق مع الله تعالى ، وقد دخل في هذا الباب خلق لا يحصيهم إلا الله تعالى ، وظل الشيخ يربيهم ويحاسبهم ويشف عليهم فأصبحوا يشعرون بالمسئولية بعد البيعة والتوبة وتجديد الإيمان .. »[176].

اما الشيخ سعيد حوى رحمه الله تعالى فمدحه : « إنّ الشيخ الجيلاني رحمه الله ، أجمعت الأمة على قبوله، حتى ابن تيمية رحمه الله يقول : إنّ كراماته منقولة إلينا تواترا .. وإن مطالعة كتب هؤلاء الفقهاء الذين تكلّموا في أمر السَّيْر إلى الله تعالى تحرّك الهمة نحو الله تعالى بشكل عجيب »[177].

[176]- ابي الحسن الندوي: المرجع السابق ،ص 282.

[177] - سعيد حوى: المرجع السابق ص 179 .

كما ذكر كثير من أصحاب التراجم نبذا عن الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى في كتبهم، كإبن كثير في "البدايو والنهاية" ، وابن الأثير "الكامل"، والسمعاني في كتاب "الأنساب" ، والشيخ حسين بن محمد الديار بكري في كتاب "تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس"، والزركلي في كتاب"الأعلام"، وغيرهم. كما ورد ذكره أيضا في موسوعة لاروس الفرنسية وفي الموسوعة العربية الميسرة، وللمستشرق الإنجليزي مرجليوث رسالة في ترجمته أيضا.

كما ذكره ابن تيمية رحمه الله كثيرا في كتبه عن : القدر، والسولك، والتصوف، في سياق بحثه في هذه الأمور. وقد علمت أنّ الأستاذ موفق شكري الذي يعمل في مركز الدعوة والإرشاد في دبي يعد الآن رسالة عن الشيخ عبد القادر الكيلاني لينال بها درجة الدكتوراه من جامعة الزيتونة بتونس؛ وأنّ الشيخ عبد الوهاب المشهداني الذي يعمل واعظا في أوقاف رأس الخيمة يُعد كتابا عن الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى.

المطلب الثاني: آثار الشيخ وخلفه العلمي

أ- تلاميذ الشيخ عبد القادر :

يؤكد معظم مؤلفي كتب التراجم والسير أنه كان يتخرج من مدرسة الشيخ ورباطه في بغداد كل سنة نحو ثلاثة آلاف تلميذ ومريد ، وفي ثلاث وثلاثين سنة من التدريس يكون قد تخرج على يديه نحو مائة ألف تلميذ ومريد.

وقد انتشر هؤلاء التلاميذ والمريدون في أنحاء العالم الإسلامي جميعه في ذلك الوقت كدعاة ومرشدين ومصلحين،ولم يحفظ التاريخ أسماء أكثرهم لأنهم لا يقعون تحت الحصر. ولكنه حفظ أسماء المشهورين منهم كأبي الفتح نصر بن المنى الذي أصبح شيخ الحنابلة ، بعد وفاة الشيخ رحمه الله، و أحمد بن أبي مبارك أبي السعود الحريمي ، والحسن بن مسلم الذي كان رباطه بالقادسية، ومحمود بن عثمان بن مكارم النّعال الذي كان يشرف لى رباط الشيخ ببغداد ، وعمر بن مسعود البزاز الذي تاب عل يديه كثير من مماليك الخليفة، وعبد الله الجبائي من قرية الجبة بلبنان ، كان نصرانيا، سُبي إلى دمشق فأسلم فاشتراه زين الدين علي بن غبراهيم بن نجا أحد أصحاب الشيخ فأعتقه و أرسله إلى الشيخ في بغداد سنة 540 هـ ليتعلم ويتفقّه فظل معه حتى وفاته ، ثم صحب الموفق بن قدامة صاحب "المغني" ، ثم رحل إلى أصفهان فدرّس فيها و أفتى إل أن توفى سنة 605 هـ، وحامد بن محمود الحراني الذي اتصل بنور الدين زنكي رحمه الله تعالى فولاّه القضاء والمظالم والتدريس في حران، وزين الدين بن إبراهيم بن نجا الأنصاري الدمشقي ، درس في مدرسة الشيخ ببغداد ، ثم رحل إلى دمشق ومصر واتصل بصلاح الدين رحمه الله تعالى و أصبح مستشارا له، حتى كان يسميه : عمرو بن العاص رضي الله عنه .

و أرسل والد موفق الدين بن قدامة ابنه الموفق إلى بغداد ليدرس في مدرسة الشيخ رحمه الله تعالى، فذهب هو وان خالته الحافظ عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي ، يقول ابن قدامة : « لبست أنا و الحافظ عبد الغني الخرقة من يد شيخ الإسلام عبد القادر في وقت واحد ، و اشتغلنا عليه بالفقه وسمعنا منه وانتفعنا بصحبته[178]. وأسكننا في مدرسته ، وكان يعنى بنا ، وربما أرسل إلينا إبنه يحيى فيسرج لنا السراج ، وربما يرسل إلينا طعاما من منزله ، وكان يصلي الفريضة بنا إماما ، وكنت أقرأ عليه من حفظي من كتاب الخِرَقي غدوة، ويقرأ عليه الحافظ عبد الغني من كتاب " الهداية" في الكتاب، فأقمنا عنده شهراً وتسعة أيام ثم توفّاه الله تعالى»[179].

وموفق الدين بن أحمد بن محمد بن قدامة هذا من منطقة القدس بفلسطين ، وُلد في شعبان سنة 541 هـ ورحل في سنة 561 هـ وابن خالته عبد الغني إلى بغداد إلى بغداد فسمعا من الشيخ عبد القادر ومن هبة الله الدقاق وابن البطي و أبي زرعة وغيرهم، وصحب صلاح الدين الأيوبي رحمه الله تعالى . وتوفي سنة 620 هـ بدمشق ، ودفن بسفح جبل قاسيون ، وذلك بعد أن ألّف كتاب " المغني في شرح الخرقي" في الفقه الحنبلي، مع

---

[178] – التادفي: المرجع السابق، ص 6.

[179] – الذهبي: قلائد الجواهر،المرجع السابق، جـ 20 ص 439 .

ذكر أقوال المجتهدين من أصحاب المذاهب الأخرى ودليل كل واحد منهم، فجاء من أوسع كتب الفقه المقارن وأجلّها و أنفعها، وهو في تسع مجلدات.

ومن تلاميذه أيضا أحمد بن المبارك المرقعاتي ، ومحمد بن الفتح الهروي اللذان يشرفان على مدرسته في بغداد[180] وكان أبو الفتح الهروي يشرف على خدمة الشيخ أيضا، فهو يقول : « خدمت سيدي الشيخ عبد القادر رضي الله عنه أربعين سنة فكان في مدتها يصلي الصبح بوضوء العشاء، وكان إذا أحدث جدد في وقته وضوءه وصلى ركعتين ، وكان يصلي العشاء ويدخل خلوته ولا يدخلها أحد معه ، ولا يخرج منها إلا عند طلوع الفجر»[181].

ومن تلاميذه أيضا، شعيب أبو مدين ، دفين تلمسان ، شيخ المغرب ، وأبو عمرو عثمان بن مرزوق بن حميد بن سلامة القرشي نزيل مصر وشيخها ، وقد اجتمع الشيخ عبد القادر رحمه الله تعال بهما، وكانوا في الزمن القديم يمضون الأشهر ذوات العدد في الحج ، فتفقّها عليه ، وسمها منه .

يقول إبنه عبد الرزاق رحمه الله تعالى : « لما حجّ والدي رحمه الله تعالى في السنة التي كنت معه فيها ، اجتمع به الشيخان ابن مرزوق وابن مدين ، ولبسا منه خرقة بركة — هي كناية عن المبايعة- و أخذا العهد بالالتزام ، وسمعا عليه جزءًا من مروياته، وجلسا بين يديه، وكان الشيخ سعد ابن الشيخ عثمان بن مرزوق المذكور يقول : كان أبي رحمه الله تعالى يقول : قال شيخنا عبد القادر كذا وكذا، رأيت سيدنا الشيخ عبد القادر يفعل كذا ، سمعت استاذنا الشيخ أبا محمد عبد القادر يقول كذا، كان إمامنا وقدوتنا الشيخ عبد القادر يفعل كذا»[182].

ويذكر صاحب "قلائد الجواهر"[183] قائمة طويلة بأسماء بعض تلاميذ الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى منهم: الإمام العالم القاضي أبو يعلى محمد الفراء ، والشيخ أبو محمد محمود بن عثمان البقال — وفي رواية النعال- ، والإمام أبو عمرو عثمان الملقب بشافعي زمانه، والشيخ الفقيه رسلان بن عبد الله بن شعبان ، والقاضي عبد المالك بن عيسى بن هرباس ، وأخوه عثمان وولده عبد الرحمان وعبد الكريم السمعاني محدث خراسان ويوسف بن هبة الله الدمشقي وغيرهم كثير . هذا بالإضافة إلى أولاده كلهم ، فقد تتلمذوا عليه وسمعوا منه، وتولّوا التدريس والتعليم ، بعضهم في حياته، وبعضهم الآخر بعد وفاته.

---

(180) – د.ماجد عرسان :هكذا ظهر جيل صلاح الدين ، ص 163 .

(181)– محمد التادفي :المرجع السابق، ص 76.

(182) – المرجع نفسه، ص 5.

(183) – المرجع نفسه،ص ص 5 – 6.

مدرسة الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى بعد وفاته :

اشترى الأغنياء مدرسة الشيخ أبي سعيد المخرمي، أستاذ الشيخ عبد القادر رحمهما الله تعالى، التي كانت بمحلة باب الأَزج –أصبحت تدعى فيما بعد بمحلة باب الشيخ، نسبة إلى الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى – ووسّعوها وأعادوا بناها بأموال الأغنياء و عمل الفقراء في سنة 528 هـ ثم فوّضها إلى الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى. فقسمها إلى مدرسة لدراسة التلاميذ، وإلى رباط لتربية المريدين، وبعد أن توفي الشيخ رحمه الله تعالى في سنة 561 هـ لم يتخلّ أولاده عن المدرسة. بل ظلوا يدرّسون فيها : فدرس فيها ابنه الشيخ عبد الجبار حتى توفي سنة 575 هـ وابنه الشيخ ابراهيم حتى توفي سنة 590 هـ ، وابنه الشيخ عبد الوهاب حتى توفي سنة 593 هـ، وابنه الشيخ عبد الرزاق حتى توفي سنة 603 هـ،ثم درّس فيها من حفدته الشيخ عبد السلام ابن الشيخ عبد الوهاب، والشيخ نصر قاضي القضاة ابن الشيخ عبد الرزاق وغيرهما. وشيّدوا جامعا للصلاة متصلا بالمدرسة، كان مشهورا باسم الجامع ذي القباب السبعة. وعندما اجتاح هولاكو والتتار مدينة بغداد في سنة 656 هـ قتلوا كثيرا من أفراد العائلة الكيلانية، وهدّموا المرسة والجامع، ثم أَعيد بناؤهما بعد زوال خطر التتار، وفي سنة 914 هـ عندما احتل الشاه إسماعيل الصفوي بغداد هدم المدرسة والجامع أيضا، وعندما استعادها السلطان العثماني سليمان القانوني ف يوم الإثنين 24 جمادى الأولى سنة 941 هـ (1534م) أمر بإعادة بنائهما، وبناء تكيةٍ للفقراء إلى جانب الجامع، فبدأ سنان باشا ببناء الجامع ، ولكنه توفي قبل إكماله، فأكمله والي بغداد علي باشا في العقد التاسع من المائة العاشرة للهجرة.

ومما يذكر هنا أن ابن بطوطة عندما زار بغداد سنة 727 هـ وكانت تحت حكم أبي سعيد خان من حفدة هولاكو ذكر أسماء الأضرحة والمزارات التي شاهدها ولم يذكر بينها ضريح الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى مما يدل على أنه كان لا يزال خربا في ذلك الوقت[184].

وفي سنة 1033 هـ تعرّضت المدرسة والجامع للتخريب مرة أخرى عندما احتل الصفويون بقيادة الشاه عباس الأول بغداد مرة أخرى سنة 1623، وعندما أخرجهم منها السلطان العثماني مراد الرابع في سنة 1048 هـ (1638م) جدّد العمارة ثانية تحت إشراف المفتي الأكبر يحيى الذي أشرف أيضا على إعادة بناء مسجد أبي حنيفة رحمه الله.

وفي سنة 1139 هـ عمّر والي بغداد أحمد باشا صُفّة في الجامع، وفي سنة 1282 هـ أضاف السيد علي الكيلاني نقيب الأشراف الرواق الكبير المجاور للحرم، وفي سنة 1297 هـ عمّر السيد سلمان الكيلاني نقيب الأشراف منارة على الباب الغربي للجامع، وفي سنة 1317 هـ عمّر السيد عبد الرحمان الكيلاني نقيب الأشراف ساعة لأوقات الصلاة تناطح السحاب. وحوضاً للوضوء ورواقا والطابق العلوي الكائن فوق حجرات الطابق

(184) – د.محمد العيني :المرجع السابق، ص 90.

الأرضي[185]، وكان السلطان العثماني الثالث والعشرون أحمد الثالث (1703م) قد أمر ببناء مدرستين أضافهما إلى البناء القديم ليدرس فيهما التلاميذ والمريدون وينامون ويأكلون مجانا.[186]

عندما دخل السلطان العثماني سليمان القانوني بغداد في سنة 1941 هـ أسند نقابة الأشراف فيها إلى السيد الشيخ زين الدين الكيلاني من ذرية الشيخ عبد العزيز ابن الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى. وهذه ترجمة كتاب التولية : « مفخر السادات الكرام الشيخ زين الدين الكيلاني ، بعد التحية الوافية لقد عهدنا إليكم نقابة الأشراف بمدينة بغداد المحروسة ، وفوّضناكم بتصديق وثائق السادات من صحيحي النسب، وبمنع استعمال العلامة الخضراء لمن لم يكونوا صحيحي النسب. و أملنا بأنكم ستبذلون قصارى مقدوركم لإجراء هذه الخدمات، ولتكن علامتنا هذه مصدر العمل. كتب ببغداد المحمية في 20 رمضان سنة 941 هـ» . السلطان الغازي : سليمان خان القانوني[187].

واستمرت نقابة الأشراف محصورة في ذرية الشيخ عبد العزيز ببغداد منذ ذلك الوقت حتى الآن، ما عدا فترة قصيرة تولى فيها نقابة أشراف بغداد واحد من ذرية الشيخ عبد الرزاق ابن الشيخ عبد القادر رحمه الله، الموجودين في مدينة حماه، هو الشيخ إبراهيم ابن الشيخ شرف الدين ابن أحمد ابن الشيخ علي الهاشمي الكيلاني ، وكان الشيخ عبد الرزاق أخو الشيخ إبراهيم المذكور متولّيا نقابة الأشراف في حماه في الوقت نفسه[188]. وقد بنى الشيخ إبراهيم هذا عدة جوامع في مدينة حماه، منها جامعان أطلق عليهما اسمه. أحدهما جامع الشيخ إبراهيم في حي الكيلانية في الحاضر، وقد تهدم عندما هُدم الحي بأكمله سنة 1982م. والآخر جامع الشيخ إبراهيم الكائن في المدخل الشمالي للسوق الطويل بحماه وفيه مدرسة دار العلوم الشرعية.

والآن يوجد نقيبان للأشراف في بغداد هما السيد يوسف ابن السيد عبد الله الكيلاني ، والسيد أحمد محمود حسام الدين الكيلاني[189].

أما في حماه فكان آخر نقباء الأشراف فيها هو الشيخ محمد مرتضى ابن الشيخ صالح الكيلاني الذي توفي في سنة 1969 م رحمه الله تعالى، ثم ألغيت نقابةالأشراف في سوية بعد ذلك –مع العلم بأن كيلاني حماه هم من ذرية الشيخ عبد الرزاق ابن الشيخ عبد القادر رحمهما الله تعالى–.

---

(185) – يونس السامرائي:المرجع السابق، ص 42.

(186)– د.محمد العيني :المرجع السابق ،ص 92.

(187) – يونس السامرائي :المرجع السابق، ص 39.

(188)– فخري الكيلاني: الموجز في تاريخ القطب الغوث ص 16.

(189)– يونس السامرائي: المرجع السابق، ص 41.

ب- مؤلفات الشيخ عبد القادر :

ألّف الشيخ عبد القادر كثيرا من الكتب، ونظم كثيرا من الأشعار، أذكر فيمايلي ما وصل إليه علمي :

1) الغنية لطالبي طريق الحق، في الأخلاق والتصوف والآداب الإسلامية ، جزءان، طبع في بولاق سنة 1288 هـ.
2) الفتح الرباني والفيض الرحماني، وهو مجالس في الوعظ والإرشاد.
3) فتوح الغيب، يحوي 78 مقالة في العقائد والتصوف والإرشاد.
4) حزب بشائر الخيرات في الصلاة على صاحب الآيات البينات، ويليه ورد الجلالة للجيلاني، طبع في الإسكندرية سنة 1304.
5) جلاء الخاطر من كلام الشيخ عبد القادر، جُمع فيه ما قاله الشيخ رحمه الله تعالى في مجالس وعظه، أولها يوم الجمعة تاسع رجب وآخرها الرابع والعشرون من رمضان سنة 546 هـ. (كشف الظنون ص 592).
6) حزب الرجاء والانتها للشيخ عبد القادر الكيلاني المتوفى سنة 561هـ. (كشف الظنون ص 662).

الرسالة الغوثية للشيخ عبد القادر الجيلي، (كشف الظنون ص 879). وتوجد نسخة منها في مكتبة الأوقاف ببغداد، (كتاب السامرائي ص 16).

أصول العقيدة عند الشيخ عبد القادر الجيلاني.

المبحث الأول: المنهاج العقائدي للشيخ عبد القادر.

المطلب الأول: -عقيدته.

المطلب الثاني: -منهجه في توضيح العقيدة.

المبحث الثاني: - مفهوم التوحيد عند الشيخ عبد القادر.

المطلب الأول: -توحيد الربوبية.

المطلب الثاني: -توحيد الالوهية.

المطلب الثالث: -توحيد الأسماء والصفات.

المبحث الثالث:-مسألة الصفات عند الشيخ عبد القادر.

المطلب الأول:-الصفات الذاتية(صفة اليدان/صفة القدم/صفة الأصابع/صفة العلو).

المطلب الثاني :-الصفات الفعلية(الاستواء/صفة النزول/صفة الكلام).

المبحث الرابع: -عقيدة الشيخ في بعض المسائل.

المطلب الأول:- عقيدته في القضاء والقدر.

المطلب الثاني:- عقيدته في القرآن الكريم.

المطلب الثالث:- عقيدة رؤية الله عز وجل عند الشيخ.

المطلب الرابع: - التأويل عند السلف الصالح واثبات المجاز.

المبحث الخامس: -ردع الجيلاني للابتداع والاستدراج الشيطاني.

المطلب الأول:-البدعة وموقف الشيخ منها .

المطلب الثاني:-الفرق بين الكرامة والاستدراج.

المطلب الثالث: -الشطح وموقف الشيخ منه.

المبحث السادس: -دعوته لمواقف عقائدية عملية.

المطلب الأول:- دعوته للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

المطلب الثاني:- دعوته إلى الجهاد في سبيل الله.

الفصل الثاني: أصول العقيدة عند الشيخ عبد القادر الجيلاني

المبحث الأول: المنهاج العقائدي للشيخ عبد القادر:

المطلب الأول: عـــقيدته

عقيدة الشيخ عبد القادر رحمه الله تعال هي الإتباع بدون ابتداع، والتقيد بالكتاب والسنة في كل حال. و كان يكثر من ذكر ذلك في مجالسه و دروسه، و في خطبه و مواعظه، و في كتبة و وصاياه. «كان يقول لأصحابه: اتبعوا ولا تبتدعوا، و أطيعوا ولا تخالفوا، واصبروا ولا تجزعوا، وانتظروا ولا تيأسوا».[190]

و يقول: «يا غلام، صحبتك للأشرار توقعك في سوء الظن بالأخيار، امش تحت كتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم تسليما و قد أفلحت».[191] «عليكم بالإتباع من غير ابتداع، عليكم بمذهب السلف الصالح. امشوا في الجادة المستقيمة، لا تشبيه ولا تعطيل، بل إتباعا لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما من غير تكلف ولا تطبع و لا تشدد ولا تمشدق ولا تمعقل، يسعكم ما وسع من كان قبلكم. ويحك، تحفظ القرآن ولا تعمل به، تحفظ سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما و لا تعمل بها، لأي شيء تفعل ذلك! تأمر الناس و أنت لا تفعل، و تنهاهم وأنت لا تنتهي».[192]

لا فلاح لك حتى تتبع الكتاب و السنة، اتبع الشيوخ العلماء بالكتاب والسنة العاملين بهما، أو حسن الظن بهم، وتعلم منهم و أحسن الأدب بين أيديهم و العشرة معهم، و قد أفلحت، إذا لم تتبع الكتاب والسنة ولا الشيوخ العارفين بهما فما تفلح ابدأ. أما سمعت: «من استغنى برأيه ضل».[193]

«لا تبتدع وتحدث في دين الله عز وجل شيئا لم يكن، اتبع الشاهدين العدلين الكتاب والسنة فإنهما يوصلانك إلى ربك عز وجل، وأما إن كنت مبتدعا فشاهداك عقلك وهواك، فلا جرم يوصلانك إلى النار ويلحقانك بفرعون وهامان و بجنودهما، لا تحتج بالقدر فلا يقبل منك: لا بد لك من الدخول إلى دار العلم والتعلم ثم العمل ثم الإخلاص».[194]

«إذا وقع، عندك، حب رجل وبغض آخر فلا تحب هذا و تبغض هذا بنفسك و بطبعك، بل حكمهما كليهما على الكتاب والسنة فإن وافقا الذي أحببته فدم على محبته، و إن خالفا فارجع عن محبته، و إن وافقا الذي أبغضت فارجع عن بغضه، و إن خالفا فدم على بغضه، و إن لم ينفعك ذلك ولم يبن لك فارجع إلى قلوب الصديقين وسلهم عنهما. فالمؤمن له نور ينظر به».[195]

---

(190) – الشعراني:المرجع السابق، ص 129.

(191)– عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني والفيض الرحماني ،المصدر السابق، ا، ص 4.

(192) – المصدر السابق، ، ص10.

(193) – الصدر نفسه: ، ص 39.

(194) – المصدر نفسه: ، ص 47.

(195) – المصدر نفسه: ، ص 59.

« هذا القرآن والعلم حجة عليكم إذا لم تعملوا بهما، إذا حضرتم عند العلماء ولم تقبلوا ما يقولون لكم كان حضوركم عندهم حجة عليكم، ويكون عليكم إثم ذلك كما لو لقيتم الرسول صلى الله عليه وسلم تسليما ولم تقبلوا منه».[196]

« وقال الشيخ القدوة شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمد السهروردي: سمعت الشيخ محيي الدين عبد القادر يقول على الكرسي بمدرسته: كل ولي على قدم نبي وأنا على قدم جدي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وما رفع المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم قدما إلا وضعت قدمي في الموضع الذي رفع قدمه منه إلا أن قدما من أقدام النبوة فإنه لا سبيل أن يناله غير نبي».[197]

لقد كانت عقيدة الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى هي الإتباع بدون ابتداع، و التقيد بالكتاب والسنة في كل حال. وكان يكثر من ذكر ذلك في مجالسه و دروسه، وفي خطبه ومواعظه، وفي كتبه ووصاياه. «كان يقول لأصحابه: اتبعوا ولا [198]تبتدعوا، وأطيعوا ولا تخالفوا، واصبروا ولا تجزعوا، وانتظروا ولا تيأسوا»

ويقول:«يا غلام ،صحبتك للأشرار توقعك في سوء الظن بالأخيار، امش تحت كل كتاب الله عز وجل وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وقد أفلحت»[199]

«عليكم بالاتباع من غير ابتداع عليكم بمذهب السلف الصالح. امشوا في الجادة المستقيمة، لاتشبيه ولاتعطيل، بل اتباعا لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير تكلف ولاتطبع ولاتشدد ولا تمشدق ولا تمعقل، يسعكم ما وسع من كان قبلكم.ويحك، تحفظ القرآن ولاتعمل به، تحفظ سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تعمل بها، لأي شيء تفعل ذلك! تأمر الناس وأنت لا تفعل وتنهاهم وأنت لا تنتهي»[200]

«لا فلاح لك حتى تتبع الكتاب والسنة، اتبع الشيوخ العلماء بالكتاب والسنة العاملين بهما، أو حسن الظن بهم، و تعلم منهم وأحسن الأدب بين أيديهم والعشرة معهم، وقد أفلحت، اذ لم تتبع الكتاب و السنة ولا الشيوخ العارفين بهما فما تفلح أبدا. أما سمعت: من استغنى برأيه ضل»[201].

«لا تبتدع وتحدث في دين الله عز وجل شيئا لم يكن،اتبع الشاهدين العدلين الكتاب و السنة فإنهما يوصلانك إلى ربك عز وجل، وأما إن كنت مبتدعا فشاهداك عقلك وهواك، فلا جرم يوصلانك إلى النار ويلحقانك بفرعون وهامان وجنودهما، لا تحتج بالقدر فلا يقبل منك: لا بد لك من الدخول إلى دار العلم والتعلم ثم العمل ثم الإخلاص»[202].

---

[196]- عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني الفيض الرحماني،المصدر السابق، ص 5.

[197]- إسماعيل القادري :الفيوضات الربانية في المآثر والاوراد القادرية،د تح، مطبعة مصطفى الحلبي،مصر،د ط،د ت، ص 70.

[198] - الشعراني:المرجع السابق، ص129.

[199]- عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني والفيض الرحماني،المصدر السابق،المجلس 4.

[200] - المصدر السابق، المجلس 10(ص178).

[201]- المصدر نفسه، المجلس 39.

[202]- المصدر نفسه،مجلس47.

«إذا وقع، عندك، حب رجل وبغض آخر فلا تحب هذا و تبغض هذا بنفسك وطبعك، بل حكمهما كليهما على الكتاب والسنة فإن وافقا الذي أحببته فدم على محبته، وإن خالفا فارجع عن محبته؛ وإن وافقا الذي أبغضته فارجع عن بغضه، وإن خالفا فدم على بغضه، وإن لم ينفعك ذلك ولم يبن لك فارجع إلى قلوب الصديقين وسلهم عنهما؛ فالمؤمن له نور ينظر به»[203]

«هذا القرآن والعلم حجة عليكم إذا لم تعملوا بهما، إذا حضرتم عند العلماء ولم تقبلوا ما يقولون لكم كان حضوركم عندهم حجة عليكم، ويكون عليكم إثم ذلك كما لو لقيتم الرسول صلى الله عليه و سلم و لم تقبلوا منه»[204].

«وقال الشيخ القدوة شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمد السهروردي: سمعت الشيخ محيي الدين عبد القادر يقول على الكرسي بمدرسته: كل ولي على قدم نبي وأنا على قدم جدي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وما رفع المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم قدما إلا وضعت قدمي في الموضع الذي رفع قدمه منه إلا أن قدما من أقدام النبوة فإنه لا سبيل أن يناله غير نبي»[205] .

المطلب الثاني: منهجه في توضيح العقيدة :

بين رحمه الله عقيدته بوضوح وكان كثيراً ما يردد في مجالس وعظه وحلقات دروسه عبارة : اعتقادنا اعتقاد السلف الصالح والصحابة [206] ومن خلال دراسة مؤلفات الشيخ عبد القادر الجيلاني يلاحظ الباحث أن له منهجاً واضح المعالم في إيضاح القضايا التي يعالجها خصوصاً قضايا العقيدة يمكن تلخيصه فيما يلي :

1- عرضه للعقيدة بأسلوب بيان بليغ سهل العبارة : تجنح حركة الإيقاع فيه إلى التوازي والتوازن وهو توازن مبعثه توازن حركة النفس والرغبة في الإيضاح بعيداً عن التعقيد والغموض ومثال ذلك تعريفه للإيمان[207] : ونعتقد أن الإيمان قول باللسان ومعرفة بالجنان وعمل بالأركان يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان ويقوى بالعلم ويضعف بالجهل وبالتوفيق يقع[208] .

2- حرصه على عدم الخروج عن مدلول الآيات القرآنية والأحاديث النبوية في إثبات الأسماء والصفات لله عز وجل – يدل على ذلك قوله : ولا تخرج عن الكتاب والسنة نقرأ الآية والخبر ونؤمن بما فيهما ونكل الكيفية في الصفات إلى علم الله عز وجل[209].

---

[203] – عبد القادر الجيلاني:المصدر السابق: المجلس 59 ،ص179.

[204] – المصدر نفسه،لمجلس 5.

[205]– اسماعيل القادري: المرجع السابق،ص70.

[206]– الذهبي:سير أعلام النبلاء ،المرجع السابق،ج20 ،ص442.

[207]– القحطاني :الشيخ عبد القادر الجيلاني، ،دارالشعلة الاباضية،عمان،ط1، 1989م ص70.

[208]– عبد القادر الجيلاني:الغنية للجيلاني ،ج1،ص62.

[209]– القحطاني:المرجع السابق، ص 72.

3- يذكر الشيخ عبد القادر باستمرار أن عقيدته عقيدة السلف ويطلب من الله أن يميته على مذهب إمام أهل السنة والجماعة مثال ذلك قوله : قال الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني رحمه الله وأماتنا على مذهبه أصلاً وفرعاً وحشرنا في زمرته[210] ويقول : عليكم بالاتباع من غير ابتداع عليكم بمذهب السلف الصالح امشوا في الجادة المستقيمة[211].

4- رفض تأويل المتكلمين : وهذا واضح من كلامه – رحمه الله – حيث يقول في صفة الأستواء : وينبغي إطلاق صفة الاستواء من غير تأويل وأنه استواء الذات على العرض لا على معنى القعود والمماسة كما قالت المجسمة والكرامية ولا على معنى العلو والرفعة كما قالت الأشعرية ولا على معنى الاستيلاء الغلبة كما قالت المعتزلة لأن الشرع لم يرد بذلك[212].

5- الإمساك عما لم يرد ذكره في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم من إثبات أو نفي[213]. وهذا واضح جلي في قوله – رحمه الله : – ونعوذ بالله من أن نقول فيه وفي صفاته مالم يخبرنا به هو أو رسوله صلى الله عليه وسلم [214] .

6- إعراضه عن علم الكلام : من قواعد منهج الشيخ عبد القادر في إيضاح العقيدة إعراضه عن علم الكلام وعدم اعتماده عليه لأنه يرى أنه منشأ الضلالات التي وقع فيها القول ولذا نقل في كتابه الغنية قول الإمام أحمد رحمه الله : لست بصاحب كلام ولا أرى الكلام في شيء من هذا إلاَّ ما كان في كتاب الله عز وجل أو حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أو عن أصحابه رضي الله عنهم عن التابعين فأما غير ذلك فإن الكلام فيه غير محمود فلا يقال في صفات الرب عز وجل كيف ولم ولا يقول ذلك إلا شاك[215].

فهذه هي أهم الجوانب البارزة في منهج الشيخ عبد القادر الجيلاني في إيضاح العقيدة[216].

---

[210]- عبد القادر الجيلاني:الغنية لطالبي طريق الحق، المصدر السابق، ج1،ص55.

[211]- عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني،المصدر السابق، ص 35.

[212]- عبد القادر الجيلاني :الغنية،ج1 ، ص56.

[213]- القحطاني:المرجع السابق، ص 78.

[214]- عبد القادر الجيلاني :الغنية،ج1،ص57.

[215]- المصدر نفسه ،ج1، ص56.

[216]- القحطاني: المرجع السابق، ص 82.

المبحث الثاني: مفهوم التوحيد عند الشيخ عبد القادر:

كان الشيخ عبد القادر موحدا مخلصا في أقواله وأفعاله كلها، و كان يقول: « الدواء في توحيد الله عز وجل بالقلب لا باللسان فحسب.[217] « أساس الأمر الإسلام ثم الإيمان ثم العمل بكتاب الله عز وجل وشريعة رسوله صلى الله عليه وسلم تسليما ثم الإخلاص في العمل مع توحيد القلب عند كمال الإيمان، المؤمن يفنى عن كل ما سوى الحق عز وجل».[218]

« تترقى درجة العبد من الإسلام إلى الإيمان، ومن الإيمان إلى الإيقان، ومن الإيقان إلى المعرفة، ومن المعرفة إلى العلم، ومن العلم إلى المحبة، ومن المحبة إلى المحبوبية، من طلبه إلى مطلوبيته، فحينئذ إذا غفل أوقظ، و إذا نسي ذكر، و إذا نام نبه، فلا يزال ابدأ مستيقظا صافيا لأنه قد صفت آنية قلبه يرى من ظاهرها باطنها، ورث اليقظة من نبيه صلى الله عليه وسلم تسليما، كانت تنام عيناه و لا ينام قلبه، وكان يرى من وراءه كما يرى من أمامه، كل أحد يقظته على قدر حاله ».[219]

« وحدوا الحق عز وجل وعن بابه فلا تبرحوا، سلوه ولا تسألوا غيره، توكلوا عليه و لا تتوكلوا على غيره: من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين».[220]

«الموحدون الصالحون حجة الله على بقية الخلق.. الشجاع من طهر قلبه مما سوى الله عز وجل.. الشرع يهذب الظاهر. والتوحيد و المعرفة يهذبان الباطن».[221]

« تفنى عن هواك و نفسك و رعونتها في ظاهرك وباطنك، فلا يكون في باطنك غير توحيد الله تعالى، و في ظاهرك غير طاعة الله تعالى وعبادته مما أمر ونهى.. ».[222]

ومن وصيته لابنه عبد الوهاب رحمه الله تعالى: « عليك بتقوى الله تعالى وطاعته، لا تخف أحدا ولا ترجه، و كل الحوائج كلها إلى الله عز وجل و اطلبها منه، لا تثق بأحد سوى الله عز وجل، و لا تعتمد إلا عليه سبحانه، التوحيد، التوحيد، التوحيد، جماع الكل التوحيد».[223]

وقال في الاستدلال على وحدانية الله تعالى: «أول ما ينظر العاقل في صفة نفسه و تركيبه، ثم في جميع المخلوقات والمبدعات فيستدل بذلك على خالقها و مبدعها لأن فيها دلالة على الصانع، وفي القدرة المحكمة آية على الحكيم. فإن الأشياء كلها موجودة به، وفي معناه ما ذكر عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ سورة الجاثية [الآية: 13]. فقال: في كل

---

(217) – عبد القادر الجيلاني:الفتح الرباني والفيض الرحماني ،المصدر السابق،ص 13.

(218) – المصدر السابق، ص 22.

(219)– المصدر نفسه، ص 45.

(220)– المصدر نفسه ص 47.

(221)– المصدر نفسه، ص 13.

(222) – عبد القادر الجيلاني: فتوح الغيوب،المصدر السابق، ص 60.

(223)– عبد القادر الجيلاني:الفتح الرباني والفيض الرحماني،المصدر السابق، ص 373.

شيء اسم من أسمائه، واسم كل شيء من اسمه، فإنما أنت بين أسمائه وصفاته و أفعاله، باطن بقدرته، و ظاهر بحكمته، ظهر بصفاته وبطن بذاته، حجب الذات بالصفات، و حجب الصفات بالأفعال، و كشف العلم بالإرادة، و اظهر الإرادة بالحركات، وأخفى الصنع والصنيعة، وأظهر الصنعة بالإرادة، فهو باطن في غيبه وظاهر في حكمته وقدرته ليس كمثله شيء وهو السميع البصير».[224]

ويقول رحمه الله تعالى: «الله سبحانه و تعالى واحد فرد صمد لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفوا أحد، لا شبيه له و لا نظير، و لا عون و لا شريك، ولا ظهير و لا وزير. ليس بجسم فيمس، و لا بجوهر فيحس، ولا عرض فيقضي، ولا ذي تركيب وتأليف .... فرد معبود، حي لا يموت، أزلي لا يفوت، أبدي الملكوت، سرمدي الجبروت... محيط علمه بالأشياء ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ سورة فاطر [الآية: 10] خلق الخلق وأفعالهم، وقدر أرزاقهم و آجالهم... وانه تعالى حي بحياة وعالم بعلم، وقادر بقدرة، و مريد بإرادة، وسميع بسمع، وبصير ببصر، ومدرك بإدراك، و متكلم بكلام، وآمر بأمر، وناه بنهي...».[225]

كان الشيخ عبد القادر موحدا مخلصا في أقواله وأفعاله كلها، وكان يقول:« الدواء في توحيد الله عز وجل بالقلب لا باللسان فحسب»[226]. «أساس الأمر الإسلام ثم الإيمان ثم العمل بكتاب الله عز وجل وشريعة رسوله صلى الله عليه وسلم تسليما ثم الإخلاص في العمل مع توحيد القلب عند كمال الإيمان، المؤمن يفنى عن كل ما سوى الحق عز وجل»[227].

«تترقى درجة العبد من الإسلام إلى الإيمان،ومن الإيمان إلى الإيقان، ومن الإيقانإلى المعرفة، ومن المعرفة إلى العلم، ومن العلم إلى المحبة، ومن المحبة إلى المحبوبية، من طلبه إلى مطلوبيته، فحينئذ إذا غفل أوقظ، وإذا نسي ذكر، وإذا نام نبه، فلا يزال أبدا مستيقظا صافيا لأنه قد صفت آنية قلبه يرى من ظاهرها باطنها، ورث اليقظة من نبيه صلى الله عليه وسلم تسليما، كانت تنام عيناه ولا ينام قلبه، وكان يرى من وراءه كما يرى من أمامه، كل أحد يقظته على قدر حاله»[228] .

«وحدوا الحق عز وجل وعن بابه فلا تبرحوا، سلوه ولا تسألوا غيره توكلوا عليه ولا تتوكلوا على غيره: « من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين»[229].

«الموحدون الصالحون حجة الله على بقية الخلق.. الشجاع من طهر قلبه مما سوى الله عز وجل.. الشرع يهذب الظاهر.والتوحيد والمعرفة يهذبان الباطن»[230].

---

[224]- عبد القادر الجيلاني: فتوح الغيب ،المصدر السابق، ص 74.

[225]- عبد القادر الجيلاني: الغنية،الصدر السابق، جـ 1، ص 54.

[226] - عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني: المصدر السابق، المجلس 13.

[227]- المصدر السابق: ،ص180.

[228]- المصدر نفسه، المجلس 45.

[229]- المصدر نفسه: المجلس 47.

[230]- المصدر نفسه: ص181.

«تفنى عن هواك ونفسك ورعونتها في ظاهرك وباطنك، فلا يكون في باطنك غير توحيد الله تعالى،وفي ظاهرك غير طاعة الله تعالى وعبادته مما أمر وأنهى..» [231].

ومن وصيته لابنه عبد الوهاب رحمه الله تعالى: عليك بتقوى الله وطاعته، لا تخف أحذا ولا ترجه، وكل الحوائج كلها إلى الله عز وجل واطلبها منه، لا تثق بأحذ سوى الله عز وجل، ولا تعتمد إلا عليه سبحانه، التوحيد، التوحيد، التوحيد، جماع الكل التوحيد»[232] .

و في الاستدلال على وحدانية الله تعالى: «أول ما ينظر العاقل في صفة نفسه و تركيبه، ثم في جميع المخلوقات والمبدعات فيستدل بذلك على خالقها ومبدعها لأن فيها دلالة على الصانع، وفي القدرة المحكمة آية على الحكيم. فإن الأشياء كلها موجودة به، وفي معناه ما ذكر عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ سورة الجاثية [الآية: 13] فقال: في كل شيء اسم من أسمائه، واسم كل شيء من اسمه، فإنما أنت بين أسمائه وصفاته وأفعاله، باطن بقدرته، وظاهر بحكمته، ظهر بصفاته، وبطن بذاته، حجب الذات بالصفات، وحجب الصفات بالأفعال، وكشف العلم بالإرادة، وأظهر الإرادة بالحركات، وأخفى الصنع والصنيعة، وأظهر الصنعة بالإرادة، فهو باطن في غيبه و ظاهر في حكمته وقدرته ليس كمثله شيء وهو السميع البصير»[233].

ويؤكد رحمه الله تعالى:«الله سبحانه وتعالى واحد فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، لا شبيه له ولا نظير، ولا عون ولا شريك، ولا ظهير ولا وزير. ليس بجسم يمس، ولا بجوهر فيحس، ولا عرض فيقضي، ولا ذي تركيب وتأليف.

. . . فرد معبود، حي لا يموت، أزلي لا يفوت، أبدي الملكوت، سرمدي الجبروت. . . محيط علمه بالأشياء ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ سورة فاطر [الآية: 10] خلق الخلق وأفعالهم، وقدر أرزاقهم وآجالهم. . . وأنه تعالى حي بحياة وعالم بعلم، وقادر بقدرة، ومريد بإرادة، وسميع بسمع، وبصير ببصر، ومدرك بإدراك، ومتكلم بكلام، وآمر بأمر، وناه بنهي. . .»[234].

---

[231]- عبد القادر الجيلاني:فتوح الغيب، المصدر السابق، ص181.

[232]- عبد القادر الجيلاني:الفتح الرباني،المصدر السابق، ص373.

[233]- عبد القادر الجيلاني :فتوح الغيب:المصدر السابق،ص182.

[234]- عبد القادر الجيلاني :الغنية، المصدر السابق،ج1،ص54.

المطلب الأول: توحيد الربوبية

أشار الشيخ عبد القادر إلى أن معرفة الله فطرية وأن النفس مقرة له بعبوديتها، وأن ذلك الإحساس نابع من داخل النفس البشرية [235] . قال رحمه الله : النفس بأجمعها تابعة لربها موافقه له إذ هو خالقها ومنشؤها وهي مفتقرة له بالعبودية [236] وأشار إلى النظر إلى الآيات الكونية المبثوثة في الأنفس والآفاق والذي يأتي في المرتبة الثانية بعد المعرفة الفطرية [237] فيقول : « أما معرفة الصانع – عز وجل – بالآيات والدلالات على وجه الاختصار فهي أن يعرف ويتيقن أن الله واحد أحد، فرد صمد ﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ (*) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (*) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [238] ، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ سورة الشورى [الآية : 11].

« اي لا شبيه له ولا نظير، ولا عون ولا ظهير، ولا شريك ولا وزير، ولا نَّد ولا مشير» [239] . والمسلم وإن كان في فطرته معرفة الله عز وجل – لكنه بالنظر والتفكر في مخلوقاته سبحانه يزيد إيمانه ويقوي يقينه في خالقه عز وجل» [240]، والشيخ عبد القادر – رحمه الله – يؤكد هذا المعنى في مكان آخر : «استدل بصنعة الله عليه تفكر في الصنعة، وقد وصلت إلى الصانع، المؤمن المؤقن العارف له عينان ظاهرتان، وعينان باطنتات فيرى بالعينين الظاهرتين من خلق الله في الأرض، ويرى بالعينين الباطنتين ما خلق الله في السموات » [241] . كذلك في نص اخر : «أول ما ينظر العاقل في صفة نفسه وتركيبه ثم في جميع المخلوقات والمبدعات فيستدل بذلك على خالقها ومبدعها؛ لأن في ذلك دلالة على الصانع، وفي القدرة المحكمة آية على الحكيم» [242].

---

[235]– القحطاني :المرجع السابق، ص 116.

[236]– عبد القادر الجيلاني :فتوح الغيب،المصدر السابق، المقالة العاشرة، ص 21.

[237]– القحطاني :المصدر السابق، ص 116.

[238]– سور الإخلاص [الآية 2-4].

[239]– عبد القادر الجيلاني:الغنية لطالبي طريق الحق،المصدر السابق،ج1،ص54.

[240]– القحطاني :المرجع السابق، ص 116.

[241]– عبد القادر الجيلاني،الفتح الرباني والفيض الرحماني،المصدر السابق،ص 16.

[242]– عبد القادر الجيلاني :فتوح الغيب،المصدر السابق، مقالة47،ص 113.

المطلب الثاني: توحيد الألوهية

تناول الشيخ عبد القادر الجيلاني لهذا النوع من التوحيد، ذكر أن الواجب على من أراد الدخول في دين الإسلام أن يتلفظ بكلمة التوحيد، وأن يتبرأ من كل دين غير الإسلام معتقداً بقلبه وحدانية الله [243] ، فيقول : «والذي يجب على من يريد الدخول في دين الإسلام أولاً أن يتلفظ بالشهادتين لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ محمد رسول الله، ويتبرأ من كل دين غير دين الإسلام ويعتقد بقلبه وحدانية الله تعالى » [244] وفي مكان آخر يتحدث عما دعا الله خلقه إليه من توحيده وطاعته وما حذّرهم منه وخوَّفهم وزجرهم من الشرك به والوقوع في معصيته [245] فيقول : «وقد دعا الله خلقه إلى توحيده وطاعته بالوعد والوعيد والترغيب والترهيب فحذَّر وأنذر وخوَّف وزجر إعذاراً لهم وتأكيداً للحجة عليهم » [246] . وبين الشيخ عبد القادر الجيلاني – رحمه الله – أن مجرد النطق بكلمة التوحيد من غير امتثال الأمر وترك النهي غير مقبول ولا يستفيد منه الإنسان فيقول : «إذا قلت لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فقد أدعيت. فيقال لك : ألك بينة ؟ والبينة امتثال الأمر والانتهاء عن النهي والصبر على الآفات والتسليم إلى القدر هذه بينة الدعوى » [247].

المطلب الثالث: توحيد الأسماء والصفات :

وأشار الشيخ عبد القادر الجيلاني إلى هذا التوحيد بقوله : «إنفوا ثم أثبتوا، إنفوا عنه مالا يليق به، وأثبتوا له ما يليق به، وهو مارضيه لنفسه ورضيه له رسوله صلى الله عليه وسلم إذا فعلتم هذا زال التشبيه والتعطيل من قلوبكم [248] وقال رحمه الله : «ولا نخرج عن الكتاب والسنة نقرأ الآية والخبر ونؤمن بها فيهما ونكل الكيفية إلى علم الله» [249] . فاشتمل كلامه – رحمه الله على الأسس الثلاثة التي يقوم عليها منهج أهل السنة والجماعة في إثبات الأسماء والصفات وهي :

* إثبات الأسماء والصفات.
* تنزيه الله عز وجل عن مشابهة خلقه.
* الاعتراف بالعجز عن إدراك الكيفية [250].

---

[243]– القحطاني:المرجع السابق، ص 128.

[244]– عبد القادر الجيلاني:الغنية لطالبي طريق الحق ،المصدر السابق (2/1).

[245]– القحطاني:المرجع السابق، ص 129.

[246]– عبد القادر الجيلاني:الغنية لطالبي طريق الحق ،المصدر السابق ،ج1،ص.146.

[247]– عبد القادر الجيلاني،لفتح الرباني والفيض الرحماني،المصدر السابق ، ص 10.

[248]– عبد القادر الجيلاني،لفتح الرباني والفيض الرحماني،المصدر السابق ، ص 62.

[249]– عبد القادر الجيلاني:الغنية لطالبي طريق الحق ،المصدر السابق ج1،ص57.

[250]– القحطاني:المرجع السابق، ص 167.

المبحث الثالث: مسألة الصفات عند الشيخ عبد القادر:

قال ابن رجب في طبقات الحنابلة: « إن الشيخ عبد القادر كان متمسكا في مسائل الصفات والقدر ونحوهما بالسنة مبالغا في الرد على من خالفها».[251]

«لا تشبيه ولا تعطيل ولا تجسيم»، و بذلك نفى التجسيم الذي اتهم به بعض علماء

الحنابلة. والذي كان السبب في انفضاض الناس من حولهم. وبذلك أحيا المذهب الحنبلي من جديد، وأعاد إليه رواءه القديم.

وكان رحمه الله تعالى يدعو: «ينبغي إطلاق صفة الاستواء من غير تأويل، وانه استواء الذات على العرش لا على معنى القعود و المماسة كما قالت المجسمة و الكرامية، ولا على معنى العلو والرفعة كما قالت الأشعرية، ولا على معنى الاستيلاء والغلبة كما قالت المعتزلة، لأن الشرع لم يرد بذلك و لا نقل عن أحد من الصحابة و التابعين من السلف الصالح من أصحاب الحديث ذلك ، بل المنقول عنهم حمله على الإطلاق. وقد روي عن أم مسلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم تسليما في قوله عز وجل : ﴿ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ سورة طه [الآية: 05] قالت : الكيف غير معقول، والاستواء غير مجهول، والإقرار به واجب، والجحود به كفر. وقد أسنده مسلم بن الحجاج عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم تسليما في صحيحه، وقال أحمد بن حنبل قبل موته بقريب: أخبار الصفات تمر كما جاءت بلا تشبيه ولا تعطيل... فلا يقال في صفات الرب عز وجل: كيف، ولم، لا يقول ذلك إلا شكاك ».[252]

قال ابن رجب في طبقات الحنابلة: «إن الشيخ عبد القادر كان متمسكا في مسائل الصفات والقدر ونحوهما بالسنة مبالغا في الرد على من خالفها»[253].

وكان رحمه الله تعالى يقول: «لا تشبيه ولا تعطيل ولا تجسيم»، وبذلك نفى التجسيم الذي اتهم به بعض علماء الحنابلة. والذي كان السبب انفضاض الناس من حولهم. وبذلك أحيا المذهب الحنبلي من جديد، وأعاد إليه رواءه القديم.

وكان رحمه الله تعالى يؤكد: «ينبغي إطلاق صفة الاستواء من غير تأويل، وأنه استواء الذات على العرش لا على معنى القعود والمماسة كما المجسمة والكرامية، ولا على معنى العلو والرفعة كما قالت الأشعرية، ولا على معنى الاستيلاء والغلبة كما قالت المعتزلة، لأن الشرع لم يرد بذلك ولا نقل عن أحد من الصحابة والتابعين من السلف الصالح من أصحاب الحديث ذلك، بل المنقول عنهم حمله على الإطلاق. وقد روي عن أم مسلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم تسليما في قوله عز وجل: ﴿ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ سورة طه [الآية: 05]

---

(251)- ابن رجب:المرجع السابق،تحت رقم 134.ص183.

(252)- عبد القادر الجيلاني:الغنية لطالبي طريق الحق ،المصدر السابق ، جـ1، ص 56.

(253)- ابن رجب: الذيل على طبقات الحنابلة تحت رقم 134ص183.

قالت: الكيف غير معقول، والاستواء غير مجهول، والإقرار به واجب، والجحود به كفر. وقد أسنده مسلم بن الحجاج عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم في صحيحه، و قال أحمد بن حنبل قبل موته بقريب: أخبار الصفات تمر كما جاءت بلا تشبيه ولا تعطيل. . . فلا يقال في صفات الرب عز وجل: كيف، ولم؛ لا يقول ذلك إلا شكاك»[254]

المطلب الأول: الصفات الذاتية

«وهي الصفات المتعلقة بذات الباري سبحانه – ولا تتعلق بالمشيئة والاختيار بل لا تنفك عن الرب – عز وجل – بحال من الأحوال باعتبارها من لوازم الذات الإلهية ومنها [255].

– **اليدان** : من الصفات الثابتة لله عز وجل وقد أشار الشيخ عبد القادر الجيلاني إلى ثبوت هذه الصفة لله سبحانه فقال : « له يدان وكلتا يديه يمين قال عز وجل : ﴿ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ سورة الزمر [الآية: 67] وروى نافع عن ابن عمر – رضي الله عنهما – أنه قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه سلم على المنبر والسموات مطويات بيمينه يرمي بها كما يرمي الغلام بالكرة ثم يقول : أنا العزيز، فلقد رأيت رسول الله يتحرك على المنبر حتى كاد يسقط » [256].

– **صفة القَدمَ** : من الصفات الذاتية التي وردت بها الأدلة الصحيحة صفة القدم لله عز وجل – والشيخ عبد القادر الجيلاني يثبت لله هذه الصفة فيقول : « ويضع قدمه في جهنم فينزوي بعضها إلى بعض وتقول قط قط» [257]، وهو بهذا يشير إلى الأحاديث الصحيحة التي جاء ذكر القدم فيها منها عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا تزال جهنم تقول هل من مزيد حتى يضع فيها رب العزة تبارك وتعالى قدمه فتقول قط قط وعزتك ويزوي بعضها إلى بعض » [258] . «وقد تلقى علماء أهل السنة والجماعة هذه الأحاديث الصحيحة بالقبول وأمروُّها كما جاءت ولم يخوضوا في الكيفية » [259].

– **صفة الأصابع** : يثبت الشيخ عبد القادر الجيلاني الأصابع لله عز وجل لورود الأدلة الصحيحة بشأنها فيقول : وقلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء [260] . وعلى هذا الإثبات درج علماء أهل

---

(254) – عبد القادر الجيلاني:الغنية لطالبي طريق الحق ،المصدر السابق ج1ص56 .

(255)– القحطاني:المرجع السابق، ص 180

(256)– البخاري رقم 7412،انظر كذلك القحطاني:المرجع السابق، ص 180.

(257)– عبد القادر الجيلاني:الغنية لطالبي طريق الحق ،المصدر السابق ،ج1 ،ص55.

(258)– البخاري رقم 7339 مسلم رقم 2846.

(259)– القحطاني: المرجع السابق،ص 183.

(260)– عبد القادر الجيلاني:الغنية لطالبي طريق الحق ،المصدر السابق ج1، ص55.

السنة والجماعة كعادتهم في إثبات ما جاء في الكتاب والسنة من الصفات على ما يليق بجلال الله عز وجل – من غير تكييف ولا تمثيل » [261].

– **صفة العلو** : من صفات الكمال للذات الإلهية صفة العلو وهي فرع من توحيد الأسماء والصفات والله سبحانه متصف بالعلو المطلق من جميع الوجوه ذاتاً وقدراً وقهراً [262]، والشيخ عبد القادر الجيلاني يثبت هذه الصفة فيقول : «وهو بجهة العلو مستو على العرش محتوي على الملك محيط علمه بالأشياء ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ سورة فاطر [الآية : 10]، ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ سورة السجدة [الآية : 5] [263].

المطلب الثاني: الصفات الفعلية :

وهي التي تتعلق بمشيئة الله وإرادته سبحانه بحيث إن شاء الرب – عز وجل فعلها وإن شاء لم يفعلها وكل صفة فعلية فهي صفة ذاتية من جهة قدرة الرب – عز وجل – على فعلها في أي وقت شاء ومن هذه الصفات :

– **الاستواء** : أخذ الشيخ عبد القادر الجيلاني في مسألة الإستواء بالمعنى الذي أثبته النص القرآني من غير تأويل ولا تعطيل [264]، حيث قال : وينبغي إطلاق صفة الإستواء من غير تأويل وأنه استواء الذات على العرض لا على معنى العلو والرفعة كما قالت الأشعرية ولا على معنى الاستيلاء والغلبة كما قالت المعتزلة؛ لأن الشرع لم يرد بذلك ولا نقل عن أحد من الصحابة والتابعين من السلف الصالح من أصحاب الحديث بل المنقول عنهم حمله على الإطلاق [265] وقد استدل – رحمه الله – على ذلك بما روي عن أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم – رضي الله عنها – في قوله – عز وجل – : ﴿ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾ سورة طه [الآية: 5] قالت : الكيف غير معقول والاستواء غير مجهول والإقرار به واجب والجحود به كفر. وقد اسنده مسلم بن الحجاج عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم في صحيحه[266]، وكذلك في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه [267].

– **صفة النزول** : من الصفات الثابتة لله – عز وجل – صفة النزول من غير تكييف ولا تمثيل بل على وجه يليق بجلال الله لا يعلمه إلا هو القائل : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ سورة الشورى [الآية:11].

---

[261]– القحطاني: المرجع السابق، ص 185.

[262]– القحطاني:المرجع السابق، ص 187.

[263]– عبد القادر الجيلاني:الغنية لطالبي طريق الحق ،المصدر السابق ج1، ص54.

[264]– الشيخ عبد القادر الجيلاني ص 194.

[265]– عبد القادر الجيلاني:الغنية لطالبي طريق الحق ،المصدر السابق، ج1،،ص56.

[266]– هذا لم يرد في شيء من الكتب الستة ولا المسند وإنما ورد في كتب أخرى رواه اللالكائي رقم 663 موقفاً عليها.

[267]– هذا القول منقول عن جماعة من السلف كربيعة الرأي ومالك.

والشيخ عبد القادر الجيلاني كعادته في إثبات الصفات يثبت هذه الصفة وينفي أن تكون نزول رحمته وثوابه[268]... فيقول : وأنه تعالى ينزل في كل ليلة إلى سماء الدنيا كيف يشاء، وكما شاء فيغفر لمن أذنب وأخطأ وأجرم وعصى لمن يختار من عباده ويشاء، تبارك وتعالى العلي الأعلى لا إله إلاّ هو له الأسماء الحُسنى لا بمعنى نزول رحمته وثوابه على ما أدعته المعتزلة، والأشعرية [269] . وقد استدل أهل السنة على ذلك بالأدلة الصريحة الصحيحة والتي منها حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حتى يبقى ثلث الليل الآخر فيقول : من يدعوني فأستجب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له [270].

صفة الكلام : صفة الكلام صفة ذات ، باعتبار نوع الكلام وصفة فعل باعتبار تعلقها بإرادة الله عز وجل ومشيئته فهو سبحانه لم يزل متكلماً إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء يتكلم بصوت يُسمع، يسمعه من شاء من خلقه سمعه موسى عليه السلام من غير واسطة، وسمعه من أذن له من ملائكته ورسله وسيسمعه المؤمنون في الآخرة ممن سبقت لهم من الله الحسنى نرجو أن نكون منهم والشيخ عبد القادر الجيلاني يقرر ثبوت هذه الصفة لله سبحانه ويصف من ينكر ذلك بالابتداع فيقول وهو يخاطب المبتدعة [271] : يا مبتدع : ما يقدر أن يقول أنا الله إلاَّ الله. ربنا عز وجل متكلم ليس بأخرس ولهذا أكَّد الله عز وجل الأمر في كلامه لموسى فقال : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [272] سورة النساء [الآية: 164].

---

[268]– القحطاني،المرجع السابق ص 203.

[269]– عبد القادر الجيلاني:الغنية لطالبي طريق الحق ،المصدر السابق ج1، ص57.

[270]– البخاري رقم 1145 مسلم رقم 758.

[271]– القحطاني:المرجع السابق، ص 206.

[272]– عبد القادر الجيلاني:الفتح الرباني و الفيض الرحماني، المصدر السابق،ص 209.

المبحث الرابع: عقيدة الشيخ في بعض المسائل

المطلب الأول: عقيدته في القضاء والقدر:

الرضا بالقضاء والقدر خيره و شره من أركان الإيمان، لذلك كان يحث الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى أصحابه على الرضا بالقضاء والقدر، بعد استنفاد السعي وبذل الجهد، وكان يقول: « لا بد لكل مؤمن في سائر أحواله من ثلاثة أشياء: أمر يتمثله، و نهي يجتنبه، و قدر يرضى به ».[273]

وكان يقول عن نفسه وتسليم أموره كلها إلى الله عز وجل:« إنه كالطفل الرضيع في يد الظئر، و الميت الغسيل في يد الغاسل، والكرة في صولجان الفارس.. لا يرى غير مولاه، و لا

ومن يك وجده وجدا صحيحا فلم يحتج إلى قول المغني

لـــــه مـــن ذاته طرب قديم وسكر دائم من غير دن

الرضا بالقضاء والقدر خيره وشره من أركان الايمان، لذلك كان يحث لشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى أصحابه على الرضا بالقضاء والقدر، بعد استنفاد السعي و بذل الجهد» ، وكان يقول:«لا بد لكل مؤمن في سائر أحواله من ثلاثة أشياء: أمر يمتثله، ونهي يجتنبه، وقدر يرضى به»[274].

وكان يقول عن نفسه و تسليم أموره كلها إلى الله عز وجل:«إنه كالطفل الرضيع في يد الظئر، والميت الغسيل في يد الغاسل، والكرة في صولجان الفارس . . لا يرى غير مولاه، ولا يسمع ولا يعقل إلا منه، بنعمته تنعم وبقربه سعد، وبوعده طاب وسكن، وبحديثه أنس، وإلى ذكره التجأ ركن، وبه عز وجل وثق، وعليه توكل، وبنور معرفته اهتدى»[275] .

ويقول:«ينبغي الإيمان بخير القدر وشره وحلو القضاء ومره، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه بالحذر، وما أخطأه من الأسباب لم يكن ليصيبه بالطلب؛ قال تعالى: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ۚ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ سورة يونس [الآية: 107][276] »

ويقول رحمه الله تعالى: « لا تقف مع المكتوب عليك، فإن الذي كتبه هو القادر على محوه ﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾[277] ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾[278] ، كن أبدا على قدم

---

(273) – عبد القادر الجيلاني :فتوح الغيب ،المقالة الأولى،المصدر السابق،ص184.

(274) – المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(275) – المصدر نفسه،المقالة الثالثة،ص185.

(276) – انظر كذلك:عبد القادر الجيلاني: الغنية لطالبي طريق الحق،المصدر السابق، ج 1،ص65.

(277) – سورة الرعد [الآية 39.]

(278) – سورة الأنبياء [الآية 23.]

الطاعة والخوف والوجل والحذر إلى أن يأتيك الموت وتعبر من الدنيا إلى الآخرة على قدم السلامة، فحينئذ تأمن من التغيير والتبديل»[279].

وقد سئل الشيخ ابن تيمية رحمه الله تعالى عن قول الشيخ عبد القادر:«نازعت أقدار الحق بالحق للحق». فأجاب: جميع الحوادث كائنة بقضاء الله وقدره، وقد أمرنا الله سبحانه أن نزيل الشر بالخير بحسب الإمكان، ونزيل الكفر بالإيمان والبدعة بالسنة، والمعصية بالطاعة، فكل من كفر أو فسق أو عصى، وإن كان ذلك بقدر الله، فعليه أن يتوب.. وليس للإنسان أن يدع السعي فيما ينفعه الله به متكلا على القدر، بل يفعل ما أمر الله ورسوله، كما روى مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم تسليما أنه قال: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي خير احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء لا تقل: لو أني فعلت لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان» كما قال عليه الصلاة والسلام أيضا:«إن الدعاء والبلاء ليلتقيان فيعتلجان بين السماء والأرض». وكل هذا كله من باب دفع ما قدر من الشر بما قدر من الخير، فالذي ذكره الشيخ رحمه الله هو الذي أمر الله به ورسوله. فالله لم يأمرنا أن نرضى بما يقع من الكفر والفسوق والعصيان. والنبيصلى الله عليه وسلم تسليما قال:«من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»[280]

والله سبحانه قال: ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾[281] ، وقال: ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾[282] فيكون ما يقدر من الشر إذا نازعه ودافعه كما أمره الله ورسله سببا لما يحصل له من البر والتقوى والخير والثواب والله أعلم». انتهى[283].

---

(279) – عبد القادر الجيلاني:الفتح الرباني و الفيض الرحماني، المصدر السابق ص186.

(280) – رواه مسلم،وفي رياض الصالحين رقم 184.

(281) – سورة البقرة [الآية: 205]

(282) – سورة الزمر [الآية: 07]

(283) – ابن تيمية:مجموع الفتاوى،كتاب القدر، ج8، ص547.

المطلب الثاني: عقيدة الشيخ عبد القادر الجيلاني في القرآن الكريم :

لقد قرّر الشيخ الجيلاني عقيدته في هذه المسألة الهامة من مسائل العقيدة ببيان أن القرآن الكريم كلام الله المنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم حيث يقول : ونعتقد أن القرآن كلام الله وكتابه وخطابه ووحيه الذي نزل به جبريل على رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال الله عز وجل : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (*) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (*) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [284]. هو الذي بلغه الله رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته امتثالاً لأمر رب العالمين يقول تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ۚ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [285]. [286]

وفي وصاياه التي كان يوجهها لطلابه كان يؤكد على وجوب التأدب مع كتاب الله بعدم القول بخلقه فيقول : احترموا كتاب الله وتأدبوا معه هو الوصلة بينكم وبين الله لا تجعلوه مخلوقاً يقول الله عز وجل هذا كلامي، وتقولون أنتم لا؛ من رد على الله جعل القرآن مخلوقاً كفر بالله وبريء منه. هذا القرآن المتلو هذا المقروء هذا المسموع هذا المنظور هذا المكتوب في المصاحف كلامه عز وجل [287].

المطلب الثالث: عقيدة رؤية الله عز وجل عند الشيخ عبد القادر الجيلاني :

ذهب الشيخ عبد القادر الجيلاني إلى إثبات رؤية المؤمنين لربهم في الجنة في الدار الآخرة حيث يقول : وينظر أهل الجنة إلى وجهه ويرونه لا يضامون في رؤيته. قال تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [288] ،قيل الحسنى : هي الجنة، والزيادة : النظر إلى وجهه الكريم، قال تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (*) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[289] [290].

---

[284]- سورة الشعراء [الآية195،194،193].

[285]- سورة المائدة [الآية67].

[286]- عبد القادر الجيلاني:الغنية لطالبي طريق الحق ،المصدر السابق ج1،ص58.

[287]- عبد القادر الجيلاني:الفتح الرباني والفيض الرحماني،المصدر السابق ،ص 41.

[288] - سورة يونس [الآية26].

[289] - سورة القيامة [الآية22 - 23].

[290]- عبد القادر الجيلاني:الغنية لطالبي طريق الحق ،المصدر السابق ج1،ص55، ص 241.

المطلب الرابع: التأويل عند السلف الصالح وإثبات المجاز

إن عدول هذه الأمة من الأئمة الثقات أصحاب القرون الأولى المسمين بالسلف المشهود لهم بالخيرية[291] ، وكل من نحى نحوهم إلى يومنا هذا كلهم قد أثبتوا التأويل بل أولوا كثيرا من النصوص المتعلقة بتوحيد الله وصفاته وأجمعوا على أن الظاهر من النصوص المشكلة ليس هو المراد على الحقيقة تطبيقا لقوله تعالى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [292] وهم بحملهم النص على غير مراده الظاهر لم يبتدعوا أمرا محدثا إنما تعلموه من كتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم .

وإليك الأدلة على ذلك:

1- قال تعالى ﴿ إِنَّا نَسِينَاكُمْ ﴾ [293] وقال أيضا : ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ ﴾ [294] حيث ورد لفظ النسيان في هاتين الآيتين منسوبا إلى الله عز وجل ورغم هذا هل نستطيع أن ننسب إلى الله صفة النسيان أو نقول: « له نسيان لا كنسياننا»؟ وهو جل جلاله يقول: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ [295] قياسا على قولها « له سمع لا كسمعنا أو له بصر لا كبصرنا »؟!.

الجواب: أن هذا خطأ لا يجوز، لأن المراد من قولنا: « له سمع لا كسمعنا » أن نثبت له صفة السمع وننزهه في نفس الآونة من آلة السمع ألا وهي الأذن وذلك بأن نفوض علم الطريقة التي يسمع بها إليه جل جلاله وكذلك الأمر في البصر وفي كل الصفات التي أثبتها هو جل جلاله لذاته العلية، أما صفة النسيان فليست من صفاته وهي صفة نقص في حقه فلا تقاس على السمع والبصر.

2- عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن الله تعالى قال: « يا ابن آدم مرضت فلم تعدني قال: يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين ، قال: أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده ، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده ....»[296] الحديث.

وقال الإمام النووي : « قال العلماء إنما أضاف المرض إليه سبحانه وتعالى والمراد العبد تشريفا للعبد وتقريبا له قالوا: ومعنى وجدتني عنده: أي وجدت ثوابي وكرامتي... » أهـ فتأمل . فلا يجوز لنا إذا أن نثبت لله صفة المرض مع أن ظاهر الحديث يشير اليها، لأن ذلك يخالف العقيدة السليمة.

---

[291]- وذلك بقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم « خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» أخرجه البخاري (2652) ومسلم (6419) والترمذي (3859) وابن ماجه (2362) .

[292]- سورة الشورى [الآية 11]

[293]- سورة السجدة [الآية 14].

[294]- سورة التوبة [الآية 67].

[295]- سورة مريم [الآية 64].

[296]- أخرجه مسلم (2596) والبخاري في الأدب (517) وابن حبان (269).

وإليك الآن نبذة من تأويل أولئك الرعيل الأول من السلف الصالح أهل القرون الأولى منهم سيدنا عبدالله بن عباس رضي الله عنهما الذي دعا له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»[297] وقد نقلت عنه تأويلات كثيرة بمسألة الصفات نذكر منها:

3- ما قاله في قوله تعالى ﴿ فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا ﴾[298]. وأن النسيان بمعنى الترك «أي ففي هذا اليوم – ذلك يوم القيامة – ننساهم يقول نتركهم في العذاب) قال الطبري في تفسيره: (ونقل ذلك بأسانيده عن ابن عباس ومجاهد»[299].

4- قال تعالى ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾[300].

قال ابن عباس : «يكشف عن شدة » مؤولا الساق بالشدة وكذلك اوله غيره من الصحابة والتابعين أمثال مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغيرهم[301].

5- قال تعالى ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾[302].

قال ابن عباس: « بقوة»[303] ولفظة «أيد» تستعمل مجازا في معان كثيرة منها « القوة » كما مر، ومنها «التفضيل والإنعام» كقوله تعالى ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾[304].

ومنهم الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه .

6- قال تعالى ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ ﴾[305] قال الإمام أحمد رضي الله عنه : « جاء ثوابه»[306].

قال ابن كثير : « وكلامه – أي الإمام أحمد- في نفي التشبيه وترك الخوض في الكلام والتمسك بما ورد في الكتاب والسنة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعن أصحابه»[307].

7- وروى الخلال عن حنبل عن عمه الإمام أحمد بن حنبل انه سمعه يقول: « احتجوا علي يوم المناظرة فقالوا تجيء يوم القيامة سورة البقرة ...) الحديث. قال: فقلت لهم : إنما هو الثواب». فهذا تأويل صريح منه رضي الله عنه .

---

[297]- أخرجه الطبراني في الكبير (10587) وفي الأوسط (1444) وأحمد (266/1) والفسوي (494/1) في المعرفة والتاريخ وإسناده صحيح على شرط مسلم والبزار (2674).

[298]- سورة الأعراف [الآية 51]

[299]- الطبري: تفسير الطبري جامع البيان عن تاويل أي القران،تح عبد الله التركي،دار هجر،الرياض،ط1، 1993م،ج5 ، (201/8).

[300]- سورة القلم [الآية 42].

[301]- فتح الباري (428/13) الطبري (29/ 38).

[302]- سورة الذاريات [الآية 47].

[303]- الطبري (27/7).

[304]- سورة ص [الآية 17].

[305]- سورة الفجر [الآية 22].

[306]- ذكره ابن كثير في البداية والنهاية ج،ص 310 ،ناقلا إياه عن الإمام البيهقي في كتاب (مناقب الإمام أحمد) الذي قال فيه: هذا إسناد لا غبار عليه.

[307]- ابن كثير: البداية والنهاية ج10،ص327.

8- ومنهم الإمام البخاري رضي الله عنه : فقد أول الضحك في حديث « يضحك الله من رجلين يقتل أحدهما الآخر يدخلان الجنة »[308]. بمعنى « الرحمة »[309].

9- ومنهم الإمام الطبري في تفسيره مما أوله هو بكلامه، فقد قال في قوله تعالى ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾[310] ، ما نصه والعجب ممن أنكر المعنى المفهوم من كلام العرب في تأويل قول الله : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ الذي هو بمعنى : العلو والارتفاع فيقال له: أي للمنكر زعمت أن تأويل قوله «استوى» أقبل أفكان مدبرا عن السماء فأقبل إليها؟ فإن زعم أن ذلك ليس بإقبال فعل ولكنه إقبال تدبير ، قيل له: فكذلك فقل: علا عليها علو ملك وسلطان لا علو انتقال وزوال[311].

10- ومنهم الحافظ ابن حجر ، فقد قال: « ولا يلزم من كون جهتي العلو والسفل محال على الله أن لا يوصف بالعلو لأن وصفه بالعلو من جهة المعنى والمستحيل كون ذلك من جهة الحس»[312].

ويحسن بنا هنا ان نتطرق لموقف السلف الصالح من النصوص التي استدل بها المجسمون على إثبات الجهة لله تعالى :

- قال تعالى ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾[313].
- و قال تعالى ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾[314].
- و قال تعالى ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾[315].
- و قال تعالى ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾[316].
- و قال تعالى ﴿ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ ﴾[317].
- و قال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ﴾[318].

هذه النصوص مر عليها السلف الصالح على الحالة التي وردت فيها بدون تعطيل ولا تجسيم ولا تشبيه مع إيمانهم بأن الله تعالى متصف بصفات الكمال ومنزه عن الشرك والشبيه والمثال.

وقد لخص ابن كثير رضي الله عنه مذهب السلف بقوله: « إنما مذهب السلف الصالح في هذا المقام: مالك والأوزاعي والثوري والليث بن سعد والشافعي وأحمد وإسحاق بن راهويه وغيرهم من أئمة المسلمين قديما

---

[308]- أخرجه البخاري (2826) ومسلم (4869) ومالك (2/ 460) في الموطأ والنسائي (3166) وابن ماجه (191).

[309]- أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات ص (470).

[310]- سورة البقرة [الآية 29].

[311]- الطبري (192/1).

[312]- فتح الباري (136/6).

[313]- سورة الأنعام[الاية 18].

[314]- سورة النحل [الآية 50].

[315]- سورة سبأ [الآية 23].

[316]- سورة العلى [الآية 1].

[317]- سورة الملك [الآية 17].

[318]- سورة الأعراف [الآية 206].

وحديثا» هو إمرارها كما جاء من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [319].

بل الأمر كما قال الأئمة ، منهم:

نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري قال: «من شبه الله بخلقه كفر ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه ، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحية على الوجه الذي يليق بجلال الله ونفى عن الله تعالى النقائص فقد سلك الهدى»..

وأما معنى الفوقية في النصوص التي استدلوا بظواهرها: فإن النصوص المشتملة على لفظ « فوق » كقوله تعالى ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ [320] وغيرها.

إذا قرأنا ما قبلها وما بعدها ونظرنا اليها بتمعن نرى أن جوها جو تهديد ومناسبتها مناسبة بيان سلطة الله تعالى وعظمة سيطرته على مخلوقاته.

وأن كلمات العربية جميعها لا تعبر عن هذا الجو وتلك المناسبة كما تعبر عنها كلمة فوق التي تزيد السيطرة قوة والتسلط عظمة ولذا جاء بها القرآن لكونها أفصح كلمة عربية معبرة عن المراد ومناسبة للمقام فيكون معنى لفظ « فوق » هنا في هذه النصوص: السيطة والتسلط بصورة كاملة وتامة عقلا ونقلا فهو محال عقلا: لأن إثبات الجهة والحيز لله تعالى تشبيه له بمخلوقاته لأن المخلوقات تختص بجهة وحيز وتشبيه الله تعالى بالمخلوقات نقص في حقه تعالى وهو منزه عن النقص ومنزه عن التشبيه قطعا.

ومحال نقلا: لأن إثبات الجهة والحيز له تعالى شأنه مخالف لقوله تعالى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [321]. وإثبات الجهة والحيز لله تعالى إثبات لوجود مثيل له في شغل الجهة والحيز والله قد نفى المثيل له فبطل القول بالجهة.

ثم لو تأملنا قوله تعالى في الآية الكريمة نفسها : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ مع قول فرعون ﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ سورة الأعراف [الآية: 127] فهل نفهم أن فرعون ادعى أنه فوق بني إسرائيل بالجهة!!.

ولما ادعى الربوبية قال، أنا ربكم الأعلى وقد قال تعالى لسيدنا موسى ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴾ [322]. من ادعى الجهة كان فهمه مثل فهم فرعون حيث اعتقد الجهة لله تعالى وقال: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (*) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ﴾ [323] فرد الله

---

[319]- سورة الشورى [الآية 11].

[320]- سورة الأنعام [الآية 18].

[321]- سورة الشورى [الآية 11].

[322]- سورة طه [الآية 68].

[323]- سورة غافر [الآية 36- 37].

عليه وسحقت عقيدته بقوله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ [324] أي سبيل القرب إلى إله موسى لأنه نسب إليه ما هو منزه عنه وهو الجهة والمكان.

أما النصوص المشتملة على العندية والعلو فالمراد بها التعبير عن القدرة والقهر والانتصار الكامل والدائم ومما يؤيد ذلك قوله تعالى لموسى ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ﴾ [325] ولم يكن موسى فوق السحرة في المكان وإنما كان فوقهم معنويا حيث قهرهم وانتصر عليهم بإذن الله تعالى ويؤيده أيضا قوله تعالى ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ [326] أي أنتم المنتصرون بالقدرة التي أمدكم الله تعالى بها وكذلك لا يجوز تفسير العلو في الآيات التي يستدل بها المجسمون بالجهة لأن في ذلك تشبيه الله تعالى بخلقه وهو مردود لقوله تعالى ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴾ [327].

وأمثاله من النصوص المعارضة لفهمهم التجسيمي .

وأما عبارات الصعود والعروج والرفع والتنزيل فهي عبارات بعضها متعلق بالملائكة وهي تتصف بهذه الحركات وبعضها الآخر عبارات مجازية استعملت للدلالة على القبول أو للدلالة على المكانة الرفيعة معنويا لا مكانيا كقول القائل: رفعت المديرية كتابا إلى الوزارة . فلا يعني القائل أن الوزارة فوق المديرية مكانيا وإنما يعني أن مقام الوزارة أعلى معنويا بالنسبة للمديرية.

ولا يجوز حمل هذه العبارات على ظاهرها في حقه تعالى لأنه يثبت له الجهة والحيز وهو محال عقلا ونقلا كما قدمنا ، وكذلك مخالف لآيات عديدة منها قوله تعالى ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾[328]، وقوله تعالى ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ [329]، وقوله تعالى ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ﴾ [330]، فكيف يكون في جهة العلو « على زعمهم» ثم يكون مع الثلاثة والخمسة «كما يقول هو»؟! أو يكون مع المخلوقات أينما كانوا؟! أو يكون أقرب إليهم من حبل الوريد المتصل بقلوبهم؟! فأيهما تأخذ: ما يزعمونه من الجهة المحالة عقلا ونقلا والمخالفة للنصوص أم ما يقوله تعالى عن نفسه؟! وأما النصنص التي فهموا منها أن الله تعالى في السماء كقوله تعالى ﴿ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ ﴾ [331]، وغيره فهي تخبر عن أعمال الملائكة الموجودين في السماء وهي تتعلق بالملائكة لأنهم في السماء فيكون معنى قوله تعالى ﴿ أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ ﴾ سورة الملك [الآية: 16] هل أمن الكفار العذاب الذي تأتي به الملائكة الموجودون في السماء.

---

[324]- سورة غافر [الآية 37].

[325]- سورة طه [الآية 68].

[326]- سورة آل عمران [الآية 139].

[327]- سورة الحديد [الآية 3].

[328]- سورة ق [الآية 16].

[329]- سورة الحديد [الآية 4].

[330]- سورة المجادلة [الآية 7].

[331]- سورة الملك [الآية 17].

ولا يجوز أن يقال إن الله في السماء لأن السماء سبع سماوات ففي أيهن هو؟

وقال تعالى ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ [332] يعني إذا كان الله في السماء فهذا يعني أن الكرسي أكبر من الله والعياذ بالله ... لأن الكرسي أكبر من السماوات والأرض.

وإذا كان الله في السماء وهي محيطة به إذن فهو اصغر منها والعياذ بالله وإذا كان الله في السماء ففي أي سماء؟! وقبل أن يخلق السماء أين كان؟! وكيف يخلق السماء ويحتاج اليها؟! وهل إذا صعدنا إلى السماء نجد الله عز وجل فيها؟!! تعالى الله عن ذلك كله علوا كبيرا.

وقوله تعالى ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ [333] فمن الذي يطوي هل يطوي نفسه؟! وقوله تعالى ﴿ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [334] فأين يكون الله عز وجل يومها...؟ إن هذا لشيء عجاب !!

ثم إذا خرج منها فهذا يعني أنه يتحرك ويدخل السماء ويخرج منها وهذا محال في حقه عز وجل.

فإن قالوا: السماء من السمو وهو العلو وكل ما علاك فهو سماء والله تعالى فوق السماوات السبع على عرشه قلنا: بطل استدلالك بهذه النصوص لأنها تدل على أنه « على زعمكم» في السماء أي داخلها وأنتم تقولون إنه فوقها على العرش.

وكذلك نقول لهم : إن قولكم إن الله على العرش يلزم منه أن يكون عرشه أكبر منه فيكون قد عرف حجم الله تعالى وأنه جل جلاله أصغر من العرش! والعياذ بالله نسأل الله أن يهدينا سواء السبيل.

ومما تقدم تبين أم المعاني التي فهموها من هذه النصوص وأثبتوا بها لله تعالى الجهة والحيز غير مناسبة لجلاله تعالى وهي مردودة عقلا ونقلا ومخالفة للآيات والنصوص المحكمة وإنما معناها الصحيح ما ذكرناه فقط.

وقد وردت آيات وأحاديث كثيرة تعارض ما أثبتوه من الجهة لله تعالى وتنفي هذه المعاني المجسمة وإليك بعضا منها:

قوله تعالى ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ [335].

فلو كان فوق عرشه كما يقول المجسمون كيف يخبر عن نفسه انه في السماوات وفي الأرض ثم لماذا يقولن إنه في السماء ولا يقولون إنه في الأرض ؟!

وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ﴾ [336] فلو كان في جهة الفوق والعلو فقط « كما يزعم المجسمون » فكيف يكون وراء المخلوقات ومحيطا بهم.

وقوله تعالى ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴾ [337] فلو كان جالسا على عرشه فكيف يكون ظاهرا وباطنا؟!

---

[332]- سورة البقرة [الآية 255].

[333]- سورة الأنبياء [الآية 104].

[334]- سورة الزمر [الآية 67].

[335]- سورة الأنعام [الآية 3].

[336]- سورة البروج [الآية 20].

وقوله تعالى ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾[338] ، وقوله تعالى ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ [339] وقوله تعالى ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ﴾ [340].

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا فيه من الدعاء»[341].

فلو كان الله على عرشه « على زعم المجسمين » فكيف يكون العبد على حالة سجوده أقرب ما يكون من ربه؟ وهل السجود إلا على الأرض؟ وهل هو إلا اتجاه نحو الأسفل؟ مما يؤكد خطأ فهمهم لظواهر النصوص التي استدلوا بها على إثبات جهة العلو والفوقية لله تعالى ونسبوا له الحد والحيز جهلا.

ثم قولنا دائما بعد لفظ الجلالة كلمة " تعالى " هل هو إلا تنزيه مستمر له جل جلاله عن كل نقص وتشبيه وعن كل ما يخطر في عقولنا القاصرة.

وفي هذا القدر من الايات المعارضة لمذهبهم في الجهة كفاية لمن كان له قلب أو ألقى السمع للبراهين والتفسير المناسب لجلاله تعالى وهو شهيد لكمال الله تعالى المطلق وتنزيهه عن الشبيه والمثال[342].

11- ومنهم الإمام النووي كما مر في بداية البحث عند الكلام عن قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن ربه عز وجل قال: « ابن آدم مرضت فلم تعدني ..»[343] الحديث.

12- ومنهم الإمام سفيان بن عيينة رضي الله عنه : فقد أول حديث « لآخر وطأة وطئها الرحمن بوجٍ» [344] فقال: آخر غزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الطائف.

13- ومنهم الإمام سفيان الثوري رضي الله عنه : فقد سأله معدان عن قوله تعالى ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ [345] فقال: بعلمه.

14- ومنهم الإمام الترمذي رضي الله عنه : فقد ذكر في سننه بعد حديث الرؤية الطويل الذي فيه :«فيعرفهم نفسه»[346] قال: « ومعنى قوله في الحديث: فيعرفهم نفسه يعني يتجلى لهم»[347].

15- ومنهم الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه: فقد قال في حديث نزول الله تعالى : « ينزل ربنا تبارك وتعالى أي أمره»[348].

---

[337]- سورة الحديد [الآية 4].

[338]- سورة ق [الآية 16].

[339]- سورة الحديد [الآية 4].

[340]- سورة المجادلة [الآية 7].

[341]- رواه مسلم (49/2) وأبو داود (875) والنسائي (226/2) وأحمد (421/1).

[342]- عيسى دياب: الميزان العادل لتمييز الحق من الباطل،تق الشيخ حسين و عبد الله البكري،دار التقوى ،الرياض،ط3، 1993م.

[343] تقدم تخريجه .

[344]- (وج) واد بالطائف أخرجه أحمد في المسند رقم (16904).

[345]- سورة الحديد [الآية 4].

[346]- أخرجه الترمذي في السنن (2557) وأحمد (369/2).

[347]- السنن (692/4).

[348]- أخرجه الحافظ ابن عبدالبر في التمهيد (143/7) والذهبي في السير (105/8).

16- ومنهم الإمام أبو الحسن الأشعري رضي الله عنه في كتاب : " الإبانة " وكتابه "رسالة أهل الثغر" فقد قال في كتاب الإبانة : « وأن الله تعالى استوى على العرش على الوجه الذي قاله وبالمعنى الذي أراده استواءا منزها عن المماسة والاستقرار والتمكن والحلول والانتقال لا يحمله العرش بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته ومقهورون في قبضته وهو فوق العرش وفوق كل شيء إلى تخوم الثرى فوقية لا تيزده قربا إلى العرش والسماء بل هو رفيع الدرجات عن العرش كما أنه رفيع الدرجات عن الثرى وهو مع ذلك قريب من كل موجود وهو أقرب إلى العبد من حبل الوريد وهو على كل شيء شهيد»[349].

17- ومنهم الإمام الحافظ ابن حبان رضي الله عنه : حيث أول حديث : «حتى يضع الرب جل جلاله قدمه فيها ، أي جهنم»[350] فقال: «هذا الخبر من الأخبار التي أطلقت بتمثيل المجاورة وذلك أن يوم القيامة يلقى في النار من الأمم والأمكنة التي يعصى الله عليها فلا تزال تستزيد حتى يضع الرب جل وعلا موضعا من الكفار والأمكنة في النار فتمتلئ فتقول : قط قط، تريد حسبي حسبي لأن العرب تطلق في لغتها اسم القدم على الموضع. قال الله جل جلاله ﴿ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [351] يريد: موضع صدق لا أن الله جل وعلا يضع قدمه في النار جل ربنا وتعالى عن مثل هذا وأشباهه»[352].

18- ومنهم الإمام النضر بن شميل رضي الله عنه حيث أول الحديث: (حتى يضع الرب قدمه فيها) أي : «من سبق في علمه أنه من أهل النار».

19- ومنهم الإمام الزهري رضي الله عنه : فقد أوله أيضا بأنه :« من سبق في علم الله أنه من أهل النار».

20- ومنهم الإمام الحسن البصري رضي الله عنه فقد قال: «القدم. هم الذين قدمهم الله تعالى من شرار خلقه وأثبتهم لها».

هذه عشرون شخصية من أعظم الشخصيات من السلف الصالح أصحاب القرون الأولى ومن بعدهم مع ما هو مذكور في باب " السنة والبدعة " كلها تثبت أن التأويل ثابت مشروع وأنه من قواعد الشرع ونهج السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين .

---

[349]- ابي الحسن الاشعري:الابانة عن اصول الديانة، د صالح التميمي ،مدار المسلم ، الرياض، ط1، 1432هـ- 2011م، ص 21.

[350]- أخرجه البخاري (4848) ومسلم (2848) والترمذي (2272) وأحمد (134/3) وابن خزيمة (ص 97 - 98) وابن حبان (268) والبيهقي في الأسماء والصفات (349).

[351]- سورة يونس [الآية 2].

[352]- من صحيح ابن حبان (502/1).

المبحث الخامس: ردع الجيلاني للابتداع والاستدراج الشيطاني

المطلب الأول: البدعة وموقف الشيخ عبد القادر منها.

1- **أهمية الاعتصام بالكتاب والسنة** : مدار سعادة الإنسان في الدارين وفوزه وفلاحه في الحياتين يعتمد على مدى اعتصامه بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لأنهما النوران اللذان يضيئان للإنسان طريقه وهو يعبر دروب الحياة ومجاهيلها [353] والشيخ عبد القادر يقرر ذلك في قوله : لا فلاح لك حتى تتبع الكتاب والسنة [354] ويقول : إذا لم تتبع الكتاب والسنة ولا الشيوخ العارفين بهما فما تفلح أبداً [355] .

2- ذم البدع التحذير منها : والشيخ عبد القادر الجيلاني يحذر دائماً من الابتداع في الدين ويوصي بالاتباع ويقرن ذلك بوصيته بالتوحيد وضرورة مجانبة الشرك حيث يقول : اتبعوا ولا تبتدعوا وأطيعوا ولاتمرقوا ووحدوا ولا تشركوا [356] ويقول في موضع آخر : اتبعوا ولا تبتدعوا وافقوا ولا تخالفوا أطيعوا ولا تعصوا أخلصوا ولا تشركوا[357] وبين أن أساس الخير في متابعة النبي صلى الله عليه وسلم فيقول : أساس الخير متابعة النبي صلى الله عليه وسلم في قوله وفعله [358] ثم بين أن الأولى للمؤن العاقل أن يتبع السنة فيقول : والأولى للعاقل المؤمن الكيس أن يتبع ولا يبتدع ولا يغالي ويعمق ويتكلف لئلا يضل ويزل ويهلك [359] . وقد استدل أهل السنة والجماعة على ذم البدع ومحاربتها بالأدلة الكثيرة من كتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم قال تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ سورة النور [الآية : 63]. وقال صلى الله عليه وسلم: ﴿من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد﴾[360] وقال الشيخ عبد القادر الجيلاني أيضاً : فعلى المؤمن اتباع السنة والجماعة، فالسنة ما سنه رسول الله صلى الله عليه وسلم والجماعة ما اتفق عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في خلافة الأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين المهديين رحمة الله عليهم أجمعين. ثم بعد هذا التعريف لأهل السنة والجماعة يحذر من أهل البدع فيقول : وألا يكاثر أهل البدع ولا يدانيهم ولا يسلم عليهم لأن الإمام أحمد رحمه الله قال : من سلم على صاحب بدعة فقد أحبه [361]، ولقول النبي صلى الله عليه وسلم :﴿أفشوا السلام بينكم تحابوا﴾ [362]. ولا يجالسهم ولا يقرب منهم ولا يهنيهم في الأعياد وأوقات السرور ولا يصلي عليهم إذا ماتوا ولا يترحم عليهم إذا ذكروا بل يباينهم ويعاديهم في الله عز وجل معتقداً ومحتسباً بذلك

---

[353]- القحطاني:المرجع السابق، ص 411.

[354]- عبد القادر الجيلان:الفتح الرباني ، ص 128.

[355]- المصدر نفسه، ص 128.

[356]- عبد القادر الجيلاني :فتوح الغيب للجيلاني،المصدر السابق، ص 10.

[357]- عبد القادر الجيلاني :الفتح الرباني للجيلاني، المصدر السابق،ص 151.

[358]- عبد القادر الجيلاني: الغنية لطالبي طريق الحق ،ج1،ص79.

[359]- مسلم رقم 1718.

[360]- القحطاني :المرجع السابق، ص 431.

[361]- مسلم رقم 54.

[362]- عبد القادر الجيلاني: الغنية لطالبي طريق الحق،المصدر السابق،ج1،ص80، انظر القحطاني:المرجع السابق، ص431.

الثواب الجزيل والأجر الكثير [363] وقال : وأعلم أن لأهل البدع علامات يعرفون بها فعلامة أهل البدع الوقيعة في أهل الأثر وعلامة الزنادقة تسميتهم أهل الأثر بالحشوية وعلامة القدرية تسميتهم أهل الأثر مجبرة وعلامة الجهمية تسميتهم أهل السنة مشبهة وعلامة الرافضة « تسميتهم أهل الأثر ناصبة وكل ذلك عصبية وغياظ لأهل السنة ولا اسم لهم إلا اسم واحد وهو أصحاب الحديث ولا يلتصق بهم ما لقبَهم به أهل البدع كما لم يلتصق بالنبي صلى الله عليه وسلم تسمية كفار مكة له ساحراً وشاعراً ومجنوناً ومفتوناً وكاهناً ولم يكن اسمه عند الله وعند ملائكته وعند إنسه وجنه وسائر خلقه إلا رسولاً نبياً بريئاً من العاهات كلها [364] .»

المطلب الثاني: الفرق بين الكرامة والاستدراج:

الكرامة لا تكون إلا لولي والولي هو صاحب العقيدة الصحيحة المواظب على العمل الصالح والمتابعة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وأما ما يجري على أيد بعض الزنادقة كطعن أجسادهم بالأسلحة الحادة وأكل النار والزجاج وغير ذلك مع كونهم مجاهرين بالمعصية منحرفين عن دين الله تعالى فهو من قبيل الاستدراج وإن الولي لا يستأنس بالكرامة ولا يتفاخر بها على غيره.

-ذكر العلامة فخر الدين الرازي رحمه الله تعالى في تفسيره الكبير: «إن صاحب الكرامة لا يستأنس بتلك الكرامة بل عند ظهور الكرامة يصير خوفه من الله تعالى أشد وحذره من قهر الله أقوى فإنه يخاف أن يكون ذلك من باب الاستدراج وأما صاحب الاستدراج فإنه يستانس بذلك الذي يظهر عليه ويظن انه إنما وجد تلك الكرامة لأنه كان مستحقا لها وحينئذ يحتقر غيره ويتكبر عليه ويحصل له أمن من مكر الله وقعابه ولا يخاف سوء العاقبة فإذا ظهر شيء من هذه الأحوال على صاحب الكرامة دل ذلك على أنها كانت استدراجا لا كرامة».

-«إن من اعتقد في نفسه أنه صار مستحقا لكرامة بسبب عمله حصل لعمله وقع عظيم فيقلبه ومن كان لعمله وقع عند كان جاهلا ولو عرف ربه لعلم وقع عظيم فيقلبه ومن كان لعمله وقع عنده كان جاهلا ولو عرف ربه لعلم أن كل طاعات الخلق في جنب جلال الله تقصير وكل شكرهم في جنب آلائه ونعمائه قوصر وكل معارفهم وعلومهم في مقابلة عزته حيرة وجهل رايت في بعض الكتب أنه قرأ المقرئ في مجلس الأستاذ أبي علي الدقاق قوله تعالى ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ [365] فقال علامة أن الحق رفع عملك أن لا يبقى عندك (أي عملك) فإن بقي عملك في نظرك فهو مدفوع وإن لم يبق معك فهو مرفوع» [366].

وبناء على ذلك فإننا حين نرى أن أحدا من الناس يأتي بخوارق العادات لا نستطيع أن نحكم عليه بالولاية وأن نعتبر عمله هذا كرامة حتى نقيس أعماله على الكتاب والسنة.

---

[363]- عبد القادر الجيلاني: الغنية لطالبي طريق الحق ،المصدر السابق،80/1.

[364]- القحطاني:المرجع السابق، ص 477.

[365]- سورة فاطر [الآية 10].

[366] - الرازي:مفاتيح الغيب التفسير الكبير، د تح ،دار الفكر،دمشق، ط1، 1401هـ-1981م (692/5).

– الإمام الجنيد رحمه الله تعالى : لو رأيتم الرجل يمشي على الماء أو يطير في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا حاله عند الأمر والنهي[367].

موقف الصوفية من الكرامات:

–الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله تعالى : قال المحققون «أكثر ما اتفق من الانقطاع عن حضرة الله إنما وقع في مقام الكرامات فلا جرم أن ترى المحققين يخافون من الكرامات كما يخافون من أنواع البلاء».

–الإمام الكبير أحمد الرفاعي رضي الله عنه : «ولا ترغب للكرامات وخوارق العادات فإن الأولياء يستترون من الكرامات كما تستتر المرأة من الحيض»[368].

–الشيخ عبدالله القرشي رحمه الله تعالى : «من لم يكن كارها لظهور الآيات وخوارق العادات منه كراهية الخلق لظهور المعاصي فهو في حقه حجاب وسترها عليه رحمة فإن خرق عوائد نفسه لا يريد ظهور شيء من الآيات وخوارق العادات له بل تكون نفسه عنده أقل وأحقر من ذلك فإذا فني عند إرادته جملة فكان له تحقيق في رؤية نفسه بعين الحقارة والذلة حصلت له أهلية ورود الألطاف والتحقق بمراتب الصديقين»[369].

وقال علي الخواص رحمه الله تعالى : الكُمَّل يخافون من وقع الكرامات على أيديهم ويزدادون بها وجلا وخوفا لاحتمال أن تكون استدراجا[370].

ويجوز إظهار الكرامة عند الصوفية لغرضين احدهما نصرة شريعة الله أمام الكافرين والمعاندين كما وقع مع الشيخ محي الدين بن عربي رحمه الله تعالى مع ذلك الفيلسوف الذي ينكر معجزات الأنبياء حيث يقول رحمه الله تعالى : حضر عندنا سنة ست وثمانين وخمسمائة فيلسوف النبوة على الحد الذي يثبتها المسلمون وينكر ما جاءت به الأنبياء من خرق العوائد وأن الحقائق لا تبدل وكان زمن البرد والشتاء وبين أيدينا منقل عظيم يشتعل نارا فقال المنكر المكذب: إن العامة تقول: إن إبراهيم عليه السلام ألقي في النار فلم تحرقه والنار محرقة بطبعها الجسوم القابل للاحتراق وإنما كانت النار المذكورة في القرآن في قصة إبراهيم عليه السلام عبارة عن غضب نمرود وحنقه فهي نار الغضب فلما فرغ من قوله قال له الشيخ محي الدين بن عربي قدس الله سره : فإن أريتك أنا صدق الله في ظاهر ما قاله في النار أنها لم تحرق إبراهيم وأن الله جعلها عليه كما قال : بردا وسلاما وأنا أقوم لك في هذا المقام مقام إبراهيم في الذب عنه فقال المنكر: هذا لا يكون فقال له : أليست هذه النار محرقة قال نعم فقال تراها في نفسك ثم ألقى النار التي في المنقل في حجر المنكر وبقيت على ثيابه مدة يقلبها المنكر بيده فلما رآها لم تحرقه تعجب ثم ردها إلى المنقل ثم قال له : قرب يدك أيضا منها فقرب يده فأحرقته : فقال له هكذا كان الأمر وهي مأمورة تحرق بالأمر وتترك الإحراق كذلك والله تعالى الفاعل لما يشاء فأسلم ذلك المنكر واعترف[371].

---

[367]– ابن حجر الهيتمي:الزواجر عن اقتراف الكبائر،د تح ،دار الفكر ،دمشق،ط1 ،1407هـ –1987م،ج2،ص285.

[368]– الرفاعي الحسيني:البرهان المؤيد،تح عبد الغاني نكه مي،دار الكتاب النفيس،بيروت،ط1، 1408هـ.ص161..

[369]– حامد ابراهيم:نور التحقيق في صحة اعمال الطريق، د تح، دار التاليف مصر،ط1390،2هـ– 1970م،ص 127.

[370]– الشعراني:اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الاكابر،د تح،دار احياء التراث العربي،بيروت،ط2، 1973م، ج2،ص113.

[371]– ابن عربي: الفتوحات الملكية،تح احمد شمس الدين،دار الكتب العلمية،بيروت، ط1420،1 هـ – 1999م،ج2 ، ص271.

والغرض الثاني الذي يجوز إظهار الكرامة فيه عند الصوفية إبطال سحر الفسقة والمشعوذين الذين يضلون الناس عن دينهم كما ذكر العلامة ابن حجر الهيثمي رحمه الله تعالى : أو صوفيا ناظر برهميا والبارهمة قوم تظهر لهم خوارق لمزيد الرياضات فطار البرهمي في الجو فارتفعت إليه نعل الشيخ ولم تزل تضرب رأسه وتصفعه حتى وقع على الأرض منكوسا على رأسه بين يدي الشيخ والناس ينظرون[372].

وأما إظهار الكرامة بدون سبب مروع فهو مذموم لما فيه من خطر النفس والمفاخرة والعجب.

قال الشيخ محي الدين بن عربي رحمه الله تعالى : ولا يخفى أن الكرامة عند أكابر الرجال معدودة من جملة رعونات النفس إلا إن كانت لنصر دين أو جلب مصلحة لأن الله تعالى هو الفاعل عندهم لا هم هذا مشهد هم وليس وجه الخصوصية إلا وقوع ذلك الفعل الخارق على يدهم دون غيرهم فإذا أحيا كبشا مثلا أو دجاجة فإنما ذلك بقدرة الله لا بقدرتهم وإذا رجع الأمر إلى القدرة فلا تعجب[373].

وإن أعظم الكرامات عند الصوفية الاستقامة على الشريعة.

أبو القاسم القشيري رحمه الله تعالى في رسالته يذكر : واعلم أن من أجل الكرامات التي تكون للأولياء التي تكون للأولياء دوام التوفيق للطاعات والحفظ من المعاصي والمخالفات[374].

وذكرت عند سهل بن عبدالله التستري رحمه الله تعالى الكرامات فقال:

«وما الآيات وما الكرامات؟! أشياء تنقضي لوقتها ولكن أكبر الكرامات أن تبدل خُلُقا مذموما من أخلاق نفسك بخلق محمود»[375].

-الشيخ أبو الحسن الشاذلي رحمه الله تعالى : الكرامة الحقيقية إنما هي حصول الاستقامة والوصول إلى كمالها ومرجعها أمران: صحة الإيمان بالله عز وجل واتباع ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ظاهرا وباطنا فالواجب على العبد أن لا يحرص إلا عليها ولا تكون لهمة إلا في الوصول اليها وأما الكرامة بمعنى خرق العادة فلا عبرة بها عند المحققين إذ قد يرزق بها من لم تكتمل استقامته وقد يرزق بها المستدرجون وقال إنما هي كرامتان جامعتان محيطتان كرامة الإيمان بزيمد الإيقان وشهود العيان وكرامة العمل على الاقتداء والمتابعة ومجانبة الدعاوي والمخادعة فمن أعطيهما ثم جعل يشتاق إلى غيرهما فهو عبد مفتر كذاب ليس ذا حظ في العلم بالصواب كما أكرم بشهود الملك على نعت الرضا فجعل يشتاق إلى سياسة الدواب وخلع الرضا[376].

واما الشيخ محي الدين بن عربي رحمه الله تعالى : «واعلم أن الكرامة على قسمين حسية ومعنوية ولا تعرف العامة إلا الحسية مثل الكلام على الخاطر والإخبار بالمغيبات الماضية والكائنة والآتية والأخذ من الكون

---

[372]- ابن الحجر الهيتمي:الفتاوى الحديثية،د تح،دار الفكر،بيروت،د ط،د ت، ص 222.

[373]- الشعراني:اليواقيت والجواهر ،الرجع السابق،ج2،ص117.

[374]- عبد الكريم القشيري:الرسالة القشرية،تح عبد الكريم العطا،مكتبة ابي حنيفة،دمشق،ط2، 2007م ص160.

[375]- الطوسي:اللمع في التصوف،تح د عبد الحليم محمود-عبد الباقي سرور،دار الكتب الحديثة،مصر،ط1380،1هـ- 1960م ،ص 400.

[376]- حامد ابراهيم:نور التحقيق،المرجع السابق، ص 128.

والمشي على الماء واختراق الهواء وطي الأرض والاحتجاب عن الأبصار وإجابة الدعاء في الحال ونحو ذلك فالعامة لا تعرف الكرامة إلا مثل هذا وأما الكرامة المعنوية فلا يعرفها إلا الخواص من عباد الله تعالى والعامة لا تعرفذلك وهي ان يحفظ على العبد آداب الشرعية وأن يوفق لفعل مكارم الأخلاق واجتناب سفاسفها والمحافظ على أداء الواجبات مطلقا في أوقاتها والمسارعة إلى الخيرات وإزالة الغل والحقد من صدره للناس والحسد وسوء الظن وطهارة القلب من كل صفة مذمومة وتحليته بالمراقبة مع الأنفسا ومراعاة حقوق الله تعالى في نفسه وفي الأشياء وتفقد آثار ربه في قلبه ومراعاة أنفاسه في دخولها وخروجها فيتلقاها بالأدب إذا وردت عليه ويخرجها وعليها حلة الحضور مع الله عز وجل فهذه كلها عندنا كرامات الأولياء المعنوية التي لا يدخلها مكر ولا استدراج»

وقال الشيخ أحمد الحارون رحمه الله تعالى : «كرامتان ليس بعدهما كرامة: الإيمان والاستقامة فإذا وجدتم رجلا مستقيما فلا تطلبوا منه كرامة»[377].

- ليس صاحب الكرامة مفضلا على غيره عند الصوفية:

قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى : لا يلزم أن يكون كل من له كرامة من الأولياء أفضل من كل من ليس له كرامة منهم بل قد يكون بعض من ليس له كرامة منهم أفضل من بعض من له كرامة لأن الكرامة قد تكون لتقوية يقين صاحبها ودليلا على صدقه وعلى فضله لا على أفضليته وإنما الأفضلية تكون بقوة اليقين وكمال المعرفة بالله تعالى[378].

- عدم ظهور الكرامة ليس دليلا على عدم الولاية عند الصوفية:

قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى في رسالته: «لو لم يكن للولي كرامة ظاهرة عليه في الدنيا لم يقدح عدمها في كونه وليا».

وقال شيخ الإسلام زكريا الأنصاري في شرحه لرسالة القشيري عند هذا الكلام: «بل قد يكون أفضل ممن ظهر له كرامات لأن الأفضلية إنما هي بزيادة اليقين لا بظهور الكرامة»[379].

الكرامة بعد الموت:

قد يستاءل البعض فيقول: «هل تختص كرامات الأولياء بحال حياتهم؟ وهل يخرج الولي عن ولايته بالموت»؟ والجواب على ذلك: أن كرامات الأولياء إنما هي تصرف بإذن الله تعالى لا بتأثير مؤثر ولا بقوة أخرى مودعة وإذا كانت كذلك لا تتغير بموتهم بل هي بعد الحياة أولى منها لأن النفس أصفى والروح أنقى وإظهارها أحوج وكم رُشيت لكثير من المستورين كرامات لم تظهر إلا بعد انقضاء حياتهم وبعضهم ظهرت قبيل موتهم بعد أن كان سرهم مع الله عز وجل فلما أظهرها اختاروا لقاءه كتمانا للسر ورغبة في الستر ثم إنه لا ينعزل الولي عن ولايته بالموت ولا يخرج منها كالأنبياء في نبوتهم لأن الاختصاص باق كحال الحياة وليس معلقا بها لحاجة بل اختيار الله

---

[377]- ابي محمد الخلال : محمد الخلال :كرامات الاولياءتح اسامة االشريف،دار المشاريع،بيروت،ط1428،1هـ ، ص15.

[378]- عبد الله اليافعي:نشر المحاسن الغالية في فضل المشايخ الصوفية اصحاب المقامات العالية،تح خليل المنصور،دار الكتب العلمية،ط1،ص 119.

[379]- القشيري:المرجع السابق، ص (159).

تعالى من شاء من خلقه لولايته امتياز باق ما بقي على العهد لا فرق بين حياة ومات أو إقامة وانتقال أو ظعن وسفر[380].

ثم إذا فقدت مكانة الولي عند موته فما الفرق الكبير بينه وبين العاصي؟؟..

الأدلة على كرامات الأولياء

أ- من القرآن الكريم:

قال تعالى في قصة مريم ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ [381] فاخضر الجذع بعد أن كان يابسا وتساقط منه الرطب الجني في غير أوانه.

وقال تعالى في قصة أصحاب الكهف ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ [382]فقد بقوا طوال هذه المدة في حالة نوم أحياء محفوظين من كل الآفات.

وقال تعالى في قصة صاحب سليمان عليه السلام "آلآصف بن برخيا": ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ [383] فجاءه بعرش بلقيس من اليمن إلى فلسطين قبل ارتداد طرفه عليه السلام.

وقال تعالى في قصة زكريا عليه السلام مع مريم: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ [384].

ب- من السنة النبوية الشريفة:

عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لم يتكلم من المهد إلا ثلاثة : عيسى وكان في بني إسرائيل رجل يقال له جريج كان يصلي فجاءته أمه فدعته فقال أجيبها أو أصلي؟ فقالت اللهم لا تمته حتى تريه وجه المومسات. وكان جريج في صومعته فتعرضت له امرأة وكلمته فابى فأتت راعيا فأمكنته من نفسها فولدت غلاما فقالت: من جريج فأتوه فكسروا صومعته وأنزلوه وسبوه فتوضأ وصلى ثم اتى الغلام فقال : من أبوك يا غلام؟ فقال : الراعي فقالوا: نبني صومعتك من ذهب؟ قال: لا إلا من طين وكان امرأة ترضع ابنا لها من بني إسرائيل فمر بها رجل راكب ذو شارة فقالت اللهم اجعل ابني مثله فترك ثديها وأقبل على الراكب فقال اللهم لا تجعلني مثله ثم اقبل على ثديها يمصه» قال ابو هريرة رضي الله عنه : كأني أنظر إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم يمص أصبعه «ثم مر بأمه قالت: اللهم لا تجعل ابني مثل هذه فترك ثديها فقال: اللهم اجعلني مثلها: فقالت: ذاك؟ فقال: الراكب جبار من الجبابرة وهذه الأمة يقولون : سرقت زنت ولم تفعل»[385].

---

[380]- أبي محمد الخلال: كرامات الأولياء ،تح أسامة الشريف،دار المشاريع،بيروت،ط1، 1428هـ-2007م،ص ص14-15.

[381]- سورة مريم[الآية 25].

[382]- سورة الكهف [الآية 25].

[383]- سورة النمل [الآية 40].

[384]- سورة آل عمران [الآية 37].

[385]- أخرجه البخاري (2215) ومسلم (6884) وأحمد (2/307 - 308).

وعن سيدنا عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول ﴿انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم حتى أووا المبيت إلى غار فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح اعمالكم فقال رجل منهم: اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق قبلهما أهلا ولا مالا فنأى بي المسير في طلب شيء يوما فلم أرح عليهما حتى ناما فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين فكرهت أن أوقظهما وأن أغبق قبلهما أهلا أو مالا فلبثت والقدح على يدي انتظر استيقاظهما حتى برق الفجر فاستيقظا فشربا غبوقهما اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة فانفرجت شيئا لا يستطيعون الخروج ﴾ قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم «وقال الآخر » الله إنه كان لي بنت عم كانت أحب الناس إلي فأردتها على نفسها فامتنعت مني: حتى ألمت بها سنة من السنين فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلي بيني وبين نفسها ففعلت حتى إذا قدرت عليها قالت: لا يحل لك أن تفض الخاتم إلا بحقه فتحرجت من الوقوع عليها فانصرفت عنها وهي أحب الناس إلي وتركت الذهب الذي أعطيتها اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها) قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم «وقال الثالث: اللهم استأجرت أجراء فأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال فجاءني بعد حين فقال: يا عبد الله ! أد الي أجري فقلت له : كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق فقال : يا عبدالله ! لا تستهزيء بي. فقلت: إني لا استهزئ بك فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئا اللهم فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون»[386].

وعن سيدنا ابي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم «بينما رجل راكب على بقرة قد حمل عليها فالتفتت إليه البقرة فقالت: إني لم اخلق لهذا وإنما خلقت للحرث فقال الناس: سبحان الله بقرة تتكلم!! فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم «آمنت بهذا أنا وأبو بكر وعمر»[387].

وعن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «لقد كان فيمن قبلكم من الأمم محدثون فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر»[388].

وعن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه : «أن أسيد بن حضير وعباد بن بشر رضي الله عنهما كانا عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حاجة حتى إذا ذهبت من الليل ساعة وهي ليلة شديدة الظلمة خرجا وبيد كل واحد منهما عصا فأضاءت لهما عصا أحدهما فمشيا في ضوئها حتى إذا افترقت بهما الطريق أضاءت للآخر عصاه فمشى كل واحد منهما في ضوء عصاه حتى بلغ أهله»[389].

---

[386]- أخرجه البخاري (369/4) ومسلم (2743).

[387]- أخرجه البخاري (2324) ومسلم (6136) والترمذي (3677).

[388]- أخرجه البخاري (40/7) ومسلم (2398).

[389]- أخرجه أحمد (137/3) وعبد بن حميد (1244) والنسائي في فضائل الصحابة (141).

وعن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه : أن خبيبا كان أسيرا عند بني الحارث بمكة في قصة طويلة وفيها أن بنت الحارث تقول: «ما رأيت أسيرا قط خيرا من خبيب لقد رأيته يأكل من قطف عنب وما بمكة يومئذ ثمرة وإنه لموثق في الحديد وما كان إلا رزقا رزقه الله »[390].

وعن سيدنا جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: شكا ناس من أهل الكوفة سعد بن أبي وقاص إلى عمر «فبعث معهم يسأل عنه بالكوفة فطيف به في مساجد الكوفة فلم يقل له إلا خيرا حتى انتهى إلى مسدد فقال رجل يدعى أبا سعدة: أما إذ انشدتنا فإن سعدا كان لا يقسم بالسوية ولا يسير بالسرية ولا يعدل في القضية فقال سعد: اللهم عن كان كاذبا فأطل عمره واطل فقره وعرضه للفتن قال ابن عمير: فرأيته شيخا كبيرا قد سقط حاجباه على عينيه من الكبر وقد افتقر يتعرض للجواري في الطريق يغمزهن فإذا قيل له: كيف انت؟ يقول: شيخ كبير مفتون أصابتني دعوة سعد»[391].

وفي صحيح البخاري تعليقا أن سيدنا أبا بكر الصديق كان عنده أضياف فقدم لهم الطعام فلما أكلوا منه ربا من أسفله حتى إذا شبعوا قال لامرأته : يا أخت بني فراس ما هذا؟ قالت: وقرة عين لهي [أي القصعة] أكثر منها قبل أن يأكلوا ... إلى آخر القصة.

وعن سيدنا عروة بن الزبير رضي الله عنه : «أن أروى بنت اويس ادعت على سعيد بن زيد أنه أخذ شيئا من أرضها فخاصمته إلى مروان بن الحكم فقال سعيد: أنا كنت آخذ من أرضها شيئا بعد الذي سمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ قال: وما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: ؟من أخذ شبرا من الأرض ظلما طوقه إلى سبع أرضين» فقال له مروان: لا أسألك بينة بعد هذا فقال اللهم إن كانت كاذبة فعم بصرها واقتلها في أرضها قال : فما ماتت حتى ذهب بصرها ثم بينما هي تمشي في أرضها إذا وقعت في حفرة فماتت»[392].

وعن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه قال: «رأيت من العلاء بن الحضرمي ثلاثة أشياء لا أزال أحبه أبدا رأيته قطع البحر على فرسه يوم دارين وقدم من المدينة يريد البحرين فلما كانوا بالدهناء نفد ماؤهم فدعا الله فنبع لهم من تحت رملة فارتووا وارتحلوا ونسي رجل منهم بعض متاعه فرجع فأخذه ولم يجد الماء وخرجت معه من البحرين إلى صف البصرة فلما كنا بلياس مات ونحن على غير ماء فأبدى الله لنا سحابة فمطرنا فغسلناه وحفرنا له بسيوفنا ولم نلحد له فرجعنا لنلحد له فلم نجد موضع قبره».[393].

وعن سيدنا أبي السفر رضي الله عنه قال: «نزل خالد بن الوليد الحيرة فقالوا له احذر السم لا تسقيكه الأعاجم. فقال: ائتوني به فأخذه بيده وقال: بسم الله وشربه فلم يضره شيئا»[394].

---

[390]- أخرجه البخاري تعليقا (602) وأحمد (197/1 - 198).

[391]- أخرجه البخاري (755).

[392]- أخرجه البخاري (3198) ومسلم (4110) واحمد (188/1).

[393]- أخرجه ابن سعد (363/4).

[394]- ابن حجر : تهذيب التهذيب ،تح ابراهيم الزيبق-عادل مرشد،مؤسسة الرسالة،الرياض،ط1، 1336هـ،ج 3، ص125.

وعن سيدنا عثمان بن القاسم رضي الله عنه قال: «خرجت ام أيمن مهاجرة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من مكة إلى المدينة وهي ماشية ليس معها زاد وهي صائمة في يوم شديد الحر فاصابها عطش شديد حتى كادت ان تموت من شدة العطش قال: وهي بالروحاء أو قريب منها فلما غابت الشمس قالت: إذ أنا بحفيف شيء فوق رأسي فرفعت رأسي فإذا أنا بدلو من السماء مدلى برشاء أبيض قالت: فدنا مني حتى إذا كان حيث أستمكن منه تناولته فشربت منه حتى رويت قالت: فلقد كنت بعد ذلك اليوم الحار أطوف في الشمس كي أعطش وما عطشت بعدها»[395].

وعن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما قال: ضرب أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم خباءه على قبر وهو لا يحسب أنه قبر فإذا فيه إنسان يقرأ سورة ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾حتى ختمها فأتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله : إني ضربت خبائي على قبر وأنا لا أحسب أنه قبر فغذا فيه إنسان يقرأ سورة تبارك الملك حتى ختمها فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «هي المانعة هي المنجية تنجيه من عذاب القبر»[396].

وأخرج البيهقي عن سيدنا قيس رضي الله عنه قال: «بينما ابو الدرداء وسلمان يأكلان من صحفة إذ سبحت وما فيها».

وعن سيدنا محمد بن المنكدر رضي الله عنه ان سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ركبت البحر فانكسرت سفينتي التي كنت فيها فركبت لوحا من الواحها فطرحني اللوح في أجمة فيها الأسد فأقبل الي يريدني فقلت يا أبا الحارث أنا مولى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فطأطا رأسه وأقبل الي فدفعني بمنكبه حتى أخرجني من الأجمة ووضعني على الطريق وهمهم فظننت أنه يودعني فكان ذلك آخر عهدي به»[397].

وأخرج البيهقي عن سعيد بن المسيب رضي الله عنه قال: «دخلنا مقابر المدينة مع علي رضي الله عنه فنادى يا أهل القبور السلام عليكم ورحمة الله ، تخبرونا بأخباركم ام نخبركم ؟ قال : فسمعنا صوتا: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته يا أمير المؤمنين خبرنا عما كان بعدنا فقال علي: أما أزواجكم فقد تزوجن وأما أموالكم فقد اقتسمت والأولاد قد حشروا في زمرة اليتامى والبناء الذي شيدتم فقد سكنه أعداؤكم فهذه أخبار ما عندنا فما أخبار ما عندكم؟ فأجابه ميت: قد تخرقت الأكفان وانتشرت الشعور وتقطعت الجلود وسالت الأحداق على الخدود وسالت المناخر بالقيح والصديد وما قدمناه وجدناه وما خلفناه خسرناه ونحن مرتهنون».

-التاج السبكي رحمه الله تعالى : «كان عمر رضي الله عنه قد امر سارية ابن زنيم الخلجي على جيش من جيوش المسلمين وجهزه على بلاد فارس فاشتد على عسكره الحال على باب نهوند وهو يحاصرها وكثرت جموع الأعداء وكاد المسلمون ينهزمون وعمر رضي الله عنه بالمدينة فصعد المنبر وخطب ثم استغاث في أثناء خطبته

---

[395]- أخرجه أبو نعيم (67/2).

[396]- أخرجه الترمذي (2890).

[397]- أخرجه الحاكم (606/3) وقال صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي وابن الجوزي في صفة الصفوة (671/1 - 672) وابو نعيم في الحلية (368/1).

بأعلى صوته : (يا سارية! الجبل، من استرعى الذئب الغنم فقد ظلم فأسمع الله تعالى سارية وجيشه أجمعين وهم على باب نهاوند صوت عمر فلجؤوا إلى الجبل ، وقالوا: هذا صوت أمير المؤمنين فنجوا وانتصروا».

وذكر التاج السبكي رحمه الله تعالى في الطبقات وغيره: «أنه دخل على عثمان رضي الله عنه رجل كان قد لقي امراة في الطريق فتأملها فقال له عثمان رضي الله عنه :يدخل أحدكم وفي عينيه أثر الزنا؟ فقال الرجل: أوحي بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ قال لا ولكنها فراسة المؤمن وإنما اظهر عثمان هذا تأديبا للرجل وزجرا له عن فعله».

من أقوال العلماء:

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى في كتابه (العقيدة الواسطية) : «ومن أصول أهل السنة التصديق بكرامات الأولياء وما يجري على أيديهم من خوارق العادات في أنواع العلوم والمكاشفات وأنواع القدرة والتأثيرات والمأثور عن سلف الأمم في سورة الكهف وغيرها وعن صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين وسائر فرق الأمة وهي موجودة فيها إلى يوم القيامة».

-«وكرامات الأولياء حق باتفاق أئمة أهل الإسلام والسنة والجماعة وقد دل عليها القرآن في غير موضع والأحاديث الصحيحة والاثار المتواترة عن الصحابة والتابعين»[398].

وقال الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى في قصة أصحاب الكهف ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ [399] : «احتج اصحابنا الصوفية بهذه الآية على صحة القول بالكرامات وهو استدلال ظاهر فنقول : الذي يدل على جواز كرامات الأولياء القرآن والاخبار والآثار ، والمعقول....»[400].

-الإمام النسفي رحمه الله تعالى : «نقض العادة على سبيل الكرامة لأهل الولاية جائز عند أهل السنة».

-العلامة اليافعي رحمه الله تعالى :«والناس في إنكار الكرامات مختلفون فمنهم من ينكر كرامات الأولياء مطلقا وهؤلاء أهل مذهب معروف، عن التوفيق مصروف ومنهم من يكذب بكرامات أولياء زمانه ويصدق بكرامات الذين ليسوا في زمانه كمعروف الكرخي والإمام الجنيد وسهل التستري وأشباههم رضي الله عنهم فهؤلاء كما قال أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه والله ما هي إلا إسرائيلية صدَّقوا بموسى وكذبوا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم لأنهم أدركوا منه ومنهم من يصدق بأن الله تعالى أولياء لهم كرامات ولكن لا يصدق بأحد معين من أهل زمانه»[401].

---

[398]- ابن تيمية:مختصر الفتاوى المصرية،تح عبد المجيد سليم و حامد الفقهي،دار الكتب العلمية،ط1997،1م ص600.

[399]- سورة الكهف [الآية 25].

[400]- التفسير الكبير (682/2).

[401]- اليافعي:روض الرياحين في حكايات الصالحين، تح محمد عزت، المكتبة التوفيقية،مصر ،ط1975،1م، ص 42.

– الإمام النووي رحمه الله تعالى : قال الإمام ابو المعالي إمام الحرمين والمرضي عندنا جواز خوارق العادات في معارض الكرامات[402].

–اثبتها الشيخ إبراهيم اللقاني رحمه الله تعالى في متن جوهرة التوحيد:

وأثبتن للأولياء الكرامة ومن نفاها فانبذن كلامه

المطلب الثالث: الشطح وموقف الشيخ عبد القادر منه

الشطح: هو عبارة عن كلمات تصدر من بعض الصوفية غير الكُمَّل في حالة الغيبوبة وغلبة شهود الله تعالى عليهم بحيث لا يشعرون حينئذ بغير الحق وهذه الكلمات لو صدرت عنه وعقله معه لأنكرها وهذه الحالة غير محمودة عند الصوفيين ولكن صاحبها معذور في ذلك لذهوله وعدم انضباط فكره حينئذ ولكن كما أنه لا جناح عليه بسبب هذا العذر فلا يجوز الاقتداء به لمن كان في حالة صحو ولا حمل كلامه وأفعاله على الصحة بل ينظر إلى ذلك على أنه شطحات يعفى عنها لأهل الأحوال والمواجيد الصحيحة كما حصل مع الرجل الذي أضل راحلته في الصحراء وعليها طعامه وشرابه ومتاعه وعندما وجدها أصابه حال سرور فأخطأ من شدة فرحه فقال : «اللهم أنت عبدي وأنا ربك»[403] فهذا قد فرح براحلته فكيف بالذي يفرح بالله وهذه العبارة وغيرها مما يصدر عن الذي خرجت عنه بغير صحو ويؤاخذ بها كل من رددها أو أيدها عقلا ممن لم يكن في مثل ذلك الحال والى هذا يشير الشيخ أحمد الرفاعي رضي الله عنه إذ يقول:

«هذه الكلمات ومثلها من الشطحات التي تتجاوز حد التحدث بالنعمة مثل صاحبها: كمثل رجل نام في بيت الخلاء فرأى في منامه أنه جلس على سرير سلطنة فلما استيقظ خجل وعرف مكانه: الله الله بالوقوف عند الحدود عضوا على سنة السيد العظيم صلى الله عليه وآله وسلم بالنواجد».

مالي وألفـــاظ زيد ووهـــــــم عمرو

ووجه الشريعة أهدى من سر ذاك وسري[404]

---

[402]– النووي:بستان العارفين،تح محمد الحجار،دار البشائر،بيروت،ط6، 1428هـ– 2006م ،ص95.

[403]– أخرجه البخاري (11/ 91 –92) ومسلم (2748).

[404]– محمد الخلال:المرجع السابق، ص 14–15.

المبحث السادس: دعوته لمواقف عقائدية عملية

المطلب الأول: – دعوته للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

هذه الصفة من أهم صفات الأنبياء والدعاة والمصلحين، وهي من ثمار العقيدة الإسلامية، وبدونها تفسد الأمة وينهار المجتمع. يقول الله سبحانه تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾[405] .

ويقول النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم»[406].

ولقد كانت حياة الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى كلها أمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر إلى أن لقي وجه ربه عز وجل. ففي خطبه ودروسه كان آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر، وفي كتبه ووصاياه كان آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر، وقد رأينا كيف خاطب الخليفة المقتفي لأمر الله، في خطبة الجمعة، عندما ولى القضاء يحي بن سعيد المعروف بابن المرجم، فقال له: وليت قضاء المسلمين أظلم الظالمين فما جوابك غدا عند رب العالمين، فبادر الخليفة إلى عزله.

وكان ينعى على المستنجد بالله اغتصابه أموال المسلمين ولا يقبل هداياه، كما ينعى على الأغنياء شحهم وتبذيرهم في غير طاعة الله، وعلى علماء السوء نفاقهم، وأكلهم أموال الناس بالباطل، واختلافهم فيما بينهم على حطام الدنيا، حتى فرقوا المسلمين وجعلوهم أحزابا وشيعا.

يقول الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى: «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان على كل مسلم حر مكلف عالم بذلك. بشرط القدرة على وجه لا يؤدي إلى فساد عظيم وضرر في نفسه وماله وأهله.. ولا يجب على المنكر كشف ما هو مستور، لأن الله تعالى نهى عن ذلك فقال: ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ سورة الحجرات [الآية: 12] إنما الواجب عليه إنكار ما ظهر فقط... وهل يجوز الإنكار إذا غلب على ظنه الخوف على نفسه؟ عندنا يجوز ذلك، وهو الأفضل، إذا كان من أهل العزيمة والصبر، فهو كالجهاد في سبيل الله مع الكفار، وقد قال الله تعالى في قصة لقمان: ﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ﴾سورة لقمان [الآية: 17]...

والذي يؤمر به وينكر عليه على ضربين: فكل ما وافق الكتاب والسنة والعقل فهو معروف، وكل ما خالف فهو منكر، ثم ذلك ينقسم قسمين: أحدهما ظاهر يعرفه العوام والخواص، كوجوب الصلوات الخمس وصوم رمضان والزكاة والحج، وغير ذلك، وكتحريم الزنا وشرب الخمر والسرقة والربا والغصب وغير ذلك، فهذا القسم يجب إنكاره على العوام كما يجب إنكاره على الخواص من العلماء، والقسم الثاني: ما لا يعرفه إلا الخواص مثل اعتقاده ما يجوز على الباري تعالى وما لا يجوز، فهذا يختص إنكاره بالعلماء... أما إذا كان الشيء مما اختلف الفقهاء فيه وساغ فيه الاجتهاد كتزوج امرأة بلا ولي مثلا، لم يكن لأحد ممن هو على المذاهب الأخرى الإنكار

---

(405)– سورة آل عمران [الآية110].

(406)– حديث حسن رواه الترمذي.

عليه، لأن الإمام أحمد قال في رواية المروزي: لا ينبغي للفقيه أن يحمل الناس على مذهبه، ولا يشدد عليهم»[407]. انتهى.

المطلب الثاني: دعوته الى الجهاد في سبيل الله:

يعرف علي بن محمد الجرجاني الجهاد بقوله: «هو الدعاء إلى الدين الحق».

فالجهاد قد يكون بالحرب والقتال في سبيل الله تعالى، وقد يكون بالقول والكلام في سبيل الله تعالى أيضا، وما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا نوع من الجهاد، وقبل هذا وذاك هناك جهاد النفس وإصلاحها وتزكيتها، لتكون أهلا لجهاد غيرها من الكفار والضالين. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾[408] . وعن أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال: «قلت يا رسول الله أي العمل أفضل؟ قال: الإيمان بالله والجهاد في سبيله»[409].

لقد أمضى الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى حياته كلها في مجاهدة نفسه أولا، ثم في مجاهدة العصاة والضالين والفاسقين والكفار، بالنصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، انظر إليه يقول: «أراد الله عز وجل مني منفعة الخلق فإنه قد أسلم على يدي أكثر من خمسة آلاف من اليهود والنصارى وتاب على يدي من العيارين والمسالحة أكثر من مائة ألف، وهذا خير كثير»[410].

وكان رحمه الله تعالى يقول كلمة الحق أمام الخلفاء والقواد، والأمراء، لا يخاف في الله لومة لائم. يقول النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»[411].

وقد وجه الشيخ رحمه الله تعالى همه الأكبر إلى جاهدة النفوس وإصلاحها وتزكيتها فهو الأساس لكل جهاد، وبدونه لا يمكن أن ينجح أي جهاد.

لقد كانت مدرسته وكان رباطه اللذان أنشأهما، أشبه ما يكون بمركز تدريب وإصلاح، يدرب فيهما الطلاب والمريدين، يزكي نفوسهم ويصلحها، وينشئ بينه وبينهم رباطا دينيا روحيا عميقا، ويجعل بينه وبينهم عهدا وميثاقا متينا، ثم يجيز كثيرا منهم ممن يرى فيهم النبوغ والاستقامة والمقدرة على التربية والإرشاد، فينتشرون في الآفاق يدعون الخلق إلى الله تعالى ويربون النفوس ويحاربون الشرك والبدع والجاهلية والنفاق، وقد كان لخلفائه وتلاميذه هؤلاء فضل كبير في المحافظة على روح الإسلام وشعلة الإيمان وحماسة الدعوة والجهاد. ولولاهم لابتلعت المادية هذه الأمة؛ وكان لهم أيضا فضل كبير في نشر الإسلام في الأمصار البعيدة التي لم تصل إليها جيوش المسلمين

---

[407] – عبد القادر الجيلاني:الغنية،ج1، ص50-51.

[408] – سورة التوبة [الآية36].

[409] – متفق عليه (رياض الصالحين رقم 1285) ص195.

[410] – التادفي:المرجع السابق، ص 19.

[411] – رواه النسائي بإسناد صحيح ص196.

كالهند وأندونيسيا والصين وإفريقيا وجزر المحيط الهندي، كما كان لهم اليد الطولى في إسلام قبائل المغول والتتار أيضا[412] (انظر كتاب الدعوة إلى الإسلام preaching of islam لتوماس أرنولد الإنكليزي).

وتوثقت الصلات بين الشيخ عبد القادر ونور الدين الزنكي[413] رحمهما الله تعالى (حكم بين سنتي 541 و569 هـ) فكان نور الدين رحمه الله تعالى يرسل أبناء المقادسة النازحين من القدس إلى بغداد ليدرسوا في مدرسة الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى، ثم يعودوا إلى مناطق الثغور قادة ودعاة ومرشدين، كما كان نور الدين يستقدم مشاهير العلماء الذين تخرجوا من المدرسة القادرية ويوليهم أعلى المناصب عنده، كقطب الدين النيسابوري وابن الشيخ أبي النجيب الأكبر، وشرف الدين عبد المؤمن بن شورده (كتاب الروضتين لأبي شامة ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزي).

كما أن حامد بن محمود الحراني أحد تلاميذ الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى بعد أن أنهى دراسته في بغداد ذهب إلى دمشق فولاه نور الدين القضاء والمظالم والتدريس في حران إلى أن توفي في سنة 570 هـ.

ومن تلاميذه أيضا علي بن برداون بن زيد الكندي الذي كان له حظوة كبيرة عند نور الدين رحمه الله تعالى[414].

ومنهم زين بن علي بن ابراهيم بن نجا الدمشقي الذي درس في مدرسة الشيخ ببغداد ثم عاد إلى مصر ودمشق وأصبح مستشارا لصلاح الدين رحمه الله تعالى، الذي كان يسميه عمرو بن العاص، وحينما فتح صلاح الدين رحمه الله تعالى القدس بعد معركة حطين في سنة 583 هـ كان في ركبه ابن نجا وموفق الدين بن قدامة وأخوه محمد وابن الزكي الشافعي، وقد ألقى خطبة الجمعة يوم ذاك ابن الزكي الشافعي، وبعد الصلاة طلب صلاح الدين رحمه الله تعالى إلى ابن النجا القادري الحنبلي أن يفتتح الوعظ والكلام، فألقى خطبة خفت بها الكروب ورقت بها القلوب وسالت الدموع[415].

لقد كفى نور الدين ومن بعده صلاح الدين رحمهما الله تعالى، المسلمين في العراق، هم الصليبين في مصر والشام، ولكن النذر بدأت تأتي من الشرق، وأن قوة عاتية ظالمة بدأت تلم شعثها وتتجمع لتنفجر كالبركان وتنقض كالإعصار فتخرب وتهلك في طريقها كل شيء. وقد ألهم الله سبحانه وتعالى الشيخ عبد القادر أن يستشعر هذا الخطر الذي يوشك أن يداهم بلاد المسلمين ويقضي عليها. لذلك قال في أحد دروسه: «جاءني خير ما يكون من بلاء يأتي هذه البلدة، ثم دعا لأهل البلدة بالدفع عنهم، ثم قال: لعمري إن في هذه البلدة من يستحق القتل والصلب، ولكن لعين تكرم ألف عين، تهلكنا بهم! تأخذنا بذنوبهم! إيش عملنا نحن!»[416].

---

[412] – ابي الحسن الندوي :المرجع السابق، ص282.

[413] – د.ماجد عرسان : ،ص ص197- 240.

[414] – ابن رجب:المرجع السابق، ج2 ، ص 313.

[415] – كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ،المرجع السابق،ج2، ص109.

[416] – عبد القادر الجيلاني :الفتح الرباني و الفيض الرحماني،المصدر السابق ،ص326.

وقد وقعت الكارثة فعلا في سنة 656 هـ، أي بعد أقل من مائة سنة من وفاة الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى في سنة 561هـ عندما اجتاح التتار بقيادة هولاكو البلاد الإسلامية في إيران والعراق بما فيها بغداد وقضوا على الخلافة وقتلوا نحو مليون إنسان، وخربوها ونهبوها حتى تركوها أثرا بعد عين.

وكان يقول رحمه الله تعالى: «الجهاد جهادان: ظاهر وباطن، فالباطن جهاد النفس والهوى والطبع والشيطان والتوبة عن المعاصي والزلات والثبات عليها وترك الشهوات والمحرمات. والجهاد الظاهر: جهاد الكفار المعاندين لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم تسليما، ومقاساة سيوفهم ورماحهم وسهامهم، يقتلون ويقتلون. والجهاد الباطن أصعب من الجهاد الظاهر لأنه شيء ملازم متكرر.. فمن امتثل أمر الله عز وجل في الجهادين حصلت له المجازاة دنيا وآخرة. الجراحات في جسد الشهيد كالفصد في يد أحدكم، لا ألم لها عنده، والموت في حق المجاهد لنفسه، التائب من ذنوبه، كشرب العطشان للماء البارد»[417].

[417] – عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني والفيض الرحماني،المصدر السابق ،المجلس 18.

الفصل الثالث: معالم التصوف عند عبد القادر الجيلاني.

المبحث الأول: -تاريخانية التصوف.

المطلب الأول: -اشتقاق اسم التصوف.

المطلب الثاني: - منشأه التصوف.

المطلب الثالث:-أسس التصوف.

المطلب الرابع:-أهمية التصوف.

المبحث الثاني: – الضبط المفاهيمي لمعالم التصوف عامة.

المطلب الأول :-ماقيل في تعريف التصوف.

المطلب الثاني:-ما قيل في تعريف الصوفي.

المطلب الثالث:-ما قيل في تعريف الصوفية.

المطلب الرابع: -عقيدة الصوفية.

المبحث الثالث: -الضبط المفاهيمي لمعالم التصوف عند الجيلاني.

المطلب الأول: -مفهوم التصوف عند الجيلاني.

المطلب الثاني: -مفهوم المتصوفة عند الجيلاني.

المطلب الثالث: -مفهوم الصوفي عند الجيلاني.

المطلب الرابع: -العوامل التي أدت إلى تصوفه.

المبحث الرابع: -تصوف المقامات والأحوال العملية.

المطلب الاول:-موقفه من العلم والعمل.

المطلب الثاني:- الورع

المطلب الثالث:- -المقامات والأحوال.

الفصل الثالث: معالم التصوف عند عبد القادر الجيلاني

المبحث الأول: تاريخانية التصوف

المطلب الأول: اشتقاق اسم التصوف

إن الإسلام الحقيقي هو اتباع لما جاء به سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم عن الله سبحانه وتعالى والإيمان به مع الإذعان وقد نقلت إلينا تعاليم الإسلام من النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن طريق صحابته الذين أخذوا عنه الشريعة وكذلك أخذها عنهم الذين تبعوهم وسموا باسم التابعين وهم الذين صحبوا من صحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد نقلت عنهم الوراثة النبوية العلمية فأخذ عنهم تعابعو التابعين ودنوا الشريعة وتفرد بها العلماء فمنهم من تخصص بالحديث النبوي الشريف وأصبح من الحفاظ، وكذلك تفرد أناس بعلوم الآلة (النحو والصرف والبلاغة).

وتفرد بعضهم بعلم التفسير وتفرد بعضهم بعلم الفقه ، وتفرد بعضهم بعلم التربية السلوك والعمل، وقد دوت العلوم المنقولة وسميت بأسماء ومصطلحات: فسمي من اشتغل بالحديث الشريف (محدثا) ومن اشتغل بالنحو (نحويا)، ومن اشتغل بالتفسير (مفسرا)، ومن اشتغل بالفقه (فقيها)، ومن اشتغل بالتربية والسلوك في طريق الله (صوفيا).

كل هذه الأسماء لم تكن على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما هي إلا مصطلحات لأسماء العلوم الشرعية التي اء بها سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وكل من تسمى بواحد من هذه الأسماء وغيرها لا يخرج عن تسميته مسلما، وليس كل اسم أو وصف لم يأت في القرآن الكريم أو السنة الشريفة يحرم التسمي به بل جائز شرعا فقد سمى الله سبحانه وتعلاى المسلمين بأسماء عديدة (السابقين ، المقربين ، الصادقين ، الشهداء ، الصالحين ، الأولين ، الآخرين ، المخبتين..) فكل اسم ذكر له اشتقاق.

فالشهداء (من الاستشهاد في سبيل الله) والمخبتين (من التواضع) والصادقين (من الصدق في أعمالهم وأقوالهم وسرائرهم مع الله) وكذلك في مجال المهن في جميع الأزمنة والعصور (كالمهندس والطبيب والحداد والنجار.. الخ) وكل واحد منهم سمي بذلك نسبة لعمله وكذلك نسبة إلى القبائل والأوطان مثل سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام (القرشي المكي) وسيدنا أبي ذرك (الغفاري المكي) وسيدنا بلال (الحبشي) وسيدنا سلمان(الفارسي) وسيدنا صهيب (الرومي) وكذلك فإن اسم التصوف قد كثرت فيه الأقاويل فمنهم من قال: (من الصفاء) حتى قال أبو الفتح البستي رحمه الله تعالى :

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا وظنه البعض مشتقا من الصوف
ولست أمنح هذا الاسم غير فتى صفا فصـــوفي حتى سمي الصوفي[418]

– إن التصوف نسبة إلى لبس الصوف الخشن، لأن الصوفية كانوا يؤثرون لبسه للتقشف والاخشيشان، وهو شعارهم.

[418]– ابن عجيبة: إيقاظ الهمم، المرجع السابق،ص6.

* قال سيدنا الإمام الكبير أحمد الرفاعي قدس الله سره:«قيل لهذه الطائفة "الصوفية" واختلف الناس في سبب التسمية وسببها غريب لا يعرفه الكثير من الفقراء وهو أن رجلا من جماعة من مضر يقال لهم بنو الصوفة هو الغوث ابن مر بن أدبن طابخة الربيط كانت أمه لا يعيش لها ولد فنذرت إن عاش لها ولد لتربطن برأسه صوفه وتجعله ربيط الكعبة وقد كانوا يجيزون الحاج إلى أن من الله بظهور الإسلام فأسلموا وكانوا عباد ونقل عن بعضهم حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فمن صحبهم مي بالصوفي وكذلك من صحب من صحبهم أو تعبد ولبس الصوف مثلهم ينسبونه إليهم فيقال صوفي»[419].

– «من الصف»: لأنهم في الصف الأول بين يدي الله عز وجل بارتفاع همهم إليه وإقبالهم عليه ووقوفهم بسرائرهم بين يديه.

–«من الصفة» لأن صاحبه تابع لأهلها فيما أثبت الله لهم من الوصف حيث قال تعالى ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ [420] وهذا يستقيم معنى لا اشتقاقا وأهل الصفة هم الرعيل الأول من رجال التصوف فقد كانت حياتهم التعبدية الخالصة المثل الأعلى الذي اتهدفه رجال التصوف في العصور الإسلامية المتتابعة.ومنهم من قال: من الصوفة لأن الصوفي مع الله تعالى كالصوفة المطروحة لاستسلامه لله تعالى . ومنهم من اشتقه : من الصفة إذ جملته اتصاف بالمحاسن وترك الأوصاف المذمومة[421] وقيل: «من الصفوة» يعني أنهم صفوة الله من خلقه.

كان هذا الاسم في الأصل صفوي واستثقل ذلك وجعل صوفيا ومنهم من قال: لفظ كلمة التصوف أربعة أحرف: التاء والصاد والواو والفاء . فالتاء: من التوبة ، والصاد: من الصفاء ، والواو من الولاية ، والفاء: من الفناء.

ومنهم من اعتبره: إن مشتق من (صوفة) وذلك أن قوما كانوا في الجاهلية يقال لهم صوفة انقطعوا إلى الله تعالى وقطنوا الكعبة فمن تشبه بهم من الناس سموا بالصوفية .

و الإمام القشيري رحمه الله يذكر: ليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق والأظهر أنه كاللقب يعتبر اسم الصوفي اسما جامدا أو لقبا أطلق على هذه الطائفة يميزها عن غيرها.

وذكر المستشرق نيكلسون[422] نقلا عن المستشرق (نولدكه): منكرا أن تكون الكلمة راجعة إلى أصل يوناني أو بوذي أو غيره.. لا يوجد دليل إيجابي يرجع افتراض أن الكلمة مشتقة من الأصل اليوناني (سوفوس) في حين أن نسبتها إلى الصوف يؤيدها نصوص من أقوال الكتاب المسلمين أنفسهم ... ثم ذكر (نولد كه) طائفة من الأدلة على كلامه وأنهم كانوا يلبسون الصوف وخصوصا منهم الزهاد.

المطلب الثاني: منشأ التصوف

---

[419]– ابن عجينة:البرهان المؤيد ،المرجع السابق،ص 63 .

[420]– سورة الكهف [آية 28].

[421]– ابن عجينة:إيقاظ الهمم،مرجع سابق، ص 6.

[422]– نيكلسون:التصوف الإسلامي وتاريخه ،المرجع السابق،ص 67.

قال الدكتور حسن إبراهيم حسن: ومن المسائل التي شغلت أفكار المسلمين في ذلك العصر (التصوف) وذلك أن كثيرا من المسلمين الذين اشتهروا بالورع والتقوى لم يجدوا في علم الكلام ما يقنع نفوسهم المولعة بحب الله سبحانه وتعالى فرأوا أن يتقربوا اليه عن طريق الزهد والتشقف وفناء الذات في حبه تعالى ومن ثم سموا (بالمتصوفين)[423].

وأول من تسمى بالصوفي هو أبو هاشم الذي ولد في الكوفة وأمضى سواد حياته في الشام وتوفي في سنة / 150 / هـ[424].

وعن أول من حدد نظريات التصوف وشرحها هو ذو النون المصري (245هـ) تلميذ الإمام مالك والذي شرحها وبوبها ونشرها هو الجنيد البغدادي المتوفى سنة (334هـ)[425].

ومنهم من قال: التصوف مشتق من الصوف، وقد كان يلبسه بعض العباد والزهاد الذين لا يميلون إلى الترف ، وقد وهم في ذلك أهل الصفة الذين قال الله فيهم ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾[426] .

وأثر عن سيدنا الحسن البصري رضي الله عنه أنه قال: لقد أدركت سبعين بدريا كان لباسهم الصوف.

والتصوف: لقب اصطلح الناس عليه والمراد به الشخص المسلم المتمسك بالكتاب والسنة، وممن عرف بالتصوف في الصدر الأول الإسلامي سيدنا أبو ذر الغفاري رضي الله عنه وأنه أمة وحده يعيش وحده ويموت وحده كما أبر بذلك الصادق المصدوق صلى الله عليه وآله وسلم ومنهم سيدنا حذيفة بن اليمان وسيدنا سلمان الفارسي فقد كان يأكل من عمل يده «كان ينسج الخوص ويبيعه» ثم جاء من بعدهم الحسن البصري الذي كان يغط الناس ويرشدهم وقد ربى رجالا منهم مالك بن دينار ثم جاء بعد ذلك إبراهيم بن أدم ثم الإمام الجنيد والقشيري ثم ذو النون المصري المتوفى سنة (245هـ) والتصوف من حيث ذاته عقيدة وخلق وجهاد ودعوة ودعائمه الإسلام والإيمان والإحسان بما فيه المراقبة والمشاهدة ومتابعة (القرآن والسنة) وأهدافه التخلي عن كل رذيلة والتحلي بكل فضيلة والسلوك الملتزم بطاعة الله ورسوله وجهاد النفس وإصلاح الباطن والإيثار.

ويبدو لمتتبع هذه النحلة السامية أنها مرت بمراحل مختلفة قبل أن تتسمى بهذا الاسم المعروف فكانت أحوالها تظهر في كل مرحلة باسم معين وهكذا إلى أن استقرت باسم (التصوف) وآية ذلك أن الشيخ الأستاذ أبا القاسم القشيري يقول في رسالته الشهيرة (الرسالة القشيرية): اعلموا رحمكم الله أن المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يتسم أفاضلهم في عصرهم بتسمية علم سوى صحبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ لا أفضلية فوقها فقد قيل (الصحابة)ولما أدرك العصر الثاني سمي من صحب الصحابة (التابعين) ورأوا ذلك أشرف تسمية ثم قيل لمن بعدهم (أتباع التابعين) ثم اختلفت وتباينت المراتب فقيل لخواص الناس مم لهم شدة عناية بامر

---

[423]- د.احمد شلبي:موسوعة التاريخ الإسلامي،مكتبة النهضة المصرية،القاهرة،ط7،1984م ،ج3، ص220.

[424]- حاجي خليفة:كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون ،تح محمد بالتقايا و رفعت الكليسي، مكتبة المثنى،بغداد ،ط1، 1941م،ص34.

[425]- محمد فايز المط:من كنوز الاسلام،دار الارقم،الكويت،ط1،2003م،ص94.

[426]- سورة الكهف [الآية 28].

الدين (الزهاد والعباد) ثم ظهرت البدع وحصل التداعي بين الفرق فكل فريق ادعوا بان منهم زهادا فانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفسهم مع الله تعالى الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم (التصوف) واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر بعد المائتين من الهجرة[427] .

ومما يشير أيضا إلى أن اسم التصوف عرف بعد القرن الثاني للهجرة ما أورده المسعودي في تاريخه "مروج الذهب ومعادن الجواهر" عن يحي بن أكثم أن المأمون[428] كان جالسا ذات يوم إذ دخل عليه حاجبه علي بن صالح فقال: يا أمير المؤمنين رجل بالباب عليه ثياب بيض غلا يطلب الدخول للمنارة فقال : إنه بعض المتصوفة ومما يشهد لهذا أيضا ما ذكره الكندي في كتاب "ولاة مصر في حوادث سنة مائتين" أنه ظهر بالاسكندرية طائفة يتسمون بالصوفية يأمرون بالمعروف هذا عن ذيوع اسم التصوف وانتشاره ولكن يبدو أن اسم التصوف كان موجودا قبل المائتين لكنه ذاع وانتشر بعد الماتي وفي ذلك يقول ابن تيمية في كتابه "الصوفية والفقراء"[429]: وأول ما ظهرت الصوفية من البصرة.

واول من بنى دويرة التصوف بعض أصحاب عبدالواحد بن زيد[430] وهو من أصحاب الحسن البصري رحمهم الله تعالى وكان في البصرة من المبالغة في الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك ما لم يكن في سار الأمصار ولهذا كان يقال، فقه كوفي وعبادة بصرية وبه يقول العلامة محمد كرد علي رحمه الله تعالى : وأول من تسمى بالصوفي في أهل السنة أبو هاشم الصوفي المتوفى سنة (150) وكان من النساك يجيد الكلام وينطق الشعر كما وصفه الحفا مثل هاشم الأوقص وصالح بن عبدالله الجليل[431] ولسنا نهتم كثيرا بمصطلح الكلمة واشتقاقها بقدر اهتمامنا بمضمونها. فإن شئت سم (التصوف) بالتزكية ونهي النفس عن الهوى كما قال تعالى ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (*) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [432] أو سمه الإحسان أو علم التربية والسلوك ولكن لا مرفر لنا من إطلاق اسم التصوف عليه لأنه الاصطلاح الذي تعاهده أهل التاريخ وشاع عندهم أكثر من غيره.

والعجيب أن الذين اعترضوا على أنل التصوف جاؤوا بعد القرن السادس الهجري والذين كانوا في زمان أهل التصوف المؤسسين لم يعترضوا عليهم ، بل شهدوا لهم وأكدوا أنهم على الحق والنور والهدى وشهادتهم ستكون في مضمون هذا الكتاب ليقرأها طالب الحق.

- ويقول الدكتور أحمد علوش:

«قد يتسائل الكثيرون عن السبب في عدم هور هذه الدعوة إلا بعد عهد اصحابة والتابعين والجواب عن هذا: أنهلم تكن ثمة حاجة إليها في العصر الأول لأن أهل ذاك العصر كانوا أهل تقى وورع وأرباب مجاهدة وإقبال على

---

[427]- يبدو أن هذا الاسم كان موجودا قبل المئتين بقليل لكنه اشتهر بعدها كما سيأتي.

[428]- توفي المأمون سنة (218).

[429]- ابن تيمية: الصوفية والفقراء،د تح،دار المنهاج،الرياض،د ط، د تخ، ص (3 – 4.)

[430]- توفي عام (177)هـ.

[431]- د.احمد شلبي:موسوعة التاريخ الإسلامي،مكتبة النهضة المصرية،القاهرة،ط1984،7م، ج2،ص31..

[432]- سورة النازعات [الآية 40 – 41].

العبادة بطبيعتهم وبحكم قرب اتصالهم برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كانوا يتسابقون ويتبادرون في الاقتداء به في ذلك كله، فلم يكن ثمة ما يدعو إلى تلقينهم علما يرشدهم إلى أمر هم قائمون به فعلا وإنما مثلهم في ذلك كله كمثل العربي القح يعرف اللغة العربية بالتوارث كابرا عن كابر حتى إنه ليقرض الشعر البليغ بالسليقة والفطرة دون أن يعرف شيسئا من قواعد اللغة والإعراب والنظم والقريض ، فمثل هذا لا يلزمه أن يتعلم النحو ودروس البلاغ ولكن علم النحو وقواعد اللغة والشعر تصبح لازمة وضرورية عند تفشي اللحن وضعف التعبير أو لمن يريد من الأانب أن يتفهمها ويتعرف عليها أو عندما يصبح هذا العلم ضرورة من ضرورات الاجتماع كبقية العلوم التي نشأت وتألفت على توالي العصور في أوقاتها المناسبة.

فالصحابة والتابعون – وإن لم يتسما باسم المتصوفين– كانوا صوفيين فعلا وإن لم يكونوا كذلك اسما ، وماذا يراد بالتصوف أكثر من أن يعيش المرء لربه لا لنفسه ، ويتحلى بالزهد وملازمة العبودية والإقبال على الله بالروح والقلب في جميع الأوقات وسائر الكمالات التي وصل بها الصحابة والتابعون من حيث الرقي اروحي إلى أسمى الدرجات فهم لم يكتفوا بالإقرار في عقائد الإيمان والقيام بفروض الإسلام بل قرنوا الإقرار بالتذوق والوجدان وزادوا على الفروض الإتيان بكل ما استحبه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من نوافل العبادات وابتعدوا عن المكروهات فضلا عن المحرمات حتى استنارت بصائرهم وتفجرت ينابيع الحكمة من قلوبهم وفاضت الأسرار الربانية على جوانحهم وكذلك كان شان التابعين وتابعي التابعين وهذه العصور الثلاثة كانت أزهى عصور الإسلام وخيرها على الإطلاق وقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله (خير القرون قرني هذا فالذي يليه والي يليه)[433] فلما تقادم العهد ودخل في حظيرة الإسلام أمم شتى وأجناس عديدة واتسعت دائرة العلوم وتقسمت وتوزعت بين أرباب الاختصاص قام كل فريق بتدوين الفن والعلم الذي يجيده أكثر من غيره فنشأ بعد تدوين النحو في الصدر الأول علم الفقه وعلم التوحيد وأصول الدين وعلوم الحديث والتفسير المنطق ومصطلح الحديث وعلم الأصول والفرائض (الميراث) وغيرها..

وحدث بعد هذه الفترة أن أخذ التأثير الروحي يتضاءل شيئا فشيئا وأخذ الناس يتناسون ضرورة الإقبال على الله بالعبودية والقلب والهمة مما دعا أرباب الرياضة والزهد إلى أن يعملوا هم من ناحيتهم أيضا على تدوين علم التصوف ، وإثبات شرفه وجلاله وفضله على سائر العلوم ولم يكن ذلك منهم احتجاجا على انصراف الطوائف الأخرى إلى تدوين علومهم –كما يظن ذلك – خطأ – بعض المستشرقين– بل كان سدا للنقص ن واستكمالا لحاجات الدين في جميع نواحي النشاط مما لابد منه لحصول التعاون على تمهيد أسباب البر والتقوى»[434].

وقد بنى أئمة الصوفية الأولون أصول طريقهم على ما ثبت في تاريخ الإسلام نقلا عن الثقات الأعلام.

أما تريخ التصوف فيظهر في فتوى للإمام الحافظ السيد محمد صديق الغماري رحمه اله فقد سئل عن أول من أسس التصوف؟ وهل هو بوحي سماوي؟

---

[433]– (خير الناس في قرني ثم الذين يلونهم ..) أخرجه البخاري (2009) ومسلم (2533).

[434]– د. أحمد علوش، بحث التصوف، ضمن مجلة العشيرة المحمدية ،العدد محرم (1376هـ).

فأجاب: «أما أول من أسس الطريقة فلتعلم أن الطريقة أسسها الوحي السماوي في جملة ما أسس من الدين المحمدي إذ هي بلا شك مقام الإحسان الذي هو أحد أركان الدين الثلاثة التي جعلها النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد ما بينها واحدا واحدا دينا بقوله: «هذا جبريل عليه السلام أتاكم يعلمكم دينكم»[435]. وهو الإسلام والإيمان والإحسان فالإسلام طاعة وعبادة والإيمان نور وعقيدة والإحسان مقام مراقبة ومشاهدة « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ... »».

ثم قال السيد محمد صديق الغماري في رسالته تلك : «فإنه كما في الحديث الدين عبارة عن الأركان الثلاثة فمن أخل بهذا المقام (الإحسان) فدينه ناقص بلا شك لتركه ركنا من أركانه فغاية ما تدعو اليه الطريقة وتشير اليه هو مقام الإحسان بعد تصحيح الإسلام والإيمان»[436].

- وقال ابن خلدون في مقدمته:

«وهذا العلم – يعني التصوف – من العلوم الشرعية الحادثة في الملة، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عن سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والداية وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى ، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد في ما يقبل عليه الجمهور من لذة مال وجاه والانفراد عن الخلق والخلوة للعبادة وكان ذلك عاما في الصحابة والسلف: فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة»[437].

ويعنينا من عبارة ابن خلدون الفقرة الأخيرة التي يقرر فيها أن هور التصوف والصوفية كان نتيجة جنوح الناس إلى مخالطة الدنيا وأهلها في القرن الثاني للهجرة فإن ذلك يدعو أن يتخذ المقبلون على العبادة اسما يميزهم عن عامة الناس الذين ألهتهم الحياة الدنيا الفانية.

فمن هذه النصوص السابقة يتبين لنا أن التصوف ليس أمرا مستحدثا جديدا ولكنه مأخوذ من سيرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وحياة أصحابه الكرام كما أنه ليس مستنبطا من أصول لا تمت إلى الإسلام بصلة كما يزعم أعداء الإسلام من المستشرقين وتلامذتهم الذين ابتدعا أسماء مبتكرة فأطلقوا اسم التصوف على الرهبنة البوذية والكهانة النصرانية والشعوذة الهندية فقالوا : هناك تصوف بوذي وهندي ونصراني وفارسي...يريدون بذلك تشويه اسم التصوف من جهة واتهام التصوف بأنه يرجع في نشأته إلى هذه الأصول القديمة والفلسفات الضالة من جهة خرى ولكن الإنسان المؤمن لا ينساق بتياراتهم الفكرية الماكرة ويتبين الأمور ويتثبت في البحث عن الحقيقة فيرى أن التصوف هو التطبيق العملي للإسلام[438].

---

[435]- أخرجه البخاري (26) ومسلم (93)، وأبو داود (4695) والترمذي (2610) والنسائي (5005)، وابن ماجه (63)، وأحمد (28/1)، وابن حبان (168)، وابن خزيمة (2504)، والبغوي (22)، والطيالسي ص (21)، وابن أبي شيبة (24/11 و 45).

[436]- صديق الغماري :الانتصار لطريق الصوفية، د تح، ،دار احياء التراث، بيروت،ط 1، 1973م، ص 6 .

[437]- ابن خلدون:المقدمة ، تح محمد الدرويش،دار يعرب، القاهرة،ط1، 1425هـ – 2004م، ص329.

[438]- عبد القادر عيسى:حقائق عن التصوف، دار الكتب العلمية،بيروت،ط1 ،1997م، ص ص 19 – 25 .

المطلب الثالث: أسس التصوف

التصوف الإسلامي علم جليل الشأن ونحلة عظيمة القدر وثبت بالأدلة القوية أنه إسلامي المنشأ وبذلك أضحى موصلا للسعادة في الدنيا والآخرة وهو الدواء الذي يشفي صاحبه من أمراض النفس والمنهاج الذي يزكي النفس ويصفي الروح وهو مرآة الحياة الروحية الإسلامية التي قوامها التحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل لتزكو النفس وتسمو الروح بالاتقداء بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه الكرام ومن أهم مقاصده خمسة أمور سنتولى شرحها وبيانها بإذن الله واحدا إثر واحد:

1- صفاء النفس ومحاسبتها.

2- قصد وجه الله .

3- التمسك بالفقر والافتقار.

4- توطين القلب على الرحمة والمحبة.

5- التجمل بمكارم الأخلاق التي بعث الله النبي صلى الله عليه وآله وسلم لإتمامها.

التفصيل:

1- القاعدة الأولى : (صفاء النفس ومحاسبتها): ومعناها: أن كل من أراد أن يدخل في سبيل المقربين ليعد الجواب لسؤال الحق تعالى فعليه أن يحاسب نفسه قبل أن يحاسبه الله ويزن أعماله قبل أن توزن بقسطاس الآخرة ويصفي نفسه من شوائبها ووساوسها قال سيدنا عمر رضي الله عنه «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا».

2- القاعدة الثانية: (قصد وجه الله): ومعناها: أن المتصوف لابد أن يقصد وجه ربه في جميع أقواله وأفعاله غاسلا قلبه بماء الإخلاص لوجه الله تعالى قال الله تعالى ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ [439] .

وقال عز من قائل : ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ (*) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ﴾ [440] .

3- القاعدة الثالثة: (التمسك بالفقر والافتقار): ومعناها الزهد في الدنيا ومتاعها عزوفا بالنفس عما يلهيها ويشغلها فإن التمسك بالفقر دليل التقشف الذي هو الآلة القاطعة حبل الوصال بين العبد والشيطان، فتتأهل النفس بالعبادة الخالصة وعدم العلو والفساد في الأرض لهذه الخصلة التي تصعد بهمم الإنسان نحو الروحانية والبعد عن كدورة الإنسانية أما الافتقار فهو تجرد المرء عن زينة الحياة الدنيا لينقطع إلى تقوى الله تعالى وأنه لا حول ولا طول الا به طالبا منه الكرم بالإمداد والتجليات وذلك هو منتهى الإقرار بالعبودية التي هي مركز التصوف وعقيدة الإيمان. وصفوة القول: أنالفقر أساس التصوف وقوامه وأن التحقق بأحوال التصوف ومقاماته

---

[439]- سورة الكهف [الآية 28]

[440]- سورة الليل [الآية 19 – 20]

مبني على الفقر والزهد فيما اشتملت عليه الدنيا من زخرف ومتاع، أي أن تكون الدنيا في يده لا في قلبه بمعنى أن يكون أغنى بما عند الله منه بما عنده.

وقد قص علينا السهرودي في كتابه "عوارف المعارف" قصة عن ذي النون المصري رضي الله عنه جديرة بالنر والاهتمام قال ذو النون: «رأيت ببعض سواحل الشام امرأة فقلت لها : من أين أقبلت؟ فقالت: من عند أقوام ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ [441]، فقلت لها: وأين تريدين ؟ فقالت : إلى ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [442] ».

ألا يجدر بنا أن نمعن النظر في هذين الجوابين لنعلم مدى خلو قلوب القوم عن حظوظ النفس والهوى لنعلم مدى انجذابهم نحو الله تعالى وإيثارهم لما عنده بحيث أصبحت قلوبهم لا تنزع إلى الله متجردين من القيود الجسمانية التي تفسد على الإنسان حياته وتكدر صفاء نفسه وتنسي الإنسان عبوديته لله .

4- القاعدة الرابعة : (توطين القلب على الرحمة والمحبة): ومعناها: أنه يجب على كل صوفي أن يلزم محبة كل المسلمين ويعطيهم حق الإسلام من التعظيم والتوقير فإن رسخ في هذه القاعدة واستقام في التدريب عليها أفاض الله عليه أنوار الرحمة وأذاقه حلاوة الرضى وألبسه ثوب القبول فينال مما ورثه النبيون من المحبة والرضى حظا وافرا قال الله تعالى في حق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [443].

وقال سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه «لا تحقر أحدا من المسلمين فإن حقير المسلمين عند الله كبير ».

5- القاعدة الخامسة : (التجمل بالأخلاق التي بعث الله النبي صلى الله عليه وآله وسلم لإتمامها): وهذه القاعدة زبدة الدين وحقيقة أخق الصوفيين وذلك بأن يكون العبد هينا لينا مع أهل بيته وعشيرته وجميع المسلمين قال الله تعالى ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [444].

وقد ورد في الأثر : «اهل الجنة كل هين لين سهل قريب وأهل النار كل شديد قبعثري قالوا وما القبعثري؟ قال: الشديد على الأهل والصحاب والعشير» إذ ان الله تعالى يعامل عبده في وصفه وخلقه وفي الحديث القدسي: يا بان آدم مرضت فلم تعدني قال: يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟! قال: أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده، يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني قال يارب كيف أطعمل وأنت رب العالمين قال : استطعمك عبد فلان فلم تطعمه، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني، قال يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين!؟ قال : استسقاك عبدي فلان فلم تسقه أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي)[445] ذلك هو الحديث القدسي الذي جمع محاسن الأخلاق وجميل الصفات بين الناس وهو القانون الإلهي الذي سلك منهاجه رجال في حياتهم

---

[441]- سورة السجدة [الآية 16].

[442]- سورة النور [الآية 37].

[443]- سورة الأنبياء [الآية 107].

[444]- سورة البقرة [الآية 83].

[445]- أخرجه مسلم في صحيحه (1990/4 برقم 2569).

الدنيوية والعملية فمن رسخت قدمه منهم في هذه المقامات صارت أحواله ومعاملاته مع الرب في كل شيء فلا يراقب غير الله تعالى في حركاته وسكناته.

المطلب الرابع: أهمية التصوف

قال الإمام السيد أحمد الرفاعي قدس الله سره:

هذا الدين الجامع باطنه لب ظاهره ، وظاهره ظرف باطنه ، لولا الظاهر لما بطن لولا الظاهر لما كان ولما صح القلب لا يقوم بلا جسد ، بل لولا الجسد لفسد والقلب نور الجسد .

هذا العلم (التصوف) الذي سماه بعضهم بعلم الباطن هو إصلاح القلب.

إذا انفرد قلبك بحسن نيته، وطهارة طويته وقتلت وسرقت وزنيت وأكلت الربا وشربت الخمر وكذب وتكبرت وأغلظت القول فما الفائدة من نيتك وطهارة قلبك ؟! وإذا عبدت الله وتعففت وصمت وصدقت وتواضعت وأبطن قلبك الرياء والفساد فما الفائدة من عملك؟! ... أي حالة باطنة للمسلم لم يأمر ظاهر الشرع بعلمها؟! أي حالة ظاهرة لم يأمر ظاهر الشرع بإسلاح الباطن لها ؟![446].

إن الشارع أمر الإنسان بتكاليف في خاصة نفسه وترجع إلى قسمين:

قسم يتعلق بأعماله الظاهرة وقسم يتعلق بأعماله البطنة وبلفظ آخر : أحكام تتعلق باهر الجسد وأحكام تتعلق بباطن الجسد (القلب).

وأما الأعمال التي تترتب على الجسد فهي نوعان: أوامر نواه فالأوامر المفروضة هي كالصلاة والصوم والزكاة والحج... وأما لنواهي المحظورة فهي كتحريم الزنا والسرقة وشرب الخمر وحقوق العباد كافة ...

واما الأعمال التي تترتب على القلب فهي نوعان أيضا أوامر ونواه فالأوامر الفمروضة : كالإيمان بالله وملائمته وكتبه ورسله واليوم الآخر .. وكالإخلاص والتوكل والخشوع والصدق والصبر .... .

وأما الواهي المحورة فكالكفر والنفاق والحقد والحسد والكبر والعجب والرياء.

وهذا القسم الثاني هو المعول عليه في ديننا ألا وهو أعمال القولب لأن مبنى الأمور كلها على إخلاص النيات لرب البريات التي لا يعلم بها غيره ، فقد قرن الله سبحانه وتعالى أعمال الظاهر وسلامة الباطن فيها لأن فساد الباطن يوجب فساد الأعمال الظارة فقال: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [447].

ولهذا كان الحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ينم ملكا وتوجيها لاهتمام صحابته الكرام لإصلاح قلوبهم ويبين لهم هذا الملك وأن صلاحج الإنسان متوقف على صلاح هذا القلب وصفائه من كل الشوائب الكامنة في جنباته فقال : «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي

---

[446]- الرفاعي: البرهان المؤيد ،تح عبد الغني النكري، دار الكتب العلمية،بيروت،ط 1، 1999م ص 122 .

[447]- سورة الكهف [الآية 110].

القلب»[448] ، لأن العمدة يوم القيامة القلب السليم كما أخبر الله سبحانه وتعالى فقال: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (*) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [449].

وكما أخبر سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن محل نظر الرب هو القلب فقال «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[450].

وما فرق سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ظاهر صلاح الأعمال عن باطن صدق القلوب.

وقال الإمام جلال الدين السيوطي رحمه الله تعالى : «وأما علم القلب ومعرفة أمراضه من الحسد والعجب والرياء ونحوها فقال فيها الإمام الغزالي رحمه الله تعالى إنها فرض عين»[451].

«فتصفية القلب ومداواته من أهم الفرائض العينية وأهم الواجبات الربانية، وقد دل على ذلك ما جاء في الكتاب والسنة وأقوال العلماء والفقهاء» .

أولا : أهميته في الكتاب:

أمر الله تعالى خلقه أن تكون جميع عباداتهم القولية والفعلية والمالية خالصة له تعالى بعيدة عن الرياء فقال: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [452]، وقد حرم الفواحش فقال: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [453]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [454].

والفواحش الباطنية كما قال المفسرون هي الحقد والرياء والحسد والنفاق... .

ثانيا: أهميته في السنة :

الأحاديث التي وردت في النهي عن الحقد والكبر والرياء والحسد كثيرة منها:

---

[448]- رواه البخاري (52)، ومسلم (2523).

[449]- سورة الشعراء [الآية 88 – 89].

[450]- أخرجه مسلم (2564).

[451]- السيوطي:الأشباه والنظائر للسيوطي ،د تح،دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1403هـ-1983م،ص 504.

[452]- سورة البينة [الآية 5].

[453]- سورة الأعراف [الآية 33].

[454]- سورة الأعراف [الآية 33].

- النبي صلى الله عليه وآله وسلم يؤكد علينا«لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخوانا المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يكذبه ولا يحقره التقوى ههنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه»[455].

- وقال ايضا: «إن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصا وابتغي به وجهه»[456].

- وكذلك الأحاديث التي تأمر بالتحلي بالأخلاق الحسنة والمعاملة الجيدة الطيبة فقد قال فيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «إن الرجل ليبلغ بحسن الخلق درجة الصائم القائم»[457].

- ويقول عليه الصلاة والسلام: «اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن»[458].

أقوال العلماء في أهمية التصوف:

- أجمع العلماء على أن الأمراض والآفات القلبية من الكبائر التي تحتاج إلى توبة مستقلة لأن أمراض الباطن كافية لإحباط أعمال العبد ولو كانت كثيرة.
- عرفه الفقيه العلامة الكبير ابن عابدين في حاشيته الشهيرة: «إن علم الإخلاص والعجب والحسد والرياء فرض عين مثل غيرها من آفات النفوس كالكبر والشح والحقد والغش والغضب والداوة والبغضاء والطمع والبخل والبطر والخيلاء والخيانة والمداهنة والاستكبار عن الحق والمكر والمخادعة القسةوة وطول الأمل ونحوها مما هو مبين في ربع المهلكات في الإحياء قال فيه : ولا ينفك عنها بشر فيلزمه أن يتعلم منها ما يرى نفسه محتاجا اليه وإزالتها فرض عين ولا يمكن إلا بمعرفة حدودها وأسبابها وعلاماتها وعلاجها فإن من لا يعرف الشر يقع فيه»[459].
- وإن التصوف هو الذي اختص بمعالجة الأمراض القلبية وتزكية النفوس والتخلص من صفاتها الناقصة الذميمة.

---

[455]- رواه البخاري (5718) ومسلم (2559).

[456]- رواه الترمذي في كتاب فضائل الجهاد (23) باب ما جاء فيمن يقاتل رياء.

[457]- رواه الإمام أحمد في مسنده (76/19)، والمنذري في الترغيب والترهيب (44/3)، والدارمي (323/2).

[458]- رواه الترمذي (1988) وأحمد (53/5 و 158و 228 و 236).

[459]- ابن عابدين : رد المحتار على الدر المختار،تح عادل عبد الموجود و علي معوض،عالم الكتب،بيروت ،ط1423،،1هـ-2003م،مج1، ص 31.

- واما صاحب مراقي الفلاح العلامة الشرنبلالي يقول: «لا تنفع الطهارة الظاهرة إلا مع الطهارة الباطنة وبالإخلاص والنزاهة عن الغل والغش والحقد والحسد وتطهير القلب عما سى الله من الكونين فيعبده لذاته لا لعلة مفتقرا إليه وهو يتفضل بالمن بقضاء حوائجه المضطر اليها عطفا عليه فتكون عبدا فردا للمالك الأحد الفرد لا يسترقك شيء من الأشياء سواه ولا يستملك هواك عن خدمتك إياه»[460].
- نعم كما لا يحسن بالعبد أن يظهر أمام الناس بثياب ملطخة بالإذار والأوساخ وكذلك لا يليق به أن يتحرك وقلبه مسود بالظلمات مريض بالعلل والآفات ونفسه مشوبة بالكدورات ومتعلقة بالشهوات.
- يؤكد صاحب الهدية العلانية: وقد تظاهرت نصوص الشرع والإجماع على تحريم الحسد واحتقار المسلمين وإرادة المكروه بهم والكبر والعجب والرياء والنفاق وجملة الخبائث من أعمال القلوب بل السمع البصر والفؤاد فكل ذلك كان عنه مسؤولا مما يدخل تحت الاختيار[461].
- ذكر صاحب جوهرة التوحيد الشيخ إبراهيم اللقاني:

- وأمر بعرف واجتنب نميمة وغيبة وخـــصلة ذميمة
  كالعجب والكبر وداء الحسد وكالمراء والجدل فاعتمد

يقول شارحها عند قوله: وخصلة ذميمة أي واجتنب كل خصلةذميمة شرعا وإنما خص المصنف ما ذكره يعد اهتماما بعيوب النفس لأن بقاءها مع إصلاح الظاهر كالذي يلبس ثيابا حنة وجسمه ملطخ بالأوساخ ويكون كالعجب أيضا وهو رؤية العبادة واستعظامها كما يعجب العالم بعلمه والعابد بعبادته فهذا كله حرام ومثل العجب الرياء واللم والبغي والكبر وداء الحسد والجدل والمراء[462].

- والكبر من أمراض القلوب وهو وحده يكفي لدخول النار بدليل قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر »[463].
- ذكر ابن ذكوان في أهمية التصوف وفائدته:

وأمر بعرف واجتنب نميمة من كدرات النفس في المواطن

- و العلامة المنجوري في شرح هذا البيت «التصوف علم يعرف به كيفية تصيفة الباطن من كدرات النفس أي عيوبها وصفاتها المذمومة كالغل والحقد والحسد والغش وحب الثناء والكبر والرياء والغضب الطمع

---

[460]- الطحطاوي:حاشية الطحاوي على مراقي الفلاح شرح نور الإيضاح،تح محمد الخالدي،،المطبعة الكبرى الاميرية ،بولاق،مصر،ط1، 1997م ص 70 -71 .

[461]- علاء الدين عابدين: الهدية العلائية لتلاميذ الكاتب الابتدية في الفقه الحنفي،دار ابن حزم ،بيروت،ط1، 1424هـ- 2003م ص 315.

[462]- الباجوري: شرح جوهرة التوحيد ، تح علي جمعة و محمد الشافعي،دار السلام ،مصر،ط1، 1422هـ-2002م ،ص 120 – 122 .

[463]- رواه مسلم (263) والترمذي (1998) مطولا.

والبخل وتعظيم الأغنياء والاستهانة بالفقراء لأن علم التصوف يطلع على العيب والعلاج وكيفيته فبعلم التصوف يتوصل إلى قطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله تعالى»[464].

- وللسادة الصوفية الحظ الأوفر من الوراثة النبوية في تحلية النفس بالصفات الكاملة كالتوبة والتقوة والاستقامة والصدق والإخلاص والورع والتوكل والرضا والأدب والتسليم والمحبة والذكر والمراقبة وقد قيل في حقهم:

قد رفضوا الآثام والعيوبا وطهروا الأبدان والـقلوب
وبلغوا حقيقة الإيمان وانتهجوا مناهج الإحسان[465]

- فالتصوف اهتم بالجانب القلبي واهتم أيضا بما يقابله من العبادات المالية والبدنية وسهل ورسم الطريق الحقيقي العلمي المعلي الذي يوصل المسلم إلى أعلى مقامات الكمال الإيماني الخلقي ولم يقتصر فقط على قراءة أوراد وحلقات أذكار فحسب بل التصوف منهج علمي وعملي صحيح شامل كامل يحقق تغير الإنسان إلى شخصية مسلمة متكاملة مثالية وسبب نجاح الصوفية في هذه الأعمال هو حرصهم وشدة اتباعهم لسيد الخلق وحبيب الحق سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم .
- يقولالإمام السيد أحمد الرفاعي قدس الله سره : «الفقير (الصوفي) على الطريق ما دام على ا لسنة فمتى حاد عنها زل عن الطريق»[466].
- فتجلى لنا إذا بعد كل هذه الألة وبوضوح أن التصوف هو روح الإسلام وقلبه السليم وليس أعمالا ظاهرية وأفعالا شكلية لا حياة فيها ولا روح.
- وبفقد روح الإسلام وجوهره وصل المسلمون إلى درك من الانحطاط والضعف لذلك هم العلماء العاملون الصادقون أصحاب المبادئ والمرشدون المربون العارفون بنصح الناس بالالتزام مع الصوفية وصحبتهم ليتحققوا بأمر الله تعالى ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [467] لكي يحظوا برضاء الله ويتذوقوا معاني الصفاء القلبي والسمو الخلقي ويتعرفوا على الله تعالى معرفة حقيقية يقينية وحظوا بمحبته ومراقبته ودوام ذكره.

---

[464]- مصطفى المدني: النصرة النبوية في شرح الرائية للفاسي، تح محمد الادريسي،دار الرائد،الدار لبيضاء،ط1، 2009م ، ص 26.

[465]- ابن عجيبة :إيقاظ الهمم في شرح الحكم العطائية، تح عاصم إبراهيم الكيالي،دار الكتب العلمية.بيروت،ط2009،1م.ج1 ص 105.

[466]- الرفاعي:البرهان المؤيد،المرجع السابق، ص 63.

[467]- سورة التوبة [الآية 119] .

- و الإمام الغزالي يقول: بعد أخ اختبر طريق التصوف ولمس نتائجه وذاق ثمراته «الدخول مع الصوفية فرض عين إذ لا يخلو أحد من عيب إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام»[468].
- اما الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يحث : «عليك بطريق الحق ولا تستوحش لقلة السالكين وإياك وطريق الباطل ولا تغتر بكثرة الهاليكن وكلما استوحشت من تفردك فانظر إلى الرفيق السابق واحرص على اللحاق بهم وغض الطرف عن سواهم فإنهم لن يغنوا عنك من الله تعالى شيئا وإذا صاحوا بك في طريق سيرك فلا تلتفت اليهم فإنك متى التفت اليهم أخذوك وعاقوك»[469].
- ولما كان هذا الطريق صعب المسالك على النفوس الناقصة فعلى الإنسان أن يجتازه بعزم وصبر ومجاهدة حتى ينقذ نفسه من بعد الله وغضبه.

المبحث الثاني: الضبط المفاهيمي لمعالم التصوف عامة

المطلب الأول: ما قيل في تعريف التصوف

[468]- مصطفى المدني: المرجع السابق، ص 26.

[469]- ابن عجينة: المرجع السابق،ص 7.

ذكر السهروردي[470] رضي الله تعالى عنه «قال المشايخ في ماهية التصوف تزيد على ألف قول».

اورد الشيخ أحمد زروق في قواعده : وقد حد التصوف ورسم وفسر بوجوه تبلغ نحو الأفين مرجع كلها صدق التوجه إلى الله وإنما هي وجوه فيه[471].

1- **قال الشيخ عبدالقادر الجيلاني رحمه الله** : التصوف ليس ما أخذ عن القيل والقال ولكن أخذ من الجوع وقطع المألوفات والمستحسنات[472].

2- الإمام الغزالي رحمه الله تعالى ينظر ان : التصوف هو تجريد القلب لله تعالى واحتقار ما سواه أي تخليص القلب لله تعالى واعتقاد ما سواه اعتقادات أنه لا يضر ولا ينفع فلا يعول إلا على الله فالمراد باحتقار ما ساه اعتقاد أنه لا يضر ولا ينفع وليس المراد الازدراء التنقيص[473].

3- الشيخ ابن عطاء الله السكندري يرى بان: «التصوف هو الاسترسال مع الحق».

4- ابن عجيبة رحمه الله تعالى يعتبر : «التصوف لب الإسلام».

وقال أيضا: التصوف : هو علم يعرف به كيفية السلوك إلى حضرة ملك الملوك وتصفية البواطن من الرذائل وتحليتها بأنواع الفضائل وأوله علم وأوسطه عمل وآخره موهبة[474].

5- واما الشبلي رحمه الله تعالى يعد «التصوف : ضبط حواسك ومراعاة أنفاسك»[475].

وكذلك«التصوف هو الجلوس مع الله بلا وهم».

6- الشيخ معروف الكرخي رحمه الله تعالى يعرفه: « التصوف الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيد الخلائق»[476].

7- أبو الحسن الشاذلي رحمه الله تعالى يعتبر«التصوف تدريب النفس على العبودية وردها لأحكام الربوبية»[477].

8- الشيخ محي الدين بن عربي رحمه الله تعالى يؤكد على ان «التصوف هو الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهرا وباطنا ».

التصوف خلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف[478].

---

[470] – سهرورد: كلمة مركبة من (سهر)بمعنى أحمر بالكردية و (ورد) بمعناها العربي أي الوردة الحمراء والتركيب من باب إضافة الصفة إلى الموصوف.

[471]– احمد زروق:قواعد التصوف،تح عبد المجيد خيالي،،دار الكتب العلمية،بيروت،ط2، 2005م – القاعدة الثانية،ص 21.

[472]– المرجع السابق ، القادعدة الثانية،ص21.

[473]– ابو اليسر عابدين،حكايا الصوفية،دار البشائر،بيروت،ط1، 1413هـ-1993م ص 25 – 26 .

[474]– ابن عجيبة: معراج التشوف إلى حقائق التصوف ،تح د عبد المجيد خيالي،مركز التراث الثقافي المغربي،الدار البيضاء،معراج التشوف إلى حقائق التصوف ،د ط، د تخ،ص 4.

[475] – تاج الدين السبكي:معيد النعم ومبيد النقم ،مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط1407،1هـ-1986م،ص 94.

[476]– عبد الرحمان بدوي: تاريخ التصوف الإسلامي،دار الشعاع،القاهرة،ط2001،3م، ص 17.

[477]– حامد صقر: نور التحقيق في صحة أعمال الطريق ،دار التاليف، مصر،ط2، 1390هـ- 1970م،ص 93.

[478]– حامد صقر: شرح كلمات الصوفية والرد على ابن تيمية من كلام ابن عربي،مطبعة نضر،دمشق،ط2، 1413هـ- 1993م،ص 326 – 327

9- وسئل رويم عن التصوف فقال:«التصوف هو استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريد».

وقال أيضا: «التصوف مبني على ثلاث خصال: التمسك بالفقر والافتقار[479] والتحقيق بالذل والإيثار وترك التعرض للاختيار».

10- الإمام الجنيد البغدادي رحمه الله تعالى : «التصوف ذكر مع اجتماع ووجد مع استماع وعمل مع اتباع» وقال أيضا «علمنا هذا التصوف مقيد بالكتاب والسنة ومن لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدي به في هذا الأمر والطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ».

- «علمنا هذا التصوف مقيد بالكتاب والسنة فمن لم يسمع الحديث ويجلس ويأخذ أدبه من المتأدبين أفسد من اتبعه».

-«التصوف أن يختصك الله بالصفاء فمن صفا من كل ما سوى الله فهو الصوفي»[480].

- «التصوف حفظ الأوقات».

-«التصوف تصفية القلب عن موافقة البرية ومفارقة الأخلاق الطبيعية وإخماد الصفات البشرية ومجانبة الدواعي النفسانية ومنازلة الصفات الروحانية والتعلق بالعلوم الحقيقة واستعمال من هو ألى على الأبدية النصح لجميع الأمة والوفاء لله على الحقيقة واتباع الرسول في الشريعة»[481].

وسئل الجنيد عن التصوف فقال: «أن تكون مع الله تعالى بلا علاقة أن لا تملك شيئا ولا يملكك شيء » أي أن تعتقد أنك فقير على وجه الحقيقة لا تملك شيئا والله سبحانه وتعالى هن المالك الحقيقي.

وقال الشبلي رحمه الله تعالى سمعت الجنيد يقول: «التصوف أن يميتك الحق عنك ويحييك به».

11- وسئل أبو محمد الجريري رحمه الله عن التصوف فقال: «الدخول في كل خلق سني والخروج من كل خلق دني».

12- الشيخ عمر بن عثمان المكي رحمه الله تعالى : «التصوف أن يكون العبد في كل وقت بما هو أولى به في الوقت».

13- أبو الحسن ابن أبي ذر في كتابه (منهاج الدين أنشدونا للشبلي):

علم التصوف علم لانفاد له علـــــــم سني سماوي ربوبي
فيه فوائـــد للأرباب يعرفها أهل الجزالة والصنع الخصوصي[482]

---

[479]- الفقر عند السادة الصوفية هو الالتجاء إلى الله تعالى والافتقار اليه.

[480]- النفري،غيث المواهب العلمية فيشرح الحكم العطائية ، تح عبد المقصود هيكل، دار الخير،القاهرة، ط1، 1408 هـ- 1988م ،ج1،ص26.

[481]- الكلاباذي:التعرف لمذهب أهل التصوف،تح ارثر جون اربري،مكتبة الخانجي،القاهرة،ط1، 1415هـ- 1994م، ص 20.

[482]- الكلاباذي:المرجع السابق، ص 101.

14- الشيخ أبو حفص رحمه الله تعالى : «التصوف كله آداب لكل وقت أجب ولكل مقام أدب فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال ومن ضيع الآداب فهو بعيد من حيث يظن القرب ومردود من حيث يرجو القبول»[483].

15- صاحب كشف الظنون: التصوف علم يعرف به كيفية ترقي أهل الكمال من النوع الإنساني في مدارج سعادتهم إلى أن قال:

علم التصوف علم ليس يعرفه إلا أخو فـــطنة بالحق مـــعروف

وليس يعرفه من ليس يشهده وكيف يشهد ضوء الشمس مكفوف

16- الشيخ أحمد زروق رحمه الله تعالى : «التصوف علم قصد به صلاح القلوب وإرادها لله تعالى عما سواه والفقه لإصلاح العمل وحفظ النظام وظهور الحكمة بالأحكام والأصول (علم التوحيد) لتحقيق المقدمات بالبراهين وتحلية الإيمان بالإيقان والطب لحف الأبدان النحو لإصلاح اللسان إلى غير ذلك»[484].

17- الشيخ حسين الزيباري العلواني رحمه الله تعالى: «ينحصر التصوف في أربع كلمات : أن تنصف الناس من نفسك ولا تطلب الإنصاف منهم وأن تبدي لهم شيئك وأن تكون من شيئهم آيسا»[485].

18- الشيخ أبو يعقوب السوسي رحمه الله تعالى : «الصوفي هو الذي لا يزعجه سلب ولا يتعبه طلب».

19- الشيخ أبو القاسم النصر أبادي رحمه الله: «أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة وترك الأهواء والبدع ورؤية أعذار الخلائق والمداومة على الأوراد وترك الرخص والتأويلات».

20- أبو جعفر الحداد رحمه الله : «التصوف هو استقامة الأحوال مع الحق».

21- المزين رحمه الله تعالى : «التصوف هو الانقياد للحق» .

22- الشيخ علي بن بندار رحمه الله تعالى : «التصوف هو إسقاط الخلق ظاهرا وباطنا»[486].

23- وسئل أبو الحسن النوري رحمه الله : ما التصوف؟ فقال:« ترك كل حظ للنفس».

24- الشيخ أبو القاسم جعفر بن أحمد المقرئ: «التصوف استقامة الأحوال مع الحق»[487].

25- السيد الشريف الجرجاني: التصوف هو وقوف مع الآداب الشرعية اهرا فيسري حكمها من الظاهر إلى الباطن وباطنا فيسري حكمها من الباطن إلى الظاهر فيحصل للمتأدب بالحكمة كمال.

26- القاضي شيخ الإسلام زكريا الأنصاري رحمه الله: التصوف علم تعرف به أحوال تزكية النفوس وتصفية الأخلاق وتعمير الظاهر الباطن لنيل السعادة الأبدية[488].

---

[483]- عبد الرحمان السلمي:طبقات الصوفية :تح عبد القادر عطا،دار الكتب العلمية،بيروت،1419هـ -1998م،ص 119.

[484]- ابن زروق:المرجع السابق،قواعد التصوف، قاعدة 13 ،ص 6.

[485]- المراد بالشيء: متاع الدنيا.

[486]- معيد النعم ومبيد النقم ص 94.

[487]- طبقات الصوفية :المرجع السابق،ص 511.

27- الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله تعالى : «التصوف اسم حادث لمسمى قديم إذ إن مسماه لا يعدو كنونه سعيا إلى تزكية النفس من الأوضار العالقة بها عادة كالحسد والتكبر وحب الدنيا وحب الجاه وكذلك ابتغاء توجيهها إلى حب الله عز وجل والرضا عنه والتوكل عليه والإخلاص له»[489].

28- الشيخ محمد بدر الدين الحامد رحمه الله : «التصوف هو تنقية الظاهر والباطن من المخالفات الشرعية وتعمير القلب بذكر الله تعالى وخشيته ورجائه والسير في العبادات والأعمال على النهج الشرعي طبق السنة الشريفة... ».

29- الدكتور محمد حسن الذهبي : التصوف «هو مناجاة القبلب ومحادثة الروح وفي هذه المناجاة طهر لمن شاء أن يتطهر وصفاء لمن أراد التبرأ من الرجس والدنس وفي تلك المحادثة عروج إلى سماء النور والملائكة والصعود إلى عالم الفيض والإلهام..»[490].

30- العلامة حسنين محمد مخلوف مفتي الديار المصرية الأسبق: «التصوف هو تربية علمية وعملية للنفوس وعلاج لأمراض القلوب وغرس للفضائل واقتلاع للرذائل وقمع للشهوات وتدريب على الصبر والرضا والطاعات...»[491].

وقيل إن التصوف هو :

31- الافتقار إلى الله تعالى .

32- تصفية القلوب من غير الله تعالى ، ثم الصعود بالروح إلى عالم التقديس بإخلاص العبودية للخالق المعبود والتجريد من السوى.

33- قلوب منكسرة بما عملت لما منه حذرت.

34- سخاء ووفاء وسلوك طريق المصطفى عليه الصلاة والسلام.

35- الرغبة في المحبوب لدرك المطلوب ثم مفارقة الأشرار ومصادقة الأخيار.

36- صدق في المعاملة لا تزين ولا محاولة.

37- بذل الروح طول مدة الحياة وتبديدها استعدادا لسكرة الممات.

38- رتوع القلب الهائم في مرتع العز الدائم.

39- جباه ساجدة وقلوب هالعة والعة.

40- أنس بعد بأس وسرور بعد يأس.

41- خوف ورهبة وأدب ورغبة.

---

[488]- القشيري:المرجع السابق،، ص 7.

[489]- رمضان البوطي: السلفية مرحلة،المرجع السابق، ص 189.

[490]- الذهبي:التفسير والمفسرون،د تح ،مكتبة وهبة، بيروت،ط 7، 2000م، (2/324 - 325).

[491]- ابو ذر القلموني:السالكون إلى الله ففروا الى الله،مكبة الصفا،دمشق،ط5، 1424هـ، ص 15.

42- التزام الصمت واغتنام الوقت.

43- عفة بالنفوس وشهامة بالرؤوس.

44- أرواح متعشقة وباسم الذات متحققة.

45- رقة وشوق وترقي وذوق.

46- نقاء الأفكار وسلوك الأبرار.

47- الموافقة للحق في مفارقة الخلق.

48- حسن الصحبة والقيام بحقها.

49- علم وحكمة وتبصرة وهداية وتربية وتهذيب وعلاج ووقاية وتقوى واستقامة وصقبر واجتهاد وفرار من فتنة الدنيا وزينتها وابتعاد.

50- العبودية المطلقة لله سبحانه وتعالى .

51- ثورة على التكلف ودعوة إلى التقشف ثورة على الحقد ودعمة إلى الحب ، ثورة على الجاه ودعوة إلى الله ، ثورة على الجدل ودعوة إلى لعمل ، ثورة على الظلم ودعوة إلى العلم، ثورة على الشكوى ودعوة إلى التقوى، ثورة على الشر ودعوة إلى البر، ثورة على التكبر ودعوة إلى التفكر ثورة على التملق ودعوة إلى التذوق ثورة على الكذب ودعوة إلى الصدق.

52- العمود الفقري للإسلام وهو طريق الأبرار الأخيار المقتبس من أعمال الصحابة الكرام فهو طريق الحق والهداية.

53- الصدق مع الحق وحسن الخلق مع الخلق.

54- لب الشريعة وروجها وثمرتها وحكمتها.

55- الإكباب على العمل والإعراض عن العلل.

56- أن تبتعد عن الكذب ما ساتطعت وإن ظننت ان فيه نجاتك وتدنو من الصدق ما استطعت وإن تيقنت أن فيه هلاكك.

57- حفظ حواسك ومراعاة أنفاسك.

58- ترك الاختيار.

59- الجد في السلوك إلى حضرة ملك الملوك وتصفية البواطن من الرذائل وتحليتها بأنواع الفضائل.

60- أن تصفي قلبك من الأكدار وعملك من الأعذار وتخلص لله الجبار وتعلم أنه لا هادي ولا ولي ولا ناصر ولا غافر إلا الله ولا ملجأ ولا منجي منه إلا اليه.

61- أن تعرف ربك بالبقاء ونفسك بالفناء والبقاء الحقيقي هو بروز أوصافك المحودة والفناء الحقيقي هو سقوط أوصافك الذميمة فمن ترك أفعاله الذميمة فني عن شهاته وبالتالي بقي بنيته وإخلاصه في عبوديته.

62- تعاليم روحية مستمدة من كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام إنه مرتبة الإحسان التي أشار اليها النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقوله «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فغن لم تكن تراه فإنه يراك»[492].

63- قطع الشهوات وترك الدنيا والمستحسنات والميل عن المألوفات[493].

64- تصفية القلب من أوضار المادة وقوامه صلة الإنسان بالخالق العظيم.

65- التمسك بكتاب الل عز وجل والاقتداء بسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم واكل الحلال وكف الأذى اجتناب الآثام والتوبة وأداء الحقوق.

[492]- مر تخريج باب التصوف ومنشؤه.

[493]- قطع الشهوات: أي قطع حبها عن القلب لا تركها بالكلية لأنه لا رهبانية في الإسلام.

المطلب الثاني: ما قيل في تعريف الصوفي

1- قال الإمام الرفاعي الكبير قدس الله سره: الصوفي من صفى سره من كدورات الأكوان، وما رأى لنفسه على غيره مزية[494].

يذكر علامة الصوفي الصادق: الصوفي هو الصادق في جميع الحركات، المتقلل من المباحات والصمم عن كثير من المسموعات وأن لا يطلب المعدوم حتى يبذل المجهول والموجود[495] ويقطع الحيلة حتى لا يرى في أحواله وشدته ورخائه وتقلبه غير خالقه ومكونه وإن الفقير متى نظر إلى ما يلبس التبس عليه أمهر ومتى رأى الخلق من دونه هرت عيوبه . الفقير ابن وقته يرى كل نفس من أنفاسه أعز من الكبريت الأحمر ، يودع لكل ساعة ما يصلح لها ، ولا يضيع شيئا[496].

2- الصوفي لا يسلك غير طريق الرسول المكرم صلى الله عليه وآله وسلم فلا يجعل حركاته وسكناته إلا مبنية عليه.

3- الصوفي يتجنب مخالطة الخلق مهما أمكن لأن الصوفي كملا زاد اختلاطه بالخلق ظهرت عيوبه والتبس عليه الأمر وإذا خالط البعض فليختر لنفسه صحبة الصالحين فإن المرء على دين خليله.

4- الصوفي لا يصرف الأوقات في تدبير أمور نفسه لعلمه أن المدبر: هو الحق عز وجل، ولا يلجأ في أموره ولا يعول على غير الله تعالى[497] .

5- الإمام محمد بهاء الدين الرواس قدس الله سره : الصوفي التقي: الذي لا يريد فسادا في الأرض ولا علوا ، ومن رؤية أبيه وجده وطوره ومقامه الذي يصير مع الحق أين كان ولا ينحرف عنه.

6- أيضا: المتصوف المتلصص: المحجوب بزيه وأبيه وجده أو شيخه وعمله فإن ذلك من المتصنمين الذي لا خير فيهم ولا في صحبتهم والعاقبة للمتقين[498].

7- ذو النون المصري رحمه الله تعالى يقول: الصوفي إذا نطق أبان منطقه عن الحقائق وإذا سكت نطقت عنه الجوارح بقطع العلائق أي أن الصوفي بين حالتين إما أن يتكلم أو يلزم الصمت فغن تكلم لم يقل إلا حقا وإن سكت عهن الكلام نطقت جوارحه فهو مشغول بالله في الحالتين حالة نطقه وحالة سكونه[499].

8- واكد الشيخ بشر بن الحارث الصوفي من صفا قلبه لله.

---

[494]- الرفاعي:البرهان المؤيد،المرجع السابق، ص 69.

[495]- أي لا يطلب الرزق الغائب حتى ينفق الحاضر.

[496]- النظام الخالص لأهل الاختصاص ص 59- 60 .

[497]- حكم السيد أحمد الرفاعي ص (49 - 50) .

[498]- مهدي الرواس: بوارق الحقائق ،المرجع السابق،ص 315.

[499]- المرجع نفسه، ص 10.

9- وسئل الشيخ سهل بن عبدالله التستري من الصوفي؟ فقال: من صفا من الكدر وامتلأ من الفكر وانقطع إلى الله من البشر واستوى نده الذهب والمدر[500].

10- أبو تراب النخشبي: الصوفي لا يكدره شيء ويصفو به كل شيء[501].

11- و الإمام الشبلي : الصوفي منقطع عن اللق متصل بالحق لقوله تعالى ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾[502]، قطعه عن كل غير ثم قال لن تراني[503].

12- و أبو علي الروذباري: الصوفي من لبس الصوف على الصفا، وأذاق الهوى طعم الجفا، ولزم طريق المصطفى ، وكانت الدنيا منه على القفا[504].

13- اما السهروردي رحمه الله تعالى : الصوفي هو الذي يكون دائم التصفية ولا يزال يصفي الأوقات من شوب الأكدار بتصفية القلب عن شوب النفس ويعينه على كل هذا دوام افتقاره إلى مولاه فبدوام الافتقار ينقي الكدر وكلما تحركمت النفس وظهرت بصفة من صفاتها أدركها ببصيرته النافذة وفر منها لربه فهو قائم بربه على قلبه وقائم بقلبه على نفسه قال الله تعالى ﴿كونوا قامين بالقسط﴾[505] وهذه القوامية لله على النفس هي التحقق بالتصوف.

14- و النوري : نعت الصوفي: في السكن عند العدم والإيثار عند الوجود.

15- واكد الشيخ الشعراوي: الصوفي هو الذي يتقرب إلى الله بفروض الله ثم يزيدها بسنة الرسول عليه الصلاة والسلام من جنس ما فرض الله وأن يكون عنده صفاء في استقبال أقضية العبادة فيكون صافيا لله والصفا هو كونك تصافي الله[506].

وقيل إن الصوفي:

16- الذي يعطي كل ذي حق حقه جمع بين الدنيا والآخرة بظاهره توجه إلى الدنيا وبقلبه توجه إلى خالقه.

17- أن يكون مع الناس ببدنه ومع الله بروحه شهد المكون فغاب عن الأكوان شهد الله فغاب عما سواه فكلما ازداد الصوفي بعدا عن الخلق ازداد قربا من الخالق.

18- من صفت لله معاملته فصفت له من الله عز وجل كرامته.

19- حكيم ذو حكمة فإن لم يكن حكيما ورعا زاهدا صواما قواما فلاحظ له بهذا اللقب لأنه صفاء القلب وتزكية النفس وجهاد الهوى وأن يكون له عقل راجح وحضور وتمكن قوي من نفسه حتى لا تحكم عليه الأغراض النفسية فهو الخليفة المختار دون غيره من المخلوقين الأمين على خلق الله تعالى فلا

---

[500]- المدر: قطع الطين اليابس وقيل الطين العلك الذي لا رمل فيه (لسان العرب- مادة مادة مدر).

[501]- القشيري:المرجع السابق، ص 218.

[502]- سورة طه [الآية 41].

[503]- د عبد الرحمان بدوي:تاريخ التصوف الإسلامي من البداية حتى نهاية القرن الثاني ،وكالة المطبوعات،الكويت،ط1،2003م، ص16.

[504]- تاج الدين السبكي:معيد النعم ومبيد النقم ،مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت ط1،1407هـ-1986م ،ص (94).

[505]- سورة النساء [الآية 135].

[506]- محمد حسين يعقوب:أصول الوصول الى الله،الكتبة التوفيقية،القاهرة،ط3، 2013م، ص 337.

يعدل بهم عن سنة الله فكل الموجودات بيد الإنسان أمانة عرضت عليه فحملها فغن أداها فهو الخليفة الأمين، وإن لم يؤدها فهو الظلوم الجهول ولا تطمع بأن ترى هذه الأوصاف في غير الرجال الكمل أهل التحقيق والعرفان السادة الصوفية[507].

20- من كان صافيا من آفات النفس خاليا من مذموماتها[508].

21- الصوفي كثير الاستغفار في الليل والنهار في إقبال قلبه والإدبار.

[507]- د عماد الدين:حقيقة التصوف،دار المشاريع،بيروت،ط1 ، 1435هـ-2013م، ص 3.

[508]- د احمد السحمراني:التصوف منشؤه ومصطلحاته،دار النفائس، بيروت،ط1، 1987م، ص 32.

المطلب الثالث: ما قيل في تعريف الصوفية

1- يؤكد أبو يزيد البسطامي رحمه الله تعالى : الصوفية أطفال في حجر الحق[509].

2- واما ذو النون: الصوفية فعدهم :هم قوم آثروا الله تعالى على كل شيء فآثرهم الله على كل شيء.

3- سالوا عبد الواحد بن زيد: من الصوفية عندك؟ فقال: القائمون بعقولهم على همومهم والعاكفون عليها بقلوبهم المعتصمون بسيدهم من شر نفوسهم هم الصوفية.

4- وذكر السراج: إذا قيل لك : الصوفية من هم في الحقيقة؟ صفهم لنا فقل: هم العلماء بالله وبأحكام الله العاملون بما علمهم الله تعالى المتحققون بما استعملهم الله عز وجل[510].

5- واما ذو النون: رأيت امراة ببعض سواحل الشام فقلت لها: من أين أقبلت رحمك الله ؟ قال: من عند قوم تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا قلت: وأين تريدين؟ قالت إلى رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله قلت : صفيهم لي فأنشأت تقول:

قوم همومهـــــم بالله قد علقت فما لهم همم تســـــموا إلى أحد

فمطلب القوم مولاهم وسيدهم يا حسن مطلبهم للواحد الصمد

ما إن تنازعهــم دنيا ولا شرف من المطاعـــــم واللذات والولد

ولا للبس ثياب فـــــائق أنق ولا لـــــروح سرور حل في بلد

إلا مسارعة في إثر مـــــــنزلة قد قارب الخطو فيها باعد الأبد[511]

6- هم الذين ساروا على نهج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كالصحابة أهل الصفة والتابعين وتابع التابعين كالجنيد البغدادي وأقرانه إلى يومنا هذا فهؤلاء قوم قلوبهم وعزائمهم صاعدة إلى الملأ الأعلى بالشهود التوحيدي لا يستنكفون عن العبادة ولا يفترون عن الذكر فقوتهم الطاعة ومناجاتهم حب ووجد بقرب وحياة بعبادة وذوق بعلم وبسط بأنس وخلق بقرآن أي بفهم له أمناء للخلق وخزنة للسر وصفوة للخلق عملوا وتحققوا بالأخوة الروحية والقيم الإنسانية.

أهل مبادئ يعبرون عن روح القرآن وجوهر السة ورثوا أخلاقا حميدة وإيمانا خالصا بهديه عليه الصلاة والسلام فبرز النور المحمدي فيهم وانطلقت أرواحهم تجول بحب وإحساس وقرب مقدس فم أهل ذوق ووجدان ومشاهدة يترنمون بأفكارهم في تجلي الجلال والجمال والكمال حكماء ربانيون أرباب فتوة قائمون بعقولهم على همهم عاكفون عليه بقولهم معتصمون بسيدهم من شر نفوسهم فهم خير أمة أخرجت للناس.

7- الصوفية هم المجتمعة على الله هممهم المتعلقة بعظمته وحكمته ألبابهم الذين لا تشهد سوى الله أسرارهم وليس إلا إليه غدوهم ورواهم فهم أحكم الناس وأعقلهم[512].

---

[509]- هذه إشارة للتسليم المطلق منهم لله عز وجل.

[510]- الطوسي: اللمع،المرجع السابق، ص47.

[511]- الكلاباذي:المرجع السابق،ص20-21

[512] - ابو الوفاء التفتازاني:المدخل إلى التصوف،د تح، دار الثقافة،القاهرة ،ط3، د تخ، ص 9.

8- و: إن اصوفية هم بقية من بقايا أهل الصفة[513].

9- والصوفية أوفر الناس حظا في الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأحقهم بإحياء سنته والتخلق باخلاق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من حسن الاقتداء به وإحياء سنته[514].

[513]- الطوسي: المرجع السابق، ص 47.

[514]- السهروردي:عوارف المعارف،المرجع السابق،ص229.

المطلب الرابع: عقيدة الصوفية

- سدينا الإمام الرفاعي:

قال رضي الله عنه معرفا التوحيد: هو وجدان تعظيم في القلب يمنع من التعطيل والتشبيه.

- و في البرهان المؤيد: صونوا قعائدكم من التمسك بظاهر ما تشابه من الكتاب والسنة، لأن ذلك من أصول الكفرن قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ [515] — والواجب عليكم وعلى كل مكلف في المتشابه الإيمن بأنه من عند الله أنزله على عبده سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما كلفنا سبحانه وتعالى تفصيل علم تأويله قال جلت عظمته: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ [516] فسبيل المتقين من السلف تنزيه الله تعالى عما دل عليه ظاهره وتفيض معناه المراد منه إلى الحق تعالى وتقدس وبهذا سلامة الدين.

- أي سادة نزهوا الله عن سمات المحدثين وصفات المخلوقين وطهروا عقائدكم من تفسير معنى الاستواء في حقه تعالى بالاستقرار كاستواء الأجسام على الأجسام المستلزم للحول تعالى لله عن ذلك. وإياكم والقول بالفوقية والسفلية والمكان واليد والعين بالجارحة والنزول بالإتيان الانتقال فإن كل ما جاء في الكتاب والسنة مما يدل ظاهره على ما ذكر فقد جاء ي الكتاب والسنة مثله مما يؤيد المقصود فما بقي إلا ما قال صلحاء السلف وهو الإيمان بظاهر كل ذلك ورد حكم المراد منه إلى الله ورسوله مع تنزيه الباري تعالى عن الكيف وسمات الحدوث وعلى ذلك درح الأئمة وكل ما وصف الله به نفسه في كتابه فتفسيره قراءته والسكوت عنه ليس لأحد أن يفسره إلا الله تعالى ورسوله ولكم حمل المتشابه على ما يوافق أصل المحكم لأنه أصل الكتاب والمشتابه لا يعارض المحكم.

- الصوفي يتباعد عن الأوهام والشكوك ويقول بوحدانية الله تعالى في ذاته وصفاته وأفعاله لأنه ليس كمثله شيء يعلم ذلك يقينا ليخرج من باب العلم الني وليخلع من عنقه ربقة القليد[517].

- الإمام محمد مهدي بهاء الدين الشهير بالرواس:

يقول رجال هذه الطائفة رضي الله عنهم : الحمد لله نزمن بالله ونشهد أنه لا شريك له لا في السماء ولا في الأرض تنزه وتقدس عن أن يشاركه فيهما أحد ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [518]ونؤمن بما جاء به عن الله الأنبياء والمرسلون وننزهه في ذاته وصفاته عن النظير في الدنيا والآخرة ونقدسه عن الجهات ومجانسة الحادثات ونؤمن بكتابه كله بأنه من عنده أنزله على عبده ونرد تفصيل علم تأويله إله وننزهه عما دل عليه ظاهره ونفوض المعنى المراد منه اليه تعالى وتقدس ونؤمن بنبيه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ونشهد بأنه رسول الل وأفضل المرسلين والرحمة العامة للعالمين ونؤمن بأنه رأى ربه بعين بصره وبصيرته ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (*) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ

---

[515]- سورة آل عمران [الآية 7].

[516]- سورة آل عمران [الآية 7].

[517]- الرفاعي:حكم السيد أحمد الرفاعي،تح د نوال ناظم، دار الكتب العلمية، بيروت،ط1، 2016م ،ص48.

[518]- سورة الأنبياء [الآية 22].

أَدْنَىٰ﴾ [519] وأنه صلى الله عليه وآله وسلم محمد بن عبدالله ابن عبدالمطلب بن هاشم قرشي عربي بشر فضله الله على خلقه كلهم واختاره لجنابه اصطفاه لذاته وأعطاه الوسيلة الكبرى والشفاعة العظمة وقدمه على النبيين والمرسلين في الآخرة والأولى ونعتقد أنه هو وةإخوانه النبيون والمرسلون معصومون عن الكبائر مطلقا ونبوته عليه الصلاة والسلام باقية وشريعته ناسخة ويقولون نعتقد أن الله تعالى أرسل قبل رسوله ونبيه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم رسلا أولهم آدم عليه السلام وخاتمهم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وكلهم جاؤوا بالحق وتكلموا بالصدق وبلغوا الرسالة وصدقوا فيما بلغوا عن ربهم عز وجل وكل ما أنزل اليهم من الكتب والصحف حق وأن المعراج حق وأن الصالحين معل علو منزلتهم وقربهم من ربهم لا يسقط عنهم شيء من الفرائض والواجبات من الصلاة والزكاة والحج والصيام وغير ذلك ومن زعم أنه صار وليا وسقطت عنه الفرائض فقد كفر وإن الولي كبقلة تحت شجرة النبوة وإن البعث حق والعرض حق والحساب حق وإن الجنة ونعيمها حق والنار وعذابها حق وأهل الجنة يرون ربهم بعينهم من غير إدراك ولا إحادة ولا كيفية ولا مقابلة ولا على مكان ولا في جهة وإن قراءة الكتب حق يؤتى المؤمن كتابه بيمينه والكافر بشماله والميزان حق الصراط ق وحوض الكوثر حق الشفاعة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم حق وشقفاعة المؤمنين حق ومحبة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على العموم حق وكلم على هدى وأن أبا بكر رضي الله عنه صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخليفته وخلافته حق وبعده خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه حق وبعده خلافة عثمان ابن عفان رضي الله عنه تحق وبعده خلافة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي الله عنه عنه حق وأفضل الخلق بعد نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم أبو بكر الصديق رضي الله عنه ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم أجمعين[520].

وقال رضي الله عنه : في لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ القول بوحدانية الواحد الأحد الفرد الصمد ألا وهو الذي لا إله إلا هو الذي لا شريك له ولا نير له ولا ند له ولا ضد له الذي يحي ويميت وهو على كل شيء قدير[521].

وقال رضي الله عنه: بويعت على تنزيه الله تعالى عن افوقية والجهة والجسم والمكان ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [522] " [523] .

- يحث الإمام عبدالقادر الجيلاني بقوله: أخرج عن الخلق جدا واجعلهم كالباب يرد ويفتح وشجرة توجد فيها ثمرة تارة وتحيل أخرى وكل ذلك بفعل فاعل وتدبير مدبر وهو الله عز وجل فإذا صح لك هذا كنت موحدا للرب عز وجل.

---

[519]- سورة النجم [الآية 8 -9].

[520]- مهدي الرواس :مسلك ناجية الفطين في مراحل السالكين ،تح فريد المزيدي،دار الافاق العربية،مصر،ط2010،1م،(ص 79- 81).

[521]- المرجع السابق (ص15).

[522]- سورة الشورى [الآية11].

[523]- مهدي الرواس: بوارق الحقائق،تق ابراهيم الرفاعي،دار الافاق العربية،مصر،ط 1، 2002م ، ص 313.

ولا تنس مع ذلك كسبهم لتتخلص من مذهب الجبرية واعتقد أن الأفعال لا تتم بهم دون الله عز وجل لكيلا تعبدهم وتنسى الله ، ولا تقل فعلهم دون فعل الله فتكفر فتكون قدريا ولكن قل هي لله خلقا وللعباد كسبا كما جاءت به الآثار ، ولبيان موضع الجزاء من الثواب العقاب..[524].

- يقول الإمام الشعراني: اعلم يا أخي أن القوم أجمعوا على أن الله تعالى إله واحد لا ثاني، تنزه عن الصاحبة والولد مالك لا شريك له صانع لا مدبر معه موجود بذاته من غير افتقار إلى موجد يوجده بل ك موجود مفتقر اليه في وجوده فالعامل كله موجود به وهو تعالى مطلق مستمر قائم بنفسه ليس بجوهر فيقدر له المكان ولا بعرض فيستحيل عليه البقاء ولا بجسم فتكون له الجهة والتلقاء مقدس عن الجهة والأقدار مرئي بالقلوب والأبصار استوى تعالى على عرشه كما قاله ، وعلى المعنى الذي أراده كما أن العرش وما حواه به استوى، له الآخرة والأولى ليس له مثل معقول ، ولا دلت عليه العقول، ولا يحده زمان ولا يقله مكان، وهو الآن على ما عليه كان..، علم الأشياء قبل وجودها ثم أوجدها على حد ما هي عليه، فلم يزل عالما بالأشياء لم يتجدد له علم عند تجدد الأشياء أتقن الأشياء وأحكمه يعلم الكليات والجزئيات على الإطلاق فهو عالم الغيب والشهادة، فتعالى عما يشركون...، لو اجتمع الخلائق كلهم على أن يريدوا شيئا لم يرد الله تعالى لهم أن يريدوه ما أرادوه أو أن يفعلوا شيئا لم يرد الله إيجاده أو أرادوه ما فعلوه ولا استطاعوه ولا أقدرهم عليه.

وكما شهدنا لله تعالى بالوحدانية وما يستحقه من الصفات العلية كذلك نشهد لسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالرسالة إلى جميع الناس كافة بشيرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا وأنه صلى الله عليه وآله وسلم بلغ جميع ما أنزل إليه من ربه وأدى أمانته ونصح أمته ، ونؤمن بكل ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مما علمنا ومما لم نعلم[525].

- الإمام الجنيد: التوحيد هو إراد الموحد بتحقيق وحدانيته بكمال أحديته ، أنه هو الواحد الذي لم يلد ولم يولد بنفي الأضداد والأنداد والأشباه بلا تشبيه ولا تكييف ولا تصوير ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

وقال رضي الله عنه: التوحيد إفراد القدم عن الحدث.

- الإمام القشيري يؤكد على: إن شيوخ هذه الطائفة بنوا عقائدهم على أحوال صحيحة في التوحيد صانوا بها عقائدهم عن البدع ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة من توحيد ليس فيه تمثيل ولا تعطيل وعرفوا ما هـ حق القدم وتحققوا بما هو نعت الموجود عن العد.

- الشيخ حسين منصور الحلاج:الزم الكل الحدث لأن القدم له فالذي بالجسم ظهوره فالعرض يلزمه والذي بالأداة اجتماه فقواه تمسكه والذي يؤلفه وقت يفرقه وقت والذي يقيمه غير فالضرورة تمسه والذي الوهم يظفر به فالتصوير يرتقي اليه ومن آواه محل أدركه أين إنه سبحانه وتعالى لا يظله فوق ولا يقله تحت ولا يقابله ولا يزاحمه عند ، ولا يحده أمام، ولم يظهره قبل، ولم يفنه بعد، ولم يجمعه كل، ولم يوجده كان، ولم يفقده ليس، وصفه لا صفة

---

[524]- آداب السلوك للإمام الجيلاني (ص 67- 68).

[525]- الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية للشعراني (ص 20- 25).

له، وفعله لا علة له، وكونه لا أمد له، تنزه عن أحوال خلقه، ليس له من خلقه مزاج ولا في فعله علاج باينهم بقدمه كما باينوه بحدثهم إن قلت متى؟ فقد سبق الوقت كونهن وإن قلت هو فالهاء والواو من خلقه وإن قلت أين فقد تقدم المكان وجوده فالحروف آياتهن ووجوده إثباته ومعرفته توحيده وتوحيده تمييزه عن خلقه ما تصور بالأوهام فهو بخلافه كيف يحل به ما منه بداه أو يعود إليه ما هو أنشأه لا تراه العيون ولا تقابله الظنون علوه من غير توقل[526]، ومجيؤه من غير تنقل هو الأول والآخر والظاهر الباطن والقريب والبعيد الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

- و الشيخ أبو محمد سهل بن عبدالله التستري:رد حين سئل عن الله عز وجل: ذات موصوفة بالعلم غعير مدركة بالإحاطة ولا مرئية بالأبصار في دار الدنيا وهو موجود في حقائق الإيمان من غير حد ولا حلول تراه العيون في العقبى ظاهرا في ملكوته وقدرته لقد حجب سبحانه وتعغالى الخلق عن معرفة كنه ذاته ودلهم عليه بآياته.
- و الشيخ أبو الحسن البوشنجي: التوحيد أن تعلم أنه غير مشبه للذوات ولا منفي الصفات.
- اما الشيخ أبو محمد الحريري: من لم يقف على علم التوحيد بشاهد من شواهده زلت به قدم الغرور في مهواة التلف ومن لم يتأمل التوحيد سقط عن سنن النجاة ووقع في أسر الهلاك.
- يدعو الشيخ أبو إسحاق الإسفراييني‌الى ان : جميع ما قاله المتكلمون في التوحيد قد جمعه أهل الحقيقة في كلمتين: الأولى: اعتقاد أن كل تصور في الأوهام فالله بخلافه، والثانية: أن ذاته تعالى غير مشبهة للذوات ولا معطلة عن الصفات.
- يؤكد الشيخ أبو بكر محمد الكلاباذي على ان : اجمعت الصوفية على أن الله واحد أحد فرد صمد عالم قادر حي سميع بصير عزيز عظيم جليل جواد رؤوف متكبر جبار باق أول إله سيد مالك رب رحمان رحيم مريد حكيم متكلم خالق رازق موصوف بكل ما وصف به نفسه من صفاته مسمى بكل ما سمي به فنسه لم يزل قديما بأسمائه وصفاته غير مشبه بالخلق بوجه من الوجوه لا تشبه ذاته الذوات ولا صفته الصفات لا يجري عليه شيء من سمات المخلوقين الدالة على حدثهم لم يزل سابقا متقدما للمحدثات موجودا قبل كل شيء لا قديم غيره ولا إله سواه ليس بجسم ولا شبح ولا صورة ولا شخص ولا جوهر ولا عرض ولا اجتماع له ولا افتراق لا يتحرك ولا يسكن لا ينقص ولا يزيد ليس بذي أبعاد ولا أجزاء ولا أعهضاء ولا بذي جهات ولا أماكن لا تجري عليه الآفات ولا تأخذه السنات ولا تداوله الأوقات ولا تعينه الإشارات لا يحويه مكان، ولا يجري عليه زمان ، لا تجوز عليه المماسة ولا العزلة ولا الحلول في الأماكن لا تحيط به الأفكار ولا تحجبه الأستار ولا تدركه الأبصار.

قيل: التوحيد: هو إفراد المعبود بالعبادة مع اعتقاد وحدته والتصديق بها ذاتا وصفات وأفعالا.

[526]- وقل في الجيل: يقل صعد ورفع رجلا وأثبت أخرى

المبحث الثالث: الضبط الفاهيمي لمعالم التصوف عند الجيلاني:

المطلب الأول: مفهوم التصوف عند الجيلاني:

لقد رسم الجيلاني منهجا متكاملا للتصوف يجمع بين العلم الشرعي المؤسس على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وبين التطبيق العملي والالتزام بالشرع وقد أراد بذلك مد جسور التواصل بين العلماء والفقهاء ممن كثر اهتمامهم بالنصوص و العلوم الشرعية على حساب السلوك و أعمال القلوب وبين رجال التصوف الذين بالغوا في الاهتمام بالروحانيات وأعمال القلوب وأهملوا إلى حد كبير جانب العلم الشرعي ولعل ابرز مثال على ذلك شيخه في التصوف حماد الدباس الذي كان أميا لا يقرا ولا يكتب[527] والذين كان ينكر عليه تردده على الفقهاء والعلماء ويقول له:« إيش جاء بك إلينا أنت فقيه سر إلى الفقهاء»[528]

ونستطيع أن نعرف معالم هذا المنهج ون أقواله- رحمه الله -مثل:«انظر لنفسك نظر رحمه وشفقة واجعل الكتاب و السنة أمامك وانظر فيهما واعمل بهما ولا تغتر بالقيل والقال والهوس قال تعالى: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [529] ولا تخالفوه فتتركوا العمل بما جاء وتخترعوا لأنفسكم عملا وعبادة كما قال الله عز وجل في حق قوم ضلوا سواء السبيل﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾ [530]».[531]

ويقول في موضع أخر:

«يا قوم انصحوا القران بالعمل به لا بالمجادلة فيه الاعتقاد كلمات يسيره بالأعمال كثيرة عليكم بالإيمان به صدقوا بقلوبكم واعملوا بجوارحكم واشتغلوا بما ينفعكم ولا تلتفتوا إلى عقول ناقصة دنية».[532]

وهناك نصوص كثيرة ترشد إلى منهجه هذا وتدل على بعده عن الانحرافات الصوفية إلا انه كما سبق أن اشرنا في سمات التصوف في المرحلة الثانية في الإكثار من دعوى الالتزام بالكتاب والسنة ونهج السلف ثم وجود المفارقات وعدم الالتزام بهذه الدعوى عند التطبيق وهذا ما ينطبق أيضا على الشيخ عبد القادر الجيلاني الذي لو لم تقع منه تلك المفارقات لعد من أئمة أهل السنة والجماعة ومن علماء السلف ولما كانت له علاقة بالمتصوفة من قريب أو بعيد.

وقد تحدث الشيخ عبد القادر عن مفهوم التصوف والمتصوف والصوفي كالأتي:

أولا: مفهوم التصوف عنده:

لقد جدده بقوله:

« التصوف هو الصدق مع الحق وحسن الخلق مع الخلق»[533]

---

[527]- الذهبي:سير أعلام النبلاء ،المرجع السابق،(594/19)

[528]- التادفي:المرجع السابق ص112.

[529]- سورة الحشر [الآية 17].

[530]- سورة الجديد [الآية 27].

[531]- عبد القادر الجيلاني:فتوح الغيب للجيلاني،المصدر السابق، المقالة السادسة والثلاثون (ص 25).

[532]- عبد القادر الجيلاني:الفتح الرباني، المصدر السابق، المجلس الحادي عشر (41).

وهذا يعني أن التصوف ينظم العلاقتين الرئيستين بين العيد وبين ربه بالصدق في العبودية وبين العبد وبقية الناس بالمعاملة الحسنة و الخلق القويم.

كما يحدده بقوله:

«هو تقوى الله وطاعته ولزوم ظاهر الشرع وسلامة الصدر وسخاء النفس وبشاشة الوجه وبذل الندى وكف الأذى وتحمل الأذى والفقر وحفظ حرمات المشايخ والعشرة مع الإخوان والنصيحة للاصا غر والأكابر وترك الخصومة والإرفاق وملازمة الإيثار ومجانبة الادخار وترك صحبة من ليس من طبقتهم والمعاونة في أمر الدين والدنيا»[534]

وهو هنا يضيف إلى ما ذكرنا أمرين هامين لهما علاقة بالتصوف :

الأول: تربية النفس وتزكيتها وتهذيبها وحملها على التخلق بالصفات النبيلة والإخلال الحميدة كسلامة الصدر والسخاء والبشاشة والبذل والتحمل والحلم، والإيثار والرفق.

والثاني: التأدب في المعاشرة بالقيام بحقوق الشيخ و الإخوان والنصح والإخلاص للجميع وعدم التخاصم.

ولا يكتفي الشيخ عبد القادر بتنظيم تلك الأمور الهامة وإنما يبين أن التصوف يقوم ويعتمد على ثمان خصال:

1-السخاء: ويجعل القدوة في ذلك خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام الذي اشتهر صلوات الله وسلامه عليك بذلك.[535]

2-الرضا: ويجعل القدوة فيه إسحاق بن إبراهيم عليه السلام وكأنه بهذا يشير إلى انه هو الذبيح وأن استسلامه لأمر ربه ورضاه كان ابرز صفاته.

وهذا القول مرجوح عند أهل السنة و الجماعة: فقد ذكر ابن القيم – رحمه الله – الخلاف في هذه المسالة ورجح بالأدلة القاطعة و البراهين القوية أن الذبيح هو إسماعيل عليه وعلى نبينا وعلى سائر الأنبياء أفضل الصلاة وازكي السلام.[536]

3-الصبر: والقدوة في التخلق بهذا الخلق العظيم أيوب عليه السلام فقد اثني الله عليه بقوله: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [537] وذلك لما تحلى به من الصبر لمواجهة تلك الابتلاءات العظيمة التي لا يكاد يطيقها بشر في جسده وماله وولده.[538]

4-الإشارة:[539] ويذكر أن القدوة فيها هو زكريا عليه السلام.

---

[533]- عبد القادر الجيلاني:الغنية ،المصدر السابقة(160/2).

[534]- عبد القادر الجيلاني: فتوح الغيب للجيلاني،المصدر السابق، المقالة السابعة والخمسون (ص 166).

[535]- انظر: تفسير ابن كثير (235/4).

[536]- انظر: زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم (71/1).

[537]- ص (44)

[538]- انظر: تفسير ابن كثير (39/4).

وكأنه يشير بهذا إلى سرعة بديهته وشدة فهمه وذكائه عليه السلام فانه لما رأى أن الله يرزق مريم فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء أدرك بفطنته مدى قدرة الله عز وجل وعدم ارتباطها بالأسباب وان الله قادر على أن يرزقه ولدا ولو كان شيخا كبيرا قد وهن عظمه واشتغل بالشيب رأسه مع كبر امرأته فدعا الله وناداه وقال:﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾[540] .[541]

5-الغربة:[542] وقد جعل القدوة في هذه الصفة يحي بن زكريا عليه السلام .

ولعل قصده بذلك كثرة عبادته وخلو قلبه من المشاغل حيث لا ولد ولا زوجة فقد جعله الله سيدا وحصورا ونبيا من الصالحين.[543]

6- التصوف والقدوة في ذلك بن عمران عليه السلام.

ولعله أراد بذلك الإشارة إلى الاصطفاء الذي وقع عليه من الله يقوله عز وجل:﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾.[544]

7-السياحة:[545] ويذكر أن القدوة فيها هو عيسى بن مريم عليه السلام.

وقد حاولت أن أجد علاقة بين هذا الوصف وبين ما كان عليه نبي الله عيسى بن مريم عليه السلام فلم يتضح لي شيء.

8- الفقر:[546]

ولا شك أن أعظم الناس اتصافا بهذا الوصف وهو الافتقار إلى الله وصدق اللجوء والاعتماد عليه هو خير البشر وسيد ولد ادم محمد صلى الله عليه وسلم تسليما والشواهد على هذا كثيرة جدا في سيرته العظيمة.[547]

---

(539)- وسائل الاتصال عند الناس هي التخاطب والتلاقي وغيرها، أما الصوفية فيستخدمون الإشارة للتعبير والإرسال والاستقبال وبهذا المعنى يشير صاحب اللمع بقوله:"الإشارة هي ما يخفى عن المتكلم كشفه بالعبارة لدقة ولطافة معناه" اللمع للطوسي (ص 414).

(540)- سورة آل عمران [الآية 38]

(541)- انظر: تفسير ابن كثير (360/1)

(542)- انظر: عند الصوفية بمعنى الأغتراب عن الوطن وذلك لتسيير الاتصال مع الله منعا لشواغل الحس فالصوفي إذا ساح في البلاد وجد نفسه فقيرا إلى الله في كل حال معجم ألفاظ الصوفية، لحسن شرقاوي (216).

(543)- انظر: تفسير ابن كثير (361/1)

(544)- سورة الأعراف [الآية 144].

(545)- السياحة في الصوفية جزء من جهاد النفس لأن من السفر والاغتراب والبعد عن الأولاد والأحباب فرصة للتربية الروحية ومخالفة النفس بالإضافة إلى لقاء الصالحين وطلب العلم وغيره. معجم ألفاظ الصوفية (174).

(546)- الفقرة عند الصوفية ليس بمفهومه العام الذي هو ضد الغنى ولكن معناه الافتقار إلى الله بمعنى أن يشعر الانسان لفقره وحاجته إلى الله ولو كان غنيا أو وجيها

(547)- ف عبد القادر الجيلاني:فتوح الغيب للجيلاني،المصدر السابق، المقالة الخامسة والسبعون (ص166).

المطلب الثاني: مفهوم المتصوفة عند الجيلاني:

المتصوف عند الجيلاني هو الذي يتوصل بجهد و تكلف في طريق تصوفه الي ان يكون صوفيا فيسير في طريق القوم المجاهدا لهواء ومروضا لنفسه علي التحمل والتحلي بالصفات المحمودة وتطبيقها فيقول-رحمه الله-:

« المتصوف هو الذي يتكلف أن يكون صوفيا ويتوصل بجهده إلي أن يكون صوفيا فإذا تكلف وتقمص طريق القوم واخذ به في طريق السلوك يسمي متصوفا»[548].

وكلامه هذا يدل علي انه يري أن هناك مرحلة سابقة تسبق كون الرجل صوفيا وهي مرحلة الإعداد والتربية والتي غالبا ما تكون مصحوبة بالجهد والمعاناة. لأنها فترة تدريب علي أعمال القلوب بالإيمان الصادق. وأعمال الجوارح بالعمل الصالح.

المطلب الثالث: مفهوم الصوفي عند الجيلاني:

الصوفي عند الجيلاني هو من تحقق فيه ما سبق من معاني التصوف حتى صار أهلا لأن يطلق عليه صوفي فيقول في وصفة:« صوفي مأخوذ من المصافاة يعني عبد الصافاه الله عز وجل، أو من كان صافيا من أفات النفس خاليا من مذموماتها سالكا لحميد مذاهبه ملازما للحقائق غير ساكن إلي احد من الخلائق»[549]

ويضع ضابطا دقيقا للصوفي فيقول:

« الصوفي من صفا باطنه وظاهره بمتابعة كتاب الله وسنة رسوله صلي الله عليه وسلم».[550]

وكم تمنيت لو أن المتصوفة وإتباع طريقة الجلاني متمسكو بهذا التوجيه والتزموا وتقيدوا بهذا الضابط ولو حدث هذا المكان خيرا لهم واشد تثبيتا.

ويفرق الشيخ عبد القادر بين المتصوف الذي لا يزال في مرحلة الأعداد والتدريب وبين الصوفي الذي قطع الطريق واجتاز فترة الأعداد بقوله:

"المتصوف: مبتدئ في طريق الوصل، والصوفي: منتهي إليه.

المتصوف: متحمل لكل ثقيل وخفيف، والصوفي: محمول.

المتصوف: شارع في الطريق. والصوفي: قطع الطريق ووصل لمن إليه الوصل والقطع[551]

وقد أكد الشيخ عبد القادر الجيلاني كثيرا على عدم الاهتمام بالشكل والمظهر وإهمال الشاطئ والجوهر فقال:

«يا من قد لبس الصوف البس الصوف لسرك ثم لقلبك ثم لنفسك ثم لدنك بداية الزهد من هناك تكون لا من الظاهر إلى الباطن إذا صفا السر تعدى الصفاء إلى القلب والنفس والجوارح و المأكول و الملموس وتعدى إلى جميع أحوالك»[552]

---

[548]- عبد القادر الجيلاني:الغنية،المصدر السابق (160/2).

[549]- المصدر نفسه (160/2).

[550]- عبد القادر الجيلاني:الفتح الرباني، المصدر السابق، المجلس التاسع والخمسون، ص (207)

[551]- عبد القادر الجيلاني: الغنية، المصدر السابق (161/2)

[552]- عبد القادر الجيلاني:الفتح الرباني، المصدر السابق ، المجلس الرابع والعشرون ص (87).

وفي تأكيد واضح على أن الصوفي هو الذي صفا قلبه يأكل الحلال وبالصدق مع الله عز وجل يقول الجيلاني: «يا غلام صف قلبك بأكل الحلال وقد عرفت ربك عز وجل وصف نعمتك وخرفتك وقلبك وقد صرت صافيا»، التصوف مشتق من الصفا:«يا من ليس الصوف الصوفي الصادق في تصوفه بصفو قلبه عما سوى مولاء عزوجل وهذا شيء لا يجيء بتغيير الخرق وتصغير الوجوه وجمع الأكتاف ولقلقة اللسان وحكايات الصالحين وتحريك الأصابع والتسبيح والتعليل وإنما يجيء بالصدق في طلب الحق عز وجل والزهد في الدنيا وإخراج الخلق من القلب وتجرده عما سوى مولاء عز وجل»[553].

المطلب الرابع: العوامل التي أدت إلى تصوفه

هناك عوامل عدة أثرت في تكوين شخصية الشيخ عبد القادر الجيلاني حتى ألت به إلى سلوك طريق التصوف إلى جانب سلوكه طريق العلم الشرعي المعتمد على الكتاب والسنة كما سبق أو أوضحناه عند عرض أرائه الإعتقادية. وأبرز هذه العوامل ما يلي:

1- نشأته في أحضان أسرة صالحة ، تتألف من والده الذي كان مشهورا بالصلاح و العبادة وحسن السيرة ووالدته فاطمة أم الخير بنت أبي عبد الله الصومعي المعروف بالتقوى والورع وعمته التي كانت على جانب كبير من الخير والصلاح.[554]

إلى جانب شهرة جده لامه الذي كان من كبار مشايخ جيلان ورؤساء زهادهم و الذي ما أن لمح فيه الاستعداد الطيب والرغبة في الخير والعلم حتى ضمه الله وتعهده بغرس جميل الخصال فيه وربطه بالعلماء والصالحين ولقد كان الزهد سمة غالبة على بية الشيخ عبد القادر فقد وصف والديه بقوله: « أهلني الله عز وجل ببركات متابعتي للرسول صلى الله عليه وسلم وبري بوالدي ووالدتي رحمهما الله عز وجل، والذي زهد في الدنيا مع قدرته عليها، ووالدتي وافقته على ذلك ورضيت بفعله كانا من أهل الصلاح والديانة والشفقة على الخلق»[555]

ولقد أعطى هذا الطابع الديني لأسرة الشيخ عبد القادر مكانة عالية بين الناس مما جعلهم يقدرونهم ويسترشدون بهم في جميع أحوالهم فقد ذكر ابن العماد الحنبلي ا ناهل جيلان استسقوا بعمته الصالحة أم عائشة فلم يسقوا فكنست رحبة بيتها وقالت : يأرب كنست بيتي فرش أنت فمطوا كأفواه القرب[556]

2- اتصاله بالصوفية في بغداد فلقد شكل انتقاله إلى بغداد تطورا جديدا في حياته لما واجهة من تغير كبير في البيئة العامة والحياة الخاصة حيث اختلط بالعلماء والفقهاء ومشايخ الصوفية وذلك في قاعات الدروس ومجالس العلم. ووقف على انتمائهم ونشاطاتهم وتأثر بذلك تأثرا كبيرا وقد بدا وقائع دراسته الفقه الحنبلي وقراءة القران

---

[553]- المصدر نفسه، المجلس الخامس والعشرون ص 90

[554]- الشطنوفي:المرجع السابق،ص 88 . انظر كذلك التادفي: المرجع السابق ،ص 3.

[555]- عبد القادر الجيلاني:الفتح الرباني، المصدر السابق ، المجلس الواحد و الستون ، ص224.

[556]- ابن العماد:شذرات الذهب ،المرجع السابق، (298/4).

الكريم ثم اتجه بعد ذلك إلى دراسة التصوف وعلومه وكان لصحبته للشيخ حماد الدباس الأثر الكبير في تحديد توجيهاته الصوفية[557] .

3- عدم ارتياحه إلى سلوك بعض الفقهاء والوعاظ في زمانه والذين كانت تحكمهم الأهواء والمنافع الشخصية وكانوا يثيرون الخلافات المذهبية ويغيرون انتماءاتهم طبقا لمصالحهم الذاتية مما عمق قناعته بان انحراف مما عمق قناعته بان انحراف بعض الفقهاء وتكسبهم بدينهم هو نتيجة حتمية لفراغ قلوبهم من التقوى ومراقبة الله عز وجل وجعله يسلك طريق التصوف لكن ثقافتهم الفقهية التي تستمد أصولها من الكتاب والسنة وهدي السلف الصالح كان لها الأثر الكبير في سلامته وعبوره ساحل النجاة وعدم تأثره بالفلسفات وعلوم الكلام والإشارات والتفسيرات الصوفية التي تعتمد على الإلهام و الكشف والذوق وغير ذلك.

4- المكانة العالية والمنزلة الرفيعة التي كانت للتصوف في زمانه إثر الجهود الكبيرة التي بذلها الإمام الغزالي الذي اشتهر أمره وذاع صيته في بداية نشأة الشيخ عبد القادر ولا استبعد ان يكون قد تتلمذ عليه فمن المعروف أن الإمام الغزالي توفي سنة 505هـ بينما كان وصول الشيخ عبد القادر إلى بغداد كما أسلفا في سنة 488 هـ بمعنى انه عاش معه في بغداد سبعة عشر عاما فمن المستحيل آلا يكون قد سمع ب هاو جالسه ثم رأى تلك المنزلة الغالية التي كان عليها الغزالي في بغداد ويزيد هذا الاحتمال ترجيحا التشابه الكبير بين أسلوب الشيخ الغزالي والشيخ عبد القادر الجيلاني في كتابيهما الغية والأحياء.

هذه أهم العوامل في نظري و التي كان لها الأثر الكبير في تصوفه رحمه الله.

[557]- ابن رجب:ذيل طبقات الحنابلة ،المرجع السابق،(1/ 298).

المبحث الرابع: تصوف المقامات والأحوال العملية

المطلب الأول: موقفه من العلم والعمل

نلمح من خلال تتبع أحوال الشيخ عبد القادر الجيلاني عنايته الفائقة واهتمامه البالغ بجانبي العلم النظري والعملي والذي يقرا ما كتبه في أهمية العلم والعلماء يتضح له صدق ما ذكرت وسوف أورد بعض أقواله الدالة على مدى اهتمامه بالعلم فمن ذلك قوله في نصيحة يوجهها إلى بعض طلابه.

« إن أردت الفلاح فاصحب شيخا عالما بحكم الله عز وجل وعلمه يعلمك ويؤديك ويعرفك الطريق إلى الله عز وجل».ويقول في نصيحة أخرى :« إذا لم تتبع الكتاب والسنة ولا الشيوخ العارفين بها فما تفلح أبدا»[558] ، ويكفي في بيانه اهتمامه بالعلم ما سبق أن أوضحناه في الباب الأول عند الحديث عن مكانته العلمية.

أما الجانب العلمي فقد كان موضع عنايته باعتباره من مقتضيات العلم، ومن ثماره وسوف نذكر نماذج من تركيزه على هذا الجانب في وصاياه التي كان يوجهها إلى طلابه ومريديه من ذلك قوله:« يا غلام تحفظ القرآن ولا تعمل به تحفظ سنة رسوله صلى الله عيه وسلم ولا تعمل بها. فلأي شيء تفعل ذلك تأمر الناس وأنت لا تفعل وتنهاهم وأنت لا تنتهي قال عز وجل:﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (*) ﴾[559] لم تقولون وتخالفون أما تستحون لم تدعون الإيمان ولا تؤمنون»[560].

ويؤكد على التشبيه السيئ للعالم الذي لا يعمل بعلمه بقوله:« مثل الله العالم الذي لا يعمل بعلمه بالحمار فقال: ﴿ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾[561] الأسفار هي كتب العلم هل ينتفع الحمار بكتب العلم ما يقع بيده سوى التعب والنصب من ازداد علمه ينبغي أن يزداد خوفه من ربه عز وجل وطواعيته له، يا مدعي العلم أين بكاؤك من خوف الله عز وجل؟ أين حذرك وخوفك؟ أين اعترافك بذنوبك؟ لأين مواصلتك للضياء بالظلام في طاعة الله عز وجل. أين تأديبك لنفسك ومجادلتها في جانب الحق وعداوتها فيه؟ أنت همك القميص والعمامة والأكل والنكاح والدور والدكاكين والقعود مع الخلق والأنس بهم»[562].

ولأهمية الإخلاص عند أداء العمل يقول:« لم تتعلم ولا تعمل إطو ديوان العلم ثم اشتغل بنشر ديوان العمل مع الإخلاص وإلا فلا فلاح لك»[563].

وفي حياته الشخصية كان يمثل النموذج المثالي في تطبيق تلك التعاليم فقد عمل بأغلب المبادئ والخصال التي يقوم التصوف عليها والتي ذكرناها في المبحث السابق.

---

[558]- عبد القادر الجيلاني:الفتح الرباني، المصدر السابق، المجلس التاسع والثلاثون، ص 127.

[559]- سورة الصف [الآية: 3].

[560]- عبد القادر الجيلاني:الفتح الرباني، المصدر السابق، المجلس العاشر، ص 35.

[561]- سورة الجمعة [الآية 5].

[562]- عبد القادر الجيلاني:الفتح الرباني، المصدر السابق ، المجلس الثالث عشر، ص 51.

[563]- المصدر نفسه، المجلس الثامن والخمسون، ص201.

وقد اتفق من ترجم له أو وصفه على حسن خلقه وكريم سجاياه وعلو همته وتواضعه وسخائه وإيثاره وتطبيقه العملي لكل ما يدعو الناس إليه وقد نقل صاحب بهجة الأسرار وصف أحد معاصريه له فقال:

« ما رأت عيناي أحسن خلقا ولا أوسع صدرا ولا أكرم نفسا ولا ألطف قلبا ولا أحفظ عهدا وودا من الشيخ عبد القادر ولقد كان مع جلالة قدره وعلو منزلته وسعة علمه يقف مع الضمير ويوقر الكبير ويبدأ بالسلام ويجالس الضعفاء ويتواضع للفقراء»[564].

كما نقل صاحب قلائد الجواهر قول الإمام محمد بن يوسف الأشبيلي[565]:

« كان الشيخ عبد القادر مجاب الدعوة سريع الدمعة دائم الذكر كثير الفكر رقيق القلب دائم البشر كريم النفس سخي اليد غزير العلم شريف الأخلاق مع قدم راسخ في العبادة والاجتهاد»[566] .

وكان اهتمامه بالجوانب التربوية كبيرا إذ أن معظم توصياته لها علاقة مباشرة بالسلوك العلمي التربوي ومن الأمثلة على ذلك تلك الخصال الحميدة التي وصى بها والتي تحتاج إلى مجاهدة عظيمة حتى يمكن الإنسان الاتصاف بها ليصل إلى درجات الكمال وهي:

1- ألا يحلف بالله عز وجل لا صادقا ولا كاذبا ولا عامدا ولا ساهيا، لأنه إذا أحكم ذلك من نفسه وعود لسانه دفعه ذلك إلى ترك الحلف ساهيا وعامدا فإذا اعتاد دلك فتح الله عليه بابا من أنواره يعرف منفعة ذلك في قلبه ورفعة درجته وقوة في عزمه وفي صبره والثناء عند الإخوان والكرامة عند الجيران حتى يأتم به من يعرفه ويهابه من يراه.

2- أن يجتنب الذب لا هازلا ولا حادا لأنه إذا فعل ذلك وأحكمه من نفسه واعتاده لسانه شرح الله تعالى به صدره وصفا به علمه كأنه لا يعرف الكذب وإذا سمعه من غيره علب ذلك عليه وعيره به في نفسه وإن دعا له بزوال ذلك له ثواب.

3- أن يحذر أن يعد أحدا شيئا فيخلفه ويقطع العدة البتة فإنه أقوى لأمره وأقصد لطريقه لأن الخلف من الكذب فإذا فعل ذلك فتح له باب السخاء ودرجة الحياء وأعطى مودة في الصادقين ورفعة عند الله جل ثناؤه.

4- أن يجتنب أن يلعن شيئا من الخلق أو يؤدي ذرة فما فوقها لأنها من أخلاق الأبرار والصديقين وله عاقبة حسنة في حفظ الله تعالى في الدنيا مع ما يدخر له ممن الدرجات ويستنقذ من مصارع الهلاك ويسلمه من الخلق ويرزقه رحمة العباد ويقربه منه عز وجل.

5- أن يجتنب الدعاء على أحد من الخلق وأن ظلمه فلا يقطعه بلسانه ولا يكافئه بقول ولا فعل فإن هذه الخصلة ترفع صاحبها إلى الدرجات العلى وإذا تأدب بها ينال منزلة شريفة في الدنيا والآخرة والمحبة والمودة في قلوب الخلق أجمعين من قريب وبعيد وعز في الدنيا في قلوب المؤمنين.

---

[564]- الشنطوفي: المرجع السابق ،المرجع السابق،ص103.

[565]- الإمام المحدث الحافظ أبو عبد الله محمد بن يوسف الأشبيلي، ولد سنة (577هـ) وقدم الاسكندرية سنة (602هـ)، فحبب إليه طلب الحديث وكتابة الآثار، وكان كما قال الذهبي ريض الأخلاق بشوشا سهل العبارة كثير الاحتمال، توفي سنة (636هـ)

[566]- التادفي: قلائد الجواهر،المرجع السابق،ص9.

6- إلا يقطع الشهادة على أحد من أهل القبلة بسرك ولا كفر ولا نفاق فانه اقرب للرحمة واعلي من الدرجة وهي تمام السنة وابعد عن الدخول في علم الله. وابعد من مقت الله واقرب إلى رضاء الله تعالى ورحمته فانه باب شريف كريم على الله تعالى يورث للعبد الرحمة للخلق أجمعين

7- أن يجتنب النظر إلى المعاصي ويكف عنها جوارحه فان ذلك من أسرع الأعمال نوابا في القلب والجوارح في عاجل الدنيا مع ما يدخره الله له من خير الآخرة.

8- أن يجتنب أن يجعل على احد من الخلق منه مؤنة صغيرة ولا كبيرة بل يرفع مؤنته عن الخلق أجمعين مما احتاج إليه واستغنى عنه فان ذلك تمام عزة العابدين وشرف المتبقين وبه يقوى على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويكون الخلق عنده أجمعين بمنزلة واحدة فإذا كان كذلك نقله الله إلى الغنى واليقين والثقة به عز وجل ولا يرفع أحدا سواء ويكون الخلق عنده في الحق سواء ويقطع بان هذه أسباب عز المؤمنين وشرف المتبقين وهو اقرب باب الإخلاص.

9- ينبغي له أن يقطع طمعه من الآدميين ولا يطمع نفسه فيما في أبديهم فانه العز الأكبر والغنى الخاص والملك العظيم والفخر الجليل واليقين الصافي والتوكل الشافي الصريح وهو باب من أبواب الثقة بالله عز وجل وهو باب من أبواب الزهد وبه ينال الورع ويكمل نسكه وهو من علامات المنقطعين إلى الله عز وجل.

10- التواضع لان به يشيد محل العابد وتعلو منزلته ويستكمل العز والرفعة عند الله سبحانه وعند الخلق وبقدر على ما يريد من أمر الدنيا والآخرة وهذه الخصلة أصل الخصال كلها وفرعها وكمالها، وبها يدرك العبد منازل الصالحين الراضين عن الله تعالى في السراء والضراء وهي كمال التقوى.

والتواضع هو إلا يلقى العبد أحدا من الناس إلا رأى له الفضيل عليه ويقول: عسى أن يكون عند الله تعالى وانأ قد عصيت فلا شك انه خير مني وان كان كبير قال: هذا عبد الله قبلي وان كان عالما قال: هذا أعطي ما لم ابلغ ونال ما لم أنل وعلم ما جهلت وهو يعمل بعمله، وان كان جاهلا قال: هذا عصى الله بجهل وانأ عصيته بعلم، ولا ادري بم يختم لي وبم يختم له. وأن كان كافرا[567] قال: «لا أدرى عسى أن يسلم فيختم له بخير العمل وعسى[568] أن أكفر فيختم لي بسوء العمل"[569].

---

[567]- هذه العبارة بها نظر؛ لان المسلم لا يمكن أن يرى أن الكافر أفضل منه أو انه عند الله خيرا منه وارفع درجة ولعلها خرجت من الشيخ عبد القادر مخرج المبالغة في التواضع.

[568]- عسى هنا بمعنى لعل.

[569]- عبد القادر الجيلاني: فتوح الغيب للجيلاني، المصدر السابق،المقالة الثامنة والسبعون،ص118.

-المطلب الثاني: الورع

كان الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى متعلقا بأهداب الورع طوال حياته، وقد رأينا كيف كان يقوم الليل مصليا، داعيا، متضرعا، وكيف كان كلما انتقض وضوؤه جدده في الحال، وكيف كان يتورع عن قبول هدايا الخلفاء والأمراء وعطاياهم لما فيها من شبهة الاغتصاب والظلم والجور.

يؤكد علي بن محمد الجرجاني في تعريف الورع: «هو اجتناب الشبهات خوفا من الوقوع في المحرمات».

يقول النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «إن الحلال بين وإن الحرام بين وبينهما أمور مشتبهات، لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، إلا وأن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»[570] .متفق عليه.

وفي نص اخر أيضا: «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرا مما به بأس»[571]. حديث حسن رواه الترمذي وابن ماجه.

وكان الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى يأخذ بالعزيمة في أحواله جميعها، ويكثر من النوافل في أوقاته كلها.

يعبر الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى عن الورع بقوله: «هو إشارة إلى التوقف في كل شيء وترك الإقدام عليه إلا بإذن من الشرع، فإن وجد للشرع فيه فعلا ولتناوله فيه مساغا وإلا تركه، والورع على ثلاث درجات: ورع العوام وهو ورع عن الحرام والشبهة، وورع الخواص وهو ورع عن كل ما للنفس والهوى فيه شبهة «أي عن حظوظ النفس»، وورع خواص الخواص وهو ورع عن كل ما لهم فيه إرادة. والورع ورعان: ظاهر وهو أن لا يتحرك إلا بالله تعالى، وباطن وهو أن لا يدخل على قلبك سوى الله تعالى، ومن لم ينظر في دقائق الورع لم يحصل له نفائس العطاء. والزهد أول الورع كما أن القناعة طريق الرضا. قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: مثقال ذرة من الورع خير من ألف مثقال من الصوم والصلاة»[572].

«ولا يتم الورع إلا أن يرى عشرة أشياء فريضة على نفسه: أولهما حفظ اللسان من الغيبة، والثاني: الاجتناب عن سوء الظن، والثالث: الاجتناب عن السخرية من الناس، والرابع: غض البصر عن المحارم، والخامس: صدق اللسان، والسادس: أن يعرف منة الله تعالى عليه لكيلا يعجب بنفسه، والسابع: أن ينفق ماله ولا ينفقه في الباطل، والثامن: أن لا يطلب لنفسه العلو والكبر، والتاسع: المحافظة على الصلوات الخمس في مواقيتها، والعاشر: الاستقامة على السنة والجماعة»[573].

---

[570]- ابن الاثير: جامع الأصول ،المرجع السابق، ج10،ص179 رقم7674.

[571]- المرجع نفسه، ج3،ص 682 رقم2891(ص189).

[572]- التادفي:قلائد الجواهر ،المرجع السابق،ص63، عبد القادر الجيلاني:الغنية، المصدر السابق،ج1، ص130، ص190.

[573] - المصدر نفسه، ج،2،ص 134

«والذكر مفتاح التقوى والورع، والتقوى باب الآخرة، كما أن الهوى باب الدنيا، قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[574].».

«ومن أدب الفقير أن لا يترك الاحتياط في الورع في حال ضيق اليد، فلا يخرج إلى ما لا يحل في الشرع لفقره، فيخرج من العزيمة إلى الرخصة، فإن الورع ملاك الدين والطمع هلاكه، وتناول الشبهات فساده، كما قال بعض الصالحين: من لم يصحبه الورع في فقره أكل الحرام وهو لا يدري»[575].

«وعن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه أنه قال: «كنا نترك سبعين بابا من المباح مخافة أن نقع في الجناح». وعن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أنه قال: «كنا نترك تسعة أعشار الحلال مخافة أن نقع في الحرام). وهكذا فالخطر في القيام مع الرخص. والسلامة كل السلامة مع العزيمة، والله الهادي إلى سواء الطريق»[576].

واكد الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى في عدة نصوص على ان: « عليكم بالعزيمة والإعراض عن الرخصة، من لزم الرخصة، وترك العزيمة خيف عليه من هلاك دينه؛ العزيمة للرجال لأنها الأشق والأمر، والرخصة للصبيان والنسوان لأنها الأسهل»[577].

«من ادعى حب الله عز وجل من غير ورع في خلوته فهو كذاب، ومن ادعى حب الجنة من غير بذل المال والملك فهو كذاب، ومن ادعى حب النبيصلى الله عليه وسلم تسليما من غير حب الفقر والفقراء فهو كذاب، بعين الرأس تشاهد الدنيا، وبعين القلب تشاهد الآخرة، وبعين السر تشاهد المولى. تتأدب مع الخلق بحيث لا ترفع صوتك على صوت أحدهم حفظا لأدبك وتبارز الحق عز وجل بالمعاصي وتعارضه في أفعاله، قبيح بك هذا»[578].

«إن الله تعالى يأمرك أن تخرج من طبعك وتجعل مكانه رخص الشرع، ثم يأمرك أن تترك من الرخص شيئا فشيئا إلى أن تصير كل أفعالك عزيمة، فإذا صبرت على العزيمة جاء الحب لله عز وجل في قلبك، فإذا ثبت جاءت الولاية من الله عز وجل لك»[579].

وكان الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى، يعتبر النوافل، بالنسبة إليه كالفروض من حيث التزامه بأدائها ليكون من الذين يحبهم الله ويحبونه، لذلك فهو يقول: «المؤمن يتقرب إلى الله عز وجل بالفرائض ويتحبب إليه بالنوافل، ولله عباد لا نوافل لهم بل يأتون بالفرائض ثم يفعلون النوافل، ويقولون هذه فرائض علينا لأجل إقدارنا عليها، اشتغالنا بالعبادة أبد الدهر فرض علينا»[580].

---

[574]- سورة البقرة [الآية63]، الغنية ج1، ص101.

[575]- عبد القاد الجيلاني: الغنية ،المصدر السابق، ج 2، ص141.

[576]- عبد القاد الجيلاني : فتوح الغيب،المصدر السابق، المقالة 35.،ص 191.

[577]- عبد القاد الجيلاني: الفتح الرباني ،المصدر السابق،ج المجلس 61 ،ص334.

[578]- المصدر نفسه: المجلس 62،ص 353.

[579]- عبد القاد الجيلاني: الغنية ،المصدر السابق،ج1، ص37،ص192.

[580]- عبد القاد الجيلاني: الفتح الرباني ،المصدر السابق،ج1 المجلس59 ،ص 332.

المطلب الثالث : المقامات والأحوال:

1-التوبة : قال ابن عباس رضي الله عنهما : التوبة النصوح هي الندم بالقلب، والاستغفار باللسان والإقلاع بالبدن والإضمار على ألا يعود [581]، كان الشيخ عبد القادر الجيلاني يركز عليها ويهتم بشأنها؛ قال العلامة أبو الحسن الندوي : ظهر في بغداد رجل قوي الشخصية قوي الإيمان قوي العلم قوي الدعوى قوي التأثير هو الشيخ عبد القادر الجيلاني فجدَّد دعوة الإيمان والإسلام الحقيقي والعبودية الخالصة وحارب النفاق وفتح باب البيعة والتوبة على مصرعيه يدخل منه المسلمون يجددون العهد والميثاق مع الله تعالى [582]. والشيخ عبد القادر الجيلاني يعتبر التوبة باب الدخول على الله سبحانه لنيل رضوانه في الدنيا والآخرة فينبغي اغتنامها وعدم تفويت فرصتها يقول : اغتنموا باب التوبة وادخلوا ما دام مفتوحاً لكم [583]، ويبين أن المهم ليس التوبة فحسب ولكن المهم هو الاستمرار والثبات عليها فيقول : تب واثبت على توبتك فليس الشأن في توبتك الشأن في ثبوتك عليها ليس الشأن في غرسك الشأن في ثبوته وتغصينه وثمرته [584] . قد جعلها بمنزلة الماء الذي تزول به نجاسة الذنوب وقذارة المعاصي إذ يقول : يا غلام لا تيأس من رحمة الله بمعصية ارتكبتها بل أغسل نجاسة ثوب دينك بماء التوبة والثبات عليها والإخلاص فيها[585]. وعن التائبين يصنف الشيخ عبد القادر الناس في التوبة إلى ثلاثة أصناف : توبة العوام وتوبة الخواص وتوبة خاص الخاص ويجعل لكل صنف منهم توبة تخصه فيقول : توبة العوام من الذنوب وتوبة الخواص من الغفلة، وتوبة خاص الخاص من ركون القلب إلى ما سوى الله عز وجل، ثم يوضح معنى قوله تعالى : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ سورة النور [الآية : 31] بأن هذا : خطاب للعموم بالتوبة وأن حقيقة التوبة في اللغة الرجوع يقال تاب فلان من كذا أي رجع عنه فالتوبة هي الرجوع عما كان مذموماً في الشرع إلى ما هو محمود في الشرع، والعلم بأن الذنوب والمعاصي مهلكات مبعدات من الله عز وجل ومن جنته وتركها مقرب إلى الله عز وجل وجنته فكأنه عز وجل يقول : أرجعوا إلي من هوى نفوسكم ووقوفكم مع شهواتكم عسى أن تظفروا ببغيتكم عندي في المعاد وتبقوا في نعيمي في دار البقاء والقرار وتفلحوا وتفوزوا وتنجوا وتدخلوا رحمتي الجنة العليا المعدة للأبرار [586]، كما يقرر الشيخ عبد القادر الجيلاني أن التوبة من سائر الذنوب واجبة بإجماع الأمة وأنها تكون من جميع الذنوب صغيرها وكبيرها [587] . ثم يعرف الكبائر بأنها : ما توعَّد الله عليه بالنار أو ما أوجب عليه الحد في الدنيا وأن بعض العلماء حصرها في سبع عشرة كبيرة : أربع في القلب؛ وهي الشرك بالله والإصرار على المعصية والقنوط من رحمة الله والأمن من مكر الله وأربع في اللسان : وهي شهادة الزور

---

[581]- الجرجاني:التعريفات ،تح محمد صديق المنشاوي، ،تح ابراهيم الابياري،القاهرة ،دار الفضيلة ط1، 1403هـ، ص 95.

[582]- ابي الحسن الندوي:رجال الفكر و الدعوة ،المرجع السابق، ص 597.

[583]- الفتح الرباني للجيلاني،المصدر السابق، المجلس الرابع ص 18.

[584]- القحطاني : المرجع السابق، ص 597.

[585]- عبد القاد الجيلاني:الفتح الرباني، المصدر السابق، المجلس الثالث عشر،ص 48.

[586]- عبد القاد الجيلاني الغنية ،المصدر السابق،ج1، ص116..

[587]- المصدر نفسه،الصفحة نفسها..

وقذف المحصنات واليمين الغموس والسحر. وثلاث في البطن وهي : شرب الخمر وأكل مال اليتيم وأكل الربا. واثنتان في الفرج وهما : الزنا واللواط. واثنتان في اليدين، وهما : القتل والسرقة. وواحدة في الرجلين وهي الفرار من الزحف، وواحدة في جميع البدن : وهي عقوق الوالدين [588]. وتحدث عن صدق التوبة : وصحتها ووضع لها شروط ثلاثة

أولها : الندم على ما عمل من المخالفات :

وثانيها : الإقلاع وترك الزلات في جميع الحالات والساعات.

وثالثها : العزم على ألا يعود إلى ما اقترف من المعاصي، والخطيئات [589] . ووضع الشيخ عبد القادر الجيلاني للتوبة معياراً دقيقاً هو : توجّع القلب عند علمه بفوات محبوبه فتطول حسراته وأحزانه وبكاؤه ونحيبه وإنسكاب عبراته فيعزم على ألاَّ يعود إلى مثل ذلك لما تحقق عنده من شؤم ذلك [590] . ويجعل أيضاً مقياساً آخر يمكن بواسطته معرفة التوبة الصادقة وهو أربعة أشياء.

- أن يملك لسانه من الفضول والغيبة والنميمة والكذب.
- ألاَّ يرى لأحد في قلبه حسداً ولا عداوة أن يفارق إخوان السوء.
- أن يكون مستعداً للموت نادماً مستغفراً لما سلف من ذنوبه مجتهداً في طاعة ربه [591] . ويرى الشيخ عبد القادر الجيلاني أن التوبة على وجهين:

أحدهما : في حق العباد بعضهم تجاه بعض وهذا لا يتحقق إلاَّ برد المظالم والتحلل من الحقوق بإعادتها إلى أصحابها.

والثاني : يتعلق بحق الله تعالى فتكون التوبة منه بالاستغفار الدائم باللسان والندم بالقلب والإضمار على ألاَّ يعود إليه في المستقبل [592] . هذه هي التوبة عند الشيخ عبد القادر الجيلاني ونظراته إليها وتوجيهاته للتائبين وقد أوردها بعبارات جميلة وترقيقات بديعة تدل على حساسية مرهفة لمعنى التوبة وموقف العبد منها [593].

2- **الزهد** : والشيخ عبد القادر الجيلاني يفرق بين الزاهد الحقيقي والمتزهد الصوري فيقول : المتزهد يخرج الدنيا من يديه والزاهد المتحقق في زهده يخرجها من قبله [594] ويقول : الصادق في زهده تجيء إليه أقسامه فيناولها ويلبس ظاهره بها قلبه مملوء من الزهد فيها وفي غيرها [595] ويقول : وفي الناس من تكون الدنيا بيده ولا يحبها

---

[588]- عبد القاد الجيلاني الغنية ،المصدر السابق ،ج1،ص117.

[589]- المصدر نفسه ،ج1،ص122.

[590]- المصدر نفسه الصفحة نفسها.

[591]- القحطاني:المرجع السابق، ص 600.

[592]- عبد القاد الجيلاني الغنية ،المصدر السابق ،ج1، ص126.

[593]- القحطاني:الشيخ عبد القادر الجيلاني ،ص 600.

[594]- عبد القاد الجيلاني:الفتح الرباني للجيلاني،المصدر السابق ، المجلس الثلاثون ص 106.

[595]- المصدر السابق، المجلس الخامس والعشرون ص 89.

يملكها ولا تملكه تحبه ولا يحبها تعدو خلفه ولا يعدو خلفها يستخدمها ولا تستخدمه يفرقها ولا تفرقه، قد صلح قلبه لله عز وجل فلا تقدر الدنيا تفسده فيتصرف فيها ولا تتصرف فيه [596] ويقول : المؤمن له نية صالحة في جميع تصرفاته لا يعمل في الدنيا للدنيا يبني في الدنيا للآخرة يعمر المساجد والقناطر والمدارس والربط ويهذب طرق المسلمين وإن بنى غير هذا فللعيال والأرامل والفقراء ومالا بدَّ له منه يفعل ذلك حتى يبنى له في الآخرة [597].

وبين الشيخ عبد القادر أن الزهد ليس أمراً سهلاً يمكن الإتصاف به دون تعب أو معاناة، كما أنه ليس في قدرة كل واحد أن يكون زاهداً ، لأن الزهد على حد تعبير الجيلاني : منة صالحة وإلاَّ فما يقدر أحد أن يزهد في قسمه. المؤمن يستريح من ثقل الحرص لا يشره ولا يستعجل. زهد في الأشياء قبله وأعرض عنها سَّره واشتغل بما أمر به وعلم أن قسمه لا يفوته فلم يطلبه ترك الأقسام تعدوا خلفه وتدل وتسأله قبولها [598] وقال : يا غلام هذا الزهد ليس صنعة تتعلمها ليس هو شيئاً تأخذه بيدك ترميه بل هو خطوات أولها النظر في وجه الدنيا فتراها كما هي على صورتها عند من تقدم من الأنبياء والرسل [599] والشيخ عبد القادر الجيلاني يربط بين العلم والزهد، ويرى لا بَّد من تلازمهما للوصول إلى الله عز وجل وهذا واضح من قوله : ما وصل من وصل إلاَّ بالعلم والزهد في الدنيا والإعراض عنها بالقلب والقالب [600]. وقال : من صح زهده في الخلق صحت رغبتهم فيه وانتفعوا بكلامه والنظر فيه [601]. والشيخ عبد القادر الجيلاني على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، الذي قال في الزهد : الزهد على ثلاثة أوجه : الأول : ترك الحرام وهو زهد العوام. والثاني : ترك الفضول من الحلال وهو زهد الخوص الثالث: ترك ما يشغل عن الله وهو زهد العارفين وعلق ابن القيم على كلام الإمام أحمد فقال: وهذا الكلام من الإمام أحمد يأتي على جميع ما تقدم من كلام المشايخ مع زيادة تفصيله وتبيين درجاته وهو من أجمع الكلام وهو يدل على أنه رضي الله عنه من هذا العلم بالمحل الأعلى وقد شهد الشافعي رحمه الله بإمامته في ثمانية أشياء أحدها الزهد [602] .

وهكذا يتبين موافقة الشيخ عبد القادر الجيلاني لأهل السنة والجماعة في مفهوم الزهد [603] .

---

[596]- عبد القادر الجيلاني:الغنية،المصدر نفسه، المجلس الرابع والثلاثون ص 113.

[597]- عبد القاد الجيلاني:الفتح الرباني للجيلاني،المصدر السابق ، المجلس السادس عشر ص 59.

[598]- المصدر نفسه، المجلس الثامن والعشرون ص 98.

[599]- المصدر نفسه، المجلس الثلاثون ص 107.

[600]- المصدر نفسه ،ص 106.

[601]- المصدر نفسه، المجلس الثاني والستون ص 232.

[602]- ابن القيم الجوزية:مدارج السالكين في منازل اياك نعبد واياك نستعين،تح ناصر السعوي،الرياض،دار الصميعي،ط1، 1432هـ-2011م،ص12.

[603]- القحطاني: المرجع السابق،ص 606.

3- التوكل :

عقيدة أهل السنة والجماعة هي: اعقل وتوكل، اعمل وتوكل على الله سبحانه وتعالى: «لذلك كان الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى متوكلا على الله سبحانه وتعالى في أحواله وأفعاله جميعها مع السعي وبذل الجهد، وكان ينعى على الكسالى والمتواكلين، ويحثهم على السعي والعمل، فكل ميسر لما خلق له». وقد عرف الجرجاني التوكل بقوله: «هو الثقة بما عند الله، واليأس عما في أيدي الناس».

يقول الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى:« عليك بالكسب والتعلق بالسبب إلى أن يقوى إيمانك، ثم انتقل من السبب إلى المسبب، الأنبياء عليهم السلام اكتسبوا واقترضوا وتعلقوا بالأسباب في أول أمرهم، وفي الآخر توكلوا، جمعوا بين الكسب والتوكل بداية ونهاية، شريعة وحقيقة»[604].

ويحث على الكسب والعمل فيقول: « اعبدوا الله عز وجل، واستعينوا على عبادته بكسب الحلال، إن الله عز وجل يحب عبدا مؤمنا مطيعا آكلا حلاله، يحب من يأكل ويعمل ويبغض من يأكل ولا يعمل، يحب من يأكل بكسبه ويبغض من يأكل بنفاقه وتوكله على الخلق»[605].

«أقول لكم اجتهدوا و دعوا التعلق بالسابقة، فهي حجة الكسالى، إننا نشد الأوساط ونجتهد ونعمل ولا نقول: قال وقلنا، ولم وكيف، لا ندخل في علم الله عز وجل، نحن نجتهد وهو يفعل ما يشاء»[606].

«جاهد في طريق الحق عز وجل ولا تتكل على قدره، أما سمعته كيف قال: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾[607].»

ويقول: «ما دمت قائما مع الخلق راجيا لعطاياهم وفضلهم، سائلا لهم، مترددا إلى أبوابهم، فأنت مشرك بالله وخلقه، فيعاقبك بحرمان الأكل بالسنة الذي هو الكسب من حلال الدنيا»[608].

وقال رحمه الله تعالى: «سألني رجل: أي شيء يقرب العبد إلى الله عز وجل، فقلت: لذلك ابتداء وانتهاء، فابتداؤه الورع وانتهاؤه الرضا والتسليم والتوكل»[609].

تناول الشيخ عبد القادر الجيلاني مسألة التوكل وتعَّرض لأربع مسائل.

- الأصل في مشروعيته وتعريف حقيقته : فقال : «الأصل فيه قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ سورة الطلاق [الآية: 3]» وقوله عز وجل : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ سورة المائدة [الآية: 23]. وحقيقته تفويض الأمور إلى الله عز وجل والتنقي من ظلمات الاختيار والتدبير والترقي إلى ساحات شهود

---

(604)- عبد القادر الجيلاني:الفتح الرباني،المصدر نفسه، المجلس28(ص187).

(605)- المصدر نفسه، المجلس46،

(606)- عبد القادر الجيلاني:الغنية،المصدر نفسه، المصدر السابق: المجلس52.

(607) - سورة العنكبوت [الآية2]. المصدر السابق: ص305.

(608)- عبد القادر الجيلاني: فتوح الغيب،المصدر السابق، المقالة 16.

(609)- المصدر نفسه، المقالة 47(ص188).

الأحكام والتقدير فيقطع العبد ألاَّ تبديل للقسمة فما قسم له لا يفوته ومالم يقَّدر له لا يناله فيسكن قلبه إلى ذلك ويطمئن إلى وعد مولاه [610].

المسألة الثانية : أقسام التوكل ودرجاته : يرى الشيخ عبد القادر الجيلاني أن التوكل ينقسم إلى ثلاث درجات التوكل ثم التسليم ثم التفويض : فالمتوكل يسكن إلى وعد ربه وصاحب التسليم يكتفي بعلمه وصاحب التفويض يرضى بحكمه [611] ولكن ابن القيم يرى أن التوكل ينقسم إلى سبع درجات :

الأولى : معرفة الرب وصفاته من قدرته وكفايته وقيوميته وانتهاء الأمور إلى علمه صدورها عن مشيئته وقدرته وهي أول درجة يضع بها العبد قدمه في مقام التوكل.

الثانية : إثبات الأسباب والمسببات.

الثالثة : رسوخ القلب في مقام توحيد المتوكل فإنه لا يستقيم توكل العبد حتى يصح له توحيده، بل حقيقة التوكل توحيد القلب، فما دامت فيه علائق الشرك فتوكل معلول مدخول وعلى قدر تجريد التوحيد تكون صحة التوكل، فإن العبد متى التفت إلى غير الله أخذ ذلك الالتفات شعبة من شعب قلبه فنقص من توكله على الله بقدر ذهاب تلك الشعبة ومن هنا ظن من ظن أن التوكل لا يصح إلاَّ برفض الأسباب وهذا حق لكن رفضها عن القلب لا عن الجوارح.

الرابعة : اعتماد القلب على الله واستناده وسكونه إليه بحيث لا يبقى فيه اضطراب من تشويش الأسباب ولا سكون إليها علامة هذا ألا يبالي بإقبالها وإدبارها ولا يضطرب قلبه عند إدبار ما يحب وإقبال ما يكره منها لأن اعتماده على الله وسكونه إليه ومثل حاله كحال الطفل الرضيع في اعتماده وسكونه وطمأنينته بثدي أمه لا يعرف غيره وليس في قلبه التفات إلى غيره. كذلك المتوكل لا يأوي إلاَّ إلى ربه سبحانه.

الخامسة : حسن الظن بالله عز وجل، فعلى قدر حسن ظنك بربك ورجائك له يكون توكلك عليه، ولذلك فسّر بعضهم التوكل بحسن الظن بالله والتحقيق أن حسن الظن بالله يدعو إلى التوكل عليه، إذ لا يتصور التوكل على من ساء ظنك به ولا التوكل على من لا ترجوه.

السادسة : استسلام القلب له وانجذاب دواعيه كلها إليه ولهذا فسَّره من قال : أن يكون العبد بين يدي الله كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف أراد لا يكون له حركة ولا تدبير.

السابعة : التفويض وهو روح التوكل ولبُّه وحقيقته وهو إلقاء أموره كلها إلى الله وإنزالها به طلباً، واختياراً لا كرها واضطراراً، بل كتفويض الابن العاجز الضعيف كل أموره إلى أبيه العالم بشفقته عليه وتمام كفايته وحسن تدبيره، فهو يرى أن تدبير أبيه له خير من تدبيره لنفسه فلا يجد له أصلح ولا أرفق من تفويض أموره كلها إلى أبيه [612].

---

[610]- عبد القادر الجيلاني:الغنية،المصدر نفسه،ج2 ،ص182.

[611]- المصدر نفسه ،ج2 ، ص189.

[612]- ابن القيم الجوزية:مدارج السالكين،المرجع السابق، ج2، ص112.

المسألة الثالثة : ثمرات التوكل : ويرى الشيخ عبد القادر الجيلاني أن للتوكل ثمرات فقد قال : من أحب القوة في دين الله عز وجل فليتوكل على الله عز وجل لأن التوكل يصحح القلب ويقويه ويهذبه ويهديه ويريه العجائب لا تتوكل على درهمك، ودينارك وأسبابك فإن ذلك يعجزك ويضعفك وتوكل على الله عز وجل، فإنه يقويك ويعينك ويلطف بك ويفتح لك من حيث لا تحتسب [613] . وهذا ما أكَّده شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – وهو يوضح معنى ما نقل عن الشيخ عبد القادر الجيلاني من أنه رؤي في المنام وهو يقول إخباراً عن الحق سبحانه : من جاءنا تلقيناه من البعيد، ومن تصرف بحولنا ألنَّا له الحديد، ومن اتبع مرادنا أردنا ما يريد، ومن ترك من أجلنا أعطيناه فوق المزيد. فقال فالأوَّلتان : العبادة والاستعانة، والآخرتان الطاعة والمعصية. فالذهاب إلى الله هي عبادته وحده كما قال تعالى : في الحديث القدسي : من تقرب إليَّ شبراً تقربت إليه ذراعاً ومن تقرب إليَّ ذراعاً تقربت إليه باعاً ومن أتاني يمشي أتيته هرولة [614] والتقرب بحوله هو الاستعانة والتوكل عليه فإنه لا حول ولا قوة إلاَّ بالله وفي الأثر : من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله [615] . وعن سعيد بن جبير قال التوكل جماع الإيمان [616] ، وقال تعالى ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ سورة الطلاق [الآية: 3] .... وقوله : ومن اتبع مرادنا يعني المراد الشرعي،كقوله تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ سورة البقرة [الآية: 185] وقال تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ﴾ سورة النساء [الآية: 28] وقوله تعالى : ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ ﴾ سورة المائدة [الآية: 6] ... وفي الحديث الصحيح : لئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه [617] . وقال تعالى : ﴿ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ سورة الشورى [الآية: 26] وقوله : ومن ترك من أجلنا أعطيناه فوق المزيد يعني : ترك ما كره الله من المحرم والمكروه لأجل الله؛ رجاءاً ومحبة وخشية أعطيناه فوق المزيد لأن هذا مقام الصبر [618] وقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ سورة الزمر [الآية: 10].

المسألة الرابعة : الأسباب : بين الشيخ عبد القادر الجيلاني اعتقاده حولها والمتضمن ضرورة الأخذ بها مع عدم الاعتماد عليها فقال : اعتقاد المتبعين لكتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم : أن السيف لا يقطع بطبعه بل الله عز وجل يقطع به وأن النار لا تحرق بطبعها بل الله عز وجل المحرق بها وأن الطعام لا يشبع بطبعه بل الله عز وجل يشبع به وأن الماء لا يروي بطبعه بل الله عز وجل المروي به. وهكذا جميع الأسباب على اختلاف أجناسها الله عز وجل المتصرف فيها وبها وهي آلة بين يديه يفعل ما يشاء [619]، وهذا لا يعني دعوته إلى ترك الأسباب أو أن هناك تعارضاً بين التوكل والأخذ بالأسباب، بل إن التوكل الصحيح في مفهوم الشيخ

---

[613]– عبد القادر الجيلاني:الفتح الرباني ، المجلس الثاني والأربعون ص 134.

[614]– البخاري رقم 7536 مسلم رقم 2675.

[615]– القحطاني،المرجع السابق، ص 612.

[616]– السنة، عبد الله بن أحمد رقم 776.

[617]– القحطاني:المرجع ر نفسهص 613.

[618]– البخاري رقم 7536.

[619]– فتاوى ابن تيمية ،المرجع السابق،ج10،ص549.انظر كذلك:القحطاني: الشيخ عبد القادر ص 613.

الجيلاني هو الأخذ بالسبب والتوكل على مسبب الأسباب إذ يقول في هذا الصدد : إعط نفسك في بحر التوكل فتجمع بين السبب والمسبب [620] .

4- الشكر : تحدث الشيخ عبد القادر الجيلاني عن الشكر من خلال ثلاث مسائل :

الأولى : **حقيقة الشكر** : فقال رحمه الله : وحقيقة الشكر عند أهل التحقيق الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع [621].

وأما أقسامه : فإنه – رحمه الله – قد قسم الشكر إلى ثلاثة أقسام فقال : ثم الشكر ينقسم إقساماً إلى شكر باللسان وهو اعترافه بالنعمة مبعث الاستكانة، وشكر بالبدن والأركان وهو اتصاف بالوفاء والخدمة، وشكر بالقلب وهو اعتكاف على بساط الشهور بإدامة حفظ الحرمة [622]. وفي موضع آخر يصف الشيخ عبد القادر الجيلاني كيفية الشكر فيقول : أما كيفية الشكر فيكون باللسان بالاعتراف بالنعمة وأنها من عند الله عز وجل وترك الإضافة إلى الخلق لا إلى نفسك وحولك وقوتك وكسبك ولا إلى غيرك من الذين جرت على أيديهم لأنك وإياهم أسباب وآلات وأداة لها. وأن قاسمها ومجريها وموجودها والسبب لها هو الله عز وجل والقاسم هو الله والمجري هو فهو أحق بالشكر من غيره. وأما الشكر بالقلب. فبالاعتقاد الدائم والعقد الوثيق الشديد المنبرم أن جميع مابك من النعم والمنافع واللذات في الظاهر والباطن في حركاتك وسكناتك من الله عز وجل ولا من غيره ويكون شكرك بلسانك معبراً عما في قلبك وأما شكر الجوارح : فبأن تحركها وتستعملها في طاعة الله عز وجل دون غيره من الخلق فلا تحب أحداً من الخلق فيما فيه إعراض عن الله تعالى، وهذا يعم النفس والهوى والإرادة والأماني وسائر الخليقة بحيث تجعل طاعت الله أصلاً ومتبوعاً وإماماً وما عداها فرعاً وتابعاً ومأموماً [623].

---

[620]- عبد القادر الجيلاني:الغنية،المصدرالسابق، ص 167.

[621]- المصدر نفسه، (193/2).

[622]- المصدر نفسه، (194/2).

[623]- فتوح الغيب:المصدر السابق ،ص 134.

وأما أصناف الشاكرين : فقد جعلهم ثلاثة أصناف :

الأولى : من وصفهم بالعالمين وهم السواد الأعظم من العباد وشكرهم يكون من جملة أقوالهم.

والثاني : من وصفهم بالعابدين وهم المؤمنون على وجه العموم والمباشرون للعبادات المفروضة عليهم يكون نوعاً من أفعالهم.

والثالث : من وصفهم بالعارفين والمقربون وشكرهم باستقامتهم لله عز وجل في سائر أحوالهم، واعتقادهم أن جميع ما هم فيه من الخير وما يظهر منهم من الطاعة والعبودية والذكر لله عز وجل بتوفيقه سبحانه [624] .

5- الصبر : تحدث الشيخ عبد القادر الجيلاني عن الصبر، فقال الأصل في مشروعية الصبر قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ سورة آل عمران [الآية: 200] وقوله تعالى: ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ﴾ سورة النحل [الآية: 127] وقوله صلى الله عليه وسلم : إنما الصبر عند الصدمة الأولى [625]، وأما أنواع الصبر فقد ذكر الشيخ عبد القادر أنه على ثلاثة أضرب :

الأول : صبر لله عز وجل وهو على أداء أمره وانتهاء نهيه.

الثاني : صبر مع الله وهو الصبر على جريان قضائه وأفعاله فيك من سائر الشدائد والبلايا.

الثالث : صبر على الله وهو الصبر على ما وعد من الرزق والفرج والكفاية والثواب في الدار الآخرة [626] . وقال عن أصناف الصابرين بأنهم : ثلاثة أصناف : متصبر وصابر وصبار [627] . وأخيراً فإن الشيخ عبد القادر الجيلاني عند تمييزه للصبر يرى أنه على قسمين : أحدهما : صبر على ما هو كسب من فعل أوامر الله وترك نواهيه.

والثاني : صبر على ما ليس بكسب له مما يقدر الله عليه من قضاء فيه مشقة وألم فيصبر على ذلك [628] .

وبالجملة فإن معاني الصبر تكاد تكون محصورة في الصبر على أداء الواجبات وترك المنهيات والرضى بالمقدورات وهو واضح في كلام الشيخ عبد القادر الجيلاني -رحمه الله [629].

6- الرضا : قال الشيخ عبد القادر الجيلاني :فأما المؤمن فهو حقيق أن يرضى بما قسم الله تعالى له وقضاء الله - عز وجل - خير من قضاء المرء لنفسه وما قضاه الله لك يا ابن آدم فيما تكره خير لك مما قضى الله عز وجل لك فيما تحب فاتق الله تعالى وأرض بقضائه قال تعالى﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ سورة البقرة [الآية: 216]. يعني ما فيه صلاح دينكم ودنياكم فالله عز وجل طوى عن الخلق مصالحهم وكلفهم عبوديته من أداء الأوامر وانتهاء المناهي والتسليم في

---

[624]- عبد القادر الجيلاني:الغنية ج2،ص194.وانظر القحطاني:المرجع السابق، ص 621.

[625]- البخاري رقم 1702 مسلم رقم 926.

[626]- عبد القادر الجيلاني:الغنية،المصدر نفسه،ج2،ص195.

[627]ا- لمصدر نفسه ،الجزء نفسه،الصفحة نفسها.

[628]- المصدر نفسه الجزء نفسه،الصفحة نفسها.

[629]- القحطاني:المرجع نفسه، ص 625.

المقدرو والرضا بالقضاء فيما لهم وعليهم في الجملة واستأثر هو عز وجل بالعواقب والمصالح فينبغي للعبد أن يديم الطاعة لمولاه ويرضى بما قسم الله له ولا يتهمه [630] وقال : وأعلم أن تعب كل واحد من الخلق على قدر منازعته للقدر والمقدور وموافقته لهواه وترك رضاه بالقضاء فكل من رضى بالقضاء استراح وكل من لم يرضى به طالت شقوته وتعبه ولا ينال من الدنيا إلاَّ بما قسم له [631].

7- الصدق : والأصل فيه عند الشيخ عبد القادر الجيلاني قوله عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ سورة التوبة [الآية: 119]. وما روي عن عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة وإن الرجل ليصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً وإيَّاكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور والفجور يهدي إلى النار وإن الرجل ليكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً [632]. والشيخ عبد القادر يحدثنا عن صدقه في أحلك الظروف، فقد كان مثالاً للصدق منُذ شبابه وهذه القصة تبين مدى صدقه حيث قال : عندما استأذنت والدتي للسفر إلى بغداد طلباً للعلم، سلمتني أربعين ديناراً وخاطتها تحت إبط قميص وأوصتني بالصدق، وفي أثناء سفرنا خرج علينا ستون فارساً فأخذوا القافلة ولم يتعرض لي أحد فاجتازني أحدهم وقال لي : كم معك يا فقير ؟ فقلت أربعون ديناراً فقال : وأين هي ؟ فقلت مخاطة في قميصي تحت إبطي. فظنني أستهزئ به فتركني وانصرف. ومرَّ بي آخر فقال لي : مثل ما قال الأول؛ فأجبته كما أجبت الأول فتركني وانصرف وتوافيا عند مُقَدَّمِهم فأخبراه بما سمعاه مني فقال : عليَّ به فأتِيَ بي إليه، وإذا هم على تَلَّ يقتسمون أموال القافلة فقال لي : ما معك ؟ قلت أربعون ديناراً. فقال : وأين هي ؟ قلت مخاطة في قميصي تحت إبطي : فأمر به فَفُتِقَ فوجد فيه الأربعين ديناراً فقال : ما حملك على الاعتراف ؟ قلت : إن أمي عاهدتني على الصدق وإني لا أخون عهدها. فبكى المقدم. وقال : أنت لم تَخُنْ عهد أمك وأنا لي كذا وكذا سنة أخون عهد ربي، فتاب على يديَّ فقال له أصحابه : أنت كنت مقدماً في قطع الطريق وأنت الآن مقدمنا في التوبة فتابوا كلهم على يدي وردوا على القافلة ما أخذوا منهم [633].

وللصدق عند الشيخ عبد القادر الجيلاني منزلة عالية فهو عماد الأمر وفي ذلك يقول : وأعلم بأن الصدق عماد الأمر وبه تمامه وفيه نظامه، وهو ثاني درجة النبوة وهو قوله عز وجل ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾ سورة النساء [الآية: 69]. وقد فرّق الشيخ عبد القادر الجيلاني بين الصادق والصديق بقوله : والصادق هو الاسم اللازم من الصدق

---

[630]- عبد القادر الجيلاني:الغنية،المصدر السابق،ج2،ص197.

[631]- المصدر نفسه، الجزء نفسه الصفحة نفسها.

[632]- البخاري رقم 6094 مسلم رقم 2607 القحطاني: المرجع السابق، ص 633.

[633]- المرجع نفسه، ص 64.

والصديق هو المبالغة منه وهو من تكرر فيه الصدق فصار دأبه وسجيته وصار الصدق غالبه فالصدق استواء السر والعلانية والصادق هو الذي صدق في أقواله والصديق من صدق في أقواله وجميع أفعاله وأحواله [634].

وهكذا يتبين اهتمام الشيخ عبد القادر وتأكيده على أهمية التخلق والاتصاف بهذه الصفات الحميدة التي تكسب العبد سعادة الدنيا وفلاح الآخرة [635].

[634]- عبد القاد الجيلاني الغنية ،المصدر السابق ، (200/2).

[635]- القحطاني ،المرجع السابق ،ص 634.

الفصل الرابع: عبد القادر الجيلاني وطريقته الصوفية.

المبحث الأول :تأسيس الطريقة القادرية.

المطلب الاول: -معنى الطريقة والحقيقة

المطلب الثاني: -أقوال العلماء والعارفين في معنى الحقيقة والطريقة

المطلب الثالث: - حكمة تعدد الطرق.

المطلب الرابع: -أسس الطريقة القادرية.

المبحث الثاني:-آداب الشيخ والمريد.

المطلب الاول :.الفيصلة بين الشيخ وبين المريد والمراد .

أ-الارادة.

ب-المريد والمراد.

ج-الشيخ المرشد.

المطلب الثاني : واجبات المريد.

المطلب الثالث : آداب المريد مع الشيخ.

المطلب الثالث: الآداب المتعلقة بالشيخ تجاه مريده.

المبحث الثالث:-آداب الصحبة:

المطلب الاول: صحبة الإخوان.

المطلب الثاني: صحبة الأجانب.

المطلب الثالث: صحبة الأغنياء.

المطلب الرابع: -صحبة الفقراء.

المطلب الخامس:- الآداب الواجبة على الفقير نفسه.

المطلب السادس:- آداب المعاشرات.

المبحث الرابع: -انتشار المدارس القادرية في ربوع الدولة.

المطلب الأول:-مدارس القرى والأرياف البوادي.

المطلب الثاني:-التعاون بين مدارس الإصلاح والدولة.

الفصل الرابع: عبد القادر الجيلاني وطريقته الصوفية

المبحث الأول: تأسيس الطريقة القادرية

المطلب الأول: معنى الطريقة والحقيقة

الشريعة اسم لمجموع الأحكام التكليفية وهي تحيط بالأعمال الظاهرة والباطنة جميعا وكانوا يرون الفقه مرادفا لها لدى المتقدمين كما أثر عن الإمام أبي حنيفة في التعريف بالفقه «معرفة النفس ما لها وما عليها» ثم جاء المتأخرون فأصبح في مصطلحهم العنصر من الشريعة الذي يخص الأعمال الظاهرة فقها وأما ما يخص الأعمال الباطنة من شعب الشريعة فصار تصوفا[636].

إنه يقال لطرق هذه الأعمال الباطنة طريقة ثم ما يتولد من الصفاء والانجلاء في القلب لصلاح هذه الأعمال الباطنة يتكشف به للقلب بعض الحقائق الكونية المتعلقة بالأعيان والأعراض وعلى الأخص الأعمال الحسنة والحقائق الإلهية من صفاتية وذاتية وعلى الأخص المعاملة التي بين الله وبين العبد ويقال لهذه المكشوفات حقيقة ويسمى الانكشاف معرفة ويدعى صاحب الانكشاف محققا وعارفا.

فجميع هذه الأمور تبع للشريعة وأما ما شاع عند العامة من أن الشريعة إنما تدعى بها الأعمال الظاهرة والحقيقة تختص بالأعمال الباطنة فليس بمأثور عن أي رجل عالم وليس مفهومه عند العامة بسديد كذلك إذ هو اعتقاد لتضاد الظاهر والباطن[637].

المطلب الثاني: أقوال العلماء والعارفين في معنى الطريقة والحقيقة

1- الإمام الرفاعي قدس الله سره: قال رضي الله عنه في البرهان المؤيد: الطريقة الشريعة والشريعة الطريقة والفرق بينهما لفظي والمادة والمعنى والنتيجة واحدة.

2- الإمام الرواس قدس الله سره: قال رضي الله عنه في قصيدة له **مبينا أحكام الطريقة وآدابها** وأنها مستمدة من الكتاب والسنة:

طريقتنا تنجي الفؤاد من الغوى ... وتحـفظه من زيغه وتسلم
طريقتنا حـــــال النبي وطوره ... وعن سره للعارفين تترجم
طريقتنا صدق وزهد ورأفة ... وذل إلى المولى ونهج مقوم
طريقتنا أن لا يرى المرء نفسه ... وفيها أخير القوم فهو المقدم
طريقتناأن تصلح العبد صحبة ... فنحن سكوت والهوى يتكلم
طريقتنا أن يجعل الشرع سلما ... أجل وبه السلاك ترقى وتعظم

---

[636]- لكن هذين المصطلحين ليسا متخالفين ولا متضادين بل إن التالي تكميل للأول.

[637]- عبد الباري الندوي: بين التصوف والحياة،دار الفتح ،دمشق،د ط، د تخ، ص 221-222.

طريقتنا قلب سليم ونية مطهرة أنف المآمل ترغم
طريقتنا أن لا نرى الغير فاعلا سوى أنه الرحمن يعطي ويحرم
طريقتنا حب النبي وآله وأصحابه والذكر للخير عنهم
طريقتنا ذوق وشوق وعِبرة وعَبرة عين دمعها كله دم
طريقتنا جد وجهد ولوعة وخلوة صدق خالص وتكتم
طريقتنا أن لا نرى الشق للعصا فإن موالاة الجماعة ألزم
طريقتنا ود لكل موحد وأن نسدي إحسانا لمن هو مسلم
طريقتنا بالآدميين رحمة كما أمر الهادي الرسول المكرم
طريقتنا ان نشهد الخلق كلهم بخير وان نزوي الأذية عنهم
طريقتنا محو الرياء وطرحه وحفظ نظام الصدق إذ نتكلم
طريقتنا صون الجوارح كلها فإن سؤال الحشر بالصون ملزم
طريقتنا أن نجذب القلب دائما إلى الله بل في ذكره نترنم
طريقتنا دوم الهيام توله وهل مرتضى المحبوب إلا المهيم
طريقتنا وجه مع الناس حاضر وقلب بذكر الله لا يتلعثم
طريقتنا إعظام شأن محمد كما هوفهو الهاشمي المعظم
طريقتنا نهج الرفاعي أحمد فمنهاجه من جملة القوم اقوم
طريقتنا أن نملأ العين دمعة إذ الناس في فرش البطالة نوَّم
طريقتنا أن نبدي في الله شدة ونبغض فيه من به الزيغ يرسم
طريقتنا نصر المحق وغوثه وإذلال من للناس يؤذي ويظلم
طريقتنا إكرام شيخ لسنه ورحمة طفل إنما الطفل يرحم
طريقتنا الإيثار والبذل دائما بلا ريبة والله أغنى وأكرم
طريقتنا هجر الكذوب وتركه وحب صدوق هكذا القوم ألزموا
طريقتنا غسل الفؤاد من الهوى ومن بعده وفقا له نتوسم
طريقتنا رد الفراسة للذي به الشرع يقضي في الأمور ويبرم
طريقتنا إن جاء بالصدق وارد نحكمه في أمرنا ونسلم
طريقتنا التحكيم للنص بالذي به في الإشارات الغوامض نلهم
طريقتنا إعزاز من شاد سنة بها ركن زيغ في البرية يهدم
طريقتنا أن لا نقول بوحدة ولا بحلول والمصيبة أعظم
طريقتنا أن نحفظ الشرع ظاهرا وهذا هو السر الخفي المطلسم
طريقتنا رد الشطوحات كلها إذا لم يكن منها المؤول يفهم

طريقتنا أن يأخذ القلب عبرة ولو من هبوب الريح إذ يتنسم
طريقتنا أن نتبع النص خضعا وإن جاء طيشا غيره لا نسلم
طريقتنا أن البدايات كلها بتصريف أمر الله تبدو وتختم

هذه طريقتنا التي سقنا القلوب اليها وعولنا في المسير إلى الله عليها وهي طريق المتمسكين بسنة سيد المرسلين[638].

3- الإمام ابن عابدين رحمه الله تعالى يؤكد ان: « الطريقة هي السيرة المختصة بالسالكين من قطع المنازل والترقي في المقامات» وقال في الصفحة التي تليها «فالحقيقة هي مشاهد الربوبية بالقلب ويقال: هي سر معنوي لا حدَّ له ولا جهة والطريقة والشريعة متلازمة لأن الطريق إلى الله تعالى لها ظاهر وباطن فظاهرها الشريعة والطريقة وباطنها الحقيقة فبطون الحقيقة هي الشريعة والطريقة كبطون الزبد في لبنه ولا يظفر من اللبن بزبده بدون خضه والمراد من الثلاثة «الشريعة والطريقة والحقيقة» إقامة العبودية على الوجه المراد من العبد[639].

4- صاحب كشف الظنون:اكد صاحب كشف الظنون في حديثه عن علم التصوف« ويقال: علم التصوف علم الحقيقة أيضا وهو علم الطريقة أي تزكية النفس عن الأخلاق الردية وتصفية القلب عن الأغراض الدنية وعلم الشريعة بلا علم الحقيقة عاطل وعلم الحقيقة بلا علم الشريعة باطل علم الشريعة وما يتعلق بإصلاح الظاهر بمنزلة العلم بلوازم الحج وعلم الطريقة بإصلاح الباطن بمنزلة العلم بالمنازل وعقبات الطريق فكما أن مجرد علم اللوازم ومجرد علم المنازل لا يكفيان في الحج الصوري بدون إعداد اللوازم وسلوك المنازل ومجرد علم المنازل لا يكفيان في الحج الصوري بدون إعداد اللوازم وسلوك المنازل كذلك مجرد العلم بأحكام الشريعة وآداب الطريقة لا يكفيان في الحج المعنوي بدون العمل بموجبيهما»[640].

5- الشيخ عبدالله اليافعي : رحمه الله تعالى يورد: « إن الحقيقة هي مشاهدة أسرار الربوبية ولها طريقة هي عزائم الشريعة فمن سلك الطريق وصل إلى الحقيقة فالحقيقة نهاية عزائم الشريعة ونهاية الشيء غير مخالفة له فالحقيقة غير مخالفة لعزائم الشريعة)[641].

6- الحافظ محمد صديق الغماري: رحمه الله تعالى يقول: « أما أول من أسس الطريقة فلتعلم أن الطريقة أسسها الوحي السماوي في جملة ما أسس من الدين المحمدي إذ هي بلا شك مقام الإحسان الذي هو أحد أركان الدين الثلاثة التي جعلها النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعدما بينها واحدا واحدا دينا

---

[638]- الرواس: رفرف العناية في الوراثة والولاية، تح فريد المزيدي، دار الافاق العربية،القاهرة،ط1431،1هـ -2010م، ص 135-138.

[639]- علاء الدين عابدين: الهدية العلائية لتلاميذ الكاتب الابتدية في الفقه الحنفي ،المرجع السابق،ج3،ص303.

[640]- حاجي خليفة:كشف الظنون،ج1،ص413.

[641]- اليافعي:نشر المحاسن الغالية،المرجع السابق ،ج1،ص154.

بقوله ﴿فإنه جبريل اتاكم يعلمكم دينكم﴾[642] وهو الإسلام والإيمان والإحسان فالإسلام طاعة وعبادة والإيمان نور وعقيدة والإحسان مقام مراقبة ومشاهدة ﴿ أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك..﴾ ثم قال رحمه الله تعالى « فإنه كما في الحديث عبارة عن الأركان الثلاثة فمن أخل بهذا المقام (الإحسان) الذي هو الطريقة فدينه ناقص بلا شك لتركه ركنا من أركانه فغاية ما تدعو إليه الطريقة وتشير إليه هو مقام الإحسان بعد تصحيح الإسلام والإيمان»[643].

7- الشيخ محمد متولي الشعراوي: قال رحمه الله تعالى « كل إنسان وصل إلى الله بطريق من الطرق أو صيغة من الصيغ يعتقد أن الطريق الذي سلكه إلى الله هو أقصر الطرق ولذلك اختلف الناس لأن وسائل عبادة الله متعددة فإذا دخل إنسان من باب وطريق وأحس أنه نقله وأوصله بادر إلى نقله لمن يحب».

ومن هنا فإن معنى أن هناك طرقا صوفية هو أن أناسا وصلوا إلى الصفاء من الله سبحانه وتعالى وجاءتهم الإشراقات والعلاقات التي تدل على ذلك في ذواتهم فعلموا ان الطريق الذي سلكوا فيه إلى الله صحيح وكلما زادوا في العبادة زاد الله في العطاء[644] وبعد هذا نرى من يتحامل على السادة الصوفية ويتهمهم زورا وبهتانا بأنهم يهتمون بالحقيقة فقط ويهملون جانب الشريعة فهذا كله افتراء باطل ويشهد على بطلانه كلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في فتاويه حيث قال متحدثا عن تمسك السادة الصوفية بالكتاب والسنة : «فاما المستقيمون من السالكين كجمهور مشايخ السلف مثل الفضيل بن عياض وإبراهيم بن ادهم وأبي سليمان الداراني ومعروف الكرخي والسري السقطي والجنيد بن محمد وغيرهم من المتقدمين ومثل الشيخ عبدالقادر الجيلاني والشيخ حماد والشيخ أبي البيان وغيرهم من المتأخرين فهؤلاء لا يسوغون للسالك لو طار في الهواء أو مشى على الماء أن يخرج عن الأمر والنهي الشرعيين بل عليه أن يفعل المأمور ويدع المحظور إلى أن يموت وهذا هو الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف، وهذا كثير في كلامهم»[645].

وفيما يلي نورد بعض أقوال السادة الصوفية التي تدل على تمسكهم بالكتاب والسنة تذكير وزيادة على ما أوردناه في باب التصوف من هذه الموسوعة.

1- يؤكد الإمام الجنيد رحمه الله تعالى على ان : «مذهبنا مقيد بأصول الكتاب والسنة».

و أيضا : «الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم واتبع سنته ولزم طريقته فإن طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه[646]. وذكر رجل عنده المعرفة فقال: «أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات (الأعمال) من باب البر والتقرب إلى الله عز وجل » فقال الجنيد رحمه الله

---

[642]- جزء من حديث اخرجه مسلم (8) وأبو داود (2613) والترمذي (4695) والنسائي (97/8).

[643]- محمد الزمزمي:الانتصار لطريق الصوفية،د تح،كتب التراث،القاهرة،دط، دتخ،ص6..

[644]- محمد حسين يعقوب:المرجع السابق، ص 337 ، 3387.

[645]- ابن تيمية: مجموع فتاوى ،المرجع السابق،ج10،ص516-517.

[646]- عبد الرحمان السلمي: المرجع السابق ،ص159.

تعالى : «إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال الصالحة التكليفية وهو عندي عظيمة والذي يسرق ويزني أحسن حالا من الذي يقول هذا فإن العارفين بالله تعالى أخذوا الأعمال عن الله تعالى واليه رجعوا فيها ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة إلا أن يحال بي دونها»[647].

2- اما الشيخ سهل بن عبدالله التستري رحمه الله تعالى : «أصولنا سبعة أشياء التمسك بكتاب الله تعالى والاقتداء بسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وأكل الحلال وكف الأذى واجتناب الآثام والتوبة وأداء الحقوق»[648].

3- الشيخ عبدالقادر الجيلاني رحمه الله تعالى يؤكد: «كل حقيقة لا تشهد لها الشريعة فهي زندقة طِر إلى الحق عز وجل بجناحي الكتاب والسنة، ادخل عليه ويدك في يد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم».

و أيضا:« ترك العبادات المفروضة زندقة وارتكاب المحظورات معصية ولا تسقط الفرائض عن أحد في حال من الأحوال»[649].

4- اما الشيخ عبدالوهاب الشعراني رحمه الله تعالى : «إن طريق القوم محررة على الكتاب والسنة كتحرير الذهب والجوهر فيحتاج سالكها إلى ميزان شرعي في كل حركة وسكون»[650].

5- و ابو الحسن الشاذلي رحمه الله تعالى : « إذا عارض كشفك الصحيح الكتاب والسنة فاعمل بالكتاب والسنة ودع الكشف وقل لنفسك إن الله تعالى ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة ولم يضمنها لي في الكشف والإلهام»[651].

6- واما أبو سعيد الخراز رحمه الله تعالى : «كل باطن يخالفه ظاهر فهو باطل»[652].

7- و ابو الحسن الوراق رحمه الله تعالى : «لا يصل العبد إلى الله إلا بالله وبموافقة حبيبه صلى الله عليه وآله وسلم في شرائعه ومن جعل الطرق إلى الوصول من غير الاقتداء يضل من حيث ظن انه مهتد»[653].

8- و أبو يزيد البسطامي رحمه الله تعالى يذكر : «لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى يرتقي في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وأداء الشريعة»[654].

ويؤكد رحمه الله تعالى في الصوفي: «هو الذي يأخذ كتاب الله بيمينه وسنة رسوله بشماله وينظر بإحدى عينيه إلى الجنة وبالأخرى إلى النار ويأتزر بالدنيا ويرتدي بالآخرة ويلبي من بينهما للمولى : لبيك اللهم لبيك»[655].

---

[647]- القشيري:المرجع السابق، ص 22.

[648]- السلمي: طبقات الصوفية، ص 210.

[649]- عبد القادر الجيلاني:الفتح الرباني،المصدر السابق،ص29.

[650]- الشعراني: لطائف المنن والأخلاق،المرجع السابق،ج1،ص2.

[651]- ابن عجيبة:إيقاظ الهمم،المرجع السابق،ج2ص302-303.

[652]- القشيري:المرجع السابق، ص 27.

[653]- السلمي:طبقات الصوفية، المرجع السابق،ص 300.

[654]- لقشيري:المرجع السابق، ص 16.

9- وقال الشيخ إبراهيم بن محمد النصر أباذي رحمه الله تعالى : «أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة وترك الأهواء والبدع وتعظيم الأخلاق الجميلة والمداومة على الأوراد وترك ارتكاب ارخص والتأويلات وما ضل أحد في هذا الطريق إلا بفساد الابتداء فإن فساد الابتداء يؤثر في الانتهاء»[656].

10- وقال الشيخ احمد زروق رحمه الله تعالى : في قواعده «وكل شيخ لم يظهر بالسنة فلا يصح اتباعه لعدم تحقق حاله ، وإن صح في نفسه وظهر عليه ألف ألف كرامة من أمره»[657].

وقال ايضا : « لا تصوف إلا بفقه إذ لا تعرف احكام الله الظاهرة إلا منه ولا فقه إلا بتصوف إذ لا عمل إلا بصدق وتوجه لله تعالى ولا هما (التصوف والفقه) إلا بإيمان إذ لا يصح واحد منهما دونه فلزم الجميع لتلازمها في الحكم كتلازم الأجسام للأرواح ولا وجود لها إلا فيها كما لا حياة إلا بها فافهم»[658].

ولقد جمع علماء الشريعة الإسلامية من الفقهاء والمحدثين بين الشريعة والطريقة والحقيقة مقتفين بذلك أثر النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقد ذكر صاحب الدر المختار: أن أبا علي الدقاق رحمه الله تعالى قال: «أنا أخذت هذه الطريقة من أبي القاسم النصر آباذي وقال أبو القاسم : أنا أخذتها من الشبلي وهو من السري السقطي وهو من معروف الكرخي وهو من داود الطائي وهو أخذ العلم والطريقة من أبي حنيفة رضي الله عنه وكل منهم اثنى عليه وأقر بفضله... » ثم قال صاحب الدر معلقا: «فيا عجبا لك يا أخي! ألم تكن لك أسوة حسنة في هؤلاء السادات الكبار؟ أكانوا متهمين في هذا الإقرار والافتخار وهم أئمة هذه الطريقة وأرباب الشريعة والحقيقة؟ ومن بعدهم في هذا الأمر فلهم تبع وكل ما خالف ما اعتمدوه مردود مبتدع».

وقال ابن عابدين رحمه الله تعالى في حاشيته معلقا على كلام صاحب الدر السابق في حديثه عن ابي حنيفة رحمه الله تعالى : «هو فارس هذا الميدان فإن مبنى علم الحقيقة على العلم والعمل وتصفية النفس وقد وصفه بذلك عامة السلف فقال أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى في حقه: إنه كان من العلم والورع والزهد وإيثار الآخرة بمحل لا يدركه احد ولقد ضرب بالسياط ليلي القضاء فلم يفعل».[659]

يؤكد عبدالله بن المبارك رحمه الله تعالى : «ليس احد احق أن يقتدى به من أبي حنيفة لأنه كان إماما تقيا نقيا ورعا عالما فقيها كشف العلم كشفا لم يكشفه أحد ببصر وفهم وفطنة وتقى: وقال الثوري لمن قال له: جئت من عند أبي حنيفة : لقد جئت من عند أعبد أهل الأرض»[660].

فإن قيل: لو كان التصوف امرا مشروعا لوضع فيه الأئمة المجتهدون كتبا!!

---

[655]- عبد الرحمان بدوي:شطحات الصوفية،وكالة المطبوعات،الكويت،ط3، 2007م، ص 96.

[656]- عبد الرحمان السلمي:طبقات الصوفية ،ص 488.

[657]- احمد زروق: قواعد التصوف،المرجع السابق، ص 76.

[658]- المرجع نفسه ، قاعدة (3) ص 3.

[659]- ابن عابدين: رد المحتار على الدر المختار ،المرجع السابق ج1،ص43.

[660]- المرجع نفسه ،ج1،ص49.

وفي الجواب على ذلك يرد الإمام الشعراني رحمه الله تعالى : «إنما لم يضع المجتهدون في ذلك كتابا لقلة الأمراض في أهل عصرهم وكثرة سلامتهم من الرياء والنفاق ثم بتقدير عدم سلامة أهل عصرهم من ذلك فكان ذلك في بعض أناس قليلين لا يكاد يظهر لهم عيب وكان معظم همة المجتهدين إذ ذاك إنما هي في جمع الأدلة المنتشرة في المدائن والثغور مع أئمة التابعين وتابعيهم التي هي مادة كل علم وبها تعرف موازين جميع الأحكام فكان ذلك اهم من الاشتغال بمناقشة بعض أناس في أعمالهم القلبية التي لا يظهر بها شعار الدين».

ولا يقول عاقل قط: إن مثل الإمام أبي حنيفة أو مالك او الشافعي أو احمد رضي الله عنهم يعلم أحدهم من نفسه رياء أو حسدا أو نفاقا ثم لا يجاهد نفسه ولا يناقشها أبدا ولولا أنهم يعلمون سلامتهم من تلك الآفات والأمراض لقدَّموا الاشتغال بعلاجها على كل علم[661].

المطلب الثالث : حكمة تعدد الطرق:

والتعدد والاختلاف في الطرق الشرعية ليس اختلافا في الحقيقة والهدف وإنما الاختلاف هو في الوسيلة والأساليب والمناهج ليس إلا فالطرق الصوفية الشرعية على تعددها سبل تعددت إلى الله لتلائم حاجات كل سالك إليه فيجد فيها كل مريد ما يناسب طاقته ووقته ومزاجه وبيئته قطعا لأعذار القاعدين عن الهجرة إلى الله عز وجل فليس كل الناس سواء في الطاقة والمزاج ولنتأمل بإمعان قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[662] إذن فهناك سبل شتى توصل إليه تعالى كما قال عز وجل: ﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ﴾ [663] وهذه السبل المتعددة القويمة تمضي متوازية متحاذية في اتجاه واحد فكأنها طريق واحد ولذلك جاء في أكثر من آية بلفظ المفرد نحو (سبيلي أو سبيله او سبيل ربك) لاتحاد البداية والنهاية فهي مجتمعة ضمن صراط الله المستقيم الواحد المتبع وذلك ان الطرق الشرعية جميعا تبدأ بالتوبة وتنتهي بالمعرفة فإذا تصورنا (دائرة ذات مركز) كانت لكل الطرق الشرعية خطوطا داخلية تصل ما بين محيط الدائرة ونقطة المركز وكيفما كان اتجاه نقطة البداية فلا خلاف في النهاية ولا في الأصول العامة ولكن في الفروع وكيفية الوصول.

ولهذا يندفع الاعتراض بقوله تعالى ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [664] فالمنهي عنه هو سبل الشيطان وأما سبل الرحمن فلله ذكرها كما قدمنا ووعد المجاهدين فيه بهدايتهم اليها قال تعالى ﴿ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [665] وسماها تعالى ﴿ سُبُلَ السَّلَامِ ﴾ [666] واعتز بها الأنبياء فقالوا:

---

[661]- الشعراوي:لطائف المنن والأخلاق بوجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق ،دار التقوى،القاهرة،ط2009،7م،ج1،ص25-26.

[662]- سورة العنكبوت [الآية 69].

[663]- سورة المائدة [الآية 16].

[664]- سورة الأنعام [الآية 153].

[665]- سورة العنكبوت [الآية 69].

[666]- سورة المائدة [الآية 16].

﴿وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ﴾ [667] فكلها متوازية متحاذية وكلها شرائح يتكون فيها (سبيله) تعالى فهي وإن تعددت سبيل واحدة للاتحاد في البداية والنهاية والنية والهدف الأعظم أن الحق واحد لا يتعدد ولكن السبل تتعدد في إدراكه أو الوصول إليه شأن الناظرين إلى الشمس والقمر في كافة اقطار الدنيا تختلف موقع الطالب ويتعدد ولا يختلف المطلوب المحدد فعند الانتقال من مكان لآخر قريبا كان أو بعيدا يستطيع المرء أن يتخذ أية وسيلة نقل شاء ماشيا أو راكبا ، دابة أو سيارة ، طيارة أو سفينة ، وكلها سبل توصل إلى الحقيقة الواحدة التي لا تتعدد[668].

المطلب الرابع: أسس الطريقة القادرية:

يضع الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى سبعة أسس لطريقته هي: المجاهدة و التوكل وحسن الخلق و الشكر والصبر والرضا والصدق، و يطلب من تلاميذه و مريديه أن يراعوها و يسيروا عليها لكي يستطيعوا السلوك في الطريق.

و يقول رحمه الله تعالى: 1) أما المجاهدة فالأصل فيها قول الله عز وجل:﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [669] وقول النبي صلى الله عليه وسلم تسليما: « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر». وكل من لم يكن في بدايته صاحب مجاهدة لم يجد من الطريقة شمة.. و الأصل في المجاهدة مخالفة الهوى، و أن يلجم نفسه بلجام التقوى و الخوف من الله عز و جل و لا تتم المجاهدة إلا بالمراقبة، و هي أن تعبد الله تعالى كأنك تراه فإن لم تكن تراه فهو يراك. و لا تتم المراقبة إلا بمعرفة خصال أربع: 1- معرفة الله تعالى. 2- معرفة عدو الله إبليس 3- معرفة نفسك الأمارة بالسوء 4 – معرفة العمل لله تعالى، وهي أن يأتمر بأوامره وينتهي عن نواهيه.

2) وأما التوكل فالأصل فيه قول الله عز وجل: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [670] وحقيقة التوكل تفويض الأمور إلى الله عز و جل... فيقطع العبد أن لا تبديل للقسمة، فما قسم له لا يفوته، وما لم يقدر له لا يناله. فيسكن قلبه إلى ذلك، ويطمئن إلى وعد مولاه..

والتوكل ثلاث درجات: و هي التوكل ثم التسليم ثم التفويض، فالتوكل يسكن إلى وعد ربه، وصاحب التسليم يكتفي بعلمه، وصاحب التفويض يرضى بحكمه... أما الحركة الظاهرة التي هي الكسب بالسنة فلا تنافي توكل القلب بعدما يتحقق العبد أن التقدير من قبل الله تعالى في قلبه، لأن محل التوكل القلب و هو تحقيق الإيمان فمن أنكر الكسب فقد أنكر السنة ، ومن أنكر التوكل فقد أنكر الإيمان، فإن تعسر شيء من الأسباب فبتقدير الله عز وجل، و أن تيسر شيء منها فبتيسيره عز وجل. يقول النبي صلى الله عليه وسلم تسليما: «اعقلها وتوكل». رواه الترمذي.

---

[667]- سورة إبراهيم [الآية 12].

[668]- محمد حسين يعقوب:المرجع السابق ص (262).

[669] - سورة العنكبوت [الآية 69].

[670]- سورة الطلاق [الآية 3].

3) وأما حسن الخلق فالأصل فيه قول الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم تسليما في كتابه المنزل عليه: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [671] و ما روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: «قيل يا رسول الله: أي المؤمنين أفضل إيمانا؟ قال صلى الله عليه وسلم تسليما: أحسنهم خلقا».

الخلق الحسن أفضل مناقب العبد وبه تظهر جواهر الرجال، و الإنسان مستور بخلقه مشهور بخلقه... وحسن الخلق مع الله عز و جل أن تؤدي أوامره، وتترك نواهيه، وتطيعه في الأحوال كلها من غير اعتقاد استحقاق العوض عليه، وتسلم جميع المقدور إليه من غير تهمة، وتوحده من غير شرك، وتصدقه في و عده من غير شك.

4) و أما الشكر فالأصل فيه قوله عز وجل: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [672] وقال صلى الله عليه وسلم تسليما: « أفلا أكون عبدا شكورا»؟.

وحقيقة الشكر عند أهل التحقيق: الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع...، وينقسم الشكر أقساما: شكر باللسان وهو اعترافه بالنعمة بنعت الاستكانة، و شكر بالبدن و الأركان وهو اتصافه بالوفاء والخدمة، وشكر بالقلب وهو انعكاف على بساط الشهود بإدامة حفظ الحرمة.. وفي الجملة، الشكر أن لا تعصي الله تعالى بنعمه.

5) وأما الصبر فالأصل فيه قول الله عز و جل: ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾. [673]

والصبر على ثلاثة أضرب: صبر لله عز وجل، وهو على أداء أمره وانتهاء نهيه، وصبر مع الله عز وجل، وهو الصبر تحت جريان قضائه وأفعاله فيك من سائر الشدائد والبلايا، وصبر على الله عز و جل. و هو الصبر على ما وعد من الرزق والفرج و الكفاية والنصر، و الثواب في الدار الآخرة... قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد.

6) وأما الرضا فالأصل فيه قول الله عز وجل: ﴿ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾. [674] و روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما: « ذاق طعم الإيمان من رضي بالله عز وجل ربا »... و اعلم أن كل من رضي بالقضاء استراح، وكل من لم يرض به طالت شقاوته وتعبه، ولا ينال من الدنيا إلا ما قسم له. فما دام هواه قاضيا عليه فهو غير راض بالقضاء، لان الهوى منازع للحق عز وجل. فلا كان الهوى، و إذا كان فلانا.. وفي الجملة الراضي هو الذي لا يعترض على تقدير الله عز وجل.

---

[671] – سورة القلم [الآية 4].

[672] – سورة إبراهيم [الآية 7].

[673] – سورة آل عمران [الآية 200].

[674] – سورة البينة [الآية 8].

7) وأما الصدق فالأصل فيه قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾.[675] واعلم أن الصدق عماد الأمر، و به تمامه، وفيه نظامه، وهو ثاني درجة النبوة وهو قوله تعالى: ﴿ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ﴾ [676]. والصدق هو استواء السر والعلانية.[677]

هذه هي الطريقة القادرية في التربية والسلوك، وهذه هي أسسها و قواعدها و أورادها، و هي لا تخرج عن الكتاب والسنة، و تجعل الشريعة حاكمة على الحقيقة، و الفقه هو الدليل الذي يسير على ضوئه التصوف. كما أنها تدعو إلى مكارم الأخلاق والنأي عن سفاسفها، و إلى حسن التعامل بين الناس، و إلى أن يتخلقوا بأخلاق المجتمع الإسلامي الأول مجتمع الصحابة رضي الله تعالى عنهم، ليكونوا خير أمة أخرجت للناس مثلها ثل الطرق السنية كلها.

و قد بين الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى حقيقة التصوف كما يراه، فهو لا يجيء بلبس الصوف و تصفير الوجوه و لقلقة اللسان بحكايات الصالحين وتحريك الأصابع بالتسبيح والتهليل، و إنما هو مجاهدة وعمل وإخلاص وهو يجيء بالصدق في طلب الحق عز وجل، والزهد في الدنيا، و إخراج الخلق من القلب و تجرده عما سوى مولاه عز وجل.[678] و أخضع التصوف للفقه. فكل حقيقة، في نظره، لا تشهد لها الشريعة هي زندقة. و منع الشريعة من أن تدور في فلك السياسة. و هو البلاء الذي يجر الخراب على السياسة و الشريعة كليهما، لذلك كان ينكر على علماء السوء الذين يصحبون الحكام و الملوك و يخضعون لهم الشريعة و نصوصها و يؤولون لهم أحكام الشرع. فكان يقول لهم: « يا خونة العلم و العمل، يا أعداء الله و رسوله، كم تنافقون الملوك و السلاطين حتى تأخذوا منهم حطام الدنيا و شهواتها و لذاتها.. اللهم تب علي و عليهم و خلصهم من ذل النفاق و قيد الشرك».[679]

و كان رحمه الله تعالى ينهى المريدين من اعتقاد العصمة في شيوخهم فيقول: «و إذا ظهر له من الشيخ ما يكره في الشرع، استخبر عن ذلك بضرب المثل و الإشارة... و لا يعتقد فيه العصمة».[680]

أما حلقات الذكر التي تقام، اليوم في الطريقة القادرية و ما يرافقها من سماع القصائد الملحنة بألحان خاصة، فهي لم تكن في الأسس التي وضعها الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى لطريقته، بل كان يكرهها، كما رأينا، ويفضل عليها سماع القرآن الكريم. و لعل شيوخ الطريقة الذين أتو بعده، هم الذين وضعوا و أرسوا قواعدها.

يذكر الأستاذ أبو الحسن الندوي في كتابه "رجال الفكر و الدعوة في الإسلام": «كان الشيخ عبد القادر يربي مريديه و يحاسب و يشرف عليهم فأصبحوا يشعرون بالمسؤولية بعد البيعة و التوبة و تجديد الإيمان، و ظل

---

(675)- سورة التوبة [الآية 119].

(676)- سورة النساء [الآية 69].

(677) - عبد القادر الجيلاني :الغنية، المصدر السابق،جـ 2 ،ص 182.

(678)- عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني:المصدر السابق، المجلس 25.

(679) - أبي الحسن الندوي :رجال الفكر و الدعوة في الإسلام،المرجع السابق، ، ص 248 .

(680)- عبد القادر الجيلاني: الغنية: المصدر السابق،جـ 2، ص 124.

بينهم و بين الشيخ رباط وثيق عميق، رباط روحي ديني لا يهن و لا ينحل فهو ميثاق لا ينقض، و كان الشيخ يجيز كثيرا منهم ممن يرى فيه النبوغ و الاستقامة و المقدرة على التربية، فينتشرون في الآفاق يدعون الخلق إلى الله، و يربون النفوس و يحاربون الشرك والبدع و الجاهلية و النفاق... وكان لخلفائه و تلاميذه فضل كبير في المحافظة على روح الإسلام وشعلة الإيمان وحماسة الدعوة و الجهاد و قوة التمرد على الشهوات، ولولاهم لا ابتلعت المادية هذه الأمة وانطفأت شرارة الحياة والحب في صدور أفرادها، وكان لهم أيضا فضل كبير في نشر الإسلام في الأمصار البعيدة التي لم تصل إليها جيوش المسلمين، و انتشر بهم الإسلام في إفريقيا و الهند واندنوسيا والصين وجزر المحيط الهندي.

و لما استولى التتار على العالم الإسلامي. قام هؤلاء الدعاة المخلصون الذين يجهل التاريخ أسماء كثير منهم. يندسون في هؤلاء الغلاظ الشداد يحببونهم بالإسلام، ويدعونهم إليه حتى أسلم جلهم أو كلهم. وأصبحوا حماة الإسلام بعد أن كانوا أعداءه، وقد أبدى توماس أرنولد دهشته من هذا الحدث في كتابه «الدعوة إلى الإسلام».[681]

المبحث الثاني: آداب الشيخ والمريد

تعريف الأدب: الأدب عند الصوفية ليس فقط بمدلوله العام أي الأدب الظاهر إذ ربما يكون رياء أو نفاقا أو مجاملة واسترضاء وإنما الأدب عندهم هو الأدب الباطني الذي يرجى منه كنس القلب من جميع الآفات وما يسيطر عليه من الرغبات والشهوات[682].

وحقيقته اجتماع جميع خصال الخير فالأديب هو الذي اجتمع فيه خصال الخير ومنه أخذت المأدبة[683].

المطلب الأول: الفيصلة بين الشيخ وبين المريد والمراد والارادة

أ- الإرادة: فترك ما عليه العادة، وتحقيقها نهوض القلب في طلب الحق سبحانه وترك ما سواه، فإذا ترك العبد العبادة التي هي حظوظ الدنيا والأخرى فتجردت حينئذ إرادته، فالإرادة مقدمة على كل أمر، ثم يعقبها القصد، ثم الفعل، فهي بدء طريق كل سالك واسم أول منزلة كل قاصد، قال الله عز وجل لنبيه -صلى الله عليه وسلم-: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾[684] فنهى نبيه -صلى الله عليه وسلم- عن

---

[681] - ابي الحسن الندوي:رجال الفكر و الدعوة في الإسلام، ص 282 .

[682]- د.حسن الشرقاوي :معجم ألفاظ الصوفية،دار الفكر العربي،دمشق،ط1، 1998م،ص35.

[683]- القشيري:المرجع السابق،ج2،ص558.

[684]- سورة الأنعام [الآية 52].

طردهم وإبعادهم، وقال تعالى في آية أخرى: ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ ﴾[685] فأمره -صلى الله عليه وسلم- بالصبر معهم وملازمتهم وتصبر النفس في صحبتهم، ووصفهم بأنهم يريدون وجهه، ثم قال: ﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ ﴾[686] فبان بذلك أن حقيقة الإرادة إرادة وجه الله فحسب، دون زينة الحياة الدنيا والأخرى.

ب- المريد والمراد، فالمريد: من كانت فيه هذه الجملة واتصف بهذه الصفة، فهو أبدًا مقبل على الله عز وجل وطاعته، مُوَلٍّ عن غيره وأجابت، يسمع من ربه عز وجل فيعمل بما في الكتاب والسنة، ويصم عما سوى ذلك، ويبصر بنور الله عز وجل فلا يرى إلا فعله فيه، وفي غيره من سائر الخلائق، ويعمى غيره فلا يرى فاعلاً على الحقيقة غيره عز وجل، بل يرى آلة وسببًا محركًا مدبرًا مسخرًا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: "حبك الشيء يعمى ويصم" أي يعميك عن غير محبوبك، ويصمك عنه لاشتغالك بمحبوبك، فما أحب حتى أراد، وما أراد حتى تجردت إرادته، وما تجردت إرادته حتى قذفت في قلبه جمرة الخشية فأحرقت كل ما هنالك. قال الله عز جل: ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ۖ ﴾[687] كما قيل: إنها لوعة تهون كل روعة فنومه غلبه وأكله فاقة، وكلامه ضرورة، ينصح نفسه أبدًا فلا يجيبها إلى محبوبها ولذاتها، وينصح عباد الله ويأنس بالخلوة مع الله، ويصبر عن معاصي الله تعالى ويرضى بقضاء الله ويختار أمر الله، ويستحي من نظر الله، ويبذل مجهوده في محاب الله تعالى، ويتعرض أبدًا لكل سبب يوصله إلى الله عز وجل، ويقنع بالخمول والاختفاء، فلا يختار حمد عباد الله، ويتحبب إلى ربه بكثرة النوافل، مخلصًا لله حتى يصل إلى الله عز وجل، ويحصل في زمرة أحباب الله تعالى ومراديه، فحينئذ يسمى مرادًا، فتحط عنه أثقال سالكي طريق الله، ويغسل بماء رحمة الله ورأفته ولطفه، فيبنى له بيت في جوار الله، وتخلع عليه أنواع الخلع، وهي المعرفة بالله والأنس به، والسكون والطمأنينة إليه، وينطق بحكمة الله وأسرار الله بعد الإذن الصريح، بل الخبر من الله عز وجل، ويلقب بألقاب يتميز بها بين أحباب الله تعالى، فيدخل في خواص الله، ويسمى بأسماء لا يعلمها إلا الله، ويطلع على أسرار تخصه، فلا يبوح بها عند غير الله عز وجل، فيسمع من الله، ويبصر بالله وينطق بالله ويبطش بقوة الله، ويسمى في طاعة الله، ويسكن إلى الله، وينام مع طاعة الله، وذكر الله في كلاءة الله وحرز الله، فيكون من أمناء الله وشهدائه، وأوتاد أرضه ومنجى عباده وبلاده وأحبائه وأخلائه، قال النبي -صلى الله عليه وسلم- حاكيًا عن الله تعالى: "لا يزال عبدي المؤمن يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه وبصره ولسانه ويده ورجله وفؤاده، فبي يسمع وبي يبصر وبي ينطق وبي يعقل وبي يبطش" الحديث.

---

(685)- سورة الكهف [الآية 28].

(686)- سورة الكهف [الآية 28].

(687)- سورة النمل [الآية 34].

فهذا عبد حمل عقله العقل الأكبر، وسكنت حركاته الشهوانية لقبضة الحق عز وجل، فصار قلبه خزانة الله عز وجل، فهذا هو مراد الله تعالى إن أردت أن تعرفه يا عبد الله.

وقد قال من تقدم من عباد الله: إن المريد والمراد واحد، إذ لو لم يكن مراد الله عز وجل بأن يريده لم يكن مريدًا، إذ لا يكون إلا ما أراد، لأنه إذا أراده الحق بالخصوصية وفقه بالإرادة، كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾[688]

وقال آخرون: المريد: المبتدى، والمراد: المنتهى، المريد: الذي نصب بعين التعب وألقى في مقاساة المشاق، والمراد: الذي لقى الأمر من غير مشقة، المريد: متعب، والمراد: مرفوق به مرفه، فالأغلب في حق القاصدين المبتدئين في سنة الله تعالى ما قد تم وجرى من توفيق الله تعالى للمجاهدات، ثم إيصالهم إليه وحط الأثقال عنهم، والتخفيف عنهم في كثير من النوافل وترك الشهوات، والاقتصار على القيام بالفرائض والسنن من جميع العبادات، وحفظ القلوب ومحافظة الحدود والمقام، والانقطاع عما سوى الحق عز وجل بالقلوب، فيكون ظواهرهم مع خلق الله تعالى، وبواطنهم مع الله عز وجل، ألسنتهم بحكم الله، وقلوبهم بعلم الله، فألسنتهم لنصح عباد الله، وأسرارهم لحفظ ودائع الله، فعليهم سلام الله وتحياته وبركاته ورحمته وتحيته مادامت أرضه وسماؤه، وقام العباد بطاعته وحقه، وحفظ حدوده.

وسئل الجنيد رحمه الله عن المريد والمراد، فقال: المريد: تتولاه سياسة العلم، والمراد: تتولاه رعاية الحق، لأن المريد يسير، والمراد يطير، فمتى يلحق السائر الطائر؟

وينكشف ذلك بموسى ونبينا محمد –صلى الله عليه وسلم–، كان موسى عليه السلام مريدًا، ونبينا –صلى الله عليه وسلم– مرادًا، انتهى سير موسى عليه السلام إلى جبل طور سيناء، وطيران نبينا –صلى الله عليه وسلم– إلى العرش واللوح المسطور.

فالمريد طالب، والمراد مطلوب، عبادة المريد مجاهدة، وعبادة المراد موهبة، المريد موجود، والمراد فان، المريد يعمل للعوض، والمراد لا يرى العمل بل يرى التوفيق والمنن، المريد يعمل في سلوك السبيل، والمراد قائم على مجمع كل سبيل، المريد ينظر بنور الله والمراد ينظر بالله، المريد قائم بأمر الله، والمراد قائم بفعل الله، المريد يخالف هواه، والمراد يتبرأ من إرادته ومناه، المريد يتقرب، والمراد يقرب به، والمريد يحمي، والمراد يدلل وينعم ويغذي ويشهي، المريد محفوظ، والمراد يحفظ به المريد في الترقي، والمراد قد أوصل وبلغ إلى الرب الذي هو المرقى، ونال عنده كل طريف ونفيس ولطيف، ونقى، فجاز على كل طائع عابد متقرب بار تقي.

أما المريد: فيعرفه الشيخ عبد القادر الجيلاني:

---

[688]– سورة الإنسان [الآية 30].

«بأنه المقبل على الله عز وجل وطاعته المولي عن غيره وإجابته يسمع من ربه عز وجل فيعمل بما في الكتاب والسنة ويصم عما سوى ذلك ويبصر بنور الله عز وجل فلا يرى إلا فعله فيه وفي غيره من سائر الخلائق ويعمى عن غيره. ينصح نفسه أبدا فلا يجيبها إلى محبوبها ولذاتها وينصح عباد الله ويأنس بالخلوة مع الله ويصبر عن معاصي الله ويرضى بقضاء الله ويختار أمر الله ويستحيي من نظر الله ويبذل مجهوده في محاب الله ويتعرض أبدا لكل سبب يوصله إلى الله»[689].

وكلمة المريد يبدو أنها مصطلح تعارفت عليه الناس آنذاك وأطلقوه على الشاب إذا استقام على أمر الله وتمسك بطاعته. كما أطلق الناس في زماننا مصطلح الالتزام على الشباب الذين يعودون إلى الله ويتمسكون بطاعته. وتعريف الشيخ عبد القادر الجيلاني للمريد يدل على ذلك إلا أن هذا الاصطلاح تطور وخرج عن مدلوله الذي ذكره الشيخ عبد القادر وأصبح لقبا يطلق على من ينتسب إلى التصوف في بداية تصوفه.

قال الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله في كتاب الغنية:

سئل الجنيد رحمه الله عن المريد والمراد؟ فقال:" المريد: تتولاه سياسة العلم، والمراد: تتولاه رعاية الحق "؛ لأن

-المريد يسير، والمراد يطير، فمتى يلحق السائر الطائر؟! ..

-فالمريد طالب والمراد مطلوب.

-عبادة المريد مجاهدة وعبادة المراد موهبة.

-المريد موجود والمراد فان.

-المريد يعمل للعوض والمراد لا يرى العمل بل يرى التوفيق والمنن.

-المريد يعمل في سلوك السبيل والمراد قائم على مجمع كل سبيل.

-المريد ينظر بنور الله والمراد ينظر بالله.

-المريد قائم بأمر الله والمراد قائم بفعل الله.

-المريد يخالف هواه والمراد يتبرّأ من إرادته ومناه.

-المريد يتقرّب والمراد يقرب به.

-المريد يحمى والمراد يدلل وينعم ويغذى ويشهى.

-المريد محفوظ والمراد يُحفَظُ به المريد في الترقي.

-والمراد قد أوصل وبلغ إلى الرب الذي هو المرقى، ونال عنده طل طريف ونفيس ولطيف ونقي، فجاز على كل طائع عابد متقرب بار تقي.[690]

---

[689] - عبد القادرالجيلاني: الغنية ،المصدر السابق ج2، ص158.

[690] عبد القادرالجيلاني: فتوح الغيب،المصدر السابق، المقالة75

أ- **الشيخ المرشد:**

والشيخ عند الصوفية: يعني الإنسان الكامل في علوم الشريعة والطريقة والحقيقة البالغ إلى حد الكمال فيها لعلمه بآفات النفوس وأمراضها وأدوائها ومعرفته بذواتها وقدرته على شفائها والقيام بهداها إن استعدت ووفقت لاهتدائها[691].

ومن ضرورات السلوك عند الصوفية أن يكون لكل مريد شيخ يدله على الطريق ويهديه سواء السبيل وهذا ما يقرره الشيخ عبد القادر الجيلاني بقوله:

«فالمشايخ هو الطريق إلى الله عز وجل والإدلاء عليه والباب يدخل منه وإليه فلابد لكل مريد من شيخ على ما بينا»[692].

ومعنى هذا أنه يرى أن التصوف علاقة بين الشيخ والمريد وأن الشيخ هو الأساس في التربية الصوفية وهذا شيء غير مسلم به عند علماء أهل السنة والجماعة فرغم أنهم يرون أن كل طالب علم لابد له من معلم يتلقى عنه ذلك العلم فهم يرون أيضا أنه بالإمكان للطالب إذا كان ممن يملك القدرة على القراءة والفهم والتمييز وكان لديه مصادر للعلم أن يحصله دون الحاجة إلى شيخ. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-:

«وأما انتساب الطائفة إلى شيخ معين فلا ريب أن الناس يحتاجون من يتلقون عنه الإيمان والقرآن كما تلقى الصحابة ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم وتلقاه عنهم التابعون وبذلك يحصل أتباع السابقين الأولين بإحسان فكما أن المرء له من يعلمه القرآن ونحوه فكذلك له من يعلمه الدين الباطن والظاهر ولا يتعين ذلك في شخص معين ولا يحتاج الإنسان في ذلك أن ينتسب إلى شيخ معين فكل من أفاد غيره إفادة دينية فهو شيخه فيها وكل ميت وصل إلى الإنسان من أقواله وأعماله وآثاره ما انتفع به في دينه فهو شيخه من هذه الجهة فسلف الأمة شيوخ الخلفاء قرنا بعد قرن وليس لأحد أن ينتسب إلى شيخ يوالي على متابعته ويعادي على ذلك على بل عليه أن يوالي كل من كان من أهل الإيمان ومن عرف منه التقوى من جميع الشيوخ وغيرهم. ولا يخص أحد بمزيد موالاة إلا إذا ظهر له مزيد من إيمان وتقوى، فيقدم من قدم الله تعالى ورسوله ويفضل من فضله الله ورسوله قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[693]»[694].

وقد وضع الشيخ عبد القادر الجيلاني للمريد آدابا ألزمه بها في التعامل مع شيخه حتى يكون مثاليا في طريق سلوكه كما أوجب على الشيخ تجاه مريده آدابا لابد من مراعاتها حتى يكون قدوة صالحة ومثالا يحتذى به.

---

[691]- عبد الرزاق القاشاني: معجم اصطلاحات الصوفية،تح د عبد العال شهين، دار المنار، ط1، 1990م، ص172م.

[692] - القحطاني:المرجع السابق، (166/2).

[693] - سورة الحجرات [الآية: 13].

[694] - ابن تيمية :الفتاوى،المرجع السابق، (511/11).

اذن فالطريق المستقيم لا بد له من شيخ مرشد يدل عليه السالكين لئلا تتفرق بهم السبل فيضلوا عن سواء السبيل. هذا هو رأي الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى، وقد كان النبي صلى الله تعالى عليه وآله و سلم وخلفاؤه الراشدون ومن تبعهم بإحسان، والولاة الذين يولونهم الأمصار هم الذين يقومون بهذه المهمة، أما بعد أن افترق السلطان والقرآن، ففد أصبح لا بد للقرآن من هداة و مرشدين، يرشدون إليه ويتولون أمر تابعيه، و لو كان الأمر يتم بدون ذلك، و لو كان يؤخذ من الكتب فقط، لما أرسل الله سبحانه و تعالى الرسل، و لما كان العلماء ورثة الأنبياء، ولما أنشئت المدارس و الجامعات.

يورد الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى عن صفة الشيخ المرشد: « لا يجوز لشيخ أن يجلس على سجادة النهاية ويتقلد بسيف العناية حتى يكمل فيه اثنتا عشرة خصلة: اثنتان من صفات الله تعالى، وهما أن يكون الشيخ ستارا غفارا، و اثنتان من صفات النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وهما: أن يكون شيقا رفيقا، و اثنتان من صفات أبي بكر رضي الله تعالى عنه وهما: أن يكون صادقا متصدقا، و اثنتان من صفات عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وهما: أن يكون أمارا نهاء، و اثنتان من صفات عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه وهما: أن يكون طعاما للطعام مصليا بالليل و الناس نيام، واثنتان من صفات علي رضي الله تعالى عنه وهما أن يكون عالما شجاعا».[695]

وكان رضي الله تعالى عنه يؤكد: «يجب على شيخ المسلك أن يعاشر المريد بحكم النصيحة ويلاحظه بعين الشفقة ويلاينه بالرفق عند عجزه عن احتمال الرياضة، وأن يربيه تربية الوالدة لولدها، والوالد الشفيق الحليم اللبيب لولده وغلامه، فيأخذه بالأسهل، و لا يحمله ما لا طاقة له به، ثم يأمره بالأشد بعد أن يأخذ عليه العهد بالرجوع عن المعاصي، و الدوام على طاعة الله تعالى، فإن العهد له أصل جاءت به الأحاديث الشريفة عن النبي صلى الله عليه وسلم تسليما في مبايعته للصحابة رضي الله عنهم، وأن يلقنه الذكر».

إذن فالشيخ المرشد يجب: أولا: أن يكون قدوة حسنة لمريديه، وللناس أجمعين، لذلك يجب أن يكون عالما عاملا مخلصا صادقا فاضلا، متخلقا بأخلاق أهل الطريق وصفاتهم جميعها، ذا هيبة و جلال لكي يؤثر في نفوس مريديه و يحملهم على الطريق وهو ليس معصوما بل مقيدا بالكتاب والسنة.

اما ابن تيمية رحمه الله تعالى في كتابه السلوك يذكر: « أما المستقيمون من السالكين كجمهور مشايخ السلف مثل الفضيل بن عياض، و إبراهيم بن أدهم، و أبي سليمان الداراني، ومعروف الكرخي، والسري السقطي، والجنيد، و غيرهم من المقدمين، و مثل الشيخ عبد القادر والشيخ حماد و الشيخ أبي البيان وغيرهم من المتأخرين فهم لا يسوغون للسالك، و لو طار في الهواء أو مشى على الماء، أن يخرج عن الأمر والنهى الشرعيين، بل عليه أن يفعل المأمور ويدع المحظور إلى أن يموت، وهذا كثير في كلامهم، كقول الشيخ عبد القادر في كتابه

[695] – التادفي:المرجع السابق، ص 13.

«فتوح الغيب»: اخرج من نفسك وتنح عنها و سلم الكل إلى الله تبارك وتعالى. وامتثل أمره و انته نهيه، ولا تدخل الهوى قلبك.. قال الله تعالى:﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ »[696] [697].

ثانيا: يجب أن يكون رقيبا على مريديه، يدلهم على الطريق المستقيم، ويسلكهم فيه، و يأخذ منهم العهد، بالمبايعة، على الالتزام به والسير عليه، ثم يراقب سيرهم بعد ذلك، فينبه الغافل، و يذكر الناسي، ويرشد الضال، وهو يضع قاعدة السير لمريديه فيقول لكل واحد منهم: « أوصيك بتقوى الله وطاعته، ولزوم ظاهر الشرع، وسلامة الصدر، وسخاء النفس، و بشاشة الوجه، و بذل الندى، وكف الأذى، وحفظ حرمات المشايخ، والعشرة مع الإخوان، والنصيحة للأصاغر والأكابر، وترك الخصومة، وحمل الأذى، وملازمة الإيثار، والمعاونة في الدين والدنيا. وحقيقة الفقر أن لا تفتقر إلى من هو مثلك، وحقيقة الغنى أن تستغني عمن هو مثلك، و التصوف ما أخذ عن القيل والقال، ولكن اخذ عن الجوع، وقطع المألوفات و المستحسنات، و لا تبدأ الفقير بالعلم، وابدأه بالرفق، فإن العلم يوحشه والرفق يؤنسه، و التصوف مبني على ثمان خصال: السخاء لسيدنا إبراهيم عليه السلام، والرضا لإسحاق عليه السلام، والصبر لأيوب عليه السلام، والإشارة لزكريا عليه السلام. و الغربة ليحيى عليه السلام، والصوف لموسى عليه السلام، والسياحة ليحي عليه السلام، والفقر لسيدنا محمد، صلى الله عليه وعلى إخوانه من النبيين والمرسلين وآل كل و صحب كل وسلم أجمعين».[698]

---

[696] – سورة ص [الآية 26].

[697] – ابن تيمية:مجموع الفتاوى،كتاب السلوك، ص ص516-519 .

[698]– عبد القادرالجيلاني: فتوح الغيب،المصدر السابق، المقالة 75 بتصرف.

المطلب الثاني: واجبات المريد:

وضع الشيخ عبد القادر جملة من الواجبات التي يلتزم بها المريد المبتدئ يمكن حصرها فيما يلي:

1. الاعتقاد الصحيح الذي هو الأساس ويكون على عقيدة أهل السنة والجماعة والسلف الصالح.
2. التمسك بالكتاب والسنة والعمل بهما أمرا ونهيا أصلا وفرعا.
3. الصدق والاجتهاد والإخلاص مع الله والوفاء بوعده وامتثال أمره والاستمرار في عبادته ومرضاته ومحبته وكل ما يؤدي إلى قربه.
4. الحذر من التقصير ومخالطة المقصرين أبناء القيل والقال أعداء الأعمال والتكاليف المدعين للإسلام.
5. الاتصاف بصفة الكرم مع اليقين والاعتقاد أن الله لم يخلق وليا بخيلا.
6. الرضا بعدم الشهرة وخمول الذكر وترك الغرور وقتل الشهوات والرضا بالجوع والحرمان.
7. الإيثار وتقديم أقرانه عند الشيخ وفي مجالس العلم، وعند العلماء وأصحاب الفضل فيجوع هو ليشبع الباقون، ويرضى بالذل لعز الجماعة وكرامتهم.
8. أن يطلب من الله الستر ومغفرة ما سلف من الذنوب والعصمة فيما بقي من العمر والتوفيق لما يحبه الله سبحانه من الأعمال الصالحة والرضا عنه في حركاته وسكناته.
9. أن يتحبب إلى الشيوخ وإلى جميع الصالحين، وأن يعفو ويصفح عن زلات الغير وإساءات الناس إليه.
10. أن يزهد في الملذات وأن يقاوم الرغبة في التوسع في الشهوات[699] .

هذه هي مجمل الواجبات التي ينبغي على المريد أن يقوم بها وهي كفيلة بطبعه على الاستقامة وكريم الأخلاق ونبل الصفات.

[699] – عبد القادر للجيلاني:الغنية، ج2،ص 162.

المطلب الثالث: آداب المريد مع الشيخ:

نظرا لأهمية صلة المريد بالشيخ فقد وضع الشيخ عبد القادر الجيلاني آدابا خاصة بالمريد تجاه شيخه الذي سيصحبه وهي:

1. طاعته وعدم مخالفته في الظاهر أو الاعتراض عليه في الباطن مع الإكثار من قراءة ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا ﴾[700] وإذا ظهر من شيخه ما يكرهه في الشرع استخبر عن ذلك بضرب المثل والإشارة ولا يصرح به لئلا ينفر منه الشيخ بسببه.
2. أن يستر ما قد يرى من عيوب الشيخ ويتهم نفسه فربما وقع ذلك لعدم فهمه مراد الشيخ فإذا لم يجد للشيخ عذرا استغفر له ودعا بالتوفيق ولا يخبر أحدا بما حدث منه ولا يعتقد أن الشيخ معصوم، إنما حصل منه وإنما هو عن غفلة.
3. ملازمة الشيخ وعدم الانقطاع عنه وإذا حدث وأن عبس في وجهه أو غضب عليه أو ظهر منه إعراض فليفتش في نفسه وما عسى أن يكون قد وقع منه من سوء أدب أو تفريط بترك أمر الله أو فعل نهيه وعليه أن يبادر إلى التوبة والاستغفار والعزم على عدم العودة إليه في المستقبل.
4. أن يلتزم بالآداب أمام شيخه وأن يتخير أفضل الأساليب عند التخاطب معه وأن يفعل معه ما يسره.
5. أن يحظى الشيخ بثقة مريده ويقينه بأنه أهل لأن يتلقى العلم والمعارف على يديه.
6. أن يحذر من مقارفة الذنوب لأنها تذهب ببركة العلم وتغير الحال كما حدث لآدم حينما أخرج من الجنة بسبب الذنب.
7. ألا يتكلم أمام شيخه إلا للضرورة وأن يسكت إذا دارت مسألة عند شيخه ولو كان الجواب عنده بل ينتظر ما يقوله شيخه ولا يعارض[701].

هذه هي الآداب التي ينبغي للمريد مراعاتها والتحلي بها في التعامل مع شيخه وهي في مجملها فضائل وأخلاق تدعو لتكريم الشيخ وطاعته؛ لأنه معلم، ومن حق المعلم أن يقدر وأن يحترم غير أن تلك الطاعة يجب أن تكون في حدود دائرة المعروف فإذا أملي الشيخ ما يوافق الكتاب والسنة فلا شك في لزوم طاعته أما إذا أملي أو علم ما يخالف الكتاب والسنة فالواجب عدم طاعته هذا إذا كان الشيخ معروفا بالدين والإيمان والاستقامة والصلاح، أما من عرف بالابتداع والفجور فيجب الإنكار عليه، وبيان بدعته وفجوره وتحذير الناس منه فضلا عن أن يطاع فيما يأمر به. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله–:

---

[700] – سورة الحشر [الآية: 10].

[701] – عبد القادر للجيلاني:الغنية،ج2،المصدر السابق، ص164..

وبالجملة فالشيوخ وغيرهم إذا أمروا بطاعة الله ورسوله أطيعوا وإن أمروا بخلاف ذلك لم يطاعوا فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق وليس أحد معصوما إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهذا في الشيخ الذي ثبت معرفته بالدين وعمله به.

وأما من كان مبتدعا بدعة ظاهرة أو فاجرا فجورا ظاهرا فهذا إلى أن تنكر عليه بدعته وفجوره أحوج منه إلى أن يطاع فيما يأمر به. لكن إن أمر هو أو غيره بما أمر الله به ورسوله وجبت طاعة الله ورسوله، فإن طاعة الله ورسوله واجبة على كل أحد في كل حال ولو كان الآمر بها كائنا من كان[702].

المطلب الرابع: الآداب المتعلقة بالشيخ تجاه مريده:

لكي تتم عملية التربية السلوكية بنجاح ولأنها مسؤولية مشتركة تتم من طرفين هما المريد والشيخ، فإن الشيخ عبد القادر الجيلاني يضع آدابا وواجبات لابد أن يراعيها الشيخ أثناء تعامله مع المريد وهي:

1. «أن يقبله لله تعالى ويتعهده بالنصيحة والرفق واللين فيكون معه كأبيه وأمه شفقة ورحمة وألا يحمله مالا يطيق، بل يتدرج معه حتى ينقله من موافقة الطبع إلى أوامر الشرع ومن الرخص إلى العزائم.
2. إذا علم منه صدق المجاهدة فلا يتهاون معه بل يلزمه بأوامر الله ويزجره عن نواهيه ابتغاء مرضاته سبحانه دون النظر إلى عائد.
3. أن يثبته على الطريق وألا يعمل ما من شأنه التنفير لأن القصد هو الله وما كان لله دام واتصل.
4. أن يراقب سلوكه فإذا رأى مخالفة للشرع وعظه وزجره وحذره من العودة ورغبه في التوبة إلى الله.
5. أن يحرص على تلقينه مبادئ الخير ويتجنب الفاحش من القول والخلق؛ لأنه محل القدوة والرحمة يرعى مصالحه وكل مشاكله ويحمل عنه عبثه»[703].

هذه الآداب التي يجب على الشيخ أن يلتزمها لا شك أنها حسنة وهي من حقوق المسلم على أخيه وهي من الشيخ أوكد.

---

[702] – ابن تيمية:الفتاوىالمرجع السابق،ج11،ص517.

[703] – عبد القادر للجيلاني: الغنية، المصدر السابق،ج2،ص165.

المبحث الثالث: آداب الصحبة

المطلب الأول: صحبة الإخوان:

بدأ عبد القادر الجيلاني تلك الآداب ببيان آداب صحبة الإخوان وما ينبغي مراعاته في التعامل معهم. من ذلك:

1. الإيثار والصفح عنهم والقيام معهم في شؤونهم وتقديم الخدمة الممكنة لهم.
2. ألا يرى له على أحد حقا ولا يطالب أحدا بحق بل يرى أن لكل منهم عليه حقا ثم يجتهد في أداء حقوقهم.
3. أن يظهر لهم الموافقة في جميع ما يقولون أو يفعلون –وهذا محمول بالطبع على القول الحق والفعل الحسن– وأن يتأول لهم ويعتذر عنهم.
4. أن يجتنب مجادلتهم ومخالفتهم ويتعامى عن عيوبهم فإن خالفه أحد منهم في شيء سلم له ما يقول في الظاهر وإن كان الأمر عنده بخلاف ما يقول –وهذا أيضا محمول على كون الخلاف في الأمور العادية والحياتية أما إذا كان الخلاف في شيء من الشرع فلابد من بيان الحق بدليله وعدم الموافقة على الباطل–.
5. أن يجتنب فعل ما يكرهونه من حقد أو أذية أو غيبة[704].
6. أن يكون المعيار لعلاقات الإنسان بالآخرين هو الحب في الله –عز وجل– والبغض فيه يقول في هذا المعنى:

«إذا وجدت في قلبك بغض شخص أو حبه فأعرض أعماله على الكتاب والسنة فإن كانت فيهما مبغوضة فأبشر بموافقتك لله عز وجل ولرسوله وإن كانت أعماله فيهما محبوبة وأنت تبغضه فاعلم بأنك صاحب هوى تبغضه بهواك ظالما له ببغضك إياه وعاص لله عز وجل ولرسوله مخالف لهما فتب إلى الله عز وجل من بغضك واسأله عز وجل محبة ذلك الشخص وغيره من أحبائه وأوليائه وأصفيائه والصالحين من عباده. لتكون موافقا له عز وجل وكذلك افعل بمن تحبه يعني أعرض أعماله على الكتاب والسنة فإن كانت محبوبة فيهما فأحببه وإن كانت مبغوضة فأبغضه كيلا تحبه بهواك وقد أمرت بمخالفة هواك قال عز وجل: ﴿ وَ لَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾[705]»[706].

وهكذا ومن خلال تلك الآداب فإننا نرى أن الشيخ عبد القادر الجيلاني لم يجعل من التصوف حالة انفصال عن المجتمع الذي يعيش فيه الإنسان لأن كماله وسمو أخلاقه لا تبرز بمجرد حصوله على المعارف والعلوم وإنما

---

[704] – عبد القادر للجيلاني: الغنية، المصدر السابق، ج2، ص162.

[705] – سورة ص [الآية 26].

[706] – عبد القادر الجيلاني، فتوح الغيب، المصدر السابق، المقالة الحادية والثلاثون، ص75.

تظهر في حالة احتكاكه ومخالطته وتعامله بمن يعيش معهم في المجتمع والمجتمع بمختلف فئاته وطبقاته هو المحك الذي يظهر الإنسان على حقيقته ولذا كان لابد من مراعاة تلك الآداب حتى تصلح الأحوال وتتقارب القلوب.

المطلب الثاني: صحبة الأجانب:

وتتركز تلك الآداب على حفظ أسرارهم والشفقة عليهم والرحمة لهم. والصبر على سوء أخلاقهم عند معاشرتهم على ألا يرى لنفسه فضلا عليهم بل يرى أنهم أهل سلامة ويقول لنفسه أنت أهل المضايقة لأنك تحاسبين الكل والله يتجاوز للجاهل مما لا يتجاوز للعالم[707].

المطلب الثالث: آداب صحبة الأغنياء:

لم يتوسع الشيخ عبد القادر الجيلاني في الحديث عن آداب الأغنياء لأن احتكاك الصوفي بهم نادرا ومع هذا فقد خصهم ببعض الآداب منها:

«أن يتعزز عليهم ولا يظهر الذلة لهم باعتبار فقره وغناهم، وألا يتطلع أو يطمع فيما أيديهم وألا ينظر إليهم نظرة استكبار واستعلاء بل يعتقد أنهم خير منه حتى يسلم من داء الكبر»[708].

المطلب الرابع: آداب صحبة الفقراء:

أطال الشيخ عبد القادر الجيلاني في الحديث عن آداب الفقراء باعتبار أنهم يشكلون الأكثرية في معظم المجتمعات وباعتبار كثرة احتكاك المتصوف بهم. ولذا ركز على هذه الطبقة وتوسع في الحديث على النحو التالي:

1. «المبادرة إلى الإحسان إلى الفقير دون أن تنتظر حتى يسألك وإن اتفق أن استقرض منك شيئا فعليك أن تقرضه ثم تسامحه وتبرؤه في قرارة نفسك ثم تخيره بعد فترة.»
2. «مراعاة نفسيته بتعجيل تحقيق رغبته دون تنغيص بإطالة الانتظار لأن المماطلة والتسويف والتلويح بالمواعيد في المستقبل لها تأثيرها البالغ في نفسية الفقير وجرح مشاعره.»
3. «الصبر عليه وعدم الانزعاج من تصرفاته فهي تصرفات ناشئة عن ضيق صدره وعن ظرفه الذي يعيشه من قلة ذات يده.»
4. «التلطف عند سماع شكواه ومقابلته بوجه طلق وبكلام طيب جميل وبعطاء وافر جزيل. وإن تعذر الإعطاء في الحال فبوعد صادق فيما بعد لأن التعامل بهذا الأسلوب يخفف عن الفقير وطأة الحاجة أما التعامل السيئ فلربما أدى به إلى التسخط والاعتراض على الرب عز وجل فيما قسم وتكون أنت السبب في ثوران نفسه وإعانة الشيطان عليه»[709].

---

[707] – عبد القادر الجيلاني :الغنية،المصدر السابق،ج2، ص169.

[708] – المصدر نفسه،الصفحة نفسها.

[709] – المصدر نفسه،ج2، ص 172.

المطلب الخامس: الآداب الواجبة على الفقير نفسه:

لم يكتف الشيخ عبد القادر الجيلاني بذكر آداب التعامل مع الفقير؛ بل أشار إلى الآداب التي ينبغي للفقير أن يراعيها ومنها:

1. العفة وعدم الطمع والصبر على الفقر والاعتقاد بأنه خير له إذ هو تقدير الله واختياره.
2. الرضا بما هو فيه من حال فهذا هو الغنى الحقيقي مع الأخذ بالأسباب في جلب الرزق الحلال بالعمل المباح.
3. ألا يشكو حاله لأحد إلا لله عز وجل لأن في ذلك اعتراضا على قضاء الله وقدره.
4. أن يتجنب السؤال إذا وجد الكفاية وإذا سأل فيكون لقصد الكفاية، ولا يسأل لنفسه بل لعياله، ويكون سؤاله بالإشارة.
5. أن ينظر إلى الخلق على أنهم أمناء على ما أعطاهم الله فإن أعطوه فإنما أعطوه بأمر الله فيشكر وإن منعوه فبأمر الله يصبر[710].

المطلب السادس:آداب المعاشرات:

تعتمد تلك الآداب على العديد من الخصال التي ينبغي أن يتحلى بها الإنسان حتى يكون حسن المعاشرة كريم الأخلاق محبوبا عند إخوانه مرضيا عنه عند خالقه عز وجل وهي:

1. انبساط الوجه معهم، وعدم المخالفة لهم، وألا يبطن بهم غشا، بل يستر عيوبهم ويعود مريضهم ويعفو عمن ظلمه منهم وأن يؤثرهم على نفسه في جميع الأحوال، وأن يعاشر من دونه بالشفقة، ومن فوقه بالاحترام والإجلال، ومن هو مثله بالإفضال والإحسان،
2. أم يسارع في خدمتهم وأن يمنعهم من خدمته وأن يزور المريض منهم وإذا احتاج إلى دواء قدمه إليه.
3. إذا مارس عبادته أو أذكاره فعليه ألا يزعجهم بل يخفض صوته ويخفي عمله عنهم وإذا صاموا أو أفطروا وافقهم في ذلك.
4. أن يراعي آداب الأكل فيذكر اسم الله ويأكل بيمينه ويأكل مما يليه ولا يأكل بشراهة ولا يرفع يده وغيره يأكل حتى لا يحرجه ولا يقول لصاحب الطعام كل معنا، ولا ينتقل من مكانه على الطعام لغيره ولا يرفع شيئا ويضعه أمام غيره.
5. في حالة ألسفر ينبغي أن يتحلى بكريم الصفات، وأن يتزود بالتقوى وإصلاح حال من يعول، وحفظ الحقوق التي عليه أو في ذمته، وأن يلازم الأوراد والعبادات التي قد ألزم نفسه بها[711].

---

[710] – عبد القادر للجيلاني:الغنية ، المصدر السابق،ج2، ص172.

المبحث الرابع: انتشار المدارس القادرية في ربوع الدولة

المطلب الأول: مدارس النواحي والأرياف والبوادي :

تعتبر مدرسة الشيخ عبد القادر الجيلاني في بغداد من المدارس المركزية في عاصمة الدولة العباسية في عهد نور الدين زنكي ويعتبر الشيخ عبد القادر أحد رواد المدراس الإصلاحية التي أثرت في حركة النهوض ومقاومة الغزاة، إلا أن هناك كانت مدارس متعددة ساهمت في دعم الدولة الزنكية والأيوبية ومن أهمها :

أ- المدرسة العدوية : أسس هذه المدرسة الشيخ عدى بن مسافر الذي أدرجه ابن تيمية في قائمة «كبار الشيوخ المتأخرين» وأضاف أنه كان رجلاً صالحاً وله أتباع صالحون [712] ، ونشأ عدي في قرية يقال لها "بيت فار" في منطقة البقاع غربي دمشق، تتلمذ على الشيخ عقيل المنيحي ثم رحل إلى بغداد حيث صحب الشيخ حماد الدباس وغيره واجتمع هناك بالشيخ عبدالقادر الكيلاني وأبي الوفاء الحلواني، وأبي نجيب السهر وردي، ثم ركز على خاصة نفسه، بأنواع المجاهدات والتهذيب زمناً طويلاً، ولذلك كان الشيخ عبد القادر يثنى عليه كثيراً ويقول : لو كانت النبوة تنال بالمجاهدة لنالها الشيخ عدي بن مسافر [713] قضى الشيخ عدي زمناً في مجاهدة «خاصة نفسه» بالتزكية، ثم عاد للمجتمع واستقر في منطقة "جبال هكار" في شمال العراق بين قبائل الأكراد الهكارية، حيث بنى له مدرسة وأقبل عليه سكان تلك النواحي إقبالاً هائلاً، لما رأوه من زهده وصلاحه وإخلاصه في إرشاد الناس[714]، ويصف ابن خلكان أثر الشيخ عدي في مجتمع الأكراد الهكارية فيقول : سار ذكره في الآفاق، وتبعه خلق كثير، وجاوز حسن اعتقادهم فيه الحد [715] ويذكر الذهبي أن من الآثار التي أحدثها الشيخ عدي بين الأكراد الهكارية انتشار الأمن في تلك المنطقة وارتداع مفسدي الأكراد وتوبتهم حتى صار لا يخاف أحد في تلك المنطقة الجبلية التي لم تكن آمنة قبل ذلك، وأنه انتفع به خلق كثير وانتشر ذكره. لقد وصف الحافظ عبد القادر الرهاوي شخصية الشيخ عدي ومكانته فقال : ساح سنين كثيرة وصحب المشايخ، وجاهد أنواعاً من المجاهدات ثم سكن بعض جبال الموصل في موضع ليس به أنس، ثم أنس الله تلك المواضع به وعمّرها ببركاته حتى صار لا يخاف أحد بها بعد قطع السبل، وارتدع جماعة من مفسدي الأكراد ببركاته وعمّر حتى انتفع به خلق، وانتشر ذكره، وكان معلماً للخير، ناصحاً متشرعاً، شديداً في الله، لا تأخذه في الله لومة لائم عاش قريباً من ثمنين سنة، مابلغنا أنه باع شيئاً ولا اشترى ولا تلبس بشيء من أمر الدنيا، كانت له غليلة يزرعها بالقدوم من الجبل ويحصدها ويتقوت، وكان يزرع القطن ويكتسي منه، ولايأكل من مال أحد شيئاً، وكانت له أوقات لا يُرى فيها محافظة على أوراده وقد طفت معه أياماً في سواد الموصل، فكان يصلي معنا العشاء ثم لا نراه إلى الصبح. ورأيته إذ أقبل إلى

---

[711]- عبد القادر للجيلاني:الغنية ، المصدر السابق،ج2، ص172.

[712]- ابن تيمية:الفتاوى، كتاب التصوف،المرجع السابق، ج11، ص103.

[713]- يوسف ابن تغري بردي:النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة،وزارة الثقافة،مصر، 1383هـ- 1963م ،ج5، ص362.

[714]- ابن خلكان: وفيات الأعيان ج3، ص254. وانظر د.ماجد عرسان :المرجع السابق، ص 225.

[715]- المرجع نفسه،ص226.

قرية يتلقاه أهلها من قبل أن يسمعوا كلامه تائبين رجالهم ونساؤهم إلا من شاء الله منهم، ولقد أتينا معه على دير رهبان فتلقانا منهم راهبان، فكشفا رأسيهما وقبّلا رجليه

وقالاً : أدع لنا فما نحن إلا في بركاتك وأخرجاً طبقاً فيه خبز وعسل فأكل الجماعة وخرجت إلى زيارة الشيخ أول مرة، فأخذ يجادلنا ويسأل الجماعة ويؤانسهم.. وكان يواصل الصوم الأيام الكثيرة على ما اشتهر عنه، حتى أن بعض الناس كان يعتقد أنه لا يأكل شيئاً قط، فلما بلغه ذلك أخذ شيئاً وأكله بحضرة الناس واشتهر عنه الرياضات والسير والكرامات والانتفاع به ما لو كان في القديم لكان أحدوثة. ورأيته قد جاء إلى الموصل فخرج إليه السلطان وأصحاب الولايات والمشايخ والعوام حتى آذوه مما يقبّلون يده، فأجلس في موضع بينه وبين الناس شباك بحيث لا يصل إليه أحد إلا رؤية، فكانوا يسلمون عليه وينصرفون ثم رجع إلى زاويته [716]. قال عنه الذهبي : الشيخ الإمام الصالح القدوة، زاهد وقته [717] .وقد ظهرت الآثار العلمية والعملية لمدرسة عدي بن مسافر في الدور الكبير الذي لعبه أكراد جبل هكار – فيما بعد – في جيش صلاح الدين حيث شكّلوا أهم فرقة، واحتل عدد منهم منزلة الأمراء والقادة الذين حقّقوا الانتصارات وأنجزوا الفتوح [718] . توفي الشيخ عدي بن مسافر في بلدة الهكارية ودفن بها عام 557هـ [719].

ب– مدرسة عثمان بن مرزوق القرشي : أسس هذه المدرسة الشيخ عثمان في "مصر" وكان يعُتبر من أعيان المشايخ الذين جمعوا بين الشريعة والزهد. كان حنبلي المذهب، وكانت له علاقات مع الشيخ عبد القادر الكيلاني. لقد لعب – فيما بعد – دوراً هاماً في تمهيد الأجواء لحملات نور الدين على مصر. استمر الشيخ عثمان في عمله بالقاهرة حتى وفاته عام 564هـ عن عمر يناهز السبعين ودفن بجانب قبر الإمام الشافعي [720].

ج– مدرسة أبو مدين المغربي : اشتهرت هذه المدرسة في "المغرب" وعرفت باسم الشيخ أبي مدين شعيب بن حسين الأندلسي الذي نشأ في منطقة أشبيلية في الأندلس ودرس فيها على مذهب الإمام مالك بن أنس، ثم سلك طريق الزهد وجال في المغرب واستوطن مدة في مدينة (بجاية) إلى أن استقر به الطواف في مدين "تلمسان " وبدأ في الإرشاد والتدريس حيث تخرج على يديه الكثير من شيوخ المغرب وزهادها [721] ، ويصف الذهبي الشيخ أبا مدين بأنه كان من أهل العمل والاجتهاد والانقطاع للعبادة والنسك والتربية [722]. كذلك اعتبره ابن تيمية من

---

[716]– الذهبي:سير أعلام النبلاء ،المرجع السابق،ج20،، ص 342،343.

[717]– الذهبي:سير أعلام النبلاء ،المرجع السابق،ج20، ص342.

[718]– د.ماجد عرسان:المرجع نفسه، ص 256.

[719]– التادفي:قلائد الجواهر،المرجع السابق، ص 85 – 90.

[720]– المرجع نفسه، ص 113 – 114.

[721]– المرجع نفسه، ص 108 ، 109 د.ماجد عرسان :المرجع نفسه ص 237.

[722]– الذهبي:سير أعلام النبلاء ،المرجع السابق،(219/21، 220).

كبار الشيوخ المتآخرين الذين كانوا على طريقة صالحة ومنهج مستقيم [723] . واستمر أبو مدين مواظفاً على التدريس والعبادة حتى وافاه الأجل حوالي عام 590هـ وكان آخر كلامه : الله الحي، ثم فاضت نفسه [724].

ح– مدرسة أبو السعود الحَريمي : درس في المدرسة القادرية وتربّى على الشيخ عبد القادر وصار المشار إليه بعده وصار له القبول التام عند الخاص والعام، وأسس مدرسة خاصة به ونجح نجاحاً قويا بين جماهير الفقراء وفتح لهم بابه [725].

خ– مدرسة ابن مكارم النعال : تنُسب هذه المدرسة إلى محمود بن عثمان بن مكارم النعال البغدادي الذي كان يُشرف على رباط الوافدين من خارج بغداد والعراق إلى المدرسة القادرية ثم استقل بعد وفاة عبد القادر وصار يخرج بأصحابه لينكروا المنكر ويريقوا الخمور ويتعرضوا للأذى في سبيل ذلك [726].

د– مدرسة عمر البزاز : تنسب هذه المدرسة إلى عمر بن مسعود البزاز الذي وصُف بأنه من أعيان أصحاب عبد القادر. شاع ذكره وأقبل عليه الأتباع، وتاب على يده خلق كثير من مماليك الخليفة، ويذكر ابن النجار أنه كان يحضر مجالسه [727] .

ذ– مدرسة الجبائي : أسسها عبد الله الجبائي الذي كان في الأصل مسيحياً من قرية "جبة" في جبل لبنان سُبي وهو فتى ثم نُقل إلى دمشق حيث أسلم هناك، فاشتراه على بن إبراهيم بن نجا أحد أصحاب عبد القادر، فأعتقه ثم أرسله إلى بغداد عام 540هـ/1145م حيث لازم الشيخ عبد القادر وصحب ابن قدامة في الدراسة، وتدل أخباره أن الشيخ عبد القادر كان يرعاه ويوده. نال الجبائي منزلة عالية في بغداد وظل يعمل مع الشيخ حتى وفاته، فرحل إلى أصبهان حيث درس وأفتى حتى وفاته عام 605هـ/1208م عن أربع وثمانين سنة [728] .

ر– مدرسة الشيخ ماجد الكردي : أسس هذه المدرسة ماجد الكردي في منطقة "قوسان" في العراق وكان قد اشتهر أمره في تلك المنطقة وقصده المريدون والأتباع من مختلف أرجائها. وكان على علاقة وطيدة بالشيخ عبد القادر الذي كان يجله ويثني عليه ولقد استمر في عمله حتى وفاته عام 562[729] هـ.

ز– مدرسة حياة بن قيس الحراني : الشيخ القدوة الزاهد العابد، شيخ حرّان، وزاهدها، حياة بن قيس ابن رَجَّال بن سلطان الأنصاري الحراني، صاحب أحوال وكرامات وتألهٌ وإخلاص وتعفف وإنقباض، كانت الملوك يزورونه، ويتبرّكون، بلقائه وكان كلمة وفاق بين أهل بلدة وقيل : إن السلطان نور الدين زاره، فقَّوى عزمه على جهاد الفرنج ودعا له وإن السلطان صلاح الدين زاره وطلب منه الدعاء [730]. وقد تخرج على يد الشيخ حياة الجم

---

[723]– ابن تيمية:الفتاوى ، كتاب التصوف، ج11،ص604.

[724]– الذهبي:سير أعلام النبلاء، ج21،ص220.

[725]– د.ماجد عرسان،المرجع السابق، ص 237.

[726]– المرجع نفسه، ص 237.

[727]– د يوسف زيدان:المرجع السابق، ص 194 - 212.

[728]– ابن رجب:ذيل طبقات الحنابلة ،المرجع السابق،ج2، ص45-47.

[729]– التادفي:المرجع، ص 107.

[716] – الذهبي:سير أعلام النبلاء، ج21،ص181،ص182.

الغفير من الأتباع والمشايخ الذين استأنفوا منهجه في الدعوة والإصلاح، وانتمى إليه أعداد عظيمة من الناس وأشار إليه العلماء بالاحترام والتقدير. وكان أهل حران وما حوله يجلّونه ويقصدونه بالزيارة وطلب الدعاء للاستسقاء. لقد استمر في عمله حتى وفاته في حران نفسها عام 581هـ [731] .

وقد ذكر الدكتور ماجد عرسان الكيلاني مدارس أخرى كالمدرسة كمدرسة الشيخ رسلان الجعبري، ومدرسة عقيل المنيحي، ومدرسة الشيخ علي بن الهيتي، ومدرسة الحسن بن مسلم، ومدرسة الجوسقي، ومدرسة الشيخ عبد الرحمن الطفسونجي، ومدرسة مولى الزولي، ومدرسة محمد بن عبد البصري، ومدرسة القيلوي، ومدرسة علي بن وهب الربيعي، ومدرسة الشيخ بقا بن بطو [732] ومما يكمل الصورة للمدارس التي تناولها البحث في مدارس النواحي والأرياف والبوادي أن نقول إنها كانت تطبق منهاجاً موحداً في التربية والتدريس يتطابق إلى حد كبير إلى التعاليم والمبادئ التي دعا لهما الغزالي والجيلاني، وأنها كانت امتدادات أصغر في الأرياف والجبال والبوادي بحيث يمكن القول أنها بلغت المئات، لأن الأمر لم يتطلب أكثر من استقرار أحد الخريجين في مسجد من مساجد الريف مثلاً، أو الإقامة في رباط أو زاوية وتكريس الوقت للتدريس وسلوك الزهد [733].

المطلب الثاني: التعاون بين مدارس الإصلاح والدولة

تدل الأخبار المتعلقة بالمدارس الإصلاحية وخصوصاً مدرسة الشيخ عبد القادر أنها لعبت دوراً رئيسياً في إعداد جيل المواجهة للخطر الصليبي في البلاد الشامية [734]. وتدل الإشارات والشواهد التاريخية على أن الطلاب الشاميين كانوا يشكلون مجموعة كبيرة بين الطلاب الذين يفدون من خارج العراق للدراسة في مدرسة عبد القادر، كذلك كانت الشام منطقة جذب لرجالات الدين والمتحمسين لنصرة الإسلام وجهاد الأعداء، وتبدوا مظاهر التعاون بين مدارس الإصلاح والدولة الزنكية في الآتي :

أ- الإسهام في إعداد أبناء النازحين من مناطق الاحتلال الصليبي: قامت المدرسة القادرية بدور هام في إعداد أبناء النازحين من مناطق الاحتلال الصليبي، فكانت تستقدمهم وتوفر لهم الإقامة والتعليم، ثم تعيدهم إلى مناطق الثغور والمرابطة. ولقد كان هؤلاء الطلاب يعرفون " باسم المقادسة " نسبة إلى مدينة القدس أو بيت المقدس. وكان من بين هؤلاء الطلاب بعضهم الذي اشتهر فيما بعد من ميدان الفقه والسياسة، ويمكن القول أن إرسال هذه البعوث الطلابية إلى بغداد كان سببه أمران : الأول : حاجة الدولة الزنكية إلى نمط معين من القيادات والموظفين والإداريين : والثاني : ما اشتهرت به مدرسة عبد القادر آنذاك من تجسيد لسياسات الإصلاح، ولابد أن إقرار إرسال هذه البعوث نتج عن دراسة ومشورة [735] ، فقد توثقت الصلات بين الشيخ عبد القادر ونور الدين فكان

---

[731]- د.ماجد عرسان:المرجع السابق، ص 230.

[732]- المرجع نفسه، ص 224 -238.

[733]- المرجع نفسه ،ص 238.

[734]- المرجع نفسه ،ص 187.

[735]- المرجع نفسه، ،ص 275.

نور الدين يرسل أبناء المقادسة النازحين من القدس إلى بغداد ليدرسوا في مدرسة الشيخ عبد القادر، ثم يعودوا إلى مناطق الثغور قادة ودعاة ومرشدين، كما كان نور الدين يستقدم مشاهير العلماء الذين تخرجوا من المدرسة القادرية [736]، وكانت المدرسة القادرية، والقيادة الزنكية تعد أبناء النازحين لقيادة حركة الجهاد بدل أن تأتي عليهم حياة التشرد والضياع، أو أن يجدوا طريقهم إلى المدارس العادية التي كانت تُعد الطلاب للوظائف والمصالح الشخصية ويذكر سبط ابن الجوزي في كتابه " مرآة الزمان " أن والد موفق الدين بن قدامه حين نزح من بلاده إلى دمشق كان يقوم بنشاط دائب لحشد الطاقات في مواجهة الاحتلال الصليبي، وأن داره في دمشق كانت ملتقى القيادات الفكرية والسياسية، وأن نور الدين زنكي نفسه كان يداوم على حضور هذه اللقاءات [737].

ب– هجرة العلماء والعمل في المدارس النورية : تداعى العلماء وخريجو المدارس الإصلاحية من كل قطر للعمل في المدارس التي أنشأها نور الدين وصلاح الدين. ومن ذلك ما قام به خريجو المدرسة القادرية حيث كان على رأس المهاجرين إلى هناك موسى بن الشيخ عبد القادر الذي قدم إلى دمشق واشتغل بالتدريس حتى وفاته عام 618هـ/1221م [738] . كذلك بنى نور الدين مدرسة في حرّان وأسلمها إلى أسعد بن المنجا بن بركات المتوفى (606هـ/1209م) والذي درس على الشيخ عبد القادر ثم عاد إلى الشام، كذلك أسند نور الدين إليه التدريس في المدرسة المسمارية، وأسند إليه القضاء [739] ، ولقد استمرت ذريته تتناوب التدريس في مدرسته فيما بعد [740] ، كذلك بنى نور الدين مدرسة أخرى في حرّان أسلمها إلى حامد بن محمود (المتوفى عام 570هـ/1174م الذي لازم الشيخ عبد القادر ودرس عليه وكان نور الدين يقبل عليه وله فيه حسن ظن [741].

ج– المشاركة في الجيش والجهاد العسكري : وأبرز المدارس التي رفدت هذا الميدان هي المدرسة العدوية وفروعها، التي أسسها الشيخ عدي بن مسافر في جبال هكار، فقد شكل خريجو هذه المدارس من الأكراد الهكارية والروادية جمهرة أمراء الجيش وقادة الفتح وجنوده، ويأتي على رأس هذه الجماعات أسرة صلاح الدين الأيوبي وهي من الأكراد الروادية، وأصلهم من بلدة "دوين" من أعمال أذربيجان والروادية قبيلة كبيرة. ولقد وُلد أيوب والد صلاح الدين في البلدة المذكورة ومنها خرج والده شاذي مع ولديه نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه إلى بغداد، ومن هناك نزلوا تكريت حيث مات الوالد شاذي، وولد الحفيد صلاح الدين، ثم لم يلبث الأخوان أن رحلا والتحقا بخدمة عماد الدين زنكي [742] وأما الأكراد الهكارية فقد شكّلوا فيما بعد أمراء جيش صلاح الدين وقادته ومن أشهرهم الأمير سيف الدين المشطوب الهكاري الذي لم يكن في أمراء الدولة أحد يضاهيه في المنزلة وكانوا يسمونه

---

[736]– القحطاني:المرجع السابق، ص 275.

[737]– سبط ابن الجوزي:مرآة الزمان في تواريخ الاعيان،تح مج م محمد بركات،دار الرسالة العالمية،دمشق ، ط2013،1م،(8/314،313).

[738]– ابن عماد:شذرات الذهب (5/199) . د.ماجد عرسان:المرجع السابق، ص 276.

[739]– الذهبي:العبر في خبر من غبر،المرجع السابق،(5/17) د.ماجد عرسان :المرجع السابق،ص 277.

[740]– عبد القادر الدمشقي:الدارس في أخبار المدارس ،تح جعفر الحسيني،دار الشرق، دمشق،ط1، 1397هج2،ص115.

[741]– د.ماجد عرسان :المرجع السابق،ص 277.

[742]– ابن خلكان:وفيات الأعيان وانباء ابناء الزمان،تح احسان عباس،دار صادر، بيروت، ط1972،1م (7/139 – 143).

الأمير الكبير توفي في القدس عام 588هـ وقد وصف القاضي الفاضل موته بأنه : تهدم به بنيان قوم والدهر قاض ما عليه لوم [743]، ويأتي تفصيل ذلك عند حديثنا عن الدولة الأيوبية بإذن الله تعالى.

س- المشاركة في ميادين السياسة : اشتغل نفُر من تلاميذ المدرسة القادرية مع نور الدين ثم صلاح الدين في السياسية ولعب بعضهم أدواراً في غاية الخطورة، ومن الأمثلة على ذلك أسعد بن المنجا بن بركات فقد أشار ابن رجب بالإضافة إلى عمله في التدريس والقضاء أنه كان له اتصال بالملوك وخدمة السلاطين [744] وكذلك علي بن برداون بن زيد الكندي الذي حظي عند السلطان نور الدين [745]، ويشابههما حامد بن محمود الحراني الذي صحب عبد القادر ودرس عليه، وعندما انتهى من الدراسة ذهب إلى دمشق حيث اتصل بنور الدين فولاّه التدريس والقضاء والمظالم في حران ويذكر ابن رجب أنه « رحل إلى بغداد ونزل بمدرسة الشيخ عبد القادر وجاء إلى دمشق في حوائج إلى نور الدين [746]، وكذلك زين الدين علي بن إبراهيم بن نجا الواعظ الأنصاري الدمشقي الذي وصف لقاء بالشيخ عبد القادر فقال : فاشتغلت عليه بالعلم، ففتح الله عز وجل علي في سنة بما لم يفتح على غيري في عشرين سنة وتكلمت ببغداد [747] ولقد قدر لابن نجا هذا أن يكون من رجال صلاح الدين ومستشاريه وقد أرسله الشيخ عبد القادر الجيلاني للشيخ عثمان بن مرزوق القرشي قائد المعارضة السنية بمصر وشيخ المدرسة الإصلاحية في مصر وقد قام ابن نجا بدور خطير وهام في زحف جيش نور الدين إلى مصر انتهى بفتحها وتوحيدها مع الشام، فلو تتبعنا مسيرة ابن نجا هذا بعد أن استأذن عبد القادر بالرحيل إلى مصر لوجدناه يتوجه إلى دمشق، ويستقر بها مدة ليست قصيرة حيث اشتغل بالوعظ والتدريس، ثم وفد إلى بغداد عام 564هـ/1168م رسولاً لنور الدين حيث خلع عليه الخليفة وبعد ذلك مباشرة يدخل مصر ويتصل بالخلافة الفاطمية وينال الحظوة عند حكّام الدولة الفاطمية [748] ويذكر ابن رجب أن ابن نجا الواعظ زار الشيخ عثمان بن مرزوق القرشي المتحمس لعبد القادر وساله عن إمكانية قدوم أسد الدين شيركوه إلى مصر. فكان جواب الشيخ هو المشورة بالانتظار مدة وكل محاولة سريعة لابد وأن تفشل » فجري الأمر كما ذكر [749] وكان الشيخ عثمان يرأى أن يسبق غزو شيركوه لمصر مزيد من تهيئة الأجواء العامة لاستقباله بما يشيعه زعماء التصوف السني والوعاظ عن الخير الذي سيصحب قدومه، وأما عن خطوة بن نجا في بلاط الفاطميين، فكانت من ضمن الخطة التي استهدفت اختراق البلاط الفاطمي لمعرفة مواطن الضعف والقوة عندهم، ودعم التعبئة والفكرية، التي كان يقودها أمثال الشيخ عثمان بن مرزوق، لأن ابن نجا قد قام بنفس الدور الاستطلاعي في مناسبة تالية [750] ، وتبدو أهمية

---

[743]- د ماجد عرسان :المرجع السابق، ص 279.

[744]- ابن رجب: المرجع السابق، طبقات الحنابلة (49/2) د ماجد عرسان:المرجع السابق، ص 279.

[745]- د ماجد عرسان :المرجع السابق ،ص 280.

[746]- المرجع نفسه ص 280.

[747]- التادفي: المرجع السابق، ص 33.

[748]- سبط ابن الجوزي :مرآة الزمان،المرجع السابق، (515/8) د ماجد عرسان:المرجع السابق ، ص 281.

[749]- ابن رجب: طبقات الحنابلة ،المرجع السابق،(308/1) د.ماجد عرسان: هكذا ظهر جيل صلاح الدين،المرجع السابق، ص 281.

[750]المرجع نفسه، ص 282.

الدور الذي لعبه زين الدين بن نجا في كشفه لمؤامرة الفاطميين ضد صلاح الدين عام 569هـ/1173 استفاد عبد القادر الجيلاني من جهود وتراث الفقهاء الذين سبقوه، وحول تلك التعاليم الى مناهج مبسطة يفهمها العامة وطلّاب العلم والعلماء، فقد وضع الشيخ عبد القادر منهجا متكاملا يهدف الى إعداد الطلبة والمريدين علميا وروحيا واجتماعيا، ويؤهلهم لحمل رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد توافر لهذا المنهاج فرص التطبيق العملي في الرباط المعروف باسم الشيخ عبد القادر حيث كانت التطبيقات التربوية والدروس والممارسات العلمية ويقيم الطلبة المريدون.

يبين الشيخ عبد القادر عقيدته بوضوح وكان كثيرا ما يردد في مجالس وعظه وحلقات دروسه عبارة: اعتقادنا اعتقاد السلف الصالح والصحابة، وكان يعرض العقيدة بأسلوب بليغ سهل العبارة.

تنتسب الطريقة القادرية الى الشيخ عبد القادر الجيلاني الذي يعتبر المؤسس الأول لها خصوصا بشكلها الجماعي المنظم القائم على جميع المريدين وربطهم بمشايخ الطريقة لتأديبهم وتربيتهم حيث كان التصوف في السابق يقوم على أساس فردي لا أثر المجتمع فيه، ولم يظهر في شكل منظم تحت طريقة واحدة إلا في عهد الشيخ عبد القادر الجيلاني والمتتبع لظهور الطرق الأخرى يرى أنها جمعها إنما ظهرت بعد الشيخ عبد القادر الجيلاني.

أكد الشيخ عبد القادر في وصاياه وتوجيهاته، على أهمية التمسك بالكتاب والسنة، والتركيز على الاهتمام بالجوانب العملية والابتعاد عن الأفكار والفلسفات السائدة في عصره، وتأكيده على وجوب تعظيم أوامر الله سبحانه وامتثالها.

اعتمد الشيخ عبد القادر في حركته الإصلاحية التعليم المنظم والتربية الروحية المنظمة، واهتم بإعداد الديني، والثقافي، والروحي، والاجتماعي، وركز على الوعظ وانتقد علماء السوء، والحكام الظلمة، وانتقد في وعظه ومجالسه الأخلاق الاجتماعية السلبية، ودعا الى إنصاف الفقراء والعامة، وتصدى للتطرف الشيعي الرافضي وللتيارات الفكرية المنحرفة، وبذل جهداً في إصلاح التصوف وإعادته الى مفهوم الزهد وتنقيته مما طرأ عليه، وقام بحركة واسعة للتنسيق بين الطرق الصوفية بهدف توحيد الجهود وتنظيم التعاون، ونجح الى حد كبير. عقد أول الاجتماعات التي استهدفت توحيد القيادة في رباط المدرسة القادرية الكائن في منطقة الحلة في بغداد حيث حضر الاجتماع ما يزيد على الخمسين من شيوخ العراق وخارجه، وكان الاجتماع الثاني في موسم الحج حي حضره شيوخ الطرق الصوفية من مختلف أرجاء العالم الإسلامي.[751]

[751] ابن رجب: طبقات الحنابلة ،المرجع السابق،(309/1) د.ماجد عرسان: هكذا ظهر جيل صلاح الدين،المرجع السابق، ص 283.

و حضر هذا اللقاء الشيخ عبد القادر من العراق، والشيخ عثمان بن مرزوق القرشي الذي شاعت شهرته انتهت إليه المشيخة في مصر، والشيخ أبو مدين المغربي الذي يعود إليه نشر الزهد في المغرب في ذلك العصر، كذلك حضر الاجتماع شيوخ من اليمن حيث أرسل معهم الشيخ عبد القادر رسولا ينظم أمورهم. وفي نفس الوقت جرت اتصالات بين الشيخ عبد القادر والشيخ ارسلان الدمشقي الذي انتهت إليه تربية المريدين ورئاسة المشايخ في الشام، ثم تلا ذلك اجتماع موسع حضره جمع كبير من الشيوخ يمثلون مدارس الإصلاح في مختلف أقطار العالم الإسلامي، واستطاع الشيخ عبد القادر الجيلاني أن ينقل التصوف السني الى حركة منظمة في العراق وعلى مستوى العالم الإسلامي، ولقد ترتب على هذه اللقاءات المستمرة للمشايخ والعلماء آثار مهمة في نهضة الأمة وتوسيع جبهة المقاومة ضد الصليبيين.

تدل الأخبار المتعلقة بالمدارس الإصلاحية وخصوصا مدرسة الشيخ عبد القادر أنها لعبت دورا رئيسيا في إعداد جيل المواجهة للخطر الصليبي في البلاد الشامية، وتدل الشواهد التاريخية على أن الطلاب الشاميين كانوا يشكلون مجموعة كبيرة بين الطلاب الذين يفدون من خارج العراق للدراسة في مدرسة عبد القادر، وقد قامت المدرسة القادرية بدور مهم في إعداد أبناء النازحين من مناطق الاحتلال الصليبي، فكانت تستقدمهم وتوفر لهم الإقامة والتعليم، ثم تعيدهم الى مناطق الثغور والمرابطة، ولقد كان هؤلاء الطلاب يعرفون باسم المقادسة، نسبة الى مدينة القدس أو بيت المقدس، ويمكن القول إن إرسال هذه البعوث الطلابية الى بغداد كان سببه أمرين: الأول: حاجة الدولة الزنكية الى نمط معين من القيادات والموظفين والإداريين. والثاني: ما اشتهرت به مدرسة عبد القادر آنذاك من تجسيد لسياسات الإصلاح، ولابد أن إقرار إرسال هذه البعوث نتج عن دراسة ومشورة، فقد توثقت الصلات بين الشيخ عبد القادر و نور الدين، فكان نور الدين يرسل أبناء المقادسة النازحين من القدس الى بغداد ليدرسوا في مدرسة الشيخ عبد القادر ثم يعودوا الى مناطق الثغور قادة ودعاة ومرشدين، كما كان نور الدين يستقدم مشاهير العلماء الذين تخرجوا من المدرسة القادرية، وهاجر بعض العلماء الذين تخرجوا من المدرسة القادرية الى دولة نور الدين زنكي وشاركوا في الجهاد العسكري، وميادين السياسة، ومن أشهر هؤلاء زين الدين علي بن إبراهيم بن نجا الواعظ الأنصاري الدمشقي الذي أصبح فيما بعد من رجال صلاح الدين وكبار مستشاريه.
م وسيأتي الحديث عنها بإذن الله عن بيان فقه نور الدين زنكي في إسقاط الدولة الفاطمية. [752]

[752] ابن رجب: طبقات الحنابلة ،المرجع السابق،(311/1) د.ماجد عرسان: هكذا ظهر جيل صلاح الدين،المرجع السابق، ص 285.

الفصل الخامس:الحب الإلهي و مشاهدة الوجود عند عبد القادر الجيلاني.

المبحث الأول:تاريخانية وجيزة لمفهوم كلمة الوجود.

-المطلب الاول: ضبط مفهوم كلمة الوجود:

أ- مفهوم كلمة الوجود لغة:

ب- مفهوم كلمة الوجود اصطلاحا:

-المطلب الثاني :مفهوم الوجود في تاريخ الفلسفة.

أ- في الفلسفة اليونانية.

1-مفهوم الوجود عند هيراقليطس.

2-مفهوم الوجود عند بارمنيدس.

3-مفهوم الوجود عند افلاطون.

4-مفهوم وجود عند ارسطو. :

ب- في الفلسفة الاسلامية.

ج- في الفلسفة المسيحية.

د- في الفلسفة الغربية.

1-مفهوم الوجود عند ديكارت.

2-مفهوم الوجود عند ليبنتز.

3- مفهوم الوجود عند كانط.

المبحث الثاني:التجرد الباطني بالزهد لمكاشفة الوجود.

المبحث الثالث:الذكر كفاعلية لشهود الوجود.

المبحث الرابع:المحبة عند الصوفية.

المطلب الأول: لمحة تاريخية عن ظهور المحبة عند الصوفية.

المطلب الثاني: مفهوم المحبة عند الصوفية.

المطلب الثالث: علاقة الشوق بالمحبة عند الصوفية.

المطلب الرابع :الحب كمبدأ للوجود عند الصوفية.

المبحث الخامس: الفناء بالحب الالهي لمشاهدة الوجود عند الجيلاني.

المبحث السادس:وحدة شهود لا وحدة وجودعند الجيلاني.

تعقيب:تبرئة علماء الامة للصوفية من تهمة الحلول والاتحاد و وحدة الوجود.

الفصل الخامس: الحب الإلهي و مشاهدة الوجود عند عبد القادر الجيلاني

الوجود هو ذلك الملاذ الرحب الفسيح الذي يلوذ به المرء حين يبلغ به السأم أو الفرح أقصى درجاته، فيصرخ قائلا: «إنه لم ير مثل هذا في الوجود»؛ فالوجود إذا — ومن خلال هذا الموقف المعاش- هو ما فيه يوجد كل موجود بما هو موجود. إنه ساحة التجلي والظهور التي نلتقي فيها بكل ما يتجلى ويظهر بوصفه شيئا أو موضوعا أو موجودا ما.

وبناءا على هذا فالوجود يحوي ولا يحوى، وفيه يتعين كل متعين. لكنه هو ذاته لا يتعين ولا يوجد أبدا. إنه دائما ينعم بالغياب، ويعشق التحجب والخفاء. ومن حيث هو كذلك يصعب وصفه، بل ويصعب التفكير فيه؛ لأن التفكير والوصف دائما يتعلقان بما هو متعين، أي بما يمكن أن يدرك ويحس ويلمس ويتذوق. والوجود بسيط يخلو من كل هذا، ومع ذلك تظل هذه البساطة- وهي سر تفرده- سبب صعوبة التفكير فيه.

ومع أن الوجود هو الأقرب للموجود من كل موجود؛ فإنه يظل بالنسبة لنا أبعد من كل بعيد، لا لشيء إلا لأننا دائما لا ننتبه إلى ما يزعجنا بالإعلان عن نفسه. إننا لا ننتبه أبدا إلى البساطة المطلقة والخفاء المطلق والتحجب الذي لا يتبدى إلا من خلال ما يظهر بوصفه موجودا. إنه دائما ينكر ذاته ليكونها وليحقق وجود كل موجود، أي يظهره في نوره؛ بما أن الوجود هو النور الذي يتيح لنا أن نرى الموجود؛ ففي رحابة نرى كل ما يجابهنا سواء ألتفتنا إليه أم لم نلتفت.

فما معنى كلمة الوجود كمصطلح لغوي وفلسفي بشكل عام؟ وبشكل خاص عند ابرز اهم المراحل من تاريخ الفكر الفلسفي واعلامه؟

المبحث الاول: تاريخانية وجيزة لمفهوم كلمة الوجود.

1-المطلب الاول: ضبط مفهوم كلمة الوجود:

أ- مفهوم كلمة الوجود لغة:

الوجود لغة هو «مصدر وجد الشيء بصيغة المبني للمجهول. وهو مطاع الإيجاد كالانكسار للكسر. وهو لغة يطلق على الذات والكون في الأعيان»[753].

وكلمة الوجود «من حيث هي كلمة من كلمات اللغة تتطابق مع كلمة الذهاب والسقوط والحلم. وهذه الكليات اللغوية أسماء مثل الطائر والبيت والشيء»[754].

ومن ناحية أخرى نجد أن كلمة الوجود من حيث هي فعل تدل على الكينونة؛ كما في قولنا: الورد (يكون) في الحديقة، المدرس (يكون) في المدرسة، العالم (يكون) في مختبره. أو تستخدم كرابطة في الحكم؛ مثل قولنا: زيد (يكون) طويلا، أ (تكون) أ، الحصان يكون جميلا.

والتعريف اللغوي للفظ الوجود يعود إلى الفعل وجد فيقال: وجد مطلوبه، والشيء يجده وجودا بالضم لغة عامرية لا نظير لها في باب المثال..... والمصدر وجدا وجدة ووجدا ووجودا ووجدانا وإجدانا... ووجدتني فعلت كذا وكذا، ووجد المال وغيره يجده وجدا ووجدا ووجدة. ويقال: وجدت في المال وجدا ووجدا ووجدانا، وجده وجدة أي صرت ذات مال؛.....والواجد من وجد الضالة يجدها. وأوجده الله مطلوبه، أي أظفر به. والوجد والوجد والوجد اليسار واليعة.

ويعود إلى الفعل وجد أيضا السعة والامتلاك والإقامة؛ فنجد في التنزيل العزيز: «أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم»[755] وقد قرئ بالثلاث، أي من سعتكم وما ملكتم. وقال بعضهم: من مساكنكم. والواجد: الغني. قال الشاعر: الحمد لله الغني الواجد. وأوجده الله أي أغناه. ومن أسماء الله —عز وجل- الواجد، هو الغني الذي لا يفتقر..... وقال: الحمد لله الذي أوجدني بعد فقر أي أغناني. وأجد مني بعد ضعف أي قواني. وهذا من وجدي أي من قدرتي. وتقول: وجدت في الغنى واليسار وجدا ووجدانا. وقال أبو عبيد: الواجد الذي يجد ما يقضي به دينه. ويعود إلى الفعل وجد أيضا الإيجاد أو الخلق؛ فيقال وجد الشيء من عدم؛ فهو موجود مثل حمى فهو محموم؛ وأوجده الله ولا يقال وجده، كما لا يقال حمه. ووجد عليه في الغضبيجد ويجد وجدا وجدة وموجودة ووجدان: غضب. وفي حديث الإيمان: إنني سائلك فلا تجد علي، أي لا تغضب من سؤالي.

ووجد الرجل في الحزن وجدا بالفتح. ووجد: حزن. وقد وجدت فلانا فأنا أجد وجدا،وذلك في الحزن. وتوجدت لفلان أي حزنت له: توجد فلان أمر كذا إذا شكاه. وهم لا يتوجدون سهر ليلهم ولا يشكون ما مسهم من مشقته.

---

(753)- أبو البقاء: الكليات، موجود بالمكتبة المركزية لجامعة القاهرة تحت رقم 4328،7960، نسخة مصورة، مادة: وجود.

(754)- د. جمال سليمان، ايمانويل كانط، دار التنوير، بيروت، ط1، 2009. ص 280.

(755)- سورة الطلاق[الآية 6].

كما يعود إليه أيضا الحد والوجد؛ فيقال: وجد به وجدا في الحب أحبه. وإنه لا يجد بفلانة وجدا شديدا إذا كان يهواها ويحبها حبا شديدا. وفي الحديث؛ حديث ابن عمر وعيينة بن حصن « والله ما بطنها بوالد ولا زوجها بواجد؛ أي لا يحبها»[756].

وبناءا على هذا؛ فإن لفظ الوجود يعود إلى الفعل وجد، الذي يشتق منه معاني الإيجاد والقدرة والسعة واليسر والغنى والفقر. ويشتق منه أيضا الامتلاك والإقامة، وكذا الوجد بمعنى الحب الشديد. ومن العجيب أن يشتق من الفعل وجد أيضا الغضب والحزن؛ فالوجود إذا يشترك في الأصل مع شتى أحوال الوجود.

وإذا كان هذا هو ما يدل عليه التعريف اللغوي للفظ الوجود؛ فماذا عما اصطلح عليه حول اللفظ؟

ب- مفهوم كلمة الوجود اصطلاحا:

يعرف الفلاسفة الوجود تارة عن طريق المقابلة مع المفاهيم الأخرى، وتارة أخرى يعتبرونه أمرا بديهيا غير محتاج للتعريف، وينظرون إليه تارة ثالثة على أنه مفهوم بلا مدلول دون أن يعني ذلك أنه مفهوم فارغ؛ إذ يقولون: «الوجود مقابل للعدم. وهو بديهي فلا يحتاج إلى تعريف إلا من حيث هو مدلول للفظ دون آخر؛ فيعرف تعريفا لفظيا يفيد فهمه من ذلك اللفظ لا تصوره في نفسه. مثال ذلك تعريف الوجود بالكون أو الثبوت أو التحقق أو الحصول أو الشيئية أو بما به ينقسم الشيء إلى فاعل ومنفعل، وإلى حادث وقديم، أو ما به يصح أن يعلم الشيء ويخبر عنه؛ فهذه كلها تعريفات لفظية أخفى من الشيء المعرف. ولا معنى لتعريف الشيء بما هو أخفى منه»[757].

وإذا كان هذا التعريف لا يفرق بين تعريف الوجود بما هو وجود وتعريف الوجود بوصفه وجود الموجود؛ فإننا نجد بعض التعريفات الأخرى تقف على الماهية الحقة للوجود بما هو موجود؛ إذ تعرف الوجود بأنه: «ليس له حد وليس له رسم؛ إذ هو أبسط المعاني وأعمها فلا جنس فوقه يعرف به ولا فصل نوعي يميزه من حيث كون كل ما يعرض للوجود وجودا وأما بالرسم فيكون بما هو أبين من المرسوم، وما من معنى أوضح وأبين من معنى الوجود حتى يرسمه»[758].

وإذا كان هذا التعريف للوجود تعريفا سالبا؛ فإننا نجد بعض التعريفات الأخرى التي تحاول الاقتراب من الوجود عبر التجربة المعيشية؛ إذ يقال: «إن الوجود هو الحقيقة الواقعية أو الحقيقة التي نعيشها. وهو بهذا المعنى مقابل للحقيقة المجردة والحقيقة النظرية»[759]. غير أن جعل الوجود وقفا على الحقيقة المعاشة يجعله مساويا للتحقق الفعلي. كما أن جعله مقابلا للحقيقة المجردة يعني استبعاد الوجود الممكن.

---

[756]- ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، 1987م، مادة: وجد.

[757]- صليبا، جميل: المعجم الفلسفي، المرجع السابق، مادة: وجود.

[758]- وهبة، مراد: المعجم الفلسفي، المرجع السابق، مادة: وجود.

[759]- صليبا، جميل: المعجم الفلسفي، المرجع السابق، مادة: وجود.

وعلى النقيض من هذا نجد محرر الموسوعة الفلسفية يساوي بين الوجود واللاشيء ويعتبرهما مناقضين للموجودات يقول «الوجود اللاشيء ليسا هما الموضوعات، الوجود يتناقض بشدة مع الموجودات»[760].

ومن ناحية أخرى نجد تعريفا آخر للوجود يقدمه ابن رشد يساوي بين المحسوس والمعقول؛ إذ يقول: «ينبغي ألا يذهب عنا ما قلناه غير مرة إن الوجود لهذه الأشياء وجودان: وجود محسوس ووجود معقول، وأن الوجود المعقول هو الوجود المحسوس من حيث نعرفه ونفهم ماهيته، ولذلك نقول إن معقول الشيء هو الشيء»[761] .

والواقع أن مثل هذا التعريف- فضلا عن أنه يفهم الوجود بوصفه وجود الشيء أو الموجود- يتحدث عن مستويين للوجود؛ الوجود على مستوى الفكر وهو عقلي، ولا يكون إلا للمفاهيم؛ والوجود الواقعي أو المتعين أو الفعلي للشيء، وإن كان ابن رشد قد عاد واعتبرهما أمرا واحدا.

وإذا كان هذا التعريف يتحدث بشكل ما عن نوعين من الوجود؛ فإننا نجد بعض التعريفات الأخرى تجعل الوجود قصرا على العالم الفوقي؛ إذ يقولون: «إن الوجود... يعتقد أنه اسم موضوع أو منطقة فيما وراء أو فوق أو خلف موضوعات العالم الفيزيائي. وفي هذه الحالة فإن الموضوعات الفيزيائية أيا كانت الطريقة التي توجد بها توجد بموجب علاقتها بالوجود»[762].

ومثل هذا التعريف للوجود يعزله عن الموجود، ويجعله يقع في منطقة ما فيما وراء، في حين أن التلازم بينهما حتمي وضروري.

وعلى عكس التعريف السابق نجد تعريفا للوجود يجعله وقفا على المفهوم الكلي أو الجنس العام؛ إذ يقول: «الوجود هو اسم للجنس الذي ينتمي إليه كل شيء يوجد، وينتمي بموجبه إلى امتلاك خاصية الوجود أو الوقوف في علاقة مع الوجود»[763] . فهل حقا يكون الوجود جنسا عاما لكل ما هو موجود؟

إن أرسطو يرفض تماما أن يكون الوجود جنسا عاما؛ إذ يقول: «ليس من الممكن أن يكون أيا من الوحدة والوجود جنسا وحيدا للأشياء؛ لأن الصفة المميزة لأي جنس يجب على كل منهما أن يكونها، وأن يكون واحدا، لكن من غير الممكن للجنس أن ينفصل عن أنواعه (أكثر مما تنفصل الأنواع عن الجنس)؛ ليكون محمولا لصفاتها المميزة الملائمة»[764].

---

[760] - د. جمال سليمان، ايمانويل كانط، دار التنوير، بيروت، ط1، 2009. ص 283.

[761] - ابن رشد: تلخيص ما بعد الطبيعة، تحقيق عثمان أمين، مكتبة مصطفى الحلبي، القاهرة، 1957م، ص65.

[762] - صليبا، جميل: المعجم الفلسفي، المرجع السابق، مادة: وجود.

[763]- المرجع نفسه.

[764]- Aristotle, Metaphysica, Op. Cit, 998.

المطلب الثاني:مفهوم الوجود في تاريخ الفلسفة.

أ- في الفلسفة اليونانية:

1- مفهوم الوجود عند هيراقليطس:

يقول هيدجر: «أعلن هيراقليطس أن الواحد هو الكل. كل تعني هنا كل موجود. والواحد تعني الواحد والوحيد والموحد للكل. لكن المتحد هو الموجود في الوجود... إن الوجود يجمع الموجود فيه»[765].

بالرغم من أن هيراقليطس تصور الوجود على أنه كل- وفقا لهذه القراءة الهيدجرية –فإن هذا الكل- والذي يمكن أن يفهم أيضا بمعنى الطبيعة- يعشق التحجب والخفاء، أو وفقا لتعبير هيراقليطس نفسه «الطبيعة تعشق التحجب والخفاء»[766]. والطبيعة بمعناها اليوناني هي ما يتبدى ويتجلى من ذاته؛ ومن ثم فهي بشكل أو بآخر لها نفس معنى الوجود.

لكن الوجود أو الواحد من ناحية أخرى يحوي بداخله صراع الأضداد، ذلك الصراع الذي يعد أساسيا وجوهريا لإبراز الواحد. لكن صراع الأضداد من شأنه أن يؤدي إلى هلاك كل شيء، وهذا هو ما يعلنه هيراقليطس فيما يروي أفلاطون حين يقول: «إن كل الأشياء تفنى ولا يبقى إلا(اللاشيء)»[767] .

لكن اللاشيء الذي يبقى ليس إلا الوجود وفقا لقراءة هيجل، أو بتعبير آخر «إن الوجود ليس إلا اللاوجود. إنه كذلك، أو أن الوجود واللاشيء هما نفس الشيء. إن الماهية هي التغير»[768]. أي أن ماهية هذا الوجود ليست إلا التغير الناتج عن صراع الأضداد؛ فصراع الأضداد هو ما يصنع الانسجام الحقيقي للوجود؛ ففي ذهاب كل ما هو موجود ومجيئه، أي في حضور الموجود وفنائه يتبدى الوجود بوصفه ساحة الصراع الذي يحوي الكل.

فهوية الوجود إذا تحقق في الاختلاف؛ لأن هيراقليطس «أثبت أنه ليس ثمة إلا الواحد وهو ما يبقى، وخلاف هذا كل شيء يتبدل ويتغير. كل شيء آخر هذا الواحد يسير؛ فلا شيء يبقى على حاله، لاشيء مستقر.... إن حقيقة الوجود هي الصيرورة»[769].

وبناء على هذا «ينظر هيراقليطس إلى صراع الأضداد لا على أنه صراع عشوائي يهدف إلى الإبادة، بل صراع يعكس في جوهره التناغم والانسجام؛ ومن ثم يصبح التناغم المتحجب خلف الظاهر أكثر جوهرية وعمقا من

---

[765]- د. جمال سليمان، المرجع السابق ، ص 284.

[766]- هيراقليطس: جدل الحب والحرب، ترجمة المجاهد عبد المنعم مجاهد، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1980م، شذوة123، ص 108.

[767]- فريدريك كوبلستون: تاريخ الفلسفة، المرجع السابق، ص77.

[768]- د. جمال سليمان، المرجع السابق ، ص 284.

[769]- المرجع نفسه ، ص 285.

التوافق الظاهري. وخلف التناغم المتحجب يتحجب الوجود الذي يأبى أن يوجد. إن الوجود لا يوجد وكذلك اللاشيء. واللاشيء لا يوجد، وكذلك الوجود. هذه حقيقة كليهما »[770].

فالوجود الخالص المحض لا يوجد أبدا ولا يتعين، وكل ما يحضر ويأتي؛ أي كل ما يظهر ويغيب ليس إلا الموجود. فهل ثمة منطق يحكم ظهور الموجود وغيابه، أي حضوره وفناءه في ضوء صراع الأضداد في ساحة الوجود؟

كلا؛ إن الوجود من وجهة نظر هيراقليطس يمارس نوعا من اللعب في عملية الظهور والاختفاء، أو الوجود والفناء للأشياء؛ يقول (الوجود): «طفل يلعب الشطرنج وتدبير الحكم قائم بين يدي ذلك الطفل»[771].

فهل حقا يكون الوجود لعبا ولهوا دون منطق دون أسس مؤسسة تحكم الحضور والغياب؟ وهل حقا تطول معاول التغيير والتبديل وكل شيء؟ ألا يبقى ما هو بمنأى عن التغير والتبدل؟ وهل حقا ما يشكل ماهية الوجود الحقة هو صيرورة التغير والتحول المعقولة؟ أم أن ثمة نوعا من الثبات؟

يبدو أن هذا ما يذهب إليه بارمنيدس.

2-مفهوم الوجود عند بارمنيدس:

إننا وإن كنا نلحظ التغير والتبدل للأشياء، بل وحتى اختفاء أشياء وظهور أشياء أخرى؛ نلمح وجودا ثابتا فيما وراء هذا التغير؛ فالحضارة الفرعونية مثلا على الرغم من أن عصرها قد انتهى وكفت عن العطاء؛ فإنها حاضرة تبوح بكنوزها وأسرارها. إن آثارها الموجودة تنبئ عن عظمتها وحضورها الذي يتضاءل معه حاضر وارثيها. كما أننا إذا نظرنا إلى مسرحية هاملت لشكسبير؛ فسوف نجد أنها لا تزال تحتفظ بحضورها كتحفة أدبية خالدة رغم مرور مئات السنين على تأليفها.

ويبدو أن الإيمان بثبات الوجود ووحدته هو ما آمن به بارمنيدس؛ ف:« ليس ثمة إلا الوجود، أما اللاوجود فلا يوجد»[772] .وإذا كان الأمر كذلك؛ ف« أي أصل لهذا الوجود تريد أن تبحث عنه؟ كيف ومن أي أصل نشأ؟ إني لن أسمح لك بالقول أو التفكير في أنه نشأ من اللاوجود؛ لأن اللاوجود لا يمكن أن يعبر عنه أو يفكر فيه. وأيضا إذا كان قد نشأ من اللاوجود؛ فما الضرورة التي جعلته ينشأ مؤخرا عن وقته أو قبل ذلك؛ فهو إما أن يكون قد وجد مرة واحدة وإما لم يوجد أصلا.ولن تسلم قوة اليقين في أنفسنا بأن يخرج شيء إلى الوجود من اللاوجود، اللهم إلا من الوجود ذاته»[773].

فالوجود بناء على هذا التصور هو أول وآخر وظاهر وباطن؛ فلا شيء يسبقه ولا شيء يأتي بعده، ولا هو حادث ولا هو قديم، إنه كل ما هنالك؛ وعلى هذا فهو كل واحد متصل لانهائي كامل.

---

[770]- د. جمال سليمان، المرجع السابق ، ص 285.

وانظر أيضا: هيراقليطس: جدل الحب والحرب، المرجع السابق، شذرة 52، ص95.

[771]-د. جمال سليمان، المرجع السابق ، ص 285.

[772]- أحمد فؤاد الأهواني: فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط1، 1954م، ص132.

[773]- فريدريك كوبلستون: تاريخ الفلسفة، المرجع السابق، ص88

وبناء على هذا المعنى-القول بأن الوجود واحد «تكون الصيرورة والتغير وهما»[774]؛ ومن ثم «ليس الوجود منقسما؛ لأنه كل متجانس، ولا يوجد هنا أو هناك أي شيء يمكن أن يمنعه من التماسك. وليس الوجود في مكان أكثر أو أقل منه في مكان آخر، بل كل شيء مملوء بالوجود؛ فهو كل متصل؛ لأن الوجود متماسك بما هو موجود. وأيضا فإنه لا يتحرك من جهة حدوده القوية الآسرة، فلا بداية ولا نهاية؛ لأن الكون والفناء (أي ما يظهر ويختفي) قد أبعدا؛ إذ أبعدهما اليقين الصادق».

وإذا كان الوجود بلا بداية ولا نهاية بمنأى عن التغير والحركة؛ فيجب أن يوصف كذلك بالدوام والثبات «إن الوجود ذاته يظل في المكان نفسه باقيا نفسه ثابتا على الدوام؛ لأن الضرورة تمسكه داخل قيود النهاية التي تحيط به ... فهو لا يحتاج إلا شيء»[775]؛ لأنه فضلا عن الدوام يتصف بالاكتفاء بذاته.

وبغض النظر عن صعوبة فهم الكيفية التي يكون بها الوجود في المكان اللهم إلا أن يكون الوجود المقصود هو وجود الوجود؛ فإن ما يتبدى من هذا الوصف الذي يجمع بين الإيجاب والسلب هو أن الوجود على هذا النحو يتداخل فيه التفكير مع الوجود «فما نفكر فيه وما من أجله يوجد التفكير شيء واحد؛ لأنك لا تجد تفكيرا في غير الوجود الذي يعبر عنه بالكلام؛ إذ لا شيء موجود، ولا سوف يكون موجودا ماعدا الوجود»[776].

وإذا كان البعض قد أعلن أن الموجود عند بارمنيدس ليس هو المفهوم العام للوجود، بل هناك تداخل بين الوجود المادي والوجود العام؛ فالواقع أن هناك البعض الآخر الذي يؤكد على أن التفكير والوجود ند بارمنيدس شيء واحد «التفكير والوجود هما نفس الشيء»[777].

ويبدو أن بارمنيدس شعر بصعوبة فهم الوجود فلجأ إلى تشبيهه بالدائرة التي تعد الشكل الهندسي الأكمل عند اليونان لتقريبه إلى الأذهان؛ فيقول: «وحيث كان له (أي الوجود) حد بعيد فهو كامل من كل الجهات مثل كتلة الكرة المستديرة متساوية الأبعاد من المركز؛ لأنها ليست أكبر أو أصغر في هذا الاتجاه أو ذاك، ولا يعوقها شيء عن بلوغ النقط المتساوية عن المركز. وليس الوجود أكثر أو أقل وجودا في مكان آخر، بل هو كل لا انفصال فيه»[778].

آمن بارمنيدس إذا بأن الوجود كل ثابت لا يتغير ولا يزيد ولا ينقص ولا يوجد أبدا. وآمن أيضا بأن السبيل الأمثل لمعرفته هو التفكير الذي يتماهى معه، كما لجا إلى المماثلة لتوضيح مفهوم الوجود. لكن يبدو أنه كما كان اعتبار التغير صاحب الكلمة العليا في الكون غير مقبول عند بارمنيدس؛ فإن القول بالثبات المطلق يبدو أيضا غير مقبول؛ فالواقع أن الكون أو الوجود يحوي الاثنين؛ فهناك ما هو متغير، وهناك ما هو ثابت. وهذا بالفعل ما قال به أفلاطون.

---

[774]- أحمد فؤاد الأهواني: فجر الفلسفة اليونانية، الرجع السابق، ص132.

[775]- نفس المرجع، نفس الصفحة.

[776]- المرجع نفسه،ص133.

[777]- إيروين شرودنجر: الطبيعة والإغريق، ترجمة عزت قرني، دار النهضة العربية، القاهرة، 1962م، ص42.

[778]- أحمد فؤاد الأهواني: فجر الفلسفة البونانية، المرجع السابق، ص132.

3- مفهوم الوجود عند أفلاطون:

يقول هيدجر: «إن أفلاطون هو الذي بدأت الميتافيزيقا مع تفكيره فهم الموجود بما هو كذلك، أي وجود الموجود بوصفه مثالا.إن المثل هو الواحد الموحد للمتعدد، الواحد الذي في نوره يظهر المتعدد ابتداء، ويكون مظهرا وأول أيضا. إن المثل بوصفها الواحد الموحد هي في نفس الوقت الدائم والحق الذي يتمايز عن المتغير والظاهري»[779].

والواقع أن أفلاطون قبل أن يصل إلى التصور النهائي للمثل قدم عرضا نقديا للتعريفات المختلفة التي قدمها الفلاسفة للوجود قبله، وانتقد وجهة النظر التي تعتبر الوجود واحدا، ويأخذ عليها أن الواحد شيء آخر غير الوحدة. وطالما أن الوجود هو الواحد فيترتب على ذلك إذا أن هناك كلا يؤلف بين الوجود والواحد؛ ومن ثم فإن هذا الكل الذي يؤلف بينهما إما أن يكون موجودا، وفي هذه الحالة يكون الوجود جزءا من الوجود، وإما أن هذا الكل غير موجود[780]؛ وبالتالي لا يكون الوجود هو الكل. أما أولئك الذين يعتبرون الوجود هو ما يمكن القبض عليه بكلتا اليدين، ويوحدون بين الوجود والموجود أو الوجود والأشياء فهم يجانبون الصواب؛ لأنهم من وجهة نظره يجعلون الوجود وقفا على التغير؛ ومن ثم يحصرونه في دائرة ضيقة.

ويخرج أفلاطون من مناقشته مفهوم الوجود بصعوبة تعريف الوجود؛ لأن التحديدات والتعينات لا تتناسب معه. وإن كان في نفس الوقت يقر بأننا يمكن أن نعرف الوجود من خلال علاقة مفهوم الوجود بالمفاهيم المماثلة له، واعتقد أن السبيل إلى تحقيق معرفة الوجود على هذا النحو يكون بواسطة الجدل.

واهتدى إلى أن الفهم الحقيقي للوجود يتمثل في الفهم الذي يجمع بين الثبات والتغير في الوجود؛ لذلك وضع المثل في العالم المعقول، وعزا إليه الثبات والوجود الحق، وجعل الأشياء في العالم المحسوس، واعتبرها صورا للمثل «والسبب في هذا التمييز أن أفلاطون قبل توحيد الوجود مع عدم التغيير... وبالتالي كان مرغما على أن ينكر أن الموضوعات الفيزيائية (توجد)، إنها منتمية إلى مرحلة متوسطة بين الوجود اللاوجود الخاص بالصيرورة»[781].

كما اعتبر أفلاطون المثل –خاصة مثال الخير– علة لما هو حق وجميل. وهو مصدر الحقيقة والعقل، وإن كان منطبيعة تسمو عليها؛ يقول: «ما يضفي الحقيقة على موضوعات المعرفة ويمنح ملكة المعرفة للعارف هو مثال الخير؛ فهو علة العلم والحقيقة. وعلى ذلك ففي حين أن في استطاعتك النظر إليه على أنه موضوع للمعرفة؛ فإنه يحسن بك أن تعده شيئا يتجاوز الحقيقة والمعرفة ويسمو عليهما»[782].

---

[779]– د. جمال سليمان، المرجع السابق ، ص 284.

[780]– برييه، إميل: تاريخ الفلسفة، ج1، المرجع السابق، ص168،169.

[781]– د. جمال سليمان، المرجع السابق ، ص 294

[782]– أفلاطون: الجمهورية، ترجمة فؤاد زكريا ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1985م، 413..

وبناء على ذلك فإن «المثل بوصفها الوجود تجعل الوجود صالحا ومرئيا وحاضرا، أي تجعله موجودا»[783]. أي أن المثل –خاصة مثال الخير– هي علة وجود الموجود، ومن ثم تتداخل الإبستمولوجيا مع الأنطولوجيا ويصبح مثال الخير «ليس مبدأ إبستمولوجي فحسب... وإنما هو أيضا بمعنى ما مبدأ أنطولوجي، مبدأ الوجود»[784].

والواقع أن أفلاطون حين جعل مثال الخير يسمو على الحقيقة والمعرفة جعله مبدأ الوجود كله. ولكي يوضح أفلاطون أنطولوجية الخير يلجأ إلى مماثلته مع الشمس التي تشغل في العالم المحسوس ما يشغله مثال الخير في العالم المعقول؛ إذ يقول: «حسنا فلنعلم أن الشمس هي ماكنت أعنيه بالابن الذي خلفه الخير، وقد خلقها في العالم المنظور لكي يكون لها فيه بالنسبة للإبصار والأشياء المنظورة منزلة خير في العالم المعقول بالنسبة إلى العقل والمعقولات»[785].

و «مثلما تعتبر الشمس أعلى في مكانتها من أي شيء محسوس مهما تبلغ أهميته، فكذلك الخير: هو أعظم في المرتبة من كل مكونات عالم الموجودات العقلية، أي المثل في ذاتها. ولما كان مبدأ الخير هو مصدر حقيقتها ووجودها؛ فإنه يعلو بالضرورة على الحقيقة والوجود نفسه... إنه الملك الذي يسيطر على عالم المعقول... وهو المبدأ الأول المطلق، وهكذا يصبح رأس كل وجود عقليا كان أم حسيا»[786]. وبناء على ذلك يصبح الموجود هو الذي يهب طالما أن مثال الخير الذي ما هو إلا موجود هو الذي يمنح الوجود. وهنا يصبح الفارق بين الموجود والوجود غير واضح.

والحق أن أفلاطون بطرحه نظرية المثل تخلى عن وحدة الوجود، وأورث الميتافيزيقا الغربية ثنائية ظلت تلازمها حتى عصرنا الحاضر؛ وهي ثنائية العالم المعقول والمحسوس. كما خطا الخطوات الأولى نحو اهتمام الميتافيزيقا بالموجود ونسيان الوجود على نحو ما يرى هيدجر.

وعلى أية حال يبدو أن تقسيم الوجود إلى منطقتين أم لم يلق استحسانا عند الكثير، كما أنه يثير صعوبات لا سبيل إلى حلها. وقد كان أرسطو أول من نبه إلى هذا؛ فكيف فهم الوجود؟

---

[783] – د. جمال سليمان، المرجع السابق ، ص 294.

[784] – فريدريك كوبلستون: تاريخ الفلسفة، المرجع السابق، ص253.

[785] – أفلاطون: الجمهورية، المرجع السابق،412.

[786] – عزت قرني: الحكمة الأفلاطونية، دار النهضة العربية، القاهرة، 1974م، ص84.

4- مفهوم الوجود عند أرسطو:

وإذا ما انتقلنا إلى مفهوم الوجود عند أرسطو؛ فسنجد أنه رفض تقسيمأفلاطون الوجود إلى عالم للوجود الحق (المثل) وعالم للأشباح والظلال (العالم الواقعي)؛ فالكلي الذي يتمتع بالوجود الحق يتجلى في الموجودات والأشياء الجزئية؛ ومن ثم نعرف الكلي أو الوجود الحق لا بوصفه منفصلا، بل بوصفه مباطنا للموجود؛ ف«الكلي الذي لنا به معرفة مباشرة هو ببساطة طبيعة الشيء الجزئي»[787].

لكن القول بأن الوجود الكلي يعرف من خلال الموجود من شأنه أن يؤدي إلى القول بأن الوجود يفهم بمعاني مختلفة تختلف باختلاف الموجود، وهذا بالفعل ما ذهب إليه أرسطو؛ إذ أعلن أن «الوجود يقال على أنحاء شتى»[788].

وما يؤخذ على هذا الفهم هو أنه يفهم الوجود على أنه وجود الموجود؛ لأن ما يختلف من تحديد لآخر ومن كيفية لأخرى ليس الوجود بما هو وجود، وإنما الوجود بوصفه وجود الموجود؛ فاختلاف الخصائص والصفات لا يؤثر بالسلب والإيجاب على الوجود بما هو وجود.

والواقع أن «أرسطو أدرك أننا نستخدم الفعل (يوجد) لننكر ونثبت ونصف الخصائص، وأيضا لنصف الوجود. وفي فقرات عديدة يستخدم هذه التمييزات ليوضح نقاطا مفاهيمية. لقد أدرك مثلما فعل المدرسيون أنه في نسب الخصائص للموضوع؛ فنحن نشير أحيانا ضمنا إلى الوجود، وأحيانا لا نشير الوجود... والحقيقة أن أرسطو قال القليل جدا عن الخيط العام الذي يربط الاستخدامات المختلفة للفعل يوجد»[789].

وإذا كان من الصحيح أن أرسطو أعلن أن هناك علما يفحص الوجود بوصفه وجودا أو الخصائص التي تنتمي إلى هذا (الوجود) مستندا إلى طبيعته الخاصة، ولأن هذا ليس نفسه مثل ما سمي من العلوم الخاصة؛ لأن لا واحد من هذه العلوم الأخرى يتعامل بشكل عام مع الوجود بما هو وجود[790]؛ فإنه حين أِاد تناول الوجود تناول وجود الموجود؛ إذ يقول: «هناك معان عديدة يقال فيها للشيء إنه يوجد لكنها كلها تشير إلى نقطة بداية واحدة. بعض الأشياء يقال إنها توجد لأمها جواهر، والأخرى لأنها تأثيرات جواهر، والأخرى.. احتياج أو كيفيات للجوهر أو إنتاجية أو توكيدية للجوهر أو للأشياء التي تكون مسببة للجوهر أو لنفي واحدة من هذه الأشياء أو الجوهر نفسه. إنه لهذا السبب نقول حتى ل اللاوجود إنه لا وجود»[791].

---

(787)- كوبلستون، فريدريك: تاريخ الفلسفة، المرجع السابق، ص404.

(788)- Aristotle, Metaphysica , Op. Cit, 1052.

(789)- د. جمال سليمان، المرجع السابق ، ص 296.

(790)- Aristotle, Metaphysica, Op. Cit, 1003.

(791)- د. جمال سليمان، المرجع السابق ، ص 296.

لكن أرسطو كان يدرك تماما الاختلاف الأنطولوجي بين الوجود والموجود؛ إذ ذهب إلى أ ن الوجود ليس خاصية تنتمي بنفس المعنى بدقة إلى كل شيء يوجد، ف«الوجود وفقا لأرسطو لا هو ذو معنى واحد ولا هو ملتبس، إنه مفهوم تماثلي...وهناك التباس عندما يستخدم الملتبس في التطبيق في معان مختلفة»[792].

ويورد له هيدجر نصا في كتابة مبدأ العلة يوضح عمق فهم أرسطو للوجود؛ إذ يقول: «إن الوجود هو الأجلى من حيث ذاته. إنه يظهر دون مراعاة لما إذا كنا نلمحه أم لا[793]»[794].

وقد أوضح أرسطو في الكتاب E أن دراسة الوجود المنفصل غير القابل للتغير هي دراسة الوجود بما هو كذلك تتقدم لتستبعد معاني معينة للوجود بوصفها غير ملائمة للميتافيزيقا أعني: الوجود العرضي أو الطارئ، والوجود (بوصفه حقيقة).

كما أن أرسطو حرص على إظهار وحدة الوجود، واعتبر الوجود والوحدة مصطلحين يندان عن تمييز المقولات، ويمكن تطبيقهما على كل مقولة.

لكن الشيء الجدير بالذكر هنا هو أن أرسطو اعتبر مفهوم الجوهر- أو بشكل عام الكلي- هو المتمتع بالوجود عل الأصالة؛ فهل يعني هذا أن الكلي له وجود أكثر واقعية من الشيء الجزئي الواقعي، أم أن الشيء الواقعي هو الموجود الحق؟ يبدو أن الوجود الأصيل عند أرسطو من نصيب الكلي؛ فهو ما له الوجود الحق، كما أن المعرفة الحقة لا تكون إلا به.

لكن مفهوم الوجود كمفهوم عام كما فهمه أرسطو سرعان ماتحول في فلسفة العصور الوسطى إلى مفهوم خاص؛ إذ أصبح يشير إلى الموجود. ويتطلب التعرف على هذا التحول عرض فهم فلسفة العصور الوسطى للوجود الاسلامية منها ثم المسيحية.

ب-في الفلسفة الإسلامية :

أخذت الحضارة الإسلامية دورها على مسرح الوجود في حقبة تاريخية؛ فكان من الطبيعي أن يكون لها فهمها الخاص للوجود. والحقيقة أن الفلسفة الإسلامية، وإن كانت قد اضطلعت بدورها الفكري؛ فإن فهم الوجود كان ملتبسا عندها إلى حد كبير؛ فقد حولت الوجود إلى وجود الموجودات، خاصة وجود الله. وقد انعكس فهمها الوجود على هذا النحو في تعريفها للفلسفة؛ فنرى الكندي يعرف الفلسفة الأولى بأنها «علم الأشياء بحقائقها

---

[792]- د. جمال سليمان، المرجع السابق ، ص 297.

[793]- على عكس أرسطو يقول سارتر: "الوجود معتم بالنسبة إلى ذانه (بسبب) أنه ممتلئ، وهذا ما نعبر عنه... فنقول الوجود هو ما هو". انظر: سارتر، جان بول: الوجود والعدم، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الآداب، بيروت، 1966م، ص43.

[794] د. جمال سليمان، المرجع السابق ، ص 297.

بقدر طاقة الإنسان»[795]. ومن ثم فهي ليست العلم الذي يبحث في الوجود بما هو وجود، بل تبحث في الموجودات، الأشياء؛ لنعرفها على النحو الأكمل بقدر ماهو مستطاع.

كما أن ابن سينا سمى الفلسفة الأولى الإلهيات على أساس أنها «معنية بالبحث عن الأمور المفارقة للمادة بالقوام والحد...وعن الأسباب الأولى للوجود الطبيعي... وعن مسبب الأسباب ومبدأ المبادئ وهو الإله تعالى جده»[796]، وذهب إلى أن «موضوعها البحث في الموجود من حيث هو موجود»[797].

ونراه ففي كتابه (النجاة) يقوم بتحويل البحث في الوجود إلى البحث في الموجود الأسمى؛ فيقول: «نريد أن ننحصر جوامع الكلم في العلم الإلهي فنقول إن كل واحد من علوم الطبيعيات وعلوم الرياضيات فإنما يفحص عن حال بعض الموجودات وكذلك سائر العلوم الجزئية، وليس لشيء منها النظر في أحوال الوجود المطلق ولواحقه ومباديه . فظاهر أن هاهنا علما باحثا عن أمر الوجود المطلق ولواحقه التي له بذاته ومباديه؛ لأن الإله تعالى... ليس مبدأ لموجود معلول دون موجود معلول آخر، بل هو مبدأ للوجود المعلول على الإطلاق؛ فلا محالة أن العلم الإلهي هو هذا العلم، فهذا العلم يبحث عن الوجود المطلق وينتهي في التفضيل إلى حيث تبتدئ منه سائر العلوم فيكون في هذا العلم بيان مبادئ سائر العلوم»[798].

وفي (عيون الحكمة) أوقف ابن سينا الفلسفة النظرية على البحث في الموجود؛ إذ يقول: «وأما الحكمة النظرية فإنها ثلاثة: حكمة تتعلق بما الحركة والتغير وتسمى حكمة طبيعية، وحكمة تتعلق بما من شأنه أن يجرده الذهن عن التغير، وإن كان وجوده مخالطا للتغير وتسمى حكمة رياضية، وحكمة تتعلق بما وجوده مستغن عن مخالطة التغير فلا يخالطه أصلا وإن خالطه فبالعرض لان ذاته مفتقرة في تحقيق الوجود إليه، وهي الفلسفة الأولية، والفلسفة الإلهية جزء منها، وهي معرفة الربوبية»[799].

وعلى هذا فالفلسفة الأولى أو الميتافيزيقا وقف على دراسة الموجود فحسب؛ أما الوجود فلم يرد ذكره. لقد غاب ونسي أو سقط سهوا، أو هو مضمر على نحو ما يكون حاله في اللغة العربية بوجه عام، تلك اللغة التي ترى أن من بلاغة الخطاب إغفال فعل (يكون)، وإسقاطه من البنية الظاهرية للغة، وجعله محل تقدير. ولعل هذا يعكس بشكل ما أو بآخره مدى فهمنا للوجود، وتعارض هذا الفهم مع طبيعة الوجود، وتعارض هذا الفهم مع طبيعة الوجود، وانعكاس هذا الفهم على واقعنا المعاصر.

والأدهى من ذلك أن ابن سينا ذهب إلى أن الوجود محمول وعرض للشيء؛ إذ يقول: «إن الوجود عرض في الأشياء ذوات الماهيات المختلفة محمول عليها خارج عن تقويم ماهيتها»[800].

---

[795] – الكندي: رسائل في الفلسفة الأولى، دار الفكر العربي، القاهرة، 1978م، ص25 .

[796] – ابن سينا: الشفاء، الإلهيات ، ج1، تحقيق الأب قنواتي وسعيد زايد، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1960م، ص4.

[797] – ابن سينا:المرجع نفسه: ج2، ص12.

[798] – ابن سينا: النجاة في الحكمة المنطقية والطبيعية والإلهية، القاهرة، 1938م، ص198.

[799] – ابن سينا: عيون الحكمة، تحقيق عبد الرحمن البدوي، دار العلم، بيروت، ط2، 1980م، ص17.

[800] – جميل صليبيا: المعجم الفلسفي، مادة وجود.

وقد انتقد ابن رشد فهم ابن سينا الوجود على هذا النحو؛ إذ يقول: «إنما غلط الرجل أمران: أحدهما أنه اعتقد أن الواحد الذي هو مبدأ الكمية هو الواحد المرادف لاسم الموجود....والثاني أنه التبس عليه اسم الموجود الذي يدل على الجنس، والذي يدل على الصادق؛ فإن الذي يدل على الصادق هو عرض، والذي يدل على الجنس يدل على واحدة من المقولات العشر»[801] ،دلالة تناسب كما يقال الهوية.

وبالرغم من أن ابن رشد انتقد ابن سينا؛ فإنه هو الآخر لم يدرك الفارق الأنطولوجي بين الوجود والموجود، ولم يعرف إلا وجود الموجود؛ إذ يقول: «العدم يضاد الوجود وكل واحد منهما يخالف الآخر؛ فإذا ارتفع عدم شيء ما خلفه وجوده، وإذا ارتفع وجوده خلف عدمه»[802]؛ لأن الوجود والعدم اللذين يتحدث عنهما هنا هما وجود الموجود وعدم وجوده.

لكل ما يحسب للفلسفة الإسلامية بشكل عام هو أنها، وإن تأثرت بالدين في فهمها للوجود؛ لم تجعل الله هو الوجود العام أو الخالص على نحو ما فعلت الفلسفة المسيحية، بل وأبعد من ذلك؛ فإننا نجد في الفلسفة الإسلامية استبصارات قليلة لكنها عميقة في فهم الوجود بما هو وجود؛ إذ يقول صدر الدين الشيرازي: «الوجود الحقيقي ظاهر بذاته بجميع أنحاء الظهور، ومظهره لغيره، وبه تظهر الماهيات، وله ومعه وفيه ومنه»[803].

فالوجود بناء على هذا الوصف ظاهر بذاته، وليس في حاجة إلى ما يظهره، بل إنه يظهر كل ما يظهر. وهو يحتجب في الموجود ليظهره، وفي نفس الوقت يظهر معه بوصفه وجوده.

وإذا كان مجمل تصور الفلسفة الإسلامية للوجود لم يقف على الماهية الحقة للوجود؛ فهل يكون حال الفلسفة المسيحية أفضل ؟

ج–في الفلسفة المسيحية:

إذا انتقلنا إلى الفلسفة المسيحية؛ فسنجد أنها قسمت الحياة إلى حياتين: حياة دنيا أو العالم المادي الذي نعيش فيه، وحياة آخرة. وبهذا عاد التصور الأفلاطوني مرة أخرى في شكل مختلف؛ لأنه «لما كانت كل ميتافيزيقا أفلاطونية؛ فإن المسيحية وصورها الدنيوية أفلاطونية هي الأخرى»[804].

وانطلاقا من توحيد الفلسفة العصور الوسطى بين الوجود والماهية جعلت الوجود الذي تتحقق فيه الماهية على النحو الأكمل هو الوجود الإلهي؛ ومن أجل ذلك عدت الله الوجود الحق. يقول ولتر سكوت: «آه يا إلهي عندما سألك موسى بوصفك أعظم الحكماء حقا بأي اسم ينبغي عليه أن يسميك لبني اسرائيل، ولأنك تعرف تماما ما

---

[801]– ابن رشد:المرجع السابق،ص197.

[801]– ابن رشد: تفسير ما بعد الطبيعة ، مجلد 7، دار المشرق، المكتبة الكاثوليكية، بيروت، 1990م، ص1280.

[802] – ابن رشد: تهافت التهافت، ح1، تحقيق سليمان دنيا، دار المعارف المصرية، القاهرة، 1980م، ص196.

[803] – الشيرازي: الأسفار، ج2، دار صادر، بيروت، 1978م، ص68.

[804] – د. جمال سليمان، المرجع السابق ، ص 300.

الذي يمكن أن يتصوره عنك العقل الفاني فكشفت عن اسمك المبارك دائما «أنا أكون ما أكون» أنت إذا الوجود الحق الوجود الشامل»[805].

وفي الاتجاه ذاته يقول القديس أوغسطين: «إن الاسم المقدس الذي أعلنه الله نفسه هو الوجود...(وهذا) يقودنا إلى أن نؤكد أن الله موجود كامل... وموجود لا متناه. وهاتان الصفتان (الكمال واللاتناهي) تتضمن كل منهما الأخرى بوصفهما جانبين متساويين في الضرورة للوجود الذي تصفانه»[806].

ومع أن توما الإكويني حاول العودة إلى الفلسفة الأرسطية الأصلية لفهم الوجود حين قال: «اعلم أن الوجود بالذات يقال على معنيين:1-الوجود الذي ينقسم إلى المقولات العشر.2-الوجود الذي يعني صدق القضايا»[807].وحاول التفرقة بين الماهية والوجود على أساس أن الماهية هي ما تكونه الأشياء ويميزها، بينما الوجود هو وجودها جميعا؛ فإنه عاد وقال: «إن الله ببساطة هو الوجود»[808].

و «إذا كانت الفلسفة المسيحية في العصور الوسطى بوصفها لاهوتا قد اتخذت من مقولة «أؤمن ثم أتعقل» شعارا لها، واللاهوت يهدف بوصفه تأويلا ذاتيا مفهوميا إلى الوجود الإيماني..؛ فإن هدف هذا العلم إذا هو الوجود المسيحي نفسه في تعينه، وهو في ذاته ليس نسقا صالحا للمبادئ اللاهوتية عن حالة عامة ... ولا عن محيط الوجود المتاح»[809]؛ لأن اللاهوت يهدف إلى التبرير والتمركز أكثر من التأسيس.

الفلسفة المسيحية إذا بعد أن تسلم بالوجود الإلهي تتمركز حوله. وفي هذا الصدد يقول أتين جيلسون: «تبدأ الفلسفة بعد أن يتم فعل الإيمان؛ فمن يعتقد عن طريق الإيمان أن الله هو الوجود يستطع أن يرى في الحال عن طريق العقل أن الله لا يمكن أن يكون شيئا سوى الوجود الكلي الشامل، أعني الوجود الحقيقي....(و) حين يقول الله إنه موجود، وحين يكون لهذا القول أي معنى أمام عقولنا؛ فإنه لا يمكن أن يعني إلا شيئا واحدا فحسب هو أن الله هو الفعل الخالص للوجود الفعلي، وهذا الفعل الخالص للوجود يستبعد بطريقة أولية اللاوجود كله. وكما أن اللاوجود لا يخلو تماما من كل وجود ومن كل شروط اللاوجود، فكذلك أيضا لا يتأثر الوجود على الإطلاق باللاوجود سواء أكان ذلك بالفعل أم بالقوة. وعلى الرغم من أنه يحمل في لغتنا نفس الاسم بوصفه أعظم تصوراتنا كلها وأكثرها عمومية وتجريدا؛ فإن فكرة الوجود تعني شيئا مختلفا عن ذلك أتم الاختلاف؛ ربما لأن قدرتنا على تصور الوجود لا تنفصل عن العلاقة الأنطولوجية التي تربطنا بالله»[810].

وإذا كان أفلاطون يصف مثال الخير قائلا: «إن الأشياء المعقولة لا تستمد من الخير قابليتها لأن تعرف فحسب، بل تدين على الأصح بوجودها وماهيتها»؛ فإن الوصف الذي يقدمه جيلسون لله في العصور الوسطى يأتي قريبا

---

[805]- أتين جيلسون: روح الفلسفة، المرجع السابق، ص78.

[806] - المرجع نفسه: ص 80.

[807]- توماالإكويني: الوجود والماهية، ضمن كتاب(نماذج من الفلسفة المسيحية)، ت حسن حنفي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1978، ص245.

[808] - د. جمال سليمان، المرجع السابق ، ص 301.

[809] - المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

[810]- أتين جيلسون: روح الفلسفة، المرجع السابق، ص 79

من هذا تماما؛ إذ يقول: «إن فكرتنا عن الله وهي مماثلة ضعيفة لواقع حقيقي يعلو ويفيض عليها من جميع الجوانب، ولا يمكن التعبير عنها إلا في هذه القضية: الوجود هو الوجود؛ أي وضع مطلق لذلك الذي يحوي في ذاته السبب الكافي لجميع الأشياء؛ ولهذا فإن نستطيع أن نقول أن الايجابية (البالغة) التي تحجب الوجود الإلهي عن أعيننا هي نفسها الضوء الذي ينير بقية الأشياء كلها»[811].

لكنها ألحقت الخير بالله انطلاقا من إيمانها بأن الخير صفة لله، وفهمت- على نحو خاطئ- مثال الخير على أنه هو الله. يقول جيلسون: «عندما نسلم أن إله أفلاطون الحقيقي هو مثال الخير كما عرضه في محاورة الجمهورية؛ فإن الحد الأعلى الذي يمكن بلوغه لا بد أن يكون حدا معقولا، وهو منبع الوجود كله؛ لأنه منبع المعقولية كلها. ومن هنا فإن أولوية الخير كما تصورها الفكر اليوناني تلزمنا بأن نجعل الوجود تابعا للخير. في حين أن أولوية الوجود في الفكر المسيحي من ناحية أخرى تضطرنا إلى أن نجعل الخير تابعا للوجود. وهكذا فإن كمال الله المسيحي هو كمال مناسب للوجود بما هو وجود»[812].

الله في اللاهوت المسيحي إذا هو الوجود بما هو وجود، والموجود يكتسب وجوده الحق من خلال الله. وإذا أرادت المعرفة الإنسانية أن تعرف حقيقة الموجود، عندئذ تبقى تعاليم الوحي وسنته الطريق الوحيد الموثوق به.

وإذا كان جونيلون-المفكر المسيحي في العصور الوسطى- قد أنكر أن يكون لله وجود واقعي أو فكري، وجعل له وجودا في ذاته حين قال: «بما أننا لانستطيع أن ننتقل من الموجود في الذهن إلى الوجود الواقعي؛ فلن أعطي له صفة الوجود الواقعي... بل إنني لا أعترف بأن أعظم الموجودات يوجد في عقلي كما توجد الأشياء الباطلة أو المشكوك فيها... ومما لاشك فيه أن له وجودا في نفسه»[813]؛ فإن الفلسفة المسيحية على الرغم من أنها وصفت الله بأنه معقول خالص؛ فإنها نسبت له وجودا فعليا. وهكذا يكون قد تم تحويل تام للوجود بما هو وجود إلى الوجود الإلهي، وتم الخلط بين الممكن والفعلي.

وعلى أية حال فقد استمر هذا الخلط الذي ينم عن عدم فهو الفارق الأنطولوجي بين الوجود والموجود حتى بداية العصر الحديث.

---

[811]- أتين جيلسون: روح الفلسفة، المرجع السابق، ص ص79،80.

[812] - أتين جيلسون: المرجع السابق ص82.

[813]- القديس أنسلم : الإنسان الباحث عن العقل، ضمن كتاب (نماذج من الفلسفة المسيحية) ، المرجع السابق، ص182.

د–الفلسفة الغربية

وإذا كان ديكارت هو أبو الفلسفة الحديثة؛ فكيف تصور الوجود؟

1– مفهوم الوجود عند ديكارت:

انطلق ديكارت في مبدئه الشهير «أنا أفكر إذا أنا موجود» من تفكير الذات ليثبت لها الوجود؛ ومن ثم جعل الذات هي التي تمنح الوجود؛ وكأن الوجود هبة تمنحها الذات من عندها لنفسها وللأشياء الأخرى من خلال التفكير. وفي هذا يقول بورتو: «نقطة البداية لكل معرفة أي لكل تأكيد للوجود هو الكوجيتو»[814]، كما أنه حين جعل الوجود ناتجا عن التفكير أحال الوجودإلى مجرد تصور؛ لأن «وجود الموجود الذي تكونه الأنا نفسها، والذي هو الإنسان بوصفه ذاته؛ يملك ماهيته في المتصورية Vor-gestellheit، وفي اليقين التابع. لكن هذا لا يعني أن » أنا أكون« هي تصور مجرد، أي فكرة مجردة، ولا شيء فعلي حقيقي»[815].

ويفهم ديكارت الوجود دائما على أنه وجود الموجود، ولم يتحدث أبدا عن الوجود الخالص. لكنه أدرك الفارق بين الوجود الممكن والفعلي، وذلك حين رفض أن تكون فرضية المثلث الذي يساوي مجموع زواياه 180° بالضرورة دلالة على وجوده حينما قال: «أرى أنه إذا فرضت مثلثا لزم أن تكون زواياه الثلاث مساوية لزاويتين قائمتين، لكن ليس في هذا ما يجعلني أتيقن أن في العالم مثلثا»[816].إلا أنه سرعان ما عاد واستنتج وجود الله من الفكرة التي لدينا عنه؛ إذ يقول: «إنني عندما عدت إلى امتحان ما عندي من الصور الذهنية لموجود كامل ألفيت أن الوجود كان داخلا فيها على الوجه الذي تدخل به الصور الذهنية لمثلث أن زواياه الثلاث مساوية لقائمتين. أو كما يدخل في الصورة الذهنية لدائرة أن كل أجزاء محيطها متساوية البعد عن مركزها، بل وهو أكثر من هذين وضوحا؛ وينتج عن ذلك أن كون الله– الذي هو هذا الموجود الكامل —موجودا على الأقل مساويا في اليقين لخير ما؛ يمكن أن يكون برهانا هندسيا»[817].وهنا لا يتضح أي نوع من الوجود هو الملازم لطبيعة الوجود الإلهي هل هو الممكن أو الفعلي.

وعلى أية حال فقد عاد ديكارت للتأكيد على الترابط الضروري غير الحقيقي بين الفكرة والوجود في (التأملات) بل واعتبر الوجود صفة تضاف للموجود؛ إذ يقول: «إن الوجود لا يمكن أن ينفصل عن ماهية الله، كما لا يمكن أن ينفصل عم ماهية مثلث مستقيم الأضلاع أن زواياه الثلاث مساوية لزاويتين قائمتين، وكما لا يمكن أن تنفصل فكرة الوادي عن فكرة الجبل؛ لهذا لا يكون تصورنا إلها– أي وجودا مطلق الكمال ينقصه الوجود، أ ي ينقصه كمال ما– أقل تناقضا من تصور جبل غير ذي واد»[818].

---

[814] – اميل بورتو: فلسفة كانط، تررجمة عثمان أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1971م، ص105.

[815]– د. جمال سليمان، المرجع السابق ، ص 303.

[816]– ديكارت: المقال في المنهج، المرجع السابق، ص226.

[817]– المرجع نفسه: الصفحة نفسها.

[818] – ديكارت: التأملات، المرجع السابق، ص213.

والحق أنه وفقا للهندسات الحديثة لا توجد ضرورة في أن يكون مجموع زوايا المثلث 180°. والأهم من هذا أن ديكارت يجعل الوجود كمالا منبين الكمالات، أي محمولا من محمولات الموضوع، وهذا الفهم للوجوديحيله إلى مجرد محمول، أي موجود، طالما أن المحمول شيء ما.

لكن الشيء الذي يحمد لديكارت هو أنه لم يجعل الله هو الوجود كما كان الحال في فلسفة العصور الوسطى، ويمكن أن نستشف من بعض نصوصهأن الله يوجد في الوجود؛ ومن ثم يكون مفهوم الوجود أعم من مفهوم الله عند ديكارت، ولا يدحض هذا اعتباره أن الوجود متضمن في فكرة الله حين قال: «هل هناك ما هو أوضح وأبين من القول إن هناك إلها أي (كائنا) أعلى كاملا قد تفردت ماهيته بأن الوجود الضروري أو الأبدي منطو فيها؛ إذا فإنه يوجد[819]؛ لأنه يتحدث هنا عن نمط من الوجود وليس عن الوجود بما هو وجود.

و إذا كان ديكارت قد حاول الانتقال من الفكرة إلى إثبات الوجود؛ فإن ليبنتز أحد تلامذته لم يفعل ذلك، بل جعل الفكرة نفسها- أي التصور – هي الوجود؛ فكيف تسنى له ذلك؟

2-مفهوم الوجود عند ليبنتز:

حين تساءل ليبنتز قائلا: «لماذا وجد شيء ما ولم يكن بالأحرى لاشيء؟» وقف على مشارف الوجود؛ فمن لجة اللاشيء التي لا يتميز فيها شيء يتبدى الوجود بما هو وجود. لكنه لكنه حين طرح هذا السؤال لم يكن مقصوده الوقوف على ماهية هذا اللاشيء أو تأملها، وإنما كان يريد تجاوزها إلى أساس ما.

بتعبير آخر لم يكن مقصد ليبنتز مقصدا ميتافيزيقيا، وإنما كان مقصدا لاهوتيا، وقد وجد مقصده- أي وجد الأساس- في العلة الكافية؛ يقول: «إذا افترضنا وجود أشياء فقد لزمنا أن نكون قادرين على تقديم سبب يبين لماذا يتحتم أن توجد على هذه الصورة لا على صورة أخرى»[820].

ويذهب ليبنتز إلى أن الله يعد مصدر الوجود ودعامته ومستقر حقيقته الأبدية؛ إذ يقول: «إن الله ليس مصدر الموجودات فحسب، بل هو كذلك مصدر الماهيات يقدر ما تكون واقعية، أو بمعنى آخر مصدر ما يحتوي عليه الإمكان من واقع؛ ذلك أن الذهن الإلهي هو منطقة الحقائق الأبدية أو الأفكار التي يتوقف عليها وجودها، وبغير وجوده لن يكون في الإمكانات واقع، ولن يكون فيها شيء موجود فحسب، بل لن يكون فيها كذلك شيء ممكن»[821]؛ وهكذا يصبح الله واهب كلية الوجود الذي ما هو إلا تكملة للإمكان[822].

---

[819] - ديكارت:المرجع نفسه، ص218.

[820]- ليبنتز: المونادلوجيا والمبادئ العقلية، المرجع السابق، ص111.

[821]- المرجع نفسه: ص ص148،149.

[822]- يقول بورتو: "لم يكن الوجود عند ليبنتز سوى تكملة للإمكان وتنمية لبذرة موجودة". انظر: إميل بورتو: فلسفة كانط، المرجع السابق، ص94.

ومن ناحية أخرى فإن ليبنتز حين أقر بأن «كل جوهر علاوة على ذلك هو بمثابة عالم بأكمله، أو هو مرآة للإله أو للكون بأسره، الذي يعبر عنه كل جوهر من تلك الجواهر على طريقته»[823]؛ فإن المونادات أصبحت هي الحقيقة الأولى والأخيرة في العالم، وأصبح الوجود الحق بمعنى وجود الشيء الحقيقي الجزئي متحدا ذاتيا عند ليبنتز مع المونادات أو التحويرات الفردية.

لكن بما أن المونادات ما هي إلا تصورات إذا؛ الوجود المتصور هو الوجود الحقيقي. ومن هذا المنطلق غدا حتى الزمان والمكان ينتميان إلى التصور الأسمى، أي الوجود الإلهي. ولم يكن بعد ذلك من عقبة أمامه ليشتق الوجود من الفكرة. لقد مهد الطريق لهذا تماما. وعلى هذا فإن ليبنتز يصر على أن «الوجود الحقيقي مستقل عن التجربة، ويتمسك في نفس الوقت بإمكانية معرفته معرفة إيجابية»[824]. والوجود الحقيقي الذي يعنيه هنا هو الوجود المتصور.

لكن لما كان ليبنتز فيما يقول هيجل «يتصور أن المونادات تشكل مبدأ كل موجود»، ولما كانت المونادة- من ناحية أخرى- هي الموجود؛ فإنها «أصبحت المفهوم الرئيسي لأنطولوجيا ليبنتز. فبالنسبة له كل واقع متضمن في وجود المونادة الفردي واحدا لواحد. الوجود الحق يكون ممكنا فحسب بوصفه الوجود الفردي للمونادة... كل الواقع متضمن في وجود الجوهر الفرد، وخارج وجود الجوهر وبين الوجود الفردي للمونادات ليس ثمة واقع. (لكن)... طالما أن المونادات... لها وجود حقيقي بهذا المعنى؛ فإن العلاقات لا يمكن أن يكون لها وجود حقيقي .... إن لها وجودا عقليا فحسب».

وبناءا على هذا يصبح الموجود أي المونادة هو الوجود. ومن ثم كون الله كما يتصوره ليبنتز مونادة يصبح الوجود قادرا على منح الوجود، أي يصبح التصور قادرا على منح الوجود.

وإذا كنا نجد عند ليبنتز تمييزا بين وجود الصفات أو الخصائص التي تنسب للمونادات، وبين الوجود الحقيقي الذي تتمتع به المونادات فمن الواضح بالنسبة له أن« ...هذا التمييز بين الوجود الظاهري للخصائص النسبية والوجود الحقيقي للمونادات وتحويراتها هو الأساس للتمييز بين منطقة الطبيعة ومنطقة الفضل الإلهي»[825]، أي بين الوجود الإلهي وتجليه. وهو تمييز بين تصور تصور آخر؛ ومن ثم تتداخل المسافة بين الوجود والموجود وبين الفعلي والممكن، ولا يصبح من فاصل اللهم إلا معيارية عدم التناقض المنطقي. وإذا كان الحكم ماهو إلا تصور؛ فإن التصور يغدو كل ما هنالك.

وإذا كان هذا بعض ما اصطلح عليه من تعريفات للوجود؛ فماذا عن تعريف الوجود عند كانط؟

---

[823]- ليبنتز: مقال فيما بعد الطبيعة، المرجع السابق، ص103.

[824]- د. جمال سليمان، المرجع السابق ، ص 306

[825]- المرجع نفسه ، الصفحة نفسها

3- مفهوم الوجود عند كانط:

يستخدم كانط ثلاثة مصطلحات ليعبر بها عن مفهوم الوجود، سواء أكان ما يعنيه بالوجود هو الوجود بما هو وجود، أي الوجود الخالص، أم وجود الموجود؛ وهي: Existenez و Dasein وSein فماذا تعني كلمة من هذه الكلمات؟

تعود كلمة Existenez إلى الكلمة االلاتينية Existensia التي تستخدم للإشارة إلى الوجود المتعين والوجود العام، ويرجع هيدجر هذه الكلمة إلى كلمة EK-ssitenz التي يفهمها على أنها تعني التخارج.

ويشير القاموس الفلسفي الألماني إلى أن هذا المصطلح يستخدم للإشارة إلى الوجود أو الحضور Dasein ويفهم منه الوجود المتاح Vorhandsien لباقي الموضوعات دون أن يهتم بتعلق هذا الوجود بالموضوعات المادية أو المثالية ideell، أو أنها توجد مستقلة سواء أكانت خارج الوعي أم داخله.

ونجد كانط يستخدم هذا المصطلح للإشارة إلى وجود الموضوعات؛ فنراه في (نقد العقل الخالص) يستخدم المصطلح modus Existenz أي حالة الوجود.

ويستخدم لفظ Existenz der äuβerer Gegenstände أي وجود الموضوعات الخارجية.

لكننا نجد في (نقد العقل العملي) يستخدمه أيضا للإشارة إلى الوجود المجاوز لموضوعات الحس، أي الوجود الإلهي؛ حيث يستخدم مصطلح Existenz Gottes ، أي وجود الله. كما يستخدم مصطلح Unbedingte Existenz أي الوجود اللامشروط ، ويقصد به الوجود الإلهي، بل إنه يستخدمه كذلك للإشارة إلى وجود الأشياء؛ إذ يقول die Existenz der Dinge، أي وجود الأشياء.

ومن ثم نجد كانط يستخدم هذا المصطلح ليشير إلى وجود كل من موضوعات التجربة والموضوعات المجاوزة للتجربة أو للعالم المعقول. كما يستخدمه أيضا- في مرات قليلة- للإشارة إلى الوجود العام. ويكاد يكون لهذا المصطلح هذا المعنى العام في اللغات الأوروبية الثلاث.

أما عندنا –في العربية- فنجد أن هذا المصطلح يترجم بالوجود، دون تمييز بينه وبين المصطلحات الأخرى، وإن كنا نجد عبد الغفار مكاوي قد اجتهد في ترجمته؛ فترجمه بكلمة التواجد، والتي قد توحي أيضا بمعنى الوجد (الجذب الصوفي)، وهو معنى قريب من أصل الكلمة.

ومن الجدير بالذكر أن هذا المصطلح يشتق منه اسم المفعول Existerendeأي الموجود وهو مشتق من الفعل existiren الذي يعني يوجد أو يتواجد Existerende Dingen Überhaupt؛ أي الأشياء الموجودة بشكل عام.

ويستخدم كانط أيضا اصطلاح Die Existiereden أي الموجودات.

أما المصطلح الثاني الذي يستخدمه كانط للتعبيرعن الوجود فهو اصطلاحDasein ، وهو مكون من مقطعين Da التي تعني هناك و sein التي تعني الوجود، أو أن يكون، أو أن يوجد. [826]

---

[826]- عبد الغفار مكاوي: تقديمه لترجمته نداء الحقيقة لمارتن هيدجر، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة،1975م، هامش ص43.

ويقول المعجم الفلسفي الألماني معرفا كلمة Dasein بأنهاتحديد عام لكل الموضوعات الأشياء والقضايا إلى آخره، ومن خلال هذه ال Da يوجد أي وجود.

إن مفهوم الDasein يعني أن الموضوعات والأشياء و القضايا إلى آخره لا توجد؛ لأن الانسان يفكر فيها أو يتصورها، بل إنها واقعية موضوعية، أي أنها توجد بمعزل عنه. إنها تشير إلى الوجود المتعين Konkretes Sien وتعينه كوجود واقعي موضوعي.

إن مفهوم الDasein يقف على النقيض من مفهوم الماهية Wesen. إن مفهوم الماهية يعكس ما يكونه الموضوع أو الشيء والقضية، أي من حيث كون هذه الأشياء توجد.

ويوضح المعجم ان كريستيان فولف هو الذي صاغ هذه الكلمة كترجمة للكلمة اللاتينية Existentia Dasein والتي تشير في اللغة الألمانية القديمة إلى الوجود هنا Hiersein. غير أن فولف يستخدم لفظا نادرا ليشير إلى الوجود هو Existenz أو الفعلية .Wirklichkeit وعلى هذا النمط أيضا يسلك كانط.

ويستخدم كانط هذا الاصطلاح ليشير إلى وجود الأشياء الفردية، فيقول: «إن شيئا ما يوجد ومنه نستدل على وجود Dasein شيء آخر». كما يستخدمه للإشارة إلى الوجود الإلهي؛ ففي بحثه (الدليل الوحيد الممكن ...) يستخدم تعبير Das Dasein Gottes أي الوجود الإلهي.

لكننا نجده يستخدم هذا المصطلح أيضا للإشارة إلى الوجود العام؛ فهو يتحدث في نفس هذا البحث عن التوضيح الصوري للوجود Erklarung des Dasein Eine Förmliche ويستخدمه كذلك للإشارة إلى الوجود العرضي Zufalling Dasein ويستخدمه كذلك للإشارة إلى الوجود المعطى Gegebenen Dasein .

وبناء على ذلك لا يفرق كانط في استخدامه هذه الكلمة بين كونها تستخدم للوجود المعين، أو بالأحرى للإشارة إلى وجود الموجود؛ وكونها تستخدم للوجود العام، أو كما يسميه أحيانا الوجود المجرد؛ إذ يقول: «لأن هذه الإمكانية للتأثير المتبادل افترضت كما لو أنها فهمت من وجودها المجرد βlosen Dasein (الذي لم يكن بعد)، أي أن المرء يجب أن يفترض خالقا للوجود» [827].

ويقول جاكو تامينيو: «إن مفهوم التواجد Existence والوجودDasein يتطابقان عند كانط مع الاصطلاح المدرسي Existentia؛ ولذلك فإنه غالبا يستخدم التعبير Existenz و (Wirklichkiet) Actuality بدلا من dasein» [828].

أما المصطلح الثالث الذي يستخدمه كانط للتعبير عن الوجود هو Das sein. وهذا المصطلح يستخدم بشكل عام للإشارة إلى وجود كل الموجودات سواء أكانت مادية أو عقلية بشكل مستقل عن كل تحديد أبعد .

---

[827]- د. جمال سليمان، المرجع السابق ، ص 309.

[828]- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

والوجود Sein هو صيغة المصدر لفعل الكينونة في اللغة الألمانية. وهو كغيره من صيغ الأفعال الألمانية يمكن استخدامه كاسم das sein أي الوجود. وعلى خلاف فعل الكينونة في الإنجليزية؛ فإن فعل sein الألماني يشتق منه اسم مفعول Seinde أي الموجود. وكأن اللغة الألمانية تريد بذلك أن الموجود تجل للوجود من حيث الاشتقاق، كما هو حال العربية.

ويستخدم كانط هذه الكلمة للدلالة على الوجود العام فيستخدم اصطلاح sein überhaupt أي الوجود بشكل عام. ويستخدمها للتعبير عن الانتقال من اللاوجود إلى الوجود Nichtsein zum Sein [829]. كما يستخدمها أيضا للتعبير عن تعاقب الوجود واللاوجود لتحديدات الجوهر، أي أنه يستخدم الاصطلاح Das Seinبوصفه مقابلا للاوجود Nichtsein.

والواقع أن استخدام كانط اصطلاح الوجود Dar Sein قليل. لكنه في المرات التي يستخدمه فيها يستخدمه للدلالة على الوجود العام سواء بما هو وجود، أو بوصفه مقابلا للاشيء، وهذا بالفعل هو الاستخدام الذي نجده عند هيجل للمصطلح؛ إذ يشير إليه على أنه يعبر عن الوجود الخالص. وبنفس المعنى تقريبا يستخدم هيدجر اصطلاح Das Seinالذي يدل عنده على الوجود الخالص أو الوجود العام.

وإذا كان هيدجر يشتق من Das Sein اسم المفعولDas Seiened أي الموجود؛ فإن كانط لم يستخدم هذا المصطلح الأخير، ولم يشر إليه أبدا، بل استخدم بدلا منه Existerient الذي يترجم أيضا بالموجود أو المتواجد.

على أية حال لم يستخدم كانط اصطلاح الوجود Das Sein أبدا للإشارة إلى وجود الموجودات، بل يشير به فقط إلى الوجود الخالص أو المحض أو العام. وإن كان لالاند يذهب إلى أن كلمة الوجود تعبر عن معنى أكثر واقعية؛ إذ يقول: «إن الكلمة وجود في أحوال كثيرة لاسيما كاسم لها معنى أكثر واقعية وامتلاء من التواجد Existenz. لكن لابد من ملاحظة أنها مستعملة أيضا في كثير من عبارات المنطق الخالص أو الرياضيات»[830].

وإذا كان أرسطو يقول معبرا عن الضرورة الملحة للسؤال عن الوجود وما يكتنف البحث فيه من شكوك «وفي الحقيقة فإن السؤال الذي نشأ قديما، ومازال مطروحا حتى الآن، وهو دائما موضوع للشك هو ما الوجود؟»[831].

---

[829]- د. جمال سليمان، المرجع السابق ، ص ص 309-311.

[830]- لالاند، أندريه: موسوعة لالاند الفلسفية المرجع السابق، كلمة وجود.

[831]- Aristotle, Metaphysica, Op. Cit, 1028.

المبحث الثاني:التجرد الباطني بالزهد لمكاشفة الوجود:

إن حقيقة الزهد عند الشيخ عبد القادر، تكمن في الاستعداد الباطني وخلوص نية العبد وثبات إرادته، ولكن هذه الرؤية (الباطنية) لا تلغي عنده أهمية أفعال الزهد الظاهرية، التي يقف على رأسها الجوع والعطش. إذ إن هذه الأفعال تحتل مساحة واسعة من رياضات الصوفية ومجاهداتهم، ثم أن الشرع الإسلامي، أكد عليها كثيرا خاصة وجعلها من أفضل الأعمال التي يمكن أن يتقرب بها العبد المؤمن الى ربه، كما سبق تفصيل الكلام حول ذلك.

ومن جهة أخرى، فإنه لا يخفى على كل مجرب ذي دراية، سواء أكان متدينا أم غير متدين، ما لأعمال مثل الجوع و العطش والسهر، إن مارسها الإنسان عن قصد وإرادة ذاتية، من تأثير فائق في تصفية السرائر و إلهاب القرائح وتصعيد المكامن الروحية السامية فيه وهذا هو عين ما يؤكده الشيخ عبد القادر، إذ إنه يجعل الخير كل الخير في اتخاذ الجوع وصالاً، أي وسيلة من وسائل الوصول والقرب من الحضرة الإلهية، فبالجوع عنده تفتح باب القوة الملكوتية الكامنة في روح الإنسان، وتظهر معها الحقيقة النورانية الخافية وراء حاجز الجسد ومتطلباته، وبالجوع تستولي الأنوار الصمدية على ذات وجود العبد فتحرق بأنوارها ظلم الأجسام، وهي حالة الفناء الشهودي التي تمحي فيها الطبائع وتتلاشى الأبعاد والصفات الذاتية للشاهد، ثم لا ترجع إليه حاسة طبعه الجسماني إلا بعد إتمامه دورة الأسماء و الأوراد، أياما متواصلة، من الذكر والتسبيح الدائم، الذي سيشكل فيما لو واظب عليه المريد، واسطة ترد من خلالها الأنوار الإلهية والفتوح الغيبية على قلبه.

لإن إظهار الشيخ عبد القادر، محاسن الجوع والعطش، وإدراجهما ضمن فقرات منهجه الصوفي الأساسية، لا يعني تبنيه لهما، منهجاً دائماً وسلوكاً مستمراً في حياة الإنسان، كما يفعل دعاة الرهبانية والتنسك، بل هو على العكس من ذلك يؤكد على مريديه أن لا يغالوا في الأخذ بأسباب الجوع والعطش، حتى لا يمنعهم ذلك عن القيام بواجباتهم العبادية الأخرى، أ، تذكير الناس وإرشادهم لأن هذا هو الأهم في التجربة الصوفية، ولأن فعل الجوع والعطش ما أخذ به العارفون إلا لتحسين أداء قلوبهم تجاه ربهم وتجاه الناس[832]. فهو من مبادئ القوم ووسائلهم المساعدة، وأما نهايات طريقهم او طموحاتهم الروحية، فهي: «أن تخرق أجسادهم حجب الغيوب وتفجر أنوارهم ينابيع الحكم من خزائن القلوب، وأن يصفو عيشهم لربهم، فلا يكون طعامهم إلا من كلامه تعالى، الذي هو القرآن الكريم، ولا يكون شرابهم إلا من سنة نبيه صلى الله عليه وسلم تسليما[833] إذن فالصوفي مهما حلق في عنان سماء الروح، وسعت نفسه إلى الإنعتاق واشرأبت الى الهرب بعيداً عن وطأة الجسد، فإن مصيره مربوط إلى أرض الشرع الاسلامي، وهو محرم عليه أن يلقط من غير هذا المرتع أو أن يرضع من غير تلك المراضع.

فإذا كان الزهد عند الشيخ عبد القادر، لا يعدو كونه وسيلة يتعكز عليها المريد في بدايات سلوكه في الطريق الصوفي، فإنه ضرورة لا يعني ترك الدنيا مرة واحدة والى الأبد بل إن الأمر لا يخرج عنده عن كونه فعلاً تأديبياً

---

[832]– عبد القادر الجيلاني : الغنية لطالبي طريق الحق عز وجل، ج2 ، ص1300.

[833]– الشطنوفي : بهجة الاسرار ومعدن الانوار في مناقب الباز الاشهب الشيخ عبد القادر الكيلاني،تح د فالح الكيلاني،دار التراث ،حيدراباد،ص47.

تربوياً، يراد من خلاله نقل المريد من حالته الدنيا الى اعتاد التعايش معها، الى حالة بديلة، هي رغم صعوبة تقبلها في البداية، أكثر أمناً وسلاماً للمريد، من حالة مداهنة النفس والانصياع لرغبتها الى حالة معاداتها وكبح جماحها، من حالة متابعة الهوى ومجاراة الشهوات الى حالة المخالفة والتطويع والترويض. فإذا ما رسخ القدم وتم الأمر وتحقق الانسجام بين النفس والقلب والعقل، صار المريد من المرادين المحققين الواصلين وأهل الولاية العارفين وأمر حينئذ بأخذ جميع أقسامه وأرزاقه وحظوظه التي فاتته أولا، لأنها من ضمن أقداره التي قدرت له لا لغيره. إذن ففي البداية الترك وفي النهاية الأخذ، في البداية تكليف القلب بترك الدنيا وشهواتها وفي النهاية تناولها. الأول هو نهج المتقين اللذين يتلمسون طريقهم القويم وسط وعورة الشبهات والثاني هو نهج الواصلين المتحققين في طاعة الله عز وجل وذكره. إن تصوير الدنيا بطالع الشؤم وبالوجه الكالح، عند الصوفية بعامة وعند الشيخ عبد القادر بخاصة، إذ يذهب إلى أكثر من ذلك، فيشبهها بالجيفة القذرة التي تسد إزاءها العيون والأنوف[834] . لا يعني إسقاطها تماما من حسابات المريد، فمفهوم الدنيا عندهم، لا ينضوي تحته ما كان منها ضروريا ومباحا في الشرع وأساسياً لإقامة وإدامة المجتمعات الإسلامية الصالحة، فليس من بطر العيش والترف الزائد مثلا البيت الذي يكن العبد الصالح ولا اللباس النظيف الذي يستره ويقيه الحر والقر ولا الطعام الحلال الذي يشبعه ولا الزوجة التي يسكن إليها. إن مفهوم الحياة الدنيا، السلبي ينحصر عن الشيخ عبد القادر فقط فيما يدفع بالعبد الى الإقبال على الخلق و الإدبار عن الحق»[835] أي فقط الحاجات والرغبات التي مصدرها الطمع ومبعثها الشره وضعف الثقة بالله تعالى. وهذه ما عاداها الصوفية ولا حذروا منها ولا تجنبوها إلا للنتائج السيئة التي تترب على التعاطي بها، وهي مثلها في ذلك مثل الحرام الذي ما حرم على الخلق، إلا للضرر المؤكد الذي يلحق مقترفه، فالشهوات ما أردفت بالتحذير والتنفير، في بدايات السلوك الصوفي، إلا لأنها إن تعشقت بالقلب الضعيف الغافل و النفس الطامعة غير المروضة، فإنها ستعمل عملها في إشغال العبد وإلهائه عن ذكر ربه وإبعاده عن محيط رضاه، ومن كان هذا حاله، فإنه سيكون حتما بعيدا عن الخير وأهله قريبا من الشر وأهله، وفي هذا إشارة الى قوة الترابط بين الحالتين وتأكيد العلاقة الطردية القائمة بينهما، فالعبد كلما كان قريبا من ربه خائضا في بحر ذكره كان أدنى إلى فعل الخير وأقرب من أهله والعكس يصح أيضا، فالعبد كلما كان بعيدا عن ربه متغافلا عن ذكره كان أدنى إلى اقتراف الشر وأقرب من أهله، وتجدر الإشارة الى مسألة التحليل و التحريم والخير والشر، تعد من مسائل الخلاف العقلية القائمة بين القائلين بالاختيار وهم أهل العدل والتوحيد والقائلين بالجبر، فأما الفريق الأول فإنهم يأخذون بالأسباب ويقولون أن الحرام ما حرم إلا للضرر الذي يلحقه بالأفراد و المجتمعات، كفعل السرقة وقول الزور وانتهاك الحرمات، وأن الإنسان قادر بقدراته العقلية أن يميز ذلك ويجتنبه، أما الفريق الثاني، فإنهم يرون أن الحرام ما حرم إلا لأن الله تعالى، أراد له أن يكون كذلك وكذلك الحلال وكذلك الخير والشر[836].

---

[834]– عبد القادر الجيلاني : فتوح الغيب ، المصدر السابق،ص 12

[835]– عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني والفيض الرحماني، المصدر السابق، ص 344.

[836] – محمد عمارة: المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية،بغداد،ط2، 1984، ص 137.

إن إقبال الإنسان، في إصلاحه نفسه وفي تقربه من مولاه، على نهج الزهد، يأتي من موضعه الوجودي الحرج الذي وضعه تكوينه فيه، فهو يتوسط، كما يرى الشيخ عبد القادر، في صفاته، بين صفات الحيوانية وصفات الملائكة، بين ثقل الجسد وحاجاته وتطلعات الروح وآفاقها.

غير أن هذا التوسط القلق، لا يعد أمراً مفروغا منه بحيث يستحيل التزحزح عنه والإنفلات منه، بل إن حقيقة الإنسان تتجسد في صعوده وهبوطه المتواصل، نحو هذا الطرف أو ذاك، وإن هذه المكوكية مقرونة بعمله الذي يصدر عنه، فإن تردى وابتعد عن موقفه الديني تجاه ربه وموقفه الأخلاقي تجاه الآخرين وتجاه ذاته، وأهمل تربية نفسه وأغرقها في الشهوات، فسيكون عندئذ الى صفات الحيوان أقرب، أو كما يسميه الشيخ عبد القادر: «إنساناً حيوانياً»[837]. وهذا الإنسان سيكون من الصعب عليه، فيما لو هبط الى هذا المستوى، واضعا نفسه في قفص العادات و المخالفات أن ينقذ نفسه أو يطلق سراحها، لأنه في هذه الحالة، سيكون سجيناً في ظلمة طبعه، محروما من قبس النور الذي غرسه الله تعالى في عباده حين خلقهم وأخذ عليهم العهد في عالم الذر[838]. وهذا النور الذي لا يمكن لأي إنسان أن يسمو أو يرتقى روحيا دونه، وضع الله تعالى مصيره، بيد الإنسان بذاته، فأما الى ضياع وتلاشي وأما الى نماء وزيادة سطوع، وهذا الاحتمال الثاني هو الذي تبناه الإنسان الصوفي الذي تعهد نفسه بالتربية والزهد وأنواع الرياضات والمجاهدات، وهو بذلك سيكون الى صفات الملائكة أقرب، أي يكون إنساناً ملائكياً[839]. لا بل إنه يصل بأمانته المحفوظة ونوره المكنون، إلى مستوى من الرفعة والصفاء، بحيث يتجاوز مقام كثير من الملائكة، وغير مجهولة قصة سجود الملائكة لأبي البشر وإقرارهم بأعلميته وتفوقه عليهم[840]. وكعادته في التعامل مع الأمور الصوفية العلمية التي تنطوي على جهد ومشقة، فقد عمد الشيخ عبد القادر، على توزيع تجربة الزهد علة سلم تصاعدي، كي يخفف بذلك من الأثقال التي ينوء بحملها المريد فيما لو تعاطاها دفعة واحدة. وهذا (التدرج) عنده موزعاً حسب المنزلة الروحية التي يبلغها كل مريد على حدة. فالزهد بمعنى الترك يُسن أولا للسالكين المتزهدين وهو لا يعني الترك المطلق أو التجرد، إنما ترك المحرمات، فالمتزهد لكونه حديث عهد بالسلوك، ولانطواء سريرته على علائق كثيرة تجذبه الى الدنيا وزينتها، ولاستحالة انفصاله التام عن ذلك، فقد صار قصارى الزهد عنده يتجسد في تجنب الحرام وتوخي ما أحل له من الطيبات. فإذا اطمأن قلبه بهذا (الترك) واعتاد من نفسه الميل الى الحلال دون سواه، جاءه الأمر من شيخه بالتزام النوع الثاني من الزهد الذي يتمثل في اجتناب الشبهات من أجل أن يكون حلاله خالصا غير مشوب بما يعتم مرآة القلب ويكدر صفو النفس. إن المريد لشدة إقباله على الحلال في المرحلة الأولى من زهد، فإنه سيخوض في كثير من الشبهات التي اعتاد الناس الأخذ بها، وهذه الشبهات، إن قدرت معدة نفسه على هضمها في مرحلة الزهد الأولى، سيكون كمفهول الحرام في المرحلة الأولى.

---

(837)– عبد القادر الجيلاني: آداب السلوك والتوصل الى منازل الملوك، تح نصوح عزقول، دار السنابل، دمشق، ط1، 1997م.ص156.

(838)– لقوله تعالى: ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين﴾. سورة الأعراف [الآية 172]

(839)– عبد القادر الجيلاني – المصدر نفسه.

(840) – لقوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ سورة البقرة [الآية 31]

ثم بعد ذلك يؤمر المريد بترك المباحات، وهي التي تقع في درجة أدنى من الحلال، ثم أخيرا يؤمر بترك الحلال المطلق في جميع الأحوال «حتى لا يبقى متروك في الجملة»[841] وتلك حالة رغم كونها مؤقتة، إلا أنه لا يقدر على احتمالها، إلا من بلغ حالة الفناء الوجودي والصفاء التام وأصبح من خواص خواص القوم الذين ماتوا عن الارادة وعن الاختيار وعن جميع الخلق، فاستحقوا بذلك نوال الحياة الأبدية ونوال درجة القرب من الله تعالى، لصبرهم بكل أنواع الصبر مصداقا لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾[842] وقد ورد على لسان الشيخ عبد القادر قوله: «ضاقت بي الحال يوما، فتحركت نفسي تحت حملها وطلبت الراحة والفرح فقيل لي – بلسان الحال – ماذا تريد؟، فقلت: أريد موتا لا حياة فيه وحياة لا موت فيه»[843]. وهذا هو الخلود الروحي الذي يرنو كل سالك صوفي الى بلوغه غلماً أن الشيخ عبد القادر وفي موضع آخر يقول: «إن الموت الذي لا حياة فيه، هو موت الإنسان عن جنسه من الخلق»[844] أي تخلصه من كثير من الصفات السيئة العالقة بنفوسهم والطباع الرديئة المغروسة فيها. وإضافة الى الأسرار الخفية التي لا يعرفها إلا من جربها، والفوائد الأخلاقية والنفسية الكثيرة التي حف بها الزهد، فإن له عند الشيخ عبد القادر، فائدة يمكن أن نسميها شرعية وهي الفائدة الأهم من بين تلك الفوائد، وهي تتمثل في منع دخول ما خالط حراما أو شبهة إلى بدن الإنسان. وفي علم الصوفية، فإن للشبهة والحرام أثرا فعالا في غلق كثير من نوافذ القلب وتضييق ما اتسع من فضاءات الروح. ويزخر التراث الصوفي الإسلامي بكثير من القصص التي تدعم هذا الرأي وتؤيده. فأما الوقاية من ذلك فتكون عن طريق التمسك بالورع والتقوى، اللذين أعطاهما المريد حقهما في سلوكه واتخذهما منهجا ثابتا في جميع معاملاته وعباداته،فإنه سينجو من كثير من مصائد الدنيا وفخاخ الشيطان وسيكون من القوم اللذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون وكما يقول الشيخ عبد القادر: «فليأكل ولا يبالي»[845] ولايكون ذلك عن إفراط أو تفريط ولكن لأنه سوف يأكل بغير حظوظ النفس، ومن أكل بغير حظوظ نفسه فإنه سوف لا يأكل إلا أسامه التي قسمها الله تعالى له وهذه بالتأكيد لا تخالطها الشبهات. ويمكن للزهد أن يكون رديفا للحب الإلهي فالزهد الذي يعني حصراً الفقر و التجرد التام والانسلاخ عن كل ما هو مناقض ومزاحم لحب العبد مولاه، إذا تشرب كل ما بقلب المريد، فإنه سيزيل عنه محبة كلما خلق الله تعالى من زينة ومتاع سواء ما كان له تعلق بهذه الحياة الدنيا، أو ما كان يرتجى حصوله في الآخرة وفي عرف الصوفية، فإن حب الدنيا وحب الآخرة وحب الله تعالى، تعد كلها مرادات للعباد، كل حسب مرتبته ومقامه على أن أصناف الحب الثلاثة تلك، لها تعلق أحدها بالآخر ولكنه تعلق هيمنة ومحق، إذ لا يمكن أن يتعايش إثنان منهما في قلب واحد وفي وقت واحد فمن أحب الآخرة وعمل لها عملها، فإن عليه

---

(841)– عبد القادر الجيلاني، في الباطن والظاهر المسمى جلاء الخاطر، تح خالد الزرعي–عبد الناصر سري، دار اللجين، دمشق، ط1، 1994م ص 37.

(842)– سورة البقرة [الآية 249]

(843)– الشطنوفي : ،المرجع السابق، ص 88.

(844)– عبد القادر الجيلاني: فتوح الغيب،المصدر السابق ، ص139.

(845)– عبد القادر الجيلاني : الفتح الرباني والفيض الرحماني،المصدر السابق، ص 370.

أن يزهد في الدنيا، كي يزيحها عن قلبه ويخليه لضرتها، فأما من سعى الى مرضاة ربه واجتهد لبلوغ مقام محبته، فإن عليه أن يزهد في الآخرة أيضا، أي بمعنى أن يترك العبد دنياه لخرته وآخرته لربه، لأنه ما دام في قلبه ميل لغبة من رغبات الدنيا والآخرة فهذا يعني أنه لا زال ليس بزاهد حقا وإنما متزهد. فأما إذا تم الأمر في حقه، وأصبح حاله في الزهد مؤكداً، فهذا يعني أنه قد نال النعيم الدائم «وزالت الغموم ولأحزان عن قلبه، وجاءته الراحة والطيب والأنس بالله»[846] وهو معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم تسليما: ﴿الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر﴾[847] على أن هذا الحال يأتيه تباعا وبالتدرج، فهو يبدأ من غربة المريد في الدنيا وطمعه في أن يعوض عنها خيرا في الآخرة، فإذا ما اجتهد في زهده، طامعا في مزيد من القرب من رب العالمين، فإنه سيكون من العارفين ذوي الغربة في الدنيا والآخرة، ممن أدركتهم يد الغيرة الإلهية ومنعت عنهم شواغل الدنيا والآخرة وأزالت عن قلوبهم جميع العلائق وعلمتهم أنها حجاب تحول بينهم وبين ما يطمعون إليه من القرب، وحينئذ فقط – أي بتدخل القدرة والعناية الإلهية – يتركون الإشتغال بالخلق[848]. وتجدر الإشارة هنا، الى أن كثرة تأكيد الشيخ عبد القادر، ودعوته الى الزهد وترك الدنيا و الخلق وإماتة الجسد و الارادة و التخلص من كثير من الطبائع والشهوات لا يمكن أن يفهم بالمعنى الظاهري للكلام، وإلا لبطلت أسباب العيش وتعطلت الحياة بجميع مفاصلها، بما في ذلك كلام الشيخ عبد القادر نفسه ووعظه الناس و إرشادهم. إن مطالعة بسيطة للحياة الاجتماعية للشيخ عبد القادر ولتلاميذه ومريديه تؤكد أنهم مارسوا حياتهم بصورها الطبيعية كافة، وإنهم لم يهملوا أي جزء منها، ويذكر التاريخ أن قد تسلم كثير منهم وظائف مرموقة واشتغل آخرون بالزراعة والتجارة، وأن الشيخ عبد القادر كان يبعث بأولاده إلى أصقاع بعيدة لأجل تحصيل العلوم والمعارف، ومما يذكر أيضا وبصورة مؤكدة، الدور المهم لمريدي الشيخ عبد القادر في الدفاع عن حياض المسلمين ضد الغزو الصليبي[849]. إذن فما يقصد بالزهد والترك والتجرد التام، عند الشيخ عبد القادر، هو أنه تجربة نفسية أخلاقية تخص معاملات الباطن ، أولا وقبل كل شيء لأن التصوف الحقيقي متوجه برمته الى أعمال القلوب و الخواطر، ولعله من البداية الأولية في علم الصوفية، هو اعتقادهم بأنه لا خير في كثير من المجاهدات الشاقة التي لا تتجاوز مساحة الجسد، ولا خير في كثير من الأذكار والأوراد التي لا تتعدى الألسن والشفاه، لأنها بالتأكيد ستكون مشوبة بالرياء وعارية عن الإخلاص لله تعالى، ولأنها سوف لا تورث صاحبها إلا الجهد والعناء.

نعم إن المريد الزاهد يصوم ويظمأ كثيرا، ويعتزل الخلق ويعالج نفسه بألوان الحرمان وبالكثير من أنواع الرياضات الشاقة، ويتخلى أحيانا عن جميع ما يملك ويحب، ولكنه يفعل ذلك لا بكونه غاية بحد ذاته، بل لأجل تربية نفسه وترويض هواها، فأما إن أثمرت تجربته ونجح في إخراج الدنيا من قلبه، بحيث تساوت عنده الأمور

---

(846)– عبد القادر الجيلاني: فتوح الغيب، المصدر السابق، ص 119.

(847)– رواه مسلم – النووي : رياض الصالحين ، ص 168.

(848)– عبد القادر الجيلاني : الفتح الرباني والفيض الرحماني:المصدر السابق، ص 222.

(849)– للمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع انظر: د. ماجد عرسان :المرجع السابق.

وعطلت رغبته بين المنع والعطاء، ثم جاءته الدنيا بعد ذلك، فتناولها بيده دون قلبه، فإنه لا ضير في ذلك ولا تثريب عليه.

إن سعي الصوفي الدائب، إلى إزالة الطباع الفاسدة والأهواء الهائجة والجهل عن نفسه، هو ما يحمله على الصبر على احتمال جميع أنواع المشاق وألوان الصعاب التي منها الصيام والقيام والتخشن في الملبس والمطعم. لأنها ستكون كالنفخ في القربة المثقوبة وكما يقول الشيخ عبد القادر:« إن هذا الأمر – أي التصوف – لا يجيء بأعمال الجسد وإنما يجيء بأعمال القلوب، ثم أعمال الجسد»[850]. وهو يستشهد هنا بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم تسليما: ﴿ الزهد ههنا، التقوى ههنا، الإخلاص ههنا، ويشير الى قلبه﴾[851] إن القلب هو الذي تجليه الرياضات لا الجسد وهو الذي ترفع عنه الحجب، وهو الذي يزهد في الدنيا وزينتها، حتى يستوي عنده الحجر والمدر. فهو إذن الزاهد الحقيقي، والمريد الذي لا يمكنه أن يأخذ بيد قلبه إلى ترك الدنيا ويغرس فيه بدلا من ذلك حب الخالق، فلا ينتظر من سلوكه أية نتيجة أو ثمرة ولا ينتظر أن يرى شيئا من أحوال الصالحين العجيبة التي قالوا هم عنها: « إن الملوك لو علمت ما نحن فيه من اللذات لجادلونا عليها بالسيوف» [852]. إذن فكل ما يأتي قبل تحقق القلب وزهده، فهو من قبيل الشرك والرياء، وكل عبادة أو ذكر لا يصدران عن قلب زاهد، فهما عاريان عن الإخلاص. على أنه يقف وراء تأكيد الشيخ عبد القادر هذا، أي تأكيده على أهمية أعمال القلوب إلا النية في تطهير التجربة الصوفية وإصلاح نهجها، وجعل السلوك فيها من اختصاص الصادقين حصرا، لعجز غيرهم عن التشبه بهم ولاستحالة تلوين السرائر وتزيين النيات.

ومما يمتاز به الزهد عند الشيخ عبد القادر، ارتباطه الوثيق بالمعرفة، فهو عنده ليس بسلوك ارتجالي أو عشوائي يقوم فقط على الطاعة العمياء لأوامر شيخ الطريقة، وإنما هو يرتكز أساساً على المعرفة، معرفة الإنسان بالدنيا ومعرفته بالنفس ومعرفته بالخلق. ولذلك فإنه يفرق بين زهد الزاهد وزهد العارف ويفضل الثاني على الأول[853]. فأما معرفة الدنيا، فإنها الأساس الصحيح للزهد فيها و الأنفة من الخوض في أوحالها، وأما معرفة النفس فهي أساس مخالفتها والتمكن من السيطرة على نوازعها و توجيه أهوائها، وأما معرفة الخلق، فهي أساس التجرد عنه وعدم اشراكهم في عطاء الله تعالى ومنعه[854]. إذا فالمعرفة المصاحبة للزهد هي خير وسيلة للوقاية من الشر الكامن في جهل الانسان بهذا (الثالوث)، إذ كيف يزهد المرء في الدنيا، وهي الحلوة الخضرة الناعمة، من دون أن يعرف حقيقتها ومصيرها وكونها سريعة الزوال سريعة التغير والتقلب، ومن دون أن يعرف أن الذي يجتهد في طلبها ويسعى الى امتلاكها سيدخل في رهان خاسر، لأنها تأخذ منه أكثر مما تعطيه، ولأنها تستعبد عاشقها وتذل طالبها ، على أن أهم حقيقة يلزم المريد بمعرفتها عن الدنيا وبوضعها ضمن عقائده الراسخة، هي: «أنها –

---

[850]– عبد القادر الجيلاني : الفتح الرباني والفيض الرحماني ،المصدر السابق، ص 23.

[851]– سنن ابن ماجة : ج2 ، ص 1373.

[852]– ينسب هذا القول إلى الجنيد البغدادي (ت 298 هـ) – القشيري،الرسالة القشيرية:المصدر السابق،ص31.

[853]– الشطنوفي :المرجع السابق، ص 56.

[854]– عبد القادر الجيلاني : جلاء الخاطر، المصدر السابق، ص 85.

أي الدنيا- لا تملك زمام أمرها بيدها، وإنما هي مأمورة مسخرة من قبل خالقها، فهو الذي يعطيها لم يشاء وينزعها عمن يشاء، وأنه لا يمكن لأي مخلوق أن يقفز فوق هذه المشيئة أو يتجاوز تلك الحقيقة. هذه هي المعرفة الصحيحة المتعلقة بالدنيا، فإذا ما توسم فيها الإنسان غير ذلك وظن أن بإمكانه أن ينال منها أكثر مما قسمه الله تعالى له، فهو حتما، واهم مخدوع وممكور به.

فأما المعرفة المتعلقة بالنفس الإنسانية، فإنها تعد أمرا ضروريا وواجبا لضمان النجاح والتوفيق في السلوك الصوفي برمته، لأن هذه المعرفة، تعني فيما تعنيه معرفة نوازع النفس وميولها وأهواءها وجهالاتها ورعوناتها، ومعرفة أنها خليط معقد من الدوافع المتناقضة، وأنها قد تفتك بصاحبها، فيما لو تركت من غير مراقبة أو تحجيم. إن معرفة النفس و الاستدلال الى نقاط الضعف ومكامن الشر فيها، هو من الأهمية الى درجة أن كثيرا من الفلسفات و النحل والأديان اتخذته شعارا لها[855].

تبقى أخيرا المعرفة المتعلقة بالخلق، وهذه لا تقل في الأهمية عن سابقاتها، فالإنسان اجتماعي بطبعه، وهو مجبول على العيش مع الآخرين والاحتكاك بهم وإعطائهم والأخذ منهم، وفي الحقيقة فإن أغلب الخصال الرديئة التي تكدر صفو النفس وتعثر خطوات عروجها نحو بارئها عزَّ وجلَّ، مثل الحسد والتباغض والبخل والتنافس وطلب المكاثرة والمباهاة ... الخ ما هي الا نتائج حتمية تنجم عن عيش الإنسان وسط بني جنسه. إن معرفة الآخرين تعني بالدرجة الأولى معرفة حقيقة ضعفهم وعجزهم عن النفع والضر، وهذه المعرفة تتوافق واعتقاد المريد الراسخ بأنه لا نافع ولا ضار إلا الله تعالى، وتعني أيضا: أن طلب رضا الناس ما هو إلا وهم وسراب. وأن الخلق هم أكثف الحجب التي تحول بين القلب والتنعم بالأنوار الإلهية، وما يرفع تلك الحجب إلا التعري عن مطامعهم والتجرد عن علائقهم [856]. ولعل من نافلة القول أن نؤكد هنا، أن الشيخ عبد القادر، بدعوته إلى معرفة الخلق من أجل اجتنابهم وقطع العلائق معهم فإنه يدعو الى إزالة أو تحجيم تأثرهم السلبي على قلب المريد، أي أنه لا يعني مقاطعتهم و الاعتزال عنهم بشكل نهائي، وإنما يكون ذلك الى حين، أي الى أن يتحقق المريد بالزهد ويبلغ مقام الإخلاص والتقوى والورع، وأن ينال المزيد من المعرفة بربه والمحبة له. عندئذ يأتيه الثبات واتساع أفق القلب وتأتيه القوة من الله تعالى على تحمل أعباء الناس وأذاهم من دون كلفة ولا نصب، فيتقرب منهم وتأتيه القوة من الله تعالى على تحمل أعباء الناس وأذاهم من دون كلفة ولا نصب، فيقترب منهم ويطلبهم، وينحصر جل همه في إرشادهم وهدايتهم وتقريبهم الى بارئهم وقضاء حوائجهم، ومع ذلك فهو لا ينشغل بهم عن ربه طرفة عين، لا بل إن عمله معهم، ما هو إلا جزء من ذكره ربه.

إن المتزهد المبتدئ في زهده، هو فقط الذي عليه أن يعتزل الناس ويتجنب معاشرتهم وذلك «لضعف حاله وقلة خبرته»[857] فأما إذا تقدم في خطواته وتيقن من انقطاع همه من الخلق، في سائر الوجوه والأسباب،

---

[855]- وهو شعار: "اعرف نفسك" الذي كان مكتوبا على باب معبد دلفي و الذي تبناه سقراط بكونه أهم مبدأ من مبادئ فلسفية التهكمية. ناجي التكريتي : الفلسفة الأخلاقية الأفلاطونية عند مفكري الإسلام ، دار الاندلس،الرياض،ط1 ،2009م ،ص 24.

[856]- عبد القادر الجيلاني : الفتح الرباني والفيض الرحماني ،المصدر السابق،ص 26.

[857]- المصدر نفسه، ص95.

بحيث أصبح الخلق عنده «كالباب يرد ويفتح بفعل فاعل وتدبير مدبر»[858] وهو الله تعالى، فإذا صح للمريد هذا الاعتقاد، وأتم هذا السلوك، كان موحدا صحيح التوحيد لله تعالى، على أن اعتقاد المريد، بهيمنة الله تعالى وجبروته، لابد من أن يرافقه اعتقادان آخران، يتمم أحدهما الآخر، كي لا يقع في شراك التطرف، ويكون إما جبريا أو قدريا، الأول: أن لا ينسى أفعال الخلق وكسبهم ودورهم في الحياة وفي رسم أقدارهم وتحمل أوزارهم، وثم مواجهة حسابهم، وهو الشق الذي يتحقق فيه، وبشكل مطلق، العدل الإلهي وتتبين من خلاله حدود حرية الإنسان. والثاني: أن جميع أفعال العباد لا تتم بهم دون الله تعالى، أي دون مشيئته أو قدرته أو أمره أو تفويضه، وهذا الاعتقاد يجنب المريد الاشتغال بالخلق دون الخالق ويبين له حدود الحمى التي يحرم عليه تعديها، وهو معنى قول الشيخ عبد القادر: «لا تقل فعلهم دون الله عز وجل فتكفر وتكون قدريا، ولكن قل: هي لله خلق وللعباد كسب»[859] وهذه أشعرية صرفة يعلنها (الشيخ) بكل صراحة، لأنها تلائم منهجه التوفيقي الذي يحاول فيه أن يجمع ويجانس ويربط بين كثير من المعتقدات الإسلامية التي تجد لها في الدين الإسلامي أساسا وسندا، ولكنها في ظاهر الأمر تختلف وتتنافر وقد تصل الحال بين معتنقيها الى حد التناحر.

وكما يربط الشيخ عبد القادر بين الزهد والمعرفة، فإنه يربط أيضا بين الزهد والتوحيد في علاقة تكافلية، فالتوحيد من جهة هو: (سلم الزهد)[860] ومن جهة أخرى فإن التوحيد لا يصح إلا إذا سبقه زهد صحيح. فالعلاقة إذن، بين الزهد والتوحيد هي علاقة ترابط ولزوم، ولعل السبب وراء ذلك يكمن في تشابه الوظائف والمعاني بينهما، فإذا كان الزهد يعني عنده: قطع الأسباب ومفارقة القلب للإخوان والأقسام[861]. وهو فعل لا يمكن أن يفضي إلا الى التوحيد الفعلي المبني على علم اليقين فإن التوحيد عنده يعني: محول كل متحول من المحدثات بعين السر[862] ويمكننا أن نلاحظ هنا أن التوحيد الذي تحقق به العبد بعد الزهد في الدنيا، يكاد يقترب في معناه من حال وحدة الشهود، وهو كما مر بنا سابقا، أعلى درجات التوحيد التي يمكن أن يبلغها السالك العارف والتي لا يرى بعين سره فيها، غير أنوار وتجليات أسماء وأفعال الذات الإلهية.

إن جل ما يسعى الصوفي إلى نواله، هو: تحقيق الصلة الحية مع ربه، وهو يعلم أن ذلك لا يتم له إلا إذا امتلك قلبا ونفسا وعقلا، أي باطنا ذا مواصفات خاصة تلائم الهدف الصعب الذي نذر حياته له، على أن هذه المواصفات الخاصة لا تأتيه من خارج كيانه أو تلقى عليه أو تغرس فيه، وإنما هي كامنة في أصل خلقته، وإنما تظهر الى الوجود بفعل عامل مساعد واحد، وهو: الزهد المنهجي، الذي يبدأ من ترك الدنيا وشهواتها، ثم الفناء عن النفس وأهوائها، ثم السعي الى تصفية القلوب من أورداتها السيئة ومن خواطرها الرديئة من أجل تهيئتها لمطالعة الأنوار الإلهية و مراقبة الحق بعين الباطن، كما تراقب الأشياء عين الظاهر، الزهد إذن في فحواه، ما هو إلا عملية

---

[858]- عبد القادر الجيلاني : رسالة في التصوف خمسة عشر مقالة في التصوف،د تح، دط، د تخ،.ص 46

[859] - القحطاني: المصدر نفسه،ص85.

[860]- الشطنوفي:المرجع السابق، ص53.

[861]- المرجع نفسه ،ص 52.

[862]- عبد القادر الجيلاني: جلاء الخاطر،المصدر السابق، ص24.

تهذيب لباطن الإنسان، كي تمحي عنه جميع الشهوات الزائلة، وكي لا تبقى فيه إلا شهوة واحدة وهي: «طلب الله عز وجل والقرب منه ومحبته فحسب»[863] وهذا هو ملاك التوحيد وجماع معناه وملاك التصوف وجماع معناه وملاك حقيقة الوجود وجماع معناها.

ولكن كيف للإنسان الطالب للزهد، أن يعيش وسط تلك التناقضات الحادة، فهو من جهة مجبول على الميل الى كل مطلوباته من الدنيا، وفي الوقت نفسه يطمع في الفوز بنعيم الآخرة، وهو من جهة أخرى مجبول على العيش مع الخلق والتعاطي معهم وهو في الوقت نفسه يتطلع الى الخلوص الى ربه وحسن التوجه إليه؟ يرى الشيخ عبد القادر أنه لا وجود لهذه التناقضات على أرض الواقع وإنما هي توجد فقط في قلب المريد الذي يستحيل أن يجتمع فيه خلق وخالق ولا دنيا وآخرة. وأما خارج مملكة القلب فإنه يزول التنافر وتتلاشى التناقضات ويصير من الممكن أن يكون للخلق حضورا في ظاهر العبد في الوقت الذي يكون فيه للخالق حضورا في باطنه، وأن تكون الدنيا في يد العبد و الآخرة في قلبه[864]على أن الشيخ عبد القادر، مع دعوته الى تناول الدنيا بيد الظاهر دون الباطن، فإنه لا يترك هذا التناول دون قيد أو شرط، بل إن هذا الفعل عنده يحتاج الى متابعة وتأديب وتقويم، ويتم ذلك عن طريق تزيين العبد لظاهره، بآداب الشرع كما يسعى إلى تزيين باطنه بالزهد والتجرد «ورد أبواب الخلق وإفنائهم من القلب حتى كأنهم لم يخلقوا والعمل على أن لا يرى على أيديهم ضرا ولا نفعا»[865]. الأخذ إذن مباح ولكنه أخذ مشروط، والترك على العبد واجب، ولكنه لا يصح ويثمر إلا في أرض القلب، والجمع بين الأخذ والترك، هو السنة الصحيحة وهو المعنى الحقيقي للدين.

وعند الشيخ عبد القادر، يرتبط الزهد أيضا بالتسليم[866]. فالتسليم الذي يعني عنده: ترك الاختيار وسلب الإرادة والامتثال لأمر الله تعالى مع «خلع ثياب الدنيا ولبس ثياب الآخرة و الانخلاع من الحول والقوة والوجود، والإستطراح بين يدي الحق عز وجل، بلا حول ولا قوة ولا وقوف مع سبب ولا شرك بشيء من المخلوقات»[867] يكاد أن يكون هو المعنى عينه الذي يسعى الزهد الى امتلاكه و التلبس به، من أجل أن تصلح للمريد عبادته وثم سلوكه الصوفي. إن يقين العبد بعبوديته من جهة، وألوهية ربه من جهة أخرى، واعتقاده بأنه محاط بعلم الله تعالى وقدررته وإنه تعالى وحده مالك الملك ومقسم الأرزاق وهو المثبت للأقدار وهو الماحي لها وهو النافع وهو الضار وهو المعطي وهو المانع وهو الحافظ الذي يحرص على عبده ويحبه أكثر من حرص عبده وحبه لنفسه، كل ذلك يدفع به إلى االنخلاع عن حوله وقوته والى الثقة بربه والى حسن التوكل عليه، والى عدم اشغال

---

[863] – عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني و الفيض الرحماني ، المصدر السابق ،ص158.

[864]– عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني و الفيض الرحماني، المصدر نفسه، ص 149.

[865]– المصدر نفسه، ص 193.

[866]– يعطي الشيخ عبد القادر لمقام التسليم، أهمية كبيرة في نظريته الصوفية، لأنه يرى فيه عماد التصوف وأساسه، ويمكن أن نلمس هذا الاهتمام خاصة في كتابه الأهم (فتوح الغيب) إذ لا يخلو فصل منه من دعوة الى التسليم لله تعالى والى ترك المطالبة والكف عن مطاولة الأقدار.

[867]– عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني و الفيض الرحماني، المصدر نفسه، ص 44.

القلب بغيره، لا خوفا منهم ولا طمعا فيهم، وهذه كلها إن كانت تعد من خصائص حسن التسليم لله تعالى، فإنها في الوقت نفسه تعد من النتائج اللازمة عن الزهد في الدنيا وعرضها.

إن الزاهد يمضي في زهده، ويحتمله من جراء ذلك، من أجل أن يزيل عن نفسه الكثير من الأدران والشوائب التي تعكر صفو علاقته بربه، وتعيق خطوات سيره إليه، والعبد كلما اجتهد في عملية تطهيره الباطني،فإن علاقته بربه ستزداد صفاء و سطوعا، وإن أكثر ما يجعل بإنشاء هذه العلاقة وإنجاحها، هو حسن تسليم العبد لمولاه وعدم اعتراضه على مر قضائه، وتجدر الإشارة، الى أن تسليم العبد لا يمكن النظر إليه بكونه قرارا يتخذ أو نية تعقد مجردة عن الفعل، وإنما عزم وسلوك وسعي ومعاناة، وهذه جميعها لا يتمكن الإنسان من إتيانها دون زهد ومجاهدة وصبر. وهنا تتوضح أمامنا بصورة أدق، العلاقة العضوية التي تجمع الزهد بالتسليم، فمن جهة نرى أن الزهد لا يصح إلا بصدق التسليم لله تعالى ومن جهة أخرى فإن التسليم لا تنيع ثماره ويؤتي أكله إلا بصحة زهد وكثرة مكابدة، الزهد إذن، هو الأرض الخصبة التي إذا تعهدها المريد بالصدق والإخلاص فإنها ستنبت له كل ما يسعى إلى تحصيله من المسرات القلبية والثمرات الروحية، فالزهد الذي يعلم المريد كيف ينفرد عن وجوده النفسي، وكيف يتنصل من غمد أهوائه وطباعه، سيفضي به حتما إلى التفريد، والزهد الذي يصل بالزاهد الى الفناء عن شهود الأغيار والأكوان، والانتباه فقط الى الموجود الحقيقي الأوحد، فإنه سيصل به حتما إلى مقام التجريد، والزهد الذي بجوهر الوجود الباطني للزاهد، خالصا لرب العالمين، سيصل به الى التوحيد الحقيقي الذي هو شهود التوحيد. ونحن إذا كنا قد علمنا بأن مقامات التفريد والتوحيد والتجريد، هي من الأركان الأساسية والمتقدمة في التجربة الصوفية، بحيث أنه لا ينالها إلا مخلص والخواص من الرجال، فسيتبين لنا مدى أهمية تجربة الزهد في الفعالية الصوفية برمتها، بحيث أن درجة نقاء فعل الإنسان وصدقه وصفائه في زهده، تمتد لتشمل كافة مراحل سيرته الصوفية اللاحقة.

إذن فالزهد يعد من المحطات الصوفية الأساسية التي يمر بها السالك باستمرار بحيث لا يمكنه أن يغادر دون رجعة. وفي الوقت نفسه، فإن الزهد، مع كثرة فوائده، فإنه يحتاج من المريد، الى جهد بالغ وعمل جبار، لأن فيه قلبا تاما وتغييرا جذريا للآلية التي ركبت على أساسها طبائع البشر. إذ أن في الزهد الكثير من المخالفة الصريحة للأهواء والميول والخصال والعادات المتجذرة والمتأصلة في جبلة البشر. إن الزهد بدوران عجلاته المعاكس، هو الذي يجعل من هذه الطبائع، ولأجل غاية أسمى، تبدو في نظر الصوفية عقبة كأداء ينبغي تجاوزها أو التخلص منها، ولو الى حين. وبهذا الفعل، يمكننا أن نعد الزهد تجربة أخلاقية فائقة، تعمل على لإلحاق كثير من البشر العاديين في زمرة الأولياء والروحانيين الذين «سلكوا جادة النبيين والصديقين والصالحين»[868].

[868] – عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني و الفيض الرحماني، المصدر السابق، ص 98.

والذين اتخذوا من الورع والقناعة منهجا في الحياة وفي العيش مع الناس، والذين جعلوا بذلك من أنفسهم منارات تنير للآخرين طريقهم وتثبت لهم قدرة الإنسان الأكيدة على تجاوز حدوده الضيقة وعلى الانطلاق نحو آفاق الروح الرحبة ولكن دون إفراط أو تفريط وبموازنة دقيقة وحذرة بين طموحات الروح وواقعية حاجات الجسد.

ويمكن القول، وفق هذا المنظار، أنه لا يمكننا أن نرى في الزهد (الايجابي) كما وجدناه عند الشيخ عبد القادر، رهبنة جافة أو نزعة هروبية أو قطعية أبدية مع الآخرين، أو أن نعده من الدعوات الهدامة والسلبية وبناء المجتمعات وازدهار الحضارات. إن رجال الصدر الأول من الإسلام ما صاروا أبطالا وقدوات ونماذج تحتذى، وما دخلوا التاريخ من أوسع أبوابه، بعد أن كانوا من النكرات المنسيين، إلا لأنهم، بعد الإيمان بالله ورسوله، اتخذوا من الزهد في الحياة سنة وشعارا، وعلى العكس منهم، فما تردى من جاءوا بعدهم وانكشوا على أنفسهم وصار يتخطفهم الناس، إلا لأنهم أقبلوا على الحياة الدنيا بنزق وباندفاع هائج، أنساهم البعد الآخر الكامن فيهم والهدف السامي الذي وجدوا لأجله. إن الزهد البناء والمعقول، والمقرون بأهداف إصلاحية، سواء على مستوى الفرد أو الجماعات، يعني الحياة الحقيقية التي يجب أن يحياها البشر، ويعني بعد النظر احترام الإنسان نفسه وذلك بتميزه عن باقي الكائنات، ويعني أيضا: خلاص المجتمعات البشرية من كثير من الأمراض النفسية والاجتماعية التي تقف وراء أغلب الشرور التي يكابدها بني البشر، والتي يفرزها الشره والحسد والبغضاء وحب السيادة والظهور وهذه كلها تعد من النقائص التي يعالجها الزهد ويعمل على اجتثاثها.

الزهد إذن، هو الحقل الأخصب الذي يثمر الصلاح والمعرفة والتوحيد والتسليم وكل الخصال الحميدة التي تعين المريد السالك على الوصول الى مبتغاه. والزهد هو الحلقة الأولى والوسطى والأخيرة،في سلسلة التجربة الصوفية الطويلة المتشعبة. والزهد فيما لو فهمناه بالمعنى الذي أراد أن يوصله لنا الشيخ عبد القادر، فإنه يبدأ بالتخلي والترك والتجرد عن كل الحظوظ والأقسام، ولكنه بعد ذلك، يعود متجاوزا دور التشنج والمكابدة – أي دور التزهد – الى دور الصفاء والتمكين والعودة الى الحظوظ والأقسام بقل خال إلا من ذكر ربه، ونفس راضية مطمئنة غير متلهفة الى مطلب حرام أو مكسب شبهة، أو الى شره أو بطر. وهذا هو دور الزهد القلبي الذي يورث صاحبه الراحة والأمن.

المبحث الثالث: الذكر كفاعلية لشهود الوجود.

فأما إذا دخلنا في صلب الموضوع، فإننا سنجد أن الميزة الملفتة للنظر في النظرية الصوفية عند الشيخ عبد القادر تكمن في أن كل فقرة أو قسم أو ركن فيها يبدو فيما لو أخذ وحده، وكأنه هو الأساس والقاعدة والأصل، الذي بغيره لا يقوم لباقي البناء الصوفي كيان، وهذا الحال رأيناه ينطبق سابقا على الزهد وعلى المحبة وعلى الاخلاص وعلى جميع المقامات الصوفية الآنفة الذكر، وهو الآن ينطبق على (الذكر) الذي ستلاحظ أن يتقمص الدور نفسه ويبدو للآخرين وكأنه يمثل جماع لحمة وسدى النسيج الصوفي عند الشيخ عبد القادر. وأما سبب ذلك فهو يتعلق بطبيعة (هذه) النظرية التي عرفنا أنها ذات قوام عضوي متلاحم ومتكامل ومتداخل بعضه مع بعضه الآخر، وما تم الفصل والتقسيم بين أجزائها، إلا لغرض إجرائي يهدف إلى توضيح الأمور وتقريبها من إفهام الناس.

وعليه فيحق لنا أن نقول: إن التجربة الصوفية عند الشيخ عبد القادر، بجميع أبعادها وبمراتبها كافة ترتكز أساسا على فعالية الذكر، وليس في ذلك أدنى مبالغة، لأن جميع الصوفية في الإسلام، هم ذاكرون بالضرورة، ولا يمكن لأي إنسان أن يتزيا بزي الصوفية أو حتى يتشبه بهم وهو تارك للذكر، فبالذكر تنجلي القلوب بعد صدئها وتتنور بعد عتمتها[869] وتفتح مغاليقها، وبالذكر تصح النفوس وتتجاوز هفواتها وتسمو على نقائصها، والذكر وحده هو الذي يكرس العبد لمحبة مولاه، لأن الحب بأدق دلالاته يعني الذكر، ولايمكن لأي إنسان أن يتخيل محبا غافلا عن محبوبه أو عاشقا ساهيا عن معشوقه، والذكر أيضا لا تصح فروضه، إلا إذا توجه الذاكر بقلبه وعقله ولسانه حصرا نحو الله تعالى، فهو إذن يأتي بمعنى الصلاة، والذاكر الصادق في ذكره هو في صلاة حية ومتواصلة مع ربه، لأنه إذا كان المغزى من الصلاة هو إنشاء معادلة صلة، طرفها العبد والرب إذ يواصل العبد ربه بالتضرع والخشوع والدعاء ويواصل الرب عبده بالرحمة والقبول والاستجابة، فإن الذكر ما هو إلا حقيقة إلا محاولة لتحقيق هذه المعادلة على أتم وجه ومن أقرب الطرق[870] وهذا هو موطن الأهمية في الذكر عند الصوفية.

واتنادا الى نظرية الترابط العضوي بين أجزاء البناء الصوفي عند الشيخ عبد القادر، فإن الذكر يأتي عنده بمعنى التوحيد، فالعبد الذي لا يخلص في ذكره ربه، فإنه بالضرورة سيشتغل بذكر غيره ويتعلق به ويرجوه، ومن كان هذا فعله فهو مشرك حتما، لأن القلب في عرف المحبين، لا يتقبل مذكورين اثنين، فأما خالق وإما خلق، ولا مجال هنا حتى للوسط (الذهبي)، لأن السالك الذي يسعى الى مزيد من القرب والحب لمولاه، سيعمل جاهدا على قطع جميع العلائق التي تربط قلبه بالأشياء والآخرين، ويكون ذلك، خاصة، في بداية سلوكه الصوفي، أي حينما يكون متزهدا غير مالك زمام نفسه وأهوائه، فإما بعد ذلك أي بلوغ حال التمكين وبعد أن يتشرب قلبه بمحبة مولاه،

---

[869]- عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني والفيض الرحماني، المصدر السابق، ص 106، والشيخ عبد القادر يستشهد هنا بالحديث النبوي الشريف: إن هذه القلوب لتصدأ وإن جلاءها القرآن وذكر الموت وحضور مجالس الذكر.

[870]- التادفي: المرجع السابق، ص 17، ويستشهد الشيخ عبد القادر هنا بالحديث النبوي الشريف الذي يسأل فيه الامام عل رضي الله عنه النبي صلى الله عليه وسلم تسليما عن أقرب الطرق الى الله تعالى وأفضلها عنده وأسهلها على عباده ؟ فقال: (يا علي عليك بمداومة ذكر الله تعالى في الخلوات

فإنه ستزول عن هذا القلب الكثير من الرغبات الزائدة التي كانت تضعه في حالة استلاب وعبودية تجاه الأشياء، فأما بعد ذلك، فإن محبة الله تعالى هي ذاتها ستعظم وتمتد لتشمل جميع ما خلق وبرأ وأمر.

إن اشتغال قلب العبد بتلك المرغوبات والمطلوبات يعد في عرف الصوفية شركا صريحا ووثنية ظاهرة، مما يحتاج معه الى فأس إبراهيم الخليل[871] وإصراره وإخلاصه كي تزال و يتطهر منها معبد القلب فيتأهل من جديد ليكون عرشا للرحمن. وهذا الفأس لا يعني في الحقيقة، إلا المداومة على ذكر الله تعالى، فهذا الفاعل هو وحده الكفيل بتحطيم تلك الأصنام التي هي كل ما سوى الله عز وجل، كما يقول الشيخ عبد القادر فإن: «القلب لا يصلح للتوحيد ولا يفلح في المحبة، حتى يترك كل محبوب ويقطع كل موصول ويزهد في كل مخلوق»[872]. أي حتى يخلص في ذكره لمذكور واحد وهو الله تعالى، ومن غرس هذا الذكر، يثمر التفريد والتجميد والتعظيم وتثمر المحبة ويثمر القرب، وهذه هي مقاصد القوم ومطامحهم. غير التوحيد، فإن الذكر يمكن أن يعد عاملا أساسيا ومهما في التعجيل في وصول السالك الى حال الشهود والفناء في الله تعالى، لأن الذكر الذي يعني انشغال العبد بكليته بالله تعالى، وانشغاله المطلق عن الاغيار، بما في ذلك النفس والهوى والإرادة وكل الخلائق، يدفع به إلى تغييب تلك الأغيار ومحوها، وثم الخلوص لرب العالمين والاستعداد للدخول في حال الفناء الشهودي، الذي تكون فيه مرآة القلب مجلوة ومهيأة لتلقي الأنوار الإلهية، وهي حالة الصفاء التام التي تؤهل المريد للدخول في مرحلة التصوف الحقيقي واكتساب لقب الصوفي. ولكن الصوفية بما امتازوا به من جرأة في طرح أفكارهم ونظرياتهم، يرون أن الذكر رغم أهميته الشرعية والعبادية، يصبح دون معنى عند عبور المريد بوابة الشهود، فأين يكون محل الذكر عند تحقق اللقاء والذكر بطبيعته يفترض غيبة المحبوب؟ الذكر إذن عاملا مساعدا على دخول المريد في حال الشهود، فأما إذا تم الأمر وتحققت الغاية، فإنه يصبح بلا معنى.

والذكر أيضا يعني صدق المريد في محبته لربه لأنه يدل على التضحية والإيثار، كتضحيته بكل ما يرغب ويشتهي من حظوظ النفس وأهوائها، وإيثاره لإرادة محبوبه على كل ما سواها من الإرادات. وإن من صدق المحبة أن لا يفتر العبد عن ذكر ربه لحظة، لأن من فتر عن ذكر ربه فإنه «ما عرف قدر جلاله، ولا لحظ أزلية وحدانيته من التفت بعين سره الى غيره»[873] إذن فأفضل المحبة متعلق بإرادة المحب وتوجه قصد مرامه لطلب المحبوب، وهذا ما يجسده الذكر الذي إن داوم عليه العبد فإن الله تعالى سيحمله بنجاح لطفه الى مقعد صدق عنده وهذا (المقعد) هو الذي يفضي به الى المحبة . فأما إذا تمت المحبة، وملأ المحبوب فضاء قلب المحب كله وملكه عندئذ تسقط الإرادة عن المحب وتكون بواعثه مستمدة من إرادة محبوبه، وهذه كما يسميها الشيخ عبد القادر «حالة المحبة الخالصة»[874] وهي للمحبين الذين لا يفترون عن ذكر محبوبهم خاصة فإذا ما سمع هؤلاء المحبون ذكر محبوبهم لهم، فسيعتريهم حبور عظيم، لدخولهم في حال جديد وارتقائهم الى مرتبة أعلى، وهي مرتبة المحبوبين المرادين الذين

---

[871]- الرجوع لقصة سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام.

[872]- عبد القادر الجيلاني: جلاء الخاطر، المصدر السابق، ص 45

[873]- الشطنوفي: المرجع السابق، ص 125.

[874]- المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

خففت عنهم الأحمال وشملتهم يد العناية الإلهية، استحقاقا منهم وفضلا ومنة من الله تعالى والمحبوبون يكونون بهذه المرتبة قد انتقلوا من حالة الشوق التي تنتفي عند تحقق اللقاء إلا حدة واضطراما. ولا يفوتنا أن نشير هنا الى تأكيد الشيخ عبد القادر على الربط العضوي بين أجزاء نظريته الصوفية، وكما هو واضح، فالذكر يفضي الى كل من الزهد والتوحيد والصدق والمحبة في الوقت نفسه، على أن هذه النظرية لا تختل ولا تهتز أركانها فيما لو استبدلنا الذكر بأي فعالية أخرى من الفعاليات الصوفية لأن النتيجة ستكون واحدة في كل الأحوال.

ولا يفوت الشيخ عبد القادر أن يذكرنا أن شوق الإنسان الى ذكر ربه، مثله في ذلك مثل كل الأحوال الصوفية الأخرى، لا يعد فعلا إنسانيا خالصا – أي يصدر فقط عن إرادة الانسان وقصده- وإنما مصدره الأول هو الرحمة الإلهية التي إن هب نسيمها على أرواح الذاكرين، اهتزت تلك الأرواح طربا لذلك وسعت الى الانطلاق من أقفاص أشباحها، متوهجة بذلك الشوق، ومن توهجها هذا ستضيء العقول والقلوب وهذا هو معنى الجلاء والتألق الذي يسعى الصوفية، عن طريق الذكر لبلوغه. وكما نلاحظ، فإن عملية التوهج قد بدأت من الأرواح أولا، التي هي الأنفس بعد صفائها والتوهج ما هو إلا عملية تنوير معنوية، أي معرفية، يفيض معينها من داخل النفس الإنسانية، بعد استكمالها شروط الجلي المطلوبة والتي مررنا بها سابقا عبر محطات الزهد والمجاهدة وأنواع الرياضات الروحية، والتي جاء عامل الذكر أخيرا، كي يمنحها القدح المطلوب لكل هذا التوهج. على أن هذه المعرفة وإن كانت ذاتية المصدر إلا أنها لدنية الأصل، لأن مصدرها الحقيقي هو المعرفة الإلهية المغروسة في أصل الفطرة الآدمية والتي لا تخرج الى حيز الوجود إلا بعد أن تتواص مع منبعها الإلهي عبر قنوات النور التي ينشئها الذكر.

ولعل من نافلة القول أن نشير الى أن كون الشوق الإنساني الى الذكر يبدأ من خارج ذاته، فإن ذلك لا يلغي دور الإنسان في التواصل وهذا بالضبط ما يميز الذكر من الحب الإلهي عند الشيخ عبد القادر، فالذكر هو مقام طلب وقصد، وهو مما يشير الى الافتقار الى إرادة العبد، بينما الحب الإلهي وهو التحفة الربانية الخالصة، فإنه من محض الاصطفاء وليس للعبد فيه كسب ولا اختيار، ولذلك نجد أن الله تعالى قد قدم ذكرنا على ذكره كما في قوله تعالى:﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾[875]. بينما قدم محبته على محبتنا وذلك في قوله تعالى الذي يصف فيه المؤمنين: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾[876] وفي الخلاصة فإن الذكر يمكن أن يعد من بين الفعاليات الصوفية المزدوجة المصدر، فهو فتح من الله تعالى من جهة وقصد من العبد من الجهة الأخرى.

ولقد وضع الشيخ عبد القادر لمريديه، مجموعة من **الأذكار أو الأوراد** كما تعارف على تسميتها أتباعه، وهي عدد معلوم ومحدد من أسماء الله الحسنى، مرتبة ترتيبا يتوخى التدرج في نوال الفوائد الروحية وفي تخليص النفس الإنسانية، قدر الإمكان من أدرانها ونقائصها[877]. أول هذه الأوراد هو ورد: {لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ} وهو الأهم من

---

(875)- سورة البقرة [الآية 152].

(876) - سورة المائدة [الآية 54].

(877)- حول هذه الأوراد، يراجع كتاب الجيلاني (الفيوضات الربانية) فهو يشتمل عليها مرتبة وفق مقامات النفس ومراتبها مع ملحق بذكر الفائدة الروحية المرجوة من كل ورد.

بينها، إذ يلقن للمريد، بعد أخذه العهد مباشرة، سواء على يد شيخه الحي أو على يد من ينوب عنه، والشيخ عبد القادر يعول كثيرا على هذا الورد، إذ يرى فيه إضافة الى كونه شعارا للتوحيد، خير وسيلة لتخليص الإنسان من شراك نفسه الأمارة بالسوء وللتعجيل في بلوغه مقام الإخلاص، هذا إضافة الى أن مداومة المريد على ترديده قلبا ولسانا، هي التي تؤهله لاكتساب صفة الذاكر التي تعد من بين الصفات الأهم عند الصوفية. ويرى الشيخ عبد القادر، أن لهذا الورد أفعالا عجيبة يجريها الله تعالى بواسطته، على قلب الذاكر إذا ما داوم على تلاوته واستكثر من ترديده، إذ ببركته يتوقد في باطن المريد مصباح ملكوتي ينير له ما خفي واستتر من مكامن التقصي في نفسه، فيسهل عليه بعد ذلك تجاوزها والتخلص منها، وهذا المصباح يعده الصوفية أول الجذبات القدسية التي تسم المريد، بميسمها، فتجعله من الروحانيين، والمريد كلما استزاد من تلاوة هذا الورد، ازداد توهج مصدر النور فيه، مما يعني زيادة قوة هذه الجذبة التي يمكن أن تدفعه، بمصاحبة المجاهدة وبمساعدة المراقبة والمرابطة، الى أعلى درجات الكمال المتاحة، فيقوى معها على حمل الأمانة الكبرى، التي هي هداية الخلق وإرشادهم إضافة الى زيادة استعداده لتلقي الأنوار القدسية والتجليات الإلهية[878] ويضاف الى ذلك أيضا، فائدة خفية أخرى لا يدركها إلا من سلك السبيل، وهي أن الذي اعتاد، بعد أن أصبح من الذاكرين، على حياة الطهر والمعرفة والنقاء الروحي سيأنف حتما من الرجوع الى حياته السالفة المشوبة بالنقائص والآثام، وعليه فالطريق المصاحب للذكر هو طريق ذو اتجاه واحد، يشير الى علو دون سفل. على أن بقية الأوراد لا تخلو من الفوائد الروحية والجوائز الإلهية، بل إن كل واحد منها يحمل فائدته الخاصة به والتي لا غنى عنها لكل مريد، وبصورة عامة، فإن الشيخ عبد القادر، يرى أن الأذكار، دون سواها من القربات، تشتمل على مجامع الخيرات ومصادر السعادات الدنيوية و الأخروية، لإضافة الى كونها دافعة لكن أنواع الضر الجسدي منه والنفسي، وأن التمسك بتلاوتها والصبر على إتمامها، يعني المواظبة على السلوك والبقاء على العهد الذي كان نقطة الانطلاق في بداية الطريق على أن أهم فائدة يمكن أن يجنيها المريد من إجراء إدمانه على ذكر ربه، هي انه يعتاد على أن لا يشغله عن الله تعالى أي شاغل، حتى لو كان (مطلوبا ومحبوبا)[879] من النفس، على أن هذا لا يعني التخلي التام والاعتكاف الدائم عن الدنيا والخلق، وإنما يعني أن لا يشتغل العبد إلا بما هو لازم شرعا، أما غير اللازم فإنه يلهي عن محبة الله تعالى ويؤدي الى الغفلة التي بدورها تورث الفشل والمقت والهلكة. إن المريد الذي يغالي في الأخذ بأسباب الجوع والعطش والسهر وإتعاب الجسد فإنه يحصل على نتيجة معاكسة، إذ يعجز لإفراطه عن القيام بواجباته الشرعية[880] التي هي المادة الأساسية للتصوف الصحيح.

إن الأوراد ما سميت أورادا إلا لأنها تروي قلوب الذاكرين وعقول العارفين بعد ظمأها كما يرتوي الظمآن من الماء البارد، لا بل أن الشيخ عبد القادر يرى أن ذكر الله تعالى أعذب من كل الموارد، لأن منه ترتوي العقول والقلوب والألباب، فهو عين التوحيد ومرتع الأنس بالله تعالى وإن فيه جلاء لرمد العقول التي طالما غشيتها غواشي الغفلة

---

[878]- العفيفي التونسي: رياض البساتين من مواقف العلماء والربانيين، د تح، د ط، د تخ، دار العفاني، ص 53.

[879]- المرجع نفسه، ص 53.

[880]- عبد القادر الجيلاني : الغنية، المصدر السابق، ج2، ص130.

والنسيان، فحجبت عنها أنوار جلاء ربها وجماله. والذكر ما اكتسب تلك الأهمية إلا لاحتوائه على مجامع الحمد كلها، ففيه تتجلى درر حمده تعالى ولآلي الثناء عليه ومسك شكره، وهو محمود بكل أشكاله وصيغه، سواء أكان ذكرا لأسمائه باللسان أم لأسراره بالباطن أم ذكرا لتجلياته بالقلب أم ذكر لحقائقه بالسر. وأما ذكر اللسان وهو أول مراتب الذكر، فإن من بين فوائده العديدة، أن العبد لو استرسل فيه فستفتح له بذلك أقفال من قلبه فيرتقي بذلك الى مرتبة ذكر القلب، وهو بهذه المرتبة وهذا الذكر سينال درجة القرب من جناب الرحمة الإلهية، وأما ذكره بلسان لطائف أسرار أمره فإنه سيكون ذاكرا على الحقيقة فإن ذكره أخيرا بسره، فإن ربه سيدنيه من مواطن القدس[881]. لأنه سيكون من المحبوبين المرادين اللذين لا يفترون بكل كيانهم قط عن ذكر ربهم.

يحصي الشيخ عبد القادر للذكر **فائدتين** مهمتين يرى أنهما ضروريتان لتربية المريد وبنائه روحيا. أولهما: الرضا بالله تعالى وموافقته في جميع الحالات، والثانية مجاوزة حاجز الموت الطبيعي بالخلود الروحي. إن المريد بمداومته على ذكر ربه وتعويد لسانه وقلبه وسره على ذلك فإنه سيكتسب بالتدرج محبة مذكوره والشوق للقائه وملازمة بابه وعدم التطلع صوب غيره، ومن كان هذا ديدنه، فإنه سيرضى حتما بكل ما يواصله به محبوبه، سواء أكان عطاء أم ابتلاءا، فإن كان عطاء فهو عين الكرم و الوصال، وإن كان ابتلاءا فهو تطهير وامتحان وترقية روحية، والعبد الذاكر راض بكل ما يأتيه من ربه، لأنه لسعة رجائه وشدة شوقه وصفاء توحيده وصدق إخلاصه لربه، لا يرجو عطاء غيره ولا يأمل دفعا لضر من سواه. أما الخلود، فإنه متعلق بالقلوب التي جليت بالأذكار والأرواح التي صفت وصقلت بالمجاهدات، فصارت لا ينالها العطب أو الفناء بموت الجسد، لأنها تخلصت بفضل الذكر، من كل ما هو قابل للفناء من الأهواء والعادات السيئة والطباع الرديئة وأصبحت لا تشمل إلا على الحسن منها مما لا يبلى أو يزول، لأنه من جنس الخالدات الباقيات ولأنه من جنس الصفات الأخروية والمحاسن الربانية، وبهذه الامتيازات فإنه سيكون لروح الإنسان قوام نوراني ملائكي لا تعطبه النوائب ولا يطفئه الموت، بل تنتقل هذه الروح بالموت من حية الى حياة أخرى ومن عالم الى عالم مغاير، بحيث يشكل الموت عندها سوى لحظة تحول أو مجرد نقلة، إن الموت لا يقدر إلا على القلوب الغافلة والنفوس الكدرة، فأما تلك التي اعتركتها المجاهدات وشفها الذكر وتلبس بها الحب الإلهي، فإنها ستداوم عليه حتى لو لم يصاحب ذلك حركة عضلة اللسان[882].

ولكن قول الشيخ عبد القادر ببقاء نفوس الذاكرين بعد الموت، لا يعني حصر الخلود فيهم دون سواهم من بني البشر، لأنه يؤمن حتما ببعث ونشور كل الناس ويؤمن بخلود الأرواح الشريرة في العذاب وخلود الخيرة منها في النعيم كما صرح بذلك في مواضيع كثيرة من كتبه[883]. إن ما يشير إليه حتما هو أنه يمكن للنفس الإنسانية، عن طريق الذكر، أن تعود الى طبيعتها الأولى التي فطرت عليها والى الصفاء القديم الذي وجد عليه أبو البشري قبل هبوطه الى أرض الشقاء، و أنها قد استعادت بالذكر، درجة قربها من ربها وقرب ربها منها، بحيث أن الموت لو

---

(881)- الشطنوفي: المرجع السابق، ص 125.

(882)- عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني والفيض الرحماني، المصدر السابق، ص 77.

(883) - عبد القادر الجيلاني: الغنية: المصدر السابق ،ج2، ص ص 299-300.

حضرها فإنه لن يزلزلها عن مكانتها تلك، فهي سابحة في ملكوت الله تعالى حامدة آلائه ذاكرة عظمته، وهي باقية على حالها تلك تلاقي حسابها يوم القيامة.

إن الشيخ عبد القادر، رغم كونه لا يقلل من أهمية **ذكر اللسان** وفائدته، إلا أنه يعول كثيراً وبالدرجة الأساس على **ذكر القلب**، لأن القلب هو السيد الآمر والناهي وأما اللسان فهو تبع له وغلام[884]. ولأن صاحب الذكر لا يستحق لقب الذاكر ولا ينال درجته إلا إذا ذكر إضافة الى لسانه بالقلب، ولابد من التذكير بأن القلب الذي يعنيه الشيخ عبد القادر هنا، هو غير تلك العضلة المادية التي تفنى بفناء الجسد، وإنما هو المكمن الروحي الذي تغرس فيه المعرفة والعلم والتوحيد والتوكل والزهد والإخلاص وكل الأفعال الخير الأخرى وهذا القلب، هو الذي إن صح وصلح، صار الذكر وظيفة دائمة له، وصارت من صفاته أنه لا يغفل أو يسكن إن نامت عيون صاحبه، لأن الذكر عنده يعني الحياة الدائمة، ولأن مثله قبل الذكر مثل الأرض الميتة[885]، فإذا ما مسها وابل غيث الذكر، اهتزت وأنبتت من كل زوج بهيج. على أن الصوفية، من ما يزاولون حتى الآن، ورغم التقدم العلمي الذي حصر كل الفعاليات المعنوية وغير المعنوية في فص الدماغ، يرون أن القلب هو الأساس والمصدر لكل الأحاسيس والمشاعر والعواطف، وهم يؤكدون، أنه يمكنهم إثبات ذلك عن طريق رياضات وخلوات خاصة، يمكن للمرء من خلالها، أن يرى، رؤية عيان، ما يشتمل عليه القلب من فعاليات وإمكانيات لا يمكن الشك في حقيقتها أ وجودها.

إن تأكيد الصوفية، بوجه عام، على ذكر القلب، لا يعني أنه يتحرك بالذكر كتحرك عضلة اللسان، وإنما هم يقصدون من ذلك أن يستجمع الذاكر كل حواسه وعقله وجماع تركيزه مصاحبة الشعور اليقيني بالمراقبة والتمسك بالمرابطة فالذي يذكر بقلبه، لابد له من أن يعي ما يقول، والواعي هو أول مراتب الشهود ثم ان يحس به ثم أن يتمثله، على أن هذه الشروط كلها، يمكن أن لا تتوفر في ذكر اللسان، لأن الذاكر فيه قد يسهو عما يقول أو يتوجه الى غير تلك الوجهة التي يعلن عنها، ومن هنا تأتي أولى درجات التفضيل عند الشيخ عبد القادر الذي أكده في أكثر من موضوع في كتبه، أن الذكر الحقيقي هو ذكر القلب، لا بل ذكر السر[886] الذي يتعاطاه الواصلون الذين إذا ذكروا الله تعالى، وهم لا ينفكون عن ذلك، فإنهم يشاهدون، ببصائرهم بدائع ملكوت وآيات عظمته، وبلوغ ذكر السر يدل على صحة ذكر القلب، وصحة ذكر القلب يدل على صحة ذكر اللسان، واجتماع الأذكار الثلاثة يدل على القرب والوصول ، وعلى أساس أنواع الذكر الآنفة، يقسم الشيخ عبد القادر الذاكرين إلى ثلاثة أصناف وهم: الذاكرون باللسان والذاكرون بالقلب والذاكرون بالسر، فأما الذي يذكر بلسانه فهو العبد الذي أحب أن يتوب من ذنوبه فارتأى أن يذكر الله تعالى بالتسبيح والتهليل والتكبير، كي يذكره ربه بالرحمة والمغفرة وقبول التوبة، على أن الاستمرار على هذه الأذكار، هو يدفع بالعبد الى تحري سبل المجاهدات والرياضات ونيل الدرجات الروحية العالية، أي بمعنى الانخراط الفعلي في السلوك الصوفي وهو ما يؤدي الى رفعة الى

---

(884)- عبد القادر الجيلاني: الغنية، المصدر نفسه، ص 106.

(885) - عبد القادر الجيلاني: جلاء الخاطر،المصدر السابق، ص 44.

(886) - المصدر نفسه، ص 250.

مستوى ذوي المرتبة الثانية، فإذا طمح في المزيد من المعرفة والصفاء، فإنه سيذكر ربه بسره وسيصير من العارفين الواصلين والروحانيين الربانيين، وهم كما يسميهم الشيخ عبد القادر: «رجال الله الذين يقيمون بين الناس بأبدانهم فأما أرواحهم فهي عند مليك مقتدر»[887] وهؤلاء الرجال يكون وجودهم بين الناس مهما وضروريا لأنهم أعلام هداية يقتدي بهم الخلائق ويقتفون آثارهم بما وهبهم ربهم من الحكمة والمعرفة ومن علم القلوب وطب الأرواح والنفوس، ولولا هذا الواجب لكان غيابهم أولى من حضورهم بين الخلق، وهذا الواجب هو الذي يكسب تصوف الشيخ عبد القادر صفة (التصوف الايجابي) الذي يرفض الاعتزال التام وهجر المجتمعات ويؤمن بضرورة الاندماج مع الناس والأخذ بأيديهم ومساعدتهم من أجل بناء مجتمعات صحيحة الأفراد سليمة المعتقدات متينة الروابط.

على أن هؤلاء الذاكرين ينقسمون الى ذاكرين محبين وذاكرين محبوبين. فأما الذاكرون المحبون فهم أولئك الذين انتهجوا ذكر ربهم شغلاً يشغلهم عن سواه وعبادة يتقربون بها إليه، وأما الذاكرون المحبوبون فهم الخواص من الرجال من الذين زالت عنهم الحجب الظلمانية والنفسية ومن الذين ماتوا عن حياة الناس وصاروا يقتدون بالأحوال وليس بالأقوال[888]، أي بعلم القلوب و الإلهامات الربانية المبنية أساساً على صحة تمسكهم بعلوم الشرائع وآدابها.

الذكر من جانبه يقع أيضا على قسمين: **ذكر جهري وذكر خفي**، الأول يتقدم في الزمان والثاني يتقدم في الرتبة، الأول يتعلق بإرادة العبد وعزمه والثاني يعد من قبيل الأحوال التي تغدقها المنة الإلهية على المحبوبين، الأول يأتي على عدة مراتب والثاني لا تكون له إلا مرتبة واحدة لأنه آخر العطايا وأوفى المنن. فأما مراتب الذكر الجهري فإن الشيخ عبد القادر يوزعها على عدد مراتب النفس الإنسانية وأولها هي مرتبة ذكر اللسان، وهي الخطوة الأولى والأساس في الذكر كله، لأن التمسك بها وتجاوزها بنجاح يعني الاستمرار في السلوك ويعني اكتساب صفة الصبر، وهو ما يعول عليه الصوفية كثيرا في كل مراحلهم اللاحقة، ولهذا الذكر في بداية الطريق فوائد روحية جمة، إذ أن اعتياد المريد على ترديد تلك الأسماء، سيعينه كثيرا على التخلص من كثير من ظلام الآثام والذنوب التي كانت تكدر صفو نفسه وقلبه، ويورثه الحياء من صاحب تلك الأسماء فيمنعه ذلك من كثير من الزلات. ثم بعد ذلك يلج المريد الى محطة الذكر الثانية، وهي مرتبة: ذكر القلب التي تعني مداومة القلب على مراقبة ما ينعكس في ضميره من أنوار الجلال والجمال. فأما الجلال فيورثه الهيبة والقبض والانحسار، وأما الجمال فيورثه الفرح والبسط والإنشراح، أي أنه سيكسب من وراء هذا الذكر، حالي الخوف والرجاء وهما عماداً الايمان ومن دونهما لا يكون قرب ولا يتحقق وصول، ثم تأتي بعد ذلك مرتبة ذكر السر، وهي التي فيها يراقب العبد بسره مكاشفات الأسرار الإلهية التي تعكس عظمة الله تعالى ومنزلة العبد ودرجة قربه وعلمه. علما أن السر لا يتميز من القلب في المكان أو الوظيفة وإنما هو مجرد تطور معرفي يكتسب من خلاله العبد زيادة في التجريد والانسلاخ عن الأشياء والحاجات، ثم زيادة في اسباب القرب من الله تعالى، وهكذا هي بقية المراتب التالية.

---

[887]– عبد القادر الجيلاني : الفتح الرباني والفيض الرحماني، المصدر السابق ص 362.

[888] – التادفي: المرجع السابق، ص 93.

المرتبة الرابعة هي مرتبة ذكر الخفي التي فيها تتحقق المعاينة الحقيقية لأنوار جمال الذات الأحادية، وهذه المعاينة لا تشبه في شيء المراقبة التي تحققت في المرتبة الثانية هي مراقبة نعم، ولكنها تتم من خلال كل الجوارح والحواس، بحيث لا يبقى منفذ لغير الحدث المنظور، وهو ما يمكن أن نسميه بالفناء الشهودي الذي تنمحي معه كل الموجودات وتنمحق كل المشهودات مخلية مساحة الشهود أمام حقيقة الحقائق والوجود الأوحد المتجلي بالأسماء و الصفات والحقائق الفردانية، ثم يأتي ذكر أخفى الخفي في المرتبة الخامسة وفيها يتم النظر الى حقيقة اليقين، وهو ما لا يتم إلا بإذن من الله تعالى ولأفراد قلائل. وهذه المرتبة ذكرها الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾[889] وهي أبلغ من كل العلوم والمعارف وهي منتهى المقاصد وفيها يقترب العبد كثيراً من درجة الكمال في العبودية، لأن العبد يواجه فيها بفقره المطلق الغنى المطلق والقدرة المطلقة لله تعالى.

المرتبة السادسة من مراتب الذكر تعود إلى نقطة البداية ولكن في التسمية فقط، لأنها من حيث النوع تختلف اختلافا جذريا. إنها ذكر اللسان من جديد، ولكنه ذكر يمتاز بعمقه الروحي الذي يشمل كل مساحة القلب والسر والخفي وانتهاء بأعمق أعماق أخفى الخفي. وهذه المرتبة هي الأخيرة من بين مراتب الذكر الجهري لأن الذي يأتي بعدها ينتمي الى الذكر الخفي وهو يقع في مرتبة واحدة فقط وهي مرتبة ذكر النفس. وهنا لا يكون الذكر مسموعا بالحروف والأصوات، ولكنه يدرك بالحس وبحركة الباطن، وهو لا يتقيد بزمان أو مكان ولا بصحوة أو نوم وليس له تعلق بقبض أو بسط أو حال أو مقام، لأنه متواصل ومستمر في كل الأحوال، ومع هذا الذكر يدرك العبد الصلاة الباطنية التي توصله إلى ربه وتقربه إليه[890]. وهو عند الشيخ عبد القادر أعلى درجات الذكر، لأنه لا يقدح فيه نسيان ولا تكدره غفلة ولا يعيقه سكوت أو سكون أو حركة[891]. و أخيرا فهو منتهى قصد العباد وغاية مطالب الصوفية.

ومثل الذكر عند الشيخ عبد القادر مثل باقي العبادات، اذ أن له شروطا وآدابا لابد من الأخذ بها، وإلا فإنه سيقع في حلقة اللامشرعية أو في أل تقدير اللاجدوى وأول هذه الشروط وأهمها هو: أن يعمل الذاكر جاهدا على أن يتأدب بآداب النبي محمد صلى الله عليه وسلم تسليما، ويقتدي قدر الإمكان بسنته، ويتم ذلك بمتابعته سيرته صلى الله عليه وسلم تسليما واقتفاء آثاره في خلوته وفي جولته وفي عبادته وفي معاملاته، علما أن الصوفية بعامة وأصحاب الطريقة القادرية بخاصة، يعولون كثيرا على تلك المتابعة ويرون فيها تجسيدا لأفضل وأضمن وأقصر الطرق للتلبس بحب المصطفى صلى الله عليه وسلم تسليما، وهذا الحب هو خير المغانم عندهم وهو كنز العلوم والمعارف وأساس العبادات، لأنه هو الذي يهدي إلى المحبة الإلهية الخالدة وهم في ذلك يستندون الى القانون الإلهي الذي يجسده قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُونَ الله فَاتبَعُونِي يُحْبِبْكُمُ الله﴾[892] و يشترط في الذاكر أن يعتاد

---

(889) – سورة الأعلى [الآية 7].

(890) – عبد القادر الجيلاني: سر الأسرار ومظهر الأنوار فيما يحتاج إليه الأبرار، تح عدنان الزرعي–نصوح عزقول، دار السنابل، دمشق، ط3، 1994م، ص186.

(891) – الشطنوفي :المرجع السابق، ص 122.

(892) – سورة آل عمران [الآية 31].

الخشوع التام أي خشوع الظاهر والباطن، أو خشوع الجوارح والقلب، ويعد الخشوع من خيرة آداب العبد مع ربه، لأنه يدل على سعة في المعرفة وزيادة في الإحساس بعظمة وجلال الذات الإلهية. ويشترط من الناحية الشرعية، أن يؤكد الذاكر على طهارة بدنه وثيابه ومكانه، وأن يتحرى الحلال في مأكله ومشربه. وتعد هذه الأعمال بالغة الأهمية عند الصوفية، لأنهم يرون أنها تشتمل على معان وأسرار وفوائد روحية لها الأثر البالغ في تعجيل وإنجاح عمليات التطهير النفسي والتسامي الأخلاقي، إذ أن المريد الذي يشوب أعماله الطاهرة ظل من رجس أو حرام، سيعجز حتما عن التواص والاتحاد مع أنوار ذكره وأسرار مشاهدته. على أن اعتياد الذاكر مقاضاة ذاته على وفق أحكام ظاهر الشرع، سيفضي به ذلك حتما، الى أن يكون خبيرا بفقه الباطن الذي قوامه الورع واجتناب الشبهات والتقليل حتى من المباحات، ويشترط في الذاكر أيضا، إقامة المرابطة والمحافظة على حضور القلب، ويتحقق ذلك عبر استحضار معاني الأسرار الإلهية المذكورة، واستجماع الهمة في التأمل والتفكر في بدائع قدرته تعالى ووافر آلائه، إضافة الى تذكر الآخرة والموت والحساب. ومما يستعين به الذاكرون لأجل التواصل مع أسباب المرابطة، هو إتيانهم بحركات متوالية ومتناسقة للرأس مع البدن، يتوخى من خلالها التأكيد على جهة القلب، كي يستحلبوا بذلك أنواع الذكر الكامنة، وكي يصير قلبهم بهذه الأنوار حيا حياة أبدية أخروية[893]. ثم إن لهذه الحركات فائدة مهمة أخرى، وهي أنها تساعدهم على تحقيق التوحيد والربط بين ذكري اللسان والقلب، ولهذا الربط الفضل في ازالة الكثير من وساوس النفس وغلق كثير من منافذ الحواس التي قد تربك وتقوض فعالية الذكر برمتها، وتجدر الإشارة الى أن أصحاب الطريقة القادرية يعتمدون في مرابطتهم على استحضار همة شيخ الطريقة في وقته، وهم يرون أن هذه الوسيلة فعالة جداً لانجاز الذكر على وجهه الصحيح، لأن الإحساس بحضور الشيخ، مالك أزمة القلوب، سينقلهم تماما الى ساحة المراقبة التي تمتنع فيها الوساوس وتنتهي الشواغل وتنمحق الأهواء. وحري بالذكر أن نشير هنا الى أن الطريقة القادرية لازالت مشتملة في الوقت الحاضر، على أنواع مختلفة من الأذكار، منها الذكر الفردي والذكر الجماعي والذكر الخفي والذكر الجهري ومنها أذكار خاصة بأوقات معلومة من الليل او النهار، ومنها أذكار خاصة بكل مريد لوحده، بحيث تعتمد على سعيه ودرجة مثابرته والتزامه. ثم أن هنالك أذكارا جماعية تمارس مصحوبة بإيقاعات محددة خاصة بالطريقة نفسها، وكذلك هناك أذكار مهمة يحرص شيخ الطريقة على حضورها بنفسه، ويتم فيها التأكد على رفع الصوت وتوحيده مع الجماعة وعلى حضور القلب وإغماض العينين وغلق منافذ الحواس وطرد الخواطر والهواجس الرديئة التي تحرم المريد من بركة أذكاره.

إن أهمية الذكر البادية، وكثرة التأكيد عليه، الى الدرجة التي أصبح معها يشكل علامة بارزة من علامات الطرق الصوفية والسلوك الصوفي بعامة، تأتي من كونه يعد عند (القوم) من خيرة الوسائل المتاحة للعبد، لغرض تحقيق الصلة الحية بينه وبين معبوده. ولعل من نافلة القول أن نؤكد هنا، أن الذكر، فيما لو عمل به لوحده، وهو في ذلك مثله مثل كل الوحدات الصوفية الأخرى، فإنه لا يثمر ولا يؤتي أكله، لأن المريد سيحتاج إضافة إليه، إلى أن يجتاز كل مراحل السلوك المرسومة سلفا، أو بالأقل أن يسير معها حثيثا، لأن من البديهي عند أهل الطريق، أن

---

[893]- عبد القادر الجيلاني: سر الأسرار ،المصدر السابق، ص 42.

القلب الذي لم يكابد من وطأة الزهد ولم تعتصره المجاهدات وتروضه الرياضات، لا يمكنه بأي حال من الأحوال، أن يكون قلبا ذاكرا على الحقيقة، أي ذاكرا مع استحضار وشهود المذكور، ثم أن الذكر الذي يأتي قبل اتمام المجاهدات وألوان الرياضيات، سيختلف حتما عن الذكر الذي يأتي بعد ذلك، إذ أن معانيه ستتغير مع تغير أحوال الصوفية ومقاماتهم فالذكر الذي يأتي في بداية الطريق لرتق شروخ الغفلات، سيأتي في المقام الأخير بحلة مغايرة تماما، وهي أقرب الى الفناء الشهودي منها الى أي مفهوم آخر، والذكر الذي يؤديه صاحب مقام الرجاء، سيختلف عن ذكر صاحب مقام الخوف وهكذا.

لإن ذكر البعد ربه وأعني بذلك الذكر الحي الذي يملك من الذاكر كل كيانه الروحي والجسدي، ليس قرارا يتخذ أو فعالية إرادية بسيطة يمكن أن يمارسها الإنسان وقتما يشاء، إذ هو يشكل، مع باقي المفردات الصوفية، سلسلة طويلة من الحلقات المترابطة التي يستدعي بعضها بعضا والتي يكون مبتدؤها من التوبة ومنتهاها في الفناء الشهودي وان كل هذه المراحل أو الخطوات، لابد من أن تكون مصحوبة بفعالية الذكر فهي تستند عليه وتسانده، تستند عليه كي تكتسب مشروعيتها، وتسانده كي تصل به الى أفضل نتائجه الممكنة، ويمكن القول أخيرا أن جميع الفعاليات الصوفية، يمكن أن تعد، بوجه من الوجوه، عملية اعداد وتهيئته لقلب السالك كي يجتنب الغفلة يرتقي الى مرحلة الذكر الدائم، لأن بذلك وحده ينال الصوفية درجات الولاية ويبلغون المراتب الروحية العالية ويقتربون من ربهم ولأنه ليس للغافلين من زهدهم ومجاهداتهم إلا التعب، ولأن جميع الهبات الإلهية هي خالصة للذاكرين دون سواهم.

المبحث الرابع:المحبة عند الصوفية.

تمهيد:

شكل حب العبد ربه، وطلب التقرب منه، الوازع الأكبر الذي دفع بكثير من عباد المسلمين وزهادهم، الى تحري الوسائل والسبل الكفيلة بتحقيق هذا الهدف ونيل هذا المراد، وكان من بين نتائج هذا التحري والتعمق في خطرات القلب وفي لطائف أسراره، أن ظهر الفكر الصوفي الإسلامي، الذي ظل، هاجس الحب الإلهي، ملازما له طوال مراحله وأطواره المتعددة، ولكن، بالتأكيد مع نضج ملحوظ، ودقة متميزة في التعامل مع لواعجهة وهمومه ونوازله، وكانت هذه الملازمة، بين الحب الإلهي والتصوف الإسلامي، وهي نتيجة للازمة، لاعتقاد أغلب الصوفية، بأن سلوك الطريق الصوفي، وهو الذي سيهدي قلوبهم، حتما الى مزيد من الحب لمولاهم، وثم الى مزيد من طلب العزلة، والتفكير فيه والاختلاء معه، وهذه الأمور كلها تعد في نظر المحبين شروطا تدل على صحة المحبة وصدق الاشتياق[894] وهو معنى قول أبي طالب المكي (ت 358 هـ): إن من علم المحبة، سهر الليل بمناجاة الجليل والحنين الى غروب، شوقا الى الخلوة بالمحبوب، ومناجاة سرائر الوجد، ومطالعة الغيوب)[895] وكما نلاحظ، فإن الحب، أنى توجه، نحو السماء أم نحو الأرض، فإنه سيستوجب الأشراط ذاتها، من سهر وحنين واشتياق الى المحبوب، حتى وإن كان هذا المحبوب، هو الله تعالى ذاته.

إن كل سعادة، ترتجى من جراء التعلق بأي محبوب، سوى الله تعالى، يرى الصوفية، أنها صورة وهمية للسعادة الحقيقية التي لا تخضع للتغير أو الزوال، وهي السعادة المصاحبة لمطالعة الجمال المطلق، جمال تجليات الحضرة الإلهية ولقد وجد الإنسان المحب، أن هاجسه الملح الى امتلاك الحقيقة المطلقة وبلوغ السعادة المطلقة، والبقاء المطلق، لا يمكن تحقيقه، إلا من خلال السلوك الصوفي، الذي أساسه المحبة الإلهية، والتي تنبثق بدورها من عمق معرفة العبد بربه، ولأجل ذلك سمي الصوفية بالعارفين، لأنهم أكثر الناس معرفة بربهم، فلقد خلصوا له واختصوا به وتفكروا في خلقه وقدرته وعظمته، وإن معرفتهم تلك هي التي أفضت بهم الى الحب الإلهي، وليس العكس، إذ لا حب قبل المعرفة.

المحبة هي أصل جميع المقامات والأحوال، فهي أصل التوكل والشكر والصبر والرضا، كذلك فهي أصل الشوق والخوف والرجاء، على أن التمكن من المحبة الإلهية، على الحقيقة، لم يختص به سوى سيد الخلق أجمعين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم تسليما، فهو حبيب الله تعالى بلا منازع، وهو صاحب مقام الحب أصالة، وكل من أخذوا بأسباب الحب بعده، فهم عيال عليه، وهو قدوتهم فيه، ولقد أعطى من أسرار هذا المقام، ما لم يعط غيره

---

[894]- يفرق الصوفية بين حالي: الشوق والاشتياق فالشوق الذي هو: اهتياج القلوب الى لقاء المحبوب، تنطفئ جذوته عند اللقاء، بل هو في زيادة مستمرة، ولذا فقد عدّ من أحوال الخواص، إذ لا طاقة لغيرهم على احتماله، والذي يحل به الاشتياق، فإنه يهيم على وجهه حتى لا يرى له أثر ولا قرار – القشيريالمرجع السابق، ص 255.

[895]- أبو طالب المكي: قوت القلوب في معاملة المحبوب، تح نسيب مكارم، دار صادر، بيروت، ط1، 1973م ، ج2، ص 60.

من الأنبياء ولتحققه به، فقد قال تعالى في حقه: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُم تُحبُونَ الله فَاتبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ الله﴾[896] وقوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ الله﴾[897].

إذن، فقد جعل الله تعالى محبته في محبة نبيه، وطاعته من طاعة نبيه، وما ذلك إلا لأنه وفر نصيبه من نوره الذي أفاضه على العالم، بواسطته، ولذلك سماه: نوراً وسراجاً منيراً وجعله رحمة للعالمين، وبذلك النور، كان صلى الله عليه وسلم يدعو الخلق الى ربه تعالى، ليوصلهم بالنور الى النور[898].

وهكذا هي دائما، نظرة الصوفية للأمور، فعندهم، ليس بالعقل ولا بالحجج والبراهين، ولا بحفظ الأقوال والإكثار من الرسوم والحركات، يصل الإنسان أو يتقرب من ربه، وإنما هو يصل بنور البصيرة والحب الذي هو أداة القلب الوحيدة في التقرب الى الله تعالى.

وردت ألفاظ الحب و المحبة في القرآن الكريم عشرات المرات، لتشير في جملتها الى حبين: الأول محمود- وهو حب الله لعباده و حبهم إياه- و الآخر مذموم ، وهو حب الشهوات الذي يقترن غالبا بالضلال[899]، كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[900]

و لقد تعلق الصوفية بالنوع الأول من المحبة، و جعلوا من تلك المحبة الربانية أصلا من أصول الطريق، ونبهوا في الوقت ذاته الى خطورة حب الدنيا و الشهوات، باعتباره بابا لكل معصية، كما جاء في الحديث الشريف: ﴿ اتقوا الدنيا ﴾[901].

---

[896]- سورة آل عمران [الآية 31].

[897]- سورة النساء [الآية 80].

[898]- عبد الرحمن الأنصاري: مشارق انوار القلوب ومفاتيح أسرار الغيوب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1959م، ص 19.

[899]- د.يوسف زيدان: الطريق الصوفي و الفروع القادرية بمصر، دار الجيل ،بيروت، ط1، 1411هـ - 1991م، ص 97.

[900]- سورة يوسف [الآية 30]

[901]- الحديث ﴿اتقوا الدنيا...﴾ رواه مسلم في كتاب الذكر 99، و ابن ماجة في الفتن19، و ابن حنبل في المسند 19،22/3- و انظر العديد من الأحاديث النبوية في ذم حب الدنيا و ضرورة التزهد فيها، في: المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي151/3 و ما بعدها.

المطلب الأول: لمحة تاريخية عن ظهور المحبة عند الصوفية

ذهب "أمباذوقليس" في الفلسفة اليونانية إلى أن مبدأ المحبة هو المسؤول عن الاجتماع: أي التركيب و من ثم الاتحاد و الوحدة، و أن مبدأ الكراهية أو الغلبة هو المسؤول عن الافتراق، و قد ورد في الإنجيل إن الله محبة، و نفس هذه المعاني وردت في القرآن الكريم، و يؤكد معظم الدارسين أن الذي يمعن النظر في الدلالات التي أشارت إليها كلمة المحبة الواردة في النص الديني؛ يرى أنها تدل على اتجاهات ثلاثة:

ا- عاطفة حانية من الله نحو العبد

ب- عاطفة صاعدة من العبد نحو الله.

ج- عاطفة متبادلة بين الرب و العبد[902].

أما من جهة النظر العادية، نجد أن الحب يلعب دورا كبيرا في العلاقات الإنسانية، و مما يثير القلق في نفس الحبيب و يؤرقه، و يسود الدنيا أمام عينيه أن يولي الحبيب ظهره للمحبوب، أو لا يبادله حبا بحب. أما من جهة النظر الصوفية، فقد بدأت الثورة الروحية في الإسلام من المدارس الأولى للتصوف، فكانت مدرسة الزهد في الكوفة، و البكاء في البصرة، و الجوع في الشام، والفتوة و الملامة في خرسان و بلخ، حتى دخلت فكرة المحبة الى قلب التصوف، لينقلب المعامل الروحي عند أقطابه الأوائل من الخوف و الرجاء –الذي تفتحت عنه المدارس السالفة- الى محبة الله. ولم تعد الخشية من النار و الرغبة في الجنة حجر الزاوية في معاملة المحبوب، بل صار الشوق و التحرق للقائه هما الباعث الحثيث لخطى الصوفي في معارجه الروحية.

و قد ابتدأت المحبة تطرق أبواب التصوف برفق و استحياء، على يد عابدات مثل حيونة العابدة و شعوانة الفارسية و عبيدة بنت أبي كلاب البصرية، و غيرهن الكثيرات[903]، ثم تدفق نهر المحبة بقوة مع رابعة العدوية و سمنون بن حمزة... فبعد أن عبرت رابعة حجب الخوف و الحيرة والتجرد، دخلت الى ربها من باب المحبة التي كانت أقوالها و أحوالها ترجمة صادقة لها.

فإن كانت رباعيتها الشهيرة «أحبك حبين...» موضع شك من بعض المؤرخين و الدارسين[904]، فهي القائلة ما عبدته خوفا من نار و لا حبا لجنته، فأكون كالأجير السوء إن خاف عمل، بل عبدته حبا له و شوقا إليه[905]... و هي التي توجهت الى الله و أنشدت:

إني جعلتك في الفؤاد محدثي * * * * * و أبحت مـــــن أراد جلوسي[906]

---

[902]- د. إبراهيم بسيومي: نشأة التصوف الإسلامي، دار المعارف بمصر، دط، 1969، ص 173.

[903]- راجع ترجمات العابدات الأوائل الواردة في: حلية الأولياء، صفة الصفوة، سير أعلام النبلاء.

[904]- د. النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، دار المعارف، ط2، دت، ج3. ص207

[905]- د. بدوي: رابعة العدوية، دار القلم، بيروت، دت،د ط، ص 42.

[906]- الذهبي: سير أعلام النبلاء، تح شعيب الأرناؤوط و أخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، دط، 1401هـ، ج8، ص 216.

فالجسم مني للجليس مؤانس * * * * * و حبيب قلبي في الفؤاد أنيسي[907]

أما سمنون بن حمزة، الملقب بالمحب[908]، فقد جعل من المحبة طريقا الى المولى، و كان يرى المحبة حالا أعلى من المعرفة[909]... و قد رويت عنه أحوال و أقوال و أشعار عديدة في الحب الإلهي[910]، بل يذكر أئمة التصوف أنه كان يستفيض في الكلام عن رقائق المحبة حتى تتكسر قناديل المسجد و يسيل الدم من مناقير الطيور[911].

ثم كانت المحبة مذهبا لواحد من أهم الشخصيات الصوفية في النصف الأول من القرن الثالث الهجري، هو السري السقطي، الذي وضعه السلمي ضمن رجال الطبقة الأولى، ووصفه بأنه: إمام البغداديين و شيخهم، و أول من تكلم بلسان التوحيد و حقائق الأحوال.. و إليه ينتمي أكثر رجال الطبقة الثانية من مشايخ الصوفية[912]. كما ترجع أهمية السري السقطى في تاريخ التصوف إلى أثره البالغ في تلميذه و ابن أخته أبي القاسم الجنيد، الذي أثر بدوره في معظم من تلاه من الصوفية حتى لقبوه بشيخ الطائفة، و مما يروى في المحبة عند مؤرخي التصوف، أن جماعة سألوا الجنيد عن حقيقة المحبة، فظل يورد من الأحاديث و الآثار و قصص المحبين شيئا كثيرا، فدفع إليه السري السقطى برقعة، وقال له هذه خير من سبعمائة قصة أو حديث يعلو! و كان المكتوب في الرقعة:

و لما أدعيت الحب قـــالت كذبتني * * * * * فمالي أرى الأعضاء منك كواسيا

وما الحب حتى يلصق الجلد بالحشا * * * * * وتـــــذبل حتى لا تجيب المناديا

و تنحل حتى لا يبـــقي لك الهوى * * * * * سوى مـــــقلة تبكي بها و تناجيا[913]

و تطورت فكرة المحبة بعد القرن الثالث الهجري تطورا كبيرا، و أفرد من ألفوا في التصوف أبوابا و فصولا لها، كشفوا فيها عن الأصول الشرعية للمحبة، و أشاروا الى المنازع الذوقية للمحبين من أهل الطريق، فصارت المحبة بذلك اصطلاحا صوفيا خاصا، له دلالاته الواسعة[914].

---

[907]- الزبيدي: إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، ج9، ص 576

[908]- هو أبو الحسن سمنون بن حمزه الخواص البغدادي، لقبه معاصروه بسمنون المحب أما هو فكان يسمي نفسه: سمنون الكذاب.. لأنه أنشد قال فيها: فليس لي في سواك حظ * * * * * فكيفما شئت فامتحني. فحصر بوله من ساعته، فكان يدور على الكتاتيب ويقول للصبيان: ادعوا لعمكم الكذاب! و ظل يلتوي أربعة عشر يوما، فلما أطلق بوله قال: يا رب تبت إليك ./ د. يوسف محمد طه زيدان: المرجع السابق، ص 99.

[909]- القشيري، الرسالة القشرية، ص 157.

[910]- د. يوسف زيدان: المرجع السابق، ص 99.

[911]- الرسالة القشيرية :المرجع السابق،ص 160... و بقطع النظر عن هذه الصورة الدرامية التي يصف بها القشري مجالس سمنون و أثر كلامه في المحبة على الجهادات و الطير، فإن ما يهمنا هنا هو التطور الكبير لفكرة المحبة كواحدة من علامات الطريق الى الله. أما هذه الصورة التي يعرضها القشيري، فإنها تدخل في باب (كرامات الأولياء) و الذي يمكن الرجوع بصدده الى الفصل الخاص بكرامات الإمام الجيلاني في الكتاب الأول من هذه المجموعة: عبد القادر الجيلاني، باز الله الأشهب.

[912]- د. يوسف محمد طه زيدان: المرجع السابق، ص 99.

[913]- القشيري: الرسالة القشيرية، ص 160

و قد تنوعت نظرة الصوفية الى المحبة، فمنهم من يعتبرها مقاما لأهل التمكين- كالمكي[915]- ومنهم من يراها حالا من أحوال المقربين – كالسراج[916]- و منهم من يجعلها فاصلا بين الظاهر و الباطن – كالنابلسي[917]- فينظر إليها أنها آخر طور من أطوار العلم، و أول طور من أطوار المعرفة... أما السلمي، فيفوق الكل حين يجعل المحبة: السبب الذي خلق الله تعالى العارفين لأجله[918]!.

مما يدفع للتساؤل عن حقيقة مفهوم المحبة عند القوم ،كيف حد الصوفية المحبة ؟وبما عرفوها ؟ وما هي الخصائص التي ميزوها بها ؟ وهل هناك جنس واحد من المحبة، ام هناك انواع مختلفة لها؟

المطلب الثاني: مفهوم المحبة عند الصوفية:

الحب الإلهي يعني: تعلق القلب بين الهمة[919] و الأنس[920] في البذل والمنح، على الأفراد، وهو أول أودية الفناء، لأن العبد إذا لم يفعم قلبه بحب مولاه، فسوف لا يتمكن من خلع صفاته ونسيان ذاته في مقابل صفات وذات حبيبه، وحب الله تعالى، هو العقبة التي ينحدر منها المريد على منازل المحو، وكونه عقبة، فإن هذا يعني أنه صعب المنال، إذ أن على محرابه تذبح الكثير من الصفات والأهواء والطبائع غير الملائمة، وهذا مما يعسر على النفس الإنسانية تقبله. والحب الإلهي، وهو: آخر منزل تلتقي فيه مقدمة العامة مع أولى خطوات الخاصة، إذ إن كل الناس يتقربون الى الله تعالى بأنواع القربات، وأما الحب، فقليل من عامة الناس من يتعاطاه، وأما الخاصة منهم فهو أول منازلهم، وكما أنه في الوقت نفسه آخرها، والحب الإلهي هو سمة الطائفة – أي الصوفية – فهم أهل الحب الإلهي، وهو عندهم عنوان الطريقة، لأن طريقهم هي طريقة وصول وتقرب الى المولى تعالى، ولا وصول ولا تقرب بغير وازع الحب، والحب الإلهي هو معقد النسبة، أي أنه عامل تقريب المناسبة بين العبد وربه إذ لا وسيلة مثله، ترفق النفوس وتجلي القلوب وتحسن الطبائع[921] أما القشيري، فهو في معرض تعريفه للحب الإلهي، يرد أولا على العلماء – أي أصحاب النظر العقلي من المتكلمين والفلاسفة- الذين يرون أن المحبة هي الإرادة، وهذا غير مراد الصوفية، إذ أن الإرادة لا تتعلق بالقديم، اللهم إلا أن يحمل المعنى على إرادة التقرب إليه تعالى والتعظيم له، يرى القشيري: أن المحبة لا توصف بوصف ولا تحد بحد أوضح ولا أقرب الى الفهم من المحبة نفسها. وهنا إشارة

---

[914]- راجع الفصول الخاصة بالمحبة، و تعريفات الصوفية لها، في المصادر التالية، اللمع : التعرف لمذهب أل التصوف ص 130 ، ص75،والقشيري: الرسالة القشيرية، ص 157. وأبو طالب المكي: قوت القلوب ج2 ص50.

[915]- ابو طالب المكي: المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

[916]- السراج الطوسي: اللمع في التصوف ،ص 86.

[917]- النابلسي: شرح عينية الجيلي (مخطوط دار الكتب رقم 362/ تصوف) ورقة 116أ

[918]- السلمي: المقدمة في التصوف، ص28.

[919]- الهمة: هي الانبعاث للمقصود صرفا، فلا يتمالك صاحبها منعها ولا يلتفت عنها – الهروي – منازل السائرين – ص 86.

[920]- الأنس: كما عرفّه الجنيدي يعني : ارتفاع الحشمة مع وجود الهيبة – الطوسي – المع – ص 60.

[921]- عبد الله الهروي : منازل السائرين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1408هـ –1988م، ص 89.

لطيفة من القشيري الى أن المحبة عموما لرقتها وشفافية الإحساس بها، وتعلق القلوب الصافية بها، مثلما لا تتعلق بشيء آخر سواها، فإنه يصعب وجود مثيل لها، تعرف به أو من خلاله، ولذلك كان أشبه شيء بها، هو المحبة ذاتها، ولعل في هذه الإشارة جانبا معرفيا، فكون المحبة إحساسا ذوقيا وتجربة معاشة فإنه يعسر وصفها إلا لمن ذاقها وأحس حرَّ لواعجها، ويحاول القشيري أن يدلنا على مقاربة وصفية لمعنى الحب الإلهي من خلال العودة الى الأصول اللغوية لكلمة الحب، والتي تعني أولا: صفاء المودة فالعرب تقول لصفاء بياض الأسنان ونضارتها: حبب الأسنان، وقيل الحباب هو: ما يعلو الماء عند المطر الشديد وقيل أيضا أن الحب مشتق من حبَاب الماء، بفتح الحاء، وهو معظمه، فسمي بذلك لأن المحبة غاية معظم ما في القلب من المهمات، وقيل أن اشتقاقه مأخوذ من اللزوم والثبات، إذ يقال: أحب البعير، أي أنه برك فلا يقوم، فكان المحب لا يبرح بقلبه عن ذكر محبوبه، وأخيرا فإن المحبة في التعريف بها تعني: غليان القلب وثورانه عند العطش والاهتياج الى لقاء المحبوب[922] ولعل القشيري بعودته الى الجذور اللغوية لكلمة الحب، أراد أن يدلنا على ما اشتملت عليه هذه الجذور من المعاني التي كان يطمح الصوفية في أن يعبروا عنها من خلال حبهم الإلهي، ولعله أراد أن يخبرنا بأنهم – اي الصوفية – لم يبتدعوا شيئا جديدا، ولم يقفزوا على واقعهم البشري، بل هم أحبوا ربهم، وعبروا عن حبهم، مثلما يفهم كل المحبين من البشر، مع اختلاف موضوعاتهم وتفاوت غاياتهم.

يحصي لنا القشيري، عدة تعريفات للحب الإلهي فلقد عرف بأنه الميل الدائم بالقلب الهائم[923] وهذا التعريف يميل الى عد الحب من المقامات وليس من الأحوال، فالحب يعتمد على استمرارية ميل القلب الى الحبيب، وأن الذي يدفعه الى الاستمرار في هذا الميل، هو الهيام الذي يخالطه، فإذا عرفنا أن الهيام يعني ذهاب التماسك تعجبا وحيرة[924]، لعلمنا أنه ناتج من فعل مطالعة العبد في عظمة الملكوت.

وعرف الحب بأنه: ايثار المحبوب على جميع المصحوب، وهو مقام التفرد والفناء عن كل السوى بما فيه النفس، لأنها أيضا من المصحوبات. ويعني الحب أيضا: موافقة الحبيب في المشهد والمغيب، وهذا التعريف يقترب كثيرا من حدود مقام المراقبة، وهو مقام المحبين المحققين، وهو يعني، علم القلب بدوام شهود المحبوب له، فهو – أي المحب- دائم الإطراق مستجمع الهم، شديد الفكر في المحبوب، معرض عما سواه[925]. ويعرف أيضا بأنه مواطأة القلب لمرادات الرب، وهذا الحب يشير الى مقام الفناء عن الإرادة والى التسليم والطاعة والإخلاص وحسن التوكل، ثم يورد لنا القشيري رأي أبي يزيد البسطامي (261 هـ) والذي يعرف الحب بأنه: استقلال الكثير من نفسك واستكثار القليل من حبيبك. وهو هنا يقرب بين مفهوم الحب و بين مفهومي الفتوة[926] والإيثار[927]، على أن

---

(922) – القشيري، المرجع السابق، ص 248.

(923) بهذا المعنى، عرفت رابعة العدوية المحب الصادق بأنه: من لا يسكن أنينه وحنينه حتى يسكن مع محبوبه. أنظر السهروردي – عوارف المعارف – ص 507.

(924) – الهروي : المرجع السابق، ص 96.

(925) – عبد الرحمن الأنصاري: المرجع السابق، ص 78.

(926)– الفتوة: أنك لا تشهد لك فضلا ولا ترى لك حقا، وهي في مستواها الأخير تعني: أن لا يتعلق المريد في مسيره بدليل وأن لا يشوب إجابته طلب العوض وأن لا يقف في شهود على رسم ، الهروي: المرجع السابق ، ص 61.

هذا التعريف، بوضوحه وبساطته، يعكس لنا مستوى الثقافة الصوفية في القرن الثالث الهجري، وأما سهل بن عبد الله التستري (ت 283هـ) فقد عرّف الحب الإلهي بإنه: معانقة الطاعة ومباينة المخالفة، والمحبة عنده تعني: أن تهب كلك لمن أحببت، فلا يبق لك منك شيء. ولا داعي لأن نشير الى مدلولات هذا التعريف، فهو واضح الارتباط بمدارج السلوك الصوفي بوجه عام. ثم أخيرا يأتي دور أبي بكر الشبلي (ت 334 هـ) الذي يرى أن المحبة مأخوذة من المحو، إلا أنها تمحو من القلب كل ما سوى المحبوب[928]. ولعل هذه الوظيفة الأخيرة للحب هي أخص معانيه ودلالاته الصوفية، إذ لا يمكن للمريد أن يكون محبا لله تعالى، إلا بعد أن يتجرد تماما من جميع العلائق والأغيار والمطلوبات الدنيوية منها والأخروية، على أننا كلما تقدمنا خطوات في الزمان (الصوفي)، كلما وضعت أمامنا صورة الحب الإلهي واتخذ معناه مستوى أكثر عمقا، فالشيخ عمر السهروردي (ت 632 هـ) وهو من تلاميذ الشيخ عبد القادر، ومن الآخذين بمنهجه الصوفي، يصنف الحب الإلهي من بين الأحوال، لا بل هو عنده أصل لكل الأحوال الأخرى، مثلما التوبة في المقامات[929]. يسمى السهروردي المحبة الإلهية بـ:(المحبة الخالصة)، تمييزا لها عن غيرها من صنوف المحبة، وهذه المحبة لا تكون خالصة إلا أن يحب العبد ربه بكليته، لأن العبد قد يكون في حال ما، وهو قائم بشروط حاله بحكم العلم، ولكن جبلته تتقاضاه بضد العلم. وعليه، فهو يشير هنا، الى ضرورة المجاهدة الصوفية من أجل مطابقة فعل الجبلة لحكم العلم. وهذه النقطة تستحق أن نتوقف معها قليلا، إ أن فيها إشارة الى تفضيل التصوف العملي، الذي يتدرج المريد معه صعودا، في المقامات والأحوال، حتى يصل الى مرحلة الفناء عن نفسه والبقاء بالله، على التصوف العقلي أو الاشراقي، الذي يعتمد على العقل والحكمة، وسيلة لاستشفاف فيض النور العلوي الذي صدرت عنه كل الأنوار الأخرى[930]. على أن الشيخ عمر السهروردي لا يطعن في مشروعية هذا السبيل الأخير، ولكنه يرى فيه وسيلة خطرة وهشة قد تنهار أمام ثورة الغرائز ويقظة الطباع.

والحب الإلهي ينقسم عند الشيخ عمر السهروردي على قسمين، حب عام وحب خاص، الأول يتحقق بالامتثال للأوامر الإلهية، وهو قد ينبع من العلم بالآلاء والنعم الإلهية، ويمتاز هذا الحب بأنه: يخرج العبد من صفاته الذميمة ويدفعه نحو التحلي ببدائلها. إذن فللعبد في هذا الصنف من الحب والإرادة، فهو إذن من المقامات[931]. وأما الحب الخالص فهو حب الذات من دون النظر الى شيء سواها، حتى لو كان هذا السوى هو نفس المحب، فهو إذن فناء وتماه، وشرط هذا الحب أن تلحقه السكرات، إذ أنه لا يكون حبا حقيقيا إن لم يكن فيه ذلك والسكرات هي حالات الشطح والغيبة التي تعتري الصوفية في بعض أحوالهم، هذا الحب ليس لإرادة العبد فيه يد،

---

(927)- الإيثار: تخصيص واختيار، وهو يعني إيثار رضا الله على رضا غيره ، الهروي: المرجع نفسه، ص 57.

(928)- القشيري:المرجع السابق، ص 249.

(929)- السهروردي: عوارف المعارف، تح د سمير شمس، دار صادر، بيروت، ط1، 1979م – ص 505.

(930) - سامي الكيالي : السهروردي ،سلسلة نوابغ الفكر العربي ، دار النهضة العربية، مصر، د ط، 1966، ص 42.

(931)- السهروردي، المرجع السابق ،، ص 504.

بل هو اصطناع من الرب واصطفاء محض، فهو إذن من الأحوال، وأما نسبة هذا الحب الى النوع الأول، أي الحب العام، فهي كنسبة الروح الى الجسد، ولك أن تقرر الفرق بين (الحبين).

إذن ففي موضوع الحب، لم تختلط الأمور عند الصوفية، كما يرى ذلك البعض، بل هم يميزون بين حب الناس بعضهم لبعض، وهو عندهم حب وهمي، يدل على عدم إدراك الإرادة الحقيقية للروح البشرية، وحب العباد لمولاهم، وهو الحب الحقيقي المغروس في أصل فطرتهم، وهذا الأخير يقع على درجات، حسب مراتب العباد ومجاهداتهم الروحية[932] على أن حب العبد ربه، لا يشتمل شكل من الأشكال التجاوز على الذات الإلهية،لأنه لا ينبع من الاشتهاء والنيل التماثلي كما أن حب الرب عبده، يعد حقيقة واقعة، غير مختلفة، تدعمها الكثير من الأسانيد الشرعية التي سيأتي بيانها في حينها، وهو في الوقت نفسه لا يدل على الاشتياق النفسي لسد النقائص، وإنما هو يعني الواصلة باللطف والمنة والكرامة، وهكذا فالشيخ عمر السهروردي يحد الحب الخالص بأنه: الخروج من الكلية، إذ إن حقيقة المحبة هي: «أن تهب لمن أحببت كلك، ولا يبق لك منك شيء»[933] وهذا يعني بلغة أخرى، أن الحب الخاص يعني التحقق بمقام الفناء الوجودي، وهو المقام الذي ما بلغه العبد، فستنتفي عنه جميع المساعي لبلوغ المقامات الصوفية الأخرى، إن الحب الخاص يعمل على تصفية النفس وتزيينها بالمعرفة والنور الإلهي، وهذا هو عين المقامات على النفس، وعليه فالحب الإلهي الخاص، هو خير وسيلة للتقرب من الله تعالى[934] إذ إنه مع نزاهة النفس وصفائها، فإن العبد أقرب ما يكون من مولاه على أن (السهروردي) لا ينسى أن يذكرنا، بأن الحب في حقيقته، لا يتوقف على جهد العبد وتزكيته لنفسه، بل هو موهبة ربانية غير مرتبطة بعلة أو سبب، نعم إن تزكية النفس تقرب الوسيلة، لا تحتمها، وأخيرا، لابد من ذكر ملاحظة مهمة، لعل السهروردي اهتم بها أو أثارها، لكونه قد تتلمذ على يد الشيخ عبد القادر، وهي : حب الله تعالى، بكل أشكاله ومستوياته، لا يمكن أن يلغي الورع أو يسقط عن العبد التكاليف والفرائض، وأن من ادعى محبته تعالى من غير تورع عن محارمه وإقبال على أوامره فهو مدع كذاب[935].

و يعتبر الكثير من الصوفية المحبة[936] حالا من الأحوال التي تمنح للمرء و توهب له من الله وهو على طريق التصوف. ذلك أن الصوفي بغير المحبة ما كان يسعى إلى شق طريق التصوف الذي يبدأ بالتوبة و غيرها. إن المقامات التي يتخطاها الصوفي درجة فدرجة، لا يتمكن السالك أو المريد من عبورها إلا إذا كان الكريم قد وهبه

---

[932] – المرجع نفسه، الصفحة نفسها، ص 504.

[933]– المرجع نفسه، ص 507.

[934]–يستشهد السهروردي هنا بقول سمنون: ذهب المحبون لله بشرف الدنيا والآخرة، لأن النبي صلى الله عليه وسلم تسليما قال: ﴿المرء مع من أحب﴾ فهم مع الله تعالى .السهروردي: المرجع نفسه، ص507.

[935] – المرجع نفسه، ص 507.

[936]– المحبة: و أصلها في الأحوال: هي ابتهاج بشهود الحق و تعلق القلب به معرضا عن الخلق، معتكفا عن المحبوب بجوامع هواه غير ملتفت إلى ما سواه. و صورتها في البدايات: التلذذ بالعبادة و التسلي عن فوات أشتات المتفرقة/ عبد الرزاق القاشاني، المرجع السابق، ص 81.

حال المحبة، فالمحبة هنا؛ فيض فضل من عند الله للصوفي، كما تعتبر أيضا باعثا له على أن تشده همته للتحرك نحو المحبوب، و باعثا له على أن ينفض عن نفسه شوائب العالم المادي.

و يرى الإمام القشيري أن المحبة تعني" الإرادة"، فمحبة الله للعبد تعني أنه سبحانه أراد أن ينعم عليه، و يفسر القشيري معنى الإرادة هنا؛ فيبين أن لها أكثرا من معنى بحسب استخدامنا لها، فإذا كانت إرادة الله متعلقة بالعقاب؛ كانت حينئذ غضبا منه سبحانه على عبده، و إذا تعلقت إرادته بمنحة من منائح جوده و كرمه الكثيرة؛ فتسمى حينئذ رحمة، و إذا تعلقت بتخصيص بعض هذه المنائح لفريق من الناس؛ و هم الصوفية هنا؛ فإنها تسمى حينئذ المحبة. و المحبة عند الصوفية "حال" يجد المرء فيه قلبه دون أن يستطيع التعبير عن هذا الحال، أو الإفصاح عنه، أو نقله إلى الغير، فالمحبة لا يعبر عنها، و إنما تترجم من خلال الأفعال التي يقوم بها الصوفي من تعظيم لله و إيثار له على كل ما عداه، و السعي إلى نيل رضاه، و الصبر على ما يمنع و الترحيب بما يمنح[937]. و قال أبو القاسم النصر أباذي:« المحبة و المحنة نقطتان مقرونتان، ما المحنة بعين المحنة و عين المحبة! فينبغي للمحب أن ينظر إلى المحنة بعين المحبة، حتى تصح له المحبة»[938]، و يستشهد السلمي ببيت أنشده بعض المحبين:

بين المحبين سر ليس يفشيه * * * * * قول و لا قلم يحكيه

الحب[939] حرفان، حاء و باء و الحاء آخر الحروف من الروح، و الباء أول الحروف من البدن، والمحب يكون روحا بلا بدن، و بدنا بلا روح! و لكل شيء عبارة، إلا المحبة، فإنها لا عبارة لها، وهي ألطف و أجل من أن تدخل في العبارة. و لذلك خلق الله تعالى الملائكة للخدمة، و الجن للقدرة، و الشياطين للعنة، و العارفين للمحبة، فالمحبة نار حطبها أكباد المحبين؛ و الخوف نار، والحب نور، و لا تكون أبدا نار بلا نور[940].

و قيل أن حقيقة المحبة هي أن تهب كلك لمن أحببت فلا يبق لك منك شيء، و أهل المحبة على ثلاثة أحوال، الأول محبة العامة، و هي المحبة الفعلية، يتولد ذلك من إحسان الله تعالى عليهم و عطفه عليهم، و فيها قال رسول الله صلى الله عليه و سلم:﴿جبلت القلوب على حب من أحسن إليها﴾. و الثاني حال المحبة الصفاتية، يتولد من نظر القلب إلى غنا الله و جلاله و عظمته و قدرته و علمه، و هي محبة الخواص، أو محبة الصادقين و المتحققين. و فيها قال النووي: المحبة هتك الأستار و كشف الأسرار، و الثالث هو حال المحبة الذاتية، تولدت من نظرهم و معرفتهم بقديم حب الله تعالى بلا علة، فكذلك أحبوه بلا علة، و هؤلاء هم

---

[937]- د. بدير عون: التصوف الإسلامي: الطريق و الرجال، مكتبة سعيد رأفت، مصر، دط، 1983، ص 125.

[938]- السلمي: المرجع السابق، ص 23.

[939]- فالحب عند الصوفية هو أصل لكل عبادة، و هو سرها و جوهرها، إذ لا معبود إلا و هو محبوب إلى الذات الإلهية لتعلق القلب بها و تحققه بحقائقها الإلهية من أسماء و صفات خاصة بها. و من هنا جاء قسم أحد أقطاب التصوف، ألا وهو ابن عربي بحق الهوى المعبود لديه بأنه أصل كل محبة و أصل كل عبادة، فهو الساري في مراتب الوجود جميعها، و هو علة الحب، و لولا وجوده و تجليه في صورة المعبودات و في قلوب العابدين ما عبده معبود و لا وجد عابد، فيقول:

و حق الهوى أن الهوى سبب الهوى * * * * * و لولا الهوى في القلب ما عبد الهوى./ سهيلة عبد الباعث الترجمان، المرجع السابق، ص 429.

[940]- السلمي: المرجع السابق، ص 23.

الصديقون و العارفون. فهذه ثلاثة أنواع من المحبة: محبة فعلية، و محبة صفاتية، و محبة ذاتية، و ثلاثة أحوال من المحبين: محبة العامة و محبة الخاصة أو الصادقين و المتحققين، و محبة خاصة الخاصة، أو الصديقين و العارفين.

و قيل في سبب المحبة أنه ميل الجميل إلى الجمال بدلالة المشاهدة، كما ورد أن الله جميل يحب الجمال، و ذلك أن كل شيء ينجذب إلى أصله و جنسه، و ينتزع إلى أنسه و وصله، فانجذاب المحب إلى جمال المحبوب ليس إلا لجمال فيه، و الجمال الحقيقي صفة أزلية لله تعالى، شاهده في ذاته أولا مشاهدة علمية، فأراد أن يراه في صنعه مشاهدة عينية، فخلق العالم كمرآة شاهد فيه عين جماله عيانا، والحب الإلهي وراء حب العقلاء، فإنه صفة قديمة قائمة بذاته تعالى، وصفته عين الذات، فهي قائمة بنفسها و حب العقلاء قائم بهم، فيحبونه بحبه إياهم،« فسوف يأت الله بقوم يحبهم و يحبونه»[941].

و قد قيل في حد المحبة أنها:« غليان القلب و ثوراته عند العطش و الاحتياج إلى لقاء المحبوب»[942]. و قيل أيضا: المحبة هي الميل الدائم بالقلب الهائم، و قيل أنها إيثار المحبوب على جميع المصحوب، و قيل أنها موافقة الحبيب في المشهد و المغيب، و ذكر كذلك أنها:« محو المحب بصفاته و إثبات المحبوب بذاته»[943]، و قد ذهب أبو يزيد البسطامي إلى القول:« المحبة استقلال الكثير من نفسك و استكثار القليل من حبيبك» أما سهل فقال:« المحبة معانقة الطاعة و مباينة المخالفة»، أما الجنيد فقال:« المحبة دخول صفات المحبوب على البدل من صفات المحب» و قال أيضا:« المحبة ميلك على الشيء بكليتك ثم إيثارك له على نفسك و روحك و مالك ثم موافقتك له سرا و جهرا ثم علمك بتقصيرك في حبه»[944]، و في موضع آخر في محاضرة ألقاها الجنيد في موسم من مواسم الحج، قال: «المحب عبد ذاهب عن نفسه متصل بذكر ربه قائم بأداء حقوقه ناظر إليه بقلبه أحرق قلبه أنوار هويته وصفا شربه من كأس وده و انكشف له الجبار من أستار غيبة، فإن تكلم بالله وإن نطق فعن الله و إن تحرك فبأمر الله و إن سكت فمع الله، فهو بالله و لله و مع الله»[945]. وذهب أبو عبد الله القريشي إلى القول: حقيقة المحبة أن تهب كلك لمن أحببت، فلا يبق لك منك شيء. و عند أبي يعقوب السوسي، نجد أن حقيقة المحبة أن ينسى العبد حظه من الله عز و جل وينسى حوائجه إليه. و يقول الحلاج: المحبة قيامك مع محبوبك بخلع أوصافك لأن كلية المحب تطابق كلية المحبوب فغيبته غيبة محبوبه و وجوده و جوده[946]. أما السري السقطي فيقول: لا تصلح المحبة بين اثنين حتى يقول الواحد للآخر يا أنا، و قد قيل المحبة نار في القلب تحرق ما سوى المحبوب.

---

[941]- د. عبد المنعم الحفني: معجم مصطلحات الصوفية ص ص 237- 238.

[942]- السلمي: المرجع السابق، ص 23.

[943]-عبد الرحمن الأنصاري: المرجع السابق، ص 21.

[944]- د. فيصل بدير عون: المرجع السابق، ص 126.

[945]- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[946]- عبد الرحمن الأنصاري: المرجع السابق، ص ص 20-21.

و لذلك كان الصوفية دوما يتمثلون بشعر المجنون و غيرهم من العذريين، و يقع من قلوبهم مواقع الاستحسان، لما فيه من صدق ظاهر، ثم أتخذ شعراء الصوفية من محبوبات هؤلاء الشعراء(ليلى، لبنى، عزة. . .) رموزا[947] أشاروا بها إلى حب الذات الإلهية[948]، و هذه الخاصية نجدها تبدو بوضوح في شعر الكثير منهم، أمثال: ابن الفارض و ابن عربي و العفيف التلمساني وابن الدباغ، و الإمام الجيلاني، فنراه إذا أراد وصف أهل المحبة من الأولياء، يرمز فيقول:

رجال خيموا في حي ليلى * * * * * و نالوا في الهوى أقصى منال[949]

إذن، فالحب الإلهي هو قوام الحياة الصوفية حيث يتعلق المحب بمحبوبه، فيطالع فيه جمال الربوبية، ويستمتع بجماله الأزلي، فهو سر الوجود و علته الأولى، و هو منة إلهية، أودع الله بذرتها في قلوب محبيه، و الحب الإلهي ليس شطحا أو خيالا، إنما هو ثمرة حقيقية للإيمان القوي والتدين العميق، فينعكس أثره على حياة الفرد تهذيبا، و على حياة المجتمع ارتقاء.

إذ أن المحبوب مهما تعددت مجاليه فهو واحد، و المعبود مهما تعددت أشكاله و مظاهره فهو الذات الإلهية الواحدة التي لا كثرة فيها بوجه ما من الوجوه، لذلك تغنى المتصوفة بالحب بكل شكل من أشكاله و في كل صورة من صوره التي ظهر بها في الوجود فقال:

لقد صار قلبي قابلا كل صورة * * * * * فـمرعى لغزلان و ديرا لرهبان
و بيت لأوثان و كعبة طائف * * * * * و ألواح توراة و مصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت * * * * * ركـائبه، فالحب ديني و إيماني[950]

و تنعقد المحبة عند الصوفية– أمثال الجيلي– لله تعالى من غير علة، لأنه لا يجوز بحقه تعالى أن يكون معلولا لشيء، فتكون محبة الإنسان لله تعالى منعقدة لصفاته، و لكونه أهلا للمحبة، فإذا كان الحب كما يراه الصوفية سر الوجود و علته الأولى؛ فإن الجيلي وابن عربي و الأكابر الكمل من القوم يرونه تأكيدا لرغبة المعبود

---

[947]– يرى الصوفية في هذه الأبيات الرمزية، و في غيرها من أبيات الشعر الرمزي، إشارات ذوقية تشير إلى محبتهم للذات الإلهية. . و قد كان للصوفية من السباب القوية ما دفعهم لاستخدام أسلوب الرمز و الكتابة. فمن هذه الأسباب؛ رغبتهم في الاحتفاظ بمعانيهم الذوقية لأنفسهم، فلا يتعرضوا لسوء الفهم من قبل العامة و الفقهاء الذين يحكمون بظاهر الأشياء. و في هذه الأبيات نرى الصوفي يناجي الذات الإلهية، و كأنه يتوجه بالخطاب إلى محبوبه من البشر. . . فيكون قد عبر عن مواجيده، و نشوته بشراب الحب الإلهي، دون أن يتعرض في الوقت ذاته لإنكار الذين يتربصون بالصوفية و يتصيدون كلامهم و معانيهم./ السلمي: المرجع السابق، ص 24.

[948] يستخدم الصوفية مصطلحات تشير إلى التعلق بالذات الإلهية و التفاني في حبها، حيث تعمر قلب الصوفي، و لا يبق لغيرها ظهور فيه، كذلك تتضمن الإشارة إلى الكمال الإلهي، و هو الكمال الحقيقي و الجمال الصرف للذات. حيث أنه مع ثبوت الواجب في البصيرة و ظهور سطوات أوصافه الجلالية و الجمالية، لا ثبوت الأغيار بالكلية. سهيلة عبد الباعث ، المرجع السابق، ص 721.

[949] د. يوسف زيدان: المرجع السابق، ص 103.

[950] سهيلة عبد الباعث الترجمان: المرجع السابق، ص ص 428– 429.

في إظهار أسمائه و صفاته في صور جلاله و جماله. فوجود العالم كمال للحق، لأنه كمال المعرفة، حيث ظهر حسنه و بهاؤه في مخلوقاته. . . فللحب علاقة بالإيجاد و التكوين والظهور، و كل ما من شأنه أن يكون تجليا من تجليات الذات و الأسماء والصفات الإلهية، و لذلك يرون في الوجود المطلق صورة من صور الحب التي تحقق بها الوجود[951].

لذا يصور الصوفية المحبة الإلهية في أرقى معانيها و أكمل مجاليها، حيث يجعلونها كالشمس في طلوعها عندما تنير الأرض بأشعتها و أنوارها، و تطرد غياهب الظلمة من جوانبها، فيعمها الخير والحيوية مكان الخمول و السكينة، و شمس المحبة التي يستخدمونها في إشاراتهم؛ هي رتبة الحق و أوصافه الحسنى، التي تحل بقلب الصوفي عند تحققه بالمحبة الكاملة لله، و هي مرتبة الكمال الحقيقي، و الجمال الصرف التي تصرف الصوفي المتحقق عن التعلق بأي شيء غيرها[952]

و لا ينبغي أن يتبادر إلى الذهن أن الصوفية هم الذين ابتدعوا الحديث عن هذا الحب، إذ أنه يستند إلى شواهد قرآنية صريحة، كقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[953] . و يربط الله بين الحب و قوة الإيمان في قوله تعالى:﴿ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ ﴾[954].كما يربط بين حبه و حب الرسول و طاعته في قوله:﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ﴾[955] . و لذا شاعت لفظة الحب أول ما شاعت كما قلنا سابقا، في أقوال الزهاد و العباد الذين عاشوا في القرن الأول الهجري، أمثال الحسن البصري، و الزاهدة رابعة العدوية، و غيرهما.... فكان لهما الفضل على من جاء بعدهم من الصوفية المسلمين في استخدام لفظة الحب في التعبير عن محبتهم لله.

فالمحبة بهذا المعنى، واسطة في الخلق و الإيجاد، فهي المقام الأول الذي صدر عنه الوجود، والعلة الأولى لظهور كل موجود، و هي شيمة النفوس النقية التقية التي تعرف مقام العبودية، و تخضع لها طاعة و إجلالا، و هذه المحبة المنعقدة لله هي عين محبة الله تعالى لمعرفته لنفسه، و إخراجه للخلق من كنزيته، كما ورد في الحديث القدسي فيما رواه النبي صلى الله عليه وسلم؛ حاكيا عن ربه أنه قال:﴿كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف، فخلقت الخلق و تجليت عليهم، فبي عرفوني﴾ فكانت المحبة هنا هي السبيل. إلى معرفة الذات الإلهية نفسها من خلال خلقها للخلق و إيجاد حاله، لذلك أحب تعالى ظهور الحقائق، فخلق لذلك الخلائق.[956]

ينطوي مقام الشهادة الكبرى على المحبة الإلهية فيرى المحب فيه « انعقاد المحبة لله تعالى من غير علة فتكون محبته له تعالى لصفاته و كونه أهلا أن يحب» لذلك حدد المتصوفة أهل كل درجة من درجات المحبة و وجهتهم

---

(951)– سهيلة عبد الباعث الترجمان :المرجع نفسه، 722.

(952)– سهيلة عبد الباعث: نظرية وحدة الوجود بين ابن عربي والجيلي، مكتبة خزعل، بيروت، ط1، 2002م، ص 720.

(953)– سورة المائدة [الآية 54].

(954)– سورة البقرة [الآية 165].

(955)– سورة آل عمران [الآية 31].

(956) – سهيلة عبد الباعث: المرجع السابق، ص 723 .

فيها و هي على ثلاثة أنواع: المحبة الفعلية، و هي محبة العوام، و المحبة الصفاتية و هي محبة الخواص، و محبة ذاتية و هي خاصة بالكمال من أهل التحقيق.[957]

ومن اجل هذا احتلت المحبة في نفوس الصوفية المحل الأرفع، و صدروا بها مؤلفاتهم، فعدها بعضهم من المقامات، و اعتبرها آخرون من الأحوال، فكشفوا بذلك عن وجه الحق فيها، تارة بكلام منظوم، و أخرى بكلام منثور، فتغنوا بها و نظموا الأشعار الغزلية فيها[958]

و كعادة الصوفية، نجد أنهم يستشهدون على ما يقولون بآيات من كتاب الله و بأحاديث لرسوله الكريم. فمن الآيات التي يسوقونها هنا عن المحبة، قول الحق جل شأنه﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَه﴾[959] .و بالحديث الشريف المروي عن أبي هريرة: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم ﴿إن الله تعالى قال: « من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، و ما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه. و مازال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحببته، فكنت سمعه الذي يسمع به، و بصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها و رجله التي يمشي بها. و إن سألني لأعطينه، و إن استعاذني لأعيذنه، و ما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت و أنا أكره مساءته﴾[960]، وفي الخبر، ﴿إذا أحب الله العبد نادى جبريل، إن الله يحب فلان فأحببه، فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض﴾[961]. و قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: ﴿كان من دعاء داود يقول: اللهم إني أسألك حبك و حب من يحبك والعمل الذي يبلغني حبك، اللهم اجعل حبك أحب إلي من نفسي و أهلي و من الماء البارد﴾[962]. و إذا كانت المحبة نارا و الشوق لهيبها. . . أوحى الله إلى داود عليه السلام: يا داود من طالبني قتلته في هواي شوقا إلى لقائي، و من أحبني أحببته، أي أشغفته حتى لا صبر له دوني[963].

---

[957] سهيلة عبد الباعث ،المرجع نفسه، ص 724.

[958] – المرجع نفسه، ص 718.

[959] – سورة المائدة [الآية 54].

[960] – الحديث رواه البخاري و أحمد و الترميذي و أبو يعلى و الطبراني، الحديث صحيح ثابت أنظر رياض الصالحين ص 55.

[961] – رواه البخاري في صحيحه(1175/3) و مسلم (2637).

[962] – حديث صحيح أخرجه الترمذي في سننه(3490)

[963] – السلمي: المرجع السابق، ص 20.

المطلب الثالث: علاقة الشوق بالمحبة عند الصوفية

يرى بعض الصوفية أن ثمة فرقا بين الشوق[964]» و بين "الاشتياق"، حيث يذهب هذا الفريق إلى القول أن الشوق مقام يمكن أن يصل إليه كل من يسعى إلى الطريق، لكن الاشتياق حال لا يصل إليه إلا من يحبه الله و يرضى عنه، و لهذا يذهب هذا الفريق إلى أن من دخل الاشتياق هام فيه حتى لا يرى له أثر و لا قرار، و قال أبو عثمان: علامة الشوق حب الموت مع الراحة، و قال يحي ابن معاذ: علامة الشوق فطام الجوارح عن الشهوات، و سئل ابن عطاء عن الشوق فقال: احتراق الأحشاء و تلهب القلوب و تقطع الأكباد[965]. و قال ابن خفيف: الشوق ارتياح القلوب بالوصول و محبة اللقاء بالقرب، و قال أبو يزيد البسطامي: «إن لله عبادا لو حجبهم في الجنة عن رؤيته لاستغاثوا من الجنة كما يستغيث أهل النار من النار. و قيل الشوق اهتياج القلوب إلى لقاء المحبوب و على قدر المحبة يكون الشوق». أما أبو العباس أحمد ابن أبي الخير فقال: «الشوق غصن من أغصان المحبة ليس بقائم بذاته في نفسه و هو غليان السر من كثرة حرقة نار المحبة فيهيج العبد عند ذلك فيسمى شوقا». و قال أحمد ابن أبي الحواري: «دخلت على أبي سليمان الداراني رضي الله تعالى عنه فرأيته يبكي، فقلت: ما يبكيك رحمك الله. قال: ويحك يا أحمد! إذا جن هذا الليل و افترش أهل المحبة أقدامهم و جرت دموعهم على خدودهم، أشرف الجليل جل جلاله عليهم و قال: بعيني من تلذذ بكلامي و استراح الى مناجاتي، وإني مطلع عليهم في خلواتهم، أسمع أنينهم و أرى بكاءهم، يا جبريل نادي فيهم، ما هذا البكاء الذي أراه فيكم؟ هل أخبركم مخبر أن حبيبا يعذب أحباءه بالنار، بل كيف يحمل بي أن أعذب قوما إذا جن عليهم الليل تلقوني فبي حلفت إذا وردوا يوم القيامة علي أن أسفر لهم عن وجهي و أبيحهم رياض قدسي[966]».

من كل ما تقدم، من أقوال الأئمة و مشايخ الصوفية عن المحبة، يتضح لنا أن الشوق مرتبط بالمحبة، ذلك لأن رسوخ المحبة في قلب العارف، و تفضيله للحبيب على كل شيء من شأنه أن يولد شوقا هائجا في قلب المؤمن، لا ينطفئ إلا بالوصول و اللقاء، و لقد نص الله في كتابه العزيز على أن:﴿مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ ﴾[967]، أي، يا أيها المشتاقون إلي، إني كذلك مشتاق إليكم، و مهما طال شوقكم لي و طال شوقي إليكم؛ فإننا سوف نلتقي، وكان الله يريد من الإنسان أن يهيئ نفسه لرحلة السفر هذه، و أن يتسلح بالمقامات و الأحوال، حتى يستطيع أن يقطع رحلة السفر، و حتى لا يخر صعقا من لقاء الله و رؤيته[968].

و مما يروى في هذا الصدد، ما ذكره شقيق البلخي من أنه قابل مقعدا يزحف على الأرض فسأله: من أين أقبلت؟ قال المقعد: من سمرقند. فقال له شقيق فكم لك في الطريق؟ فذكر أعواما تزيد عن العشرة. و يقول

---

[964]- الشوق: و هو حركة الشوق إلى الله بالمحبة المنبعثة من مطالعة تجليات الصفات، و في الأصول الارتياح إلى بقائه و التروح بنور جماله، و في الأودية: التشوق إلى ما فيه الغيب من الحقائق، و استشراف أنواع المعارف ./ القاشاني، المرجع السابق، ص 184.

[965]- د. فيصل بدير عون: المرجع السابق، ص 127.

[966]- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[967]- سورة العنكبوت [الآية 5].

[968]- د. فيصل بدير عون: المرجع السابق، ص 128.

شقيق: فرفعت طرفي متعجبا! فقال: يا شقيق، مالك تنظر إلي؟ فقال شقيق متعجبا: من ضعف محبتك و بعد سفرك. فقال الرجل لشقيق: أما بعد سفري فالشوق يقربها، و أما شغف مهجتي فمولاها يحملها. يا شقيق أتعجب من عبد ضعيف يحمله المولى اللطيف! . . و أنشد قوله:

أزوركم و الهوى صعب مسالكه * * * * و الشوق من لا مال يحـــمله

ليس المحب الذي يخشى مهالكه * * * * كلا و لا شدة الأسفار تبعده[969]

من كل ما تقدم، نجد أن الحب عند الصوفية، هو ماء التصوف و هواؤه، إن صح التعبير، و هو القوت الذي به يحيا الصوفي، كما أنه هو البذرة التي لابد منها لنمو شجرة التصوف وترعرعها، فالحب هو المحي للنفس في الله و المميت في آن واحد للحجاب الحسي، و قد ذكر جلال الدين الرومي، أن الحب هو دواء كبريائنا و غرورنا بأنفسنا، و هو الطبيب لضعفنا كله، ومن استعار الحب ثوبه، برئ أصالة من كل أثرته[970]. لذلك شاع عند معظم الدارسين للتصوف أن الحب عند القوم هو أقرب إلى "الحال" منه إلى "المقام"، و لهذا فهو عطاء و هبة و نفحة من جهة المحبوب، يمنحها لمن يرضى عنهم ويرضوا عنه، و لمن يحبهم و يحبونه، و لهذا نجد معروف الكرخي يقول أن المحبة ليست من تعليم الناس، و إنما هي من تعليم الحبيب[971].

لذلك تنبه الصوفية الخلص، أو كما يسميهم البعض "أقطاب التصوف" إلى أن محبة الله لعباده المخلصين، تسبق محبة العباد لله، فلقد صرح البسطامي بقوله: توهمت أني أذكره و أعرفه وأحبه، فلما انتهيت رأيت ذكره سبق ذكري، و معرفته سبقت معرفتي، و محبته أقدم من محبتي، لذلك أصبح الحب عند الصوفي بمثابة الكحل الذي تكتحل به عين القلب فيتجلى بصرها؛ أي كحل للبصيرة[972]. مما جعل الحب يستولي على قلوب هؤلاء القوم.

بعدما تطرقنا للبدايات الأولى لظهور المحبة بمفهومها الصوفي في الفكر الإسلامي، واستعرضنا بعض تعريفات أعلام الصوفية للمحبة، نستطيع أن نقول أن تعريفات المحبة عديدة، وتختلف من صوفي إلى صوفي، بحسب حاله و مقامه، إلا أنهم يتفقون جميعا على أنها أسمى الأحوال، كون جوهرها علاقة الرب بالعبد و العكس؛ مهما اختلفت درجاتها و مقاماتها. مما يجعلنا نطرح التساؤل حول حقيقة معنى المحبة عند الجيلاني، كيف عرفها؟ و ما هو المفهوم الذي حده لها؟ و ما هو الدور الذي أناطه لها بالنسبة للسالك في طريق التصوف؟ هل كان دورا محدودا في الرياضة الروحية، من أجل تهذيب النفس وإصلاحها لتصلح للدنيا و للدين ومن ثمة لتكون مؤهلة لحضرة القرب الإلهي ؟ أم أسند لها دورا يتجاوز هذه الآفاق والبعد التعبدية الى آفاق وأبعاد أخرى؟

المطلب الرابع :الحب كمبدأ للوجود عند الصوفية:

---

[969]–د. فيصل بدير عون ،المرجع نفسه، ص 129.

[970]– نيكلسون: الصوفية في الإسلام ، المرجع السابق، ص 108.

[971]– د. فيصل بدير عون: المرجع السابق، ص 177.

[972]– المرجع السابق، ص 177.

ولشدة اهتمام مفكري الإسلام بموضوع الحب، فقد تبناه بعضهم مبدأ عاما من مبادئ الوجود الكوني وليس البشري فقط، بحيث أن الحب أصبح هنا، كالنسخ الذي يسري في مفاصل الذوات كافة، حيّها وجمادها، ويأخذ بهذا الرأي المفكر المغربي أبو زيد عبد الرحمن الأنصاري المعروف بابن الدبّاغ (ت696 هـ) صاحب الرسالة المشهورة: (مشارق أنوار القلوب ومفاتح أسرار الغيوب)[973]. والتي يقول فيها: أن النور الذي ظهرت به الأشياء، عان في الموجودات كلها، من أعلى العليين ومنحدرا الى أسفل السافلين، وأن بالمحبة تمت الكائنات وعنها وجدت على اختلاف الحركات، فهي كامنة في كل جوهر، وما من وجود في العالم إلا وله نصيب منها، وبحسب المحبة يكون صعود الصاعد الى العوالم الروحانية[974] وقبل الاسترسال مع ابن الدبّاغ في آرائه في الحب، لابد من الإشارة الى أن آراءه تلك لا تخلو من تأثيرات اشراقية وثنوية ويونانية قديمة، وبخاصة من هذه الأخيرة، فيلسوفها (أنباذوقليس) الذي عاش واشتهر أمره في أواسط القرن الخامس قبل الميلاد، والذي جعل من المحبة مبدأ أساسيا من مبادئ الوجود، تتكون وتتجمع فيه الأشياء[975] إذن فقد بلغ ابن الدباغ بعامل الحب الالهي ذروة تأثيره في الكون، بحيث أنه جعل منه سببا في وجود ما هو موجود، وميزة تدرج الكائنات في المراتب، وفقا لدرجة أخذها منها.

إن أكثر ما يلفت النظر في آراء ابن الدبّاغ، هو تعريفه الفريد للحب، فهو عنده: ابتهاج يحصل للنفس عن تصور حضرة ما[976]، ولنا أن نتصور فرط الشعور بالبهجة العظيمة الناجمة عن تصور الحضرة الإلهية، إذ أن مجرد التفكر في عظمة الخالق وكبريائه وعزه وجلاله، يورث النفس ألوانا من الاضطراب والإغماء والخروج عن عالم الحس، وأمور جسيمة أخرى ربما خرجت معها روح المريد فرقا وخوفا من الله تعالى، وربما بدرت منه أمور وأفعال غير مستساغة في العقل[977]. ولعل ابن الدباغ، في هذه العبارة يحاول أن يسوغ ما يعتري الصوفية في بعض أحوالهم من فقدان الحس المؤقت والهياج والارتجاف، وغير ذلك مما ينكره عليهم خصوصهم.

إذن فالتفكير والتأمل في بدائع الجمال والكمال الإلهيين، هما من أقوى وأهم العوامل التي تفعم النفس بمحبة خالقها والشوق إليه، ويبدو جليا من هذه العبارة، مدى تأثر ابن الدباغ بالفلسفات الأشرقية التي كانت سائدة بين أوساط المفكرين في عصره، فهو من جانبه، يرجح الاعتماد على العمليات الذهنية لاكتساب مزيد من الحب الإلهي ومن ثم مزيد من القرب من الله تعالى.

الحب عند ابن الدباغ، يقع أيضا على قسمين: حب عرضي وحب ذاتي، الحب العرضي له تعلق بغير ذات المحبوب، مثل محبة إحسانه وطلب منافعه ودفع مضاره، وأما الحب الذاتي، فهو متعلق بذات المحبوب، وهو أيضا يقع على قسمين: ما يعقل سببه وما لا يعقل له سبب، الأول هو محبة جمال المحبوب وكماله الذاتيان، والثاني هو

---

[973]- حققت هذه الرسالة على يد المستشرق – هـ. ريتر – طبعة في بيروت عام 1959 م.

[974]- عبد الرحمان الانصار: مشارق أنوار القلوب ومفاتيح أسرار الغيوب ،ص 26.

[975]- د. ناجي التكريتي : الفلسفة الأخلاقية الأفلاطونية عند مفكري الإسلام ، ص 12.

[976] - عبد الرحمان الانصار: المرجع نفسه ، ص 22.

[977]- المرجع نفسه، ص 22.

محبة المحبوب بحسب ذاته، وهذا الأخير ينقسم على عشرة أقسام، بحسب المبادئ والغايات. خمسة منها هي مقامات للمحبين السالكين وهي: الألفة والهوى والخلة والشغف والوجد[978] وخمسة مقامات هي مقامات للعشاق السالكين وهي: الغرام والافتتان والوله والدهش والفناء[979] علما أن المحب عنده، هو المريد، بينما العاشق هو المراد.

ويشترط ابن الدباغ، كسابقيه، في المحب أن لا يتوقف عن الترقي في مقامه، لأنه إذا ما شاهد من محبوبه صفة، فتوقف معها، كان ذلك عين حظه منها، وحجب بها عن الزيادة، بينما المطلوب من أن يتواصل مع مقامه، حتى يبلغ حالة الدهش، التي تذهل معها النفس عن عالم الحس، بل عن عالمها الخاص بها، وهو مقام الحرية. ومعنى الحر عند الصوفية، هو الذي لا يسترقه شيء من الأكوان والأعراض، بل لا يسترقه شيء غير محبوبه، فهو بالإضافة الى الأكوان حر وبالإضافة الى المحبوب عبد، إذ المحب مطلقا، هو الفقير مطلقا، والمحبوب مطلقا، هو الغني مطلقا، وعند هذه النقطة فقط، يتحقق للعبد مقام العبودية الحقة التي لم يبلغها إلا النبي محمد صلى الله عليه وسلم تسليما وعند هذه المرحلة بالذات يزول الشوق عن المحب، لأنه بلغ الوصول، وتنتفي الحاجة الى المقامات والأحوال لأنه أصبح من الكاملين[980] على أنه في كل الأحوال، فإن المحب لا يعدم في نفسه إحدى الحالتين فأما أن يكون في حالة جمع، أو في حالة تفرقة، الأولى يكون فيها فانيا عن نفسه موجودا بوجود محبوبه، لأنه إن فني عن نفسه، فقد فني عن سائر العالم. إذ نفسه هي أقرب الأشياء إليه وفي هذه الحالة، يرى المحب محبوبه في كل شيء ويسمع كلامه من كل شيء، ولا يختص إدراكه له بشيء دون شيء، لا يبقى فيه جزء وهو خال عن حبيبه، والإشارة هنا الى وحدة الوجود. أما الثانية، أي حالة التفرقة، فيكون فيها المحب ناظرا الى نفسه، أي يكون خارج حدود ساحة الفناء، وهو حالة الوجود الجديد الذي مر ذكره عند الشيخ عبد القادر[981]. ومنكل ما سبق يمكننا أن نخلص، الى أن مفكري الإسلام، من بقاع الأرض المختلفة، ومن مختلف المشارب والمذاهب والاتجاهات، قد

---

[978]- جاء في تعريفات عبد الرحمان الانصاري: لهذه المصطلحات أن الألفة هي: ايثار جانب المحبوب على كل مطلوب ومصحوب ويستدعيها الإنسان باستقراء محاسن المحبوب وأدامة الفكرة في لطافة شمائله وما هو عليه من بديع الصفة وغريب الحكمة الإلهية، وأما الهوى فهو: ميل القلب بالكلية الى جهة المحبوب، والأعراض عما سواه، وتجريد القصد له في كل حين وصرف الهمة إليه، وفيه تستحكم المحبة وتشتد صورتها وينبسط سلطانها، ويستولي لاعج الشوق فيها، وأما الخلة فتعني: تخلل شمائل المحبوب في روحانية المحب، حتى تتكيف بها النفس والروح وسائر الجملة الإنسانية، وأما الشغف فهو: الكلف والولع بالمحبوب، ويعني بلوغ الحب الى شغاف القلب، أي أصله فيستولي عليه ويحجبه عن غيره، وجاء في قوله تعالى:﴿قد شغفها حبا﴾ سورة يوسف [الآية 30]. أي حجب الحب قلبها حتى لا تعقل سواه، فالشغف استيلاء المحبة على القلب باطنا وظاهرا مع احتجاب المحب عن أي أمر آخر غير المحبوب، وأما الوجد فهو: وجود ذات المحبوب وسائر صفاته الحقيقية، منطبعة في ذات المحب، انطباعا ثابتا، بحيث لا يمكن زواله ولا يتصور انفصاله، وإذ بلغ المحب الى هذا الحد، فقد زال عنه الاختيار وإستوى في حقه الإعلان والإسرار وظهرت عليه آثار الشهود، فيشهد محبوبه في سائر الذوات وصفاته مع سائر الصفات، فلا يرى في الوجود سواها ولا يراها سواه- مشارق أنوار القلوب ومفاتح أسرار الغيوب – ص 32-36 .

[979]- يعرّف ابن الدباغ هذه المفاهيم بما يأتي: الغرام: هو الانتشاء من خمر المحبة، ويأتي ملازمة الغريم للغريم وعدم مفارقته له، والافتتان: هو خلع العذار وعدم المبالاة بالخلق، ثم الوله: وهو حالة الحيرة، ثم الدهش: وهو الذهول أو البهتة التي تأخذ العبد إذا فاجأه ما يغلب عقله أو صبره أو علمه، ثم الفناء عن رؤية النفس، وهو أن يكون العاشق لا يسمع الا محبوبه ولايبصر الا به، ولا يدرك إلا به وله، ومنه فناء به عن نفسه وعن الأشياء – مشارق أنوار القلوب مفاتح أسرار الغيوب – ص3.

[980]- عبد الرحمان الانصاري :المرجع نفسه، ص 84.

[981]- عبد الرحمان الانصاري: المرجع نفسه ص 89.

خاضوا في موضوع الحب، سواء الحب الإنساني أم الحب الإلهي، ولم يتحرجوا منه ولم يعدوه خروجا عن الملة ولا مروقا على الدين، وأن هذا المفهوم – أي مفهوم الحب – ازداد البحث فيه، نموا ودقة وتفصيلا، مع تعاقب القرون على الحضارة الإسلامية، بحيث أننا نجد أن مفكرا كابن الدباغ وهو من القرن السابع الهجري، يفصل الكلام كثيرا في هذا الموضوع، الى درجة أنه يذكر له مرادفات ومشتقات كثيرة جدا، ويذكر لكل واحد منها تعريفا دقيقا أو شرحا مفصلا، لا نجد له مثيلا في القرون الأولى من عمر الحضارة.

المبحث الخامس: الفناء بالحب الالهي لمشاهدة الوجود عند الجيلاني:

إذن فلا يمكننا أن نعد الحب الإلهي، أمرا طارئا على الفكر الإسلامي، كما حاول أن يذهب الى ذلك بعض المستشرقين ومن تبعهم بإحسان بعض من الدارسين العرب، إذ نسبوه تارة الى الأفلاطونية المحدثة، وأخرى الى الدين المسيحي أو الى الحضارة الهندية، أو الحضارة الفارسية، أو الى غير ذلك من المصادر التي نسب إليها أروع نتاجات الحضارة الإسلامية، وكأن الإنسان العربي، على وفق هذه النظرة، كان عاجزا عن أن يحب ربه، إلا أن يرى غيره يفعل ذلك.

إن ذكر الحب كعلاقة تربط بين العبد وربه أو بين الرب وعباده، وردت كثيرا، وبشكل صريح، في مواضيع متعددة من مرتكزي الدين الإسلامي، أي الكتاب والسنة، ففي القرآن الكريم، ورد قوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُم وَ يُحِبُّونَهُ﴾[982] وهذه الآية تشتمل على إشارتين هامتين اعتمد عليهما الصوفية كثيرا في تأصيلهم لنظرية الحب الإلهي الأولى أن الله تعالى يحب عبده مثلما العبد يحب إلهه، والثانية هي: إن حب الله عبده سابق على حب العبد مولاه، فالعبد لا يمكنه أن يحب ربه، إلا بعد أن يأذن له ربه بذلك، بأن يحبه أولا، وكذلك ورد قوله تعالى: ﴿وَ الذَينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُباً لله ﴾[983] وهذه الآية تتضمن الإشارة الى وجود مراتب للمحبين، وأن فيهم من هو أكثر حبا لله تعالى من غيره، وكذلك فهي، تؤكد المجاهدات الروحية والسلوك الصوفي بوجه عام، وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّ الله يُحِبُ التَوَّابِينَ وَيُحِبُ المتطَهِرِين﴾[984]. فإن فيه تأكيد على أن التوبة والتطهير، هما شروط المحبة الإلهية، وهما أيضا من دلائل المجاهدات والترقي في مقامات الروح، وأما السنة، فقد ورد قوله صلى الله عليه وسلم: ﴿لا يؤمن حتى يكون الله ورسوله أحب إليه من سواهما﴾[985]، وهذا الحديث أيضا يضع حب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم شرط للإيمان، وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم: ﴿من أحب لقاء الله، أحب الله لقاءه، ومن لم يحب لقاء الله، لم يحب الله لقاءه﴾[986] وهو حديث يتضمن التصريح بأعلى درجات القرب، وهو تحقق اللقاء، أما كيفية هذا اللقاء، وهل هو لقاء معنوي، يشير الى التمسك بالطاعات وترك المعاصي، أم هو لقاء حقيقي، ينعم به الله تعالى على المقربين من عباده؟ فهذا ما اختلف عليه المفسرون، كل حسب مرجعياته الفكرية والمنهجية. وأخيرا نذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي: ﴿لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل، حتى أحبه، فإذا أحببته، كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي عليها﴾[987] و هذا الحديث يؤكد عليه أغلب الصوفية ويذكرونه كثيرا في استشهاداتهم لأنهم يرون فيه صراحة العبارة، في تأكيد كرامات

---

[982]- سورة المائدة [الآية 54].

[983] - سورة البقرة [الآية 160].

[984]- سورة البقرة [الآية 222]

[985]- أخرجه البخاري في صحيحه –كتاب الإيمان.

[986]- صحيح مسلم –كتاب الذكر – باب من أحب لقاء الله.

[987]- عن أبي هريرة –كما في صحيح البخاري –كتاب الرقاق – باب التواضع.

الأولياء وكذلك تأكيد قولهم بالوجود الجديد الذي يؤول إليه العبد بعد تمكنه من درجة القرب من مولاه، وفيه أيضا إشارة الى مرتبة الخلافة العظمى[988] في تاريخ الفكر الإسلامي بعامة، كانت مواقف المسلمين من موضوع الحب الإلهي قد تباينت تباينا ملحوظا، إذ أنكره بعضهم متذرعا باستحالة حصول المناسبة بين الخالق والمخلوق، لأن هذه المناسبة تعد شرطا لازما لإثبات صحة المحبة، ويرى أصحاب هذا الرأي أن ما ورد من نصوص في الأسانيد الشرعية، مما يشير إلى موضوع الحب الإلهي، لا يعدو كونه في حقيقته ضربا من ضروب المجاز البلاغي والتمثيل اللغوي، وأن الله عزّ وجلّ، وعلى خلاف الظاهر من هذه النصوص، لا يحب ولا يحب، لأن المحبة وبكل أشكالها وصورها لها من اللوازم والتبعات، مما لا يليق بالذات الإلهية، مثل الشوق والأنس والالتذاذ، ونحو ذلك من الصفات والنوازع مما يجدها المخلوقون، ومما يجب أن تتنزه عنه الذات الإلهية، بحكم صفة الألوهية التي تستوجب الغنى والعزة والصمادانية[989]. طائفة أخرى من مفكري الإسلام، أقرت صحت الحب الإلهي، وأخذت به، ولكنها أولته تأويلات هي أقرب الى الفهم الأخلاقي الظاهري منه الى الفهم الصوفي الذي يصل بالدلالات الى أقصى مدياتها الظاهرية والباطنية، فإن المراد من الحب الإلهي، على وفق رأي هذه الطائفة، هو الطاعة والعبادة والشكر من العبد تجاه الرب، والكلاءة والرحمة والحفظ من الرب تجاه العبد، ويضيف أصحاب هذا الرأي، أن أقصى ما يمكن أن نفهمه من المحبة هو: أنها إحدى الصفات التي وصف بها الباري تعالى نفسه، وعليه فلابد من الاعتقاد بها، ولكن من دون النظر في ماهيتها أو كيفيتها[990]، وهذا الرأي يشتمل على موازنة (أشعرية) قد لا يرضى بها الكثير من المأولين والباحثين عما وراء الكلمات والسطور.

المتصوفة من جهتهم، لم ينكروا شيئا من معاني الحب الإلهي ومدلولاته، بل هم يعدونه حقيقة واقعة، يمكن أن تعاش، وقد اختصوا بها وعرفوها من خلال خلواتهم ومناجاتهم، ومن خلال مواجيدهم وأحوالهم، وفوق ذلك، فهم يرون أن هذه المحبة هي علاقة متبادلة بين الله تعالى وعباده، فالله تعالى من جهته يشتاق للعبد المخلص، ويطلب قربه، كما أن العبد يشتاق إليه ويطلب القرب منه، والله تعالى يناجي العبد ويغار عليه في أن لا يخالج قلبه شيئا سواه كما يناجي العبد ربه ويغار عليه، طمعا في مزيد من القرب والنور والرضوان، والى غير ذلك من صفات المحبة ولوازمها[991]. والصوفية لا يستغربون من منكري المحبة عليهم، بل هم يعذروهم لاعتقادهم، بأن المحبة مثلها مثل سائر أحوالهم، ولا يمكن شرحها وتفسيرها ولا التعبير عنها لغير من ذاقها وأحسها، إذ أن فاقد الشيء لا يعطيه، وقبل الدخول في موضوع الحب الإلهي عند الشيخ عبد القادر، لابد من تسليط الضوء على بعض الجوانب

---

(988)- يستند الجنيد البغدادي في تعريفه للحب الى هذا الحديث، فالحب عنده هو: دخول صفات المحبوب على البدن من صفات المحب، عوارف المعارف – ص 508.

(989)- الصمد: وهو السيد المصمود إليه في الحوائج والمستغني بذاته وكل ما عداه محتاج اليه في جميع جهاته، فلا صمد في الوجود سوى الله تعالى – اسماعيل البروسوي – تنوير الأذهان من تفسير روح البيان – الدار الوطنية – بغداد – 1990 – ج/4 – ص 611. ويضيف ابن عربي، أنه لما كان كل ما سواه موجودا بوجوده، أي هو ليس بشيه في نفسه، لأن الإمكان اللازم للماهية لا يقتضي الوجود، فلا يجانسه ولا يماثله شيء في الوجود – تفسير القرآن الكريم – بيروت – 1981 – ط/2 – ج/2 – ص870.

(990)- القشيري:المرجع السابق،ص 247.

(991)- د ابو العلاء عفيفي : التصوف الثورة الروحية في الإسلام ،دار الشعب، بيروت، ط7، 2009م ، ص 195.

التاريخية المتعلقة بهذا الموضوع إذ يمكن القول: أن الحب الإلهي بوصفه عنصرا أساسيا من عناصر التصوف الإسلامي قد برز بشكل مبكر جدا من تاريخ هذا الفكر، وظل ملازما له مع تعاقب خطواته ومراحله وأطواره، ولعل في هذه الحقيقة دلالة واضحة على أهمية الحب في الفعالية الصوفية برمتها، لقد رفع رواد حركة الزهد، الحب الإلهي شعارا لهم، فهذا خليد العصري[992] كان ينادي في أهل زمانه وبأعلى صوته فيقول: يا أخوتاه، هل فيكم من أحد لا يحب أن يلقى حبيبه؟ لا فأحبوا ربكم وسيروا إليه سيرا كريما. وهو نداء فيه دعوة الى افشاء الحب الإلهي بين الناس، وجعله وسيلة مثلى للتقرب الى الله تعالى، وكذلك الحال مع كهمس القيسي (ت 149 هـ) الذي اشتهر بصيحته التي طالما كان يطلقها في جوف الليل: أتراك معذبي وأنت قرة عيني يا حبيب قلباه؟ وهو قول، رغم طروحاته البسيطة إلا أنه يدل على اعتياد عبّاد ذلك العصر على تعاطي مثل هذه المفاهيم. ثم نذكر عتبة الغلام (ت 164 هـ) الذي يعد من الدعاة الأوائل، الذي يستوي معه، البذل والمنع والرحمة والعذاب ويتبين ذلك من قوله: إن تعذبني، فإني لك محب، وإن ترحمني فإني لك محب، وهي عبارة تفوق سابقتيها، جرأة ودراية بهيمنة سلطان الحب، ولا يسعنا في هذه المرحلة العاجلة، لا أن نعرج على ذكر العاشقة الإلهية الشهيرة، رابعة العدوية[993] التي كان لها كلام عجيب وأشعار رائدة في الحب الإلهي، أشهر من أن تذكر، ثم نأتي أخيرا على ذكر زعيم الحركة الزهدية الثاني بعد شيخه الحسن البصري (ت110 هـ) وهو حبيب العجمي (ت 200 هـ) والذي كان مفرط الصراحة في حبه لربه إذ يقول: وعزتك، إنك لتعلم أني أحبك[994] فهذا إذن،مسح أولي سريع، لمدة من عمر حركة الزهد في الإسلام، تناهز الخمسين عاما، تبين لنا من خلالها إن عدوى الحب التي أصابت أول القوم، لم تلازم نظرائهم من بعده فحسب، بل أنها نمت وتفرعت حتى أثمرت ما أثمرته من نظريات الفناء ووحدة الشهود ووحدة الوجود وغيرها فيما بعد.

الحب عند الشيخ عبد القادر الجيلي: إحساس متلبس بالقلب، يشعر به كل من جربه وذاقه، فهي إذن ليست قولا ولا تأويلا كلاميا إنها معاناة حقيقية، وتشويش تلمسه القلوب من جانب المحبوب، فتصير الدنيا على المحب كحلقة خاتم لضيقها، فهذه إذن أول مغازي الشيخ عبد القادر، لقلاع الحب وهو فيها، لم يأخذ من الحب صنقا ويترك الآخر، بل عرَّفه تعريفا ينطبق على كل أشكاله التي عرفها بنو البشر، ويرضى به كل العاشقين في الأرض وبمختلف أصنافهم.

إن أبلغ مصداقية للحب، عنده، تتجسد في كونه معاناة وجدانية يتقلب فيها المحبون، ولكن هذه المعاناة، تتفاوت في الصدق، تبعا للجهة التي تحن إليها القلوب، ولا شك في أن محبة الله تعالى هي أشرف تلك الجهات وأوفرها حظا من الحقيقة واليقين، والحب عند الشيخ عبد القادر لا يقاس بالعقل، ولا بحكمه وأدواته، لأنه سكر لا يشوبه صحو أي بمعنى أنه ينمو على أرض تغيب عنها سلطة العقل وحكمه، ولا يعني هذا الكلام اتهام المحبين بالجنون، ولكنه يشير الى طبيعة الحب المغايرة لمنطق العقل والتي قوامها العاطفة المحضة، ولعل الشيخ عبد القادر، في رأيه

---

[992]- لم نعثر في ترجماته على تاريخ وفاته، ولكن من المؤكد أنه توفي في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة.

[993]- رشيد سالم الجراح – رابعة العدوية شهيدة الحب الإلهي – بغداد – 1988 – ص 73 فما بعدها.

[994]- د. كامل مصطفى الشيبي : صفحات مكثفة من تاريخ التصوف الإسلامي،دار صادر، بيروت ، 1977، ص 64 – 65.

ذاك يتخذ موقفا مناقضا تماما، لموقف مناهج التصوف الاشراقي، التي هي بالتأكيد تؤمن بخلاف ذلك. ويتميز الحب أيضا عند الشيخ عبد القادر، بأنه عطاء مطلق وتوجه كلي إلى المحبوب، بالروح والقلب وكل الحواس والجوارح، وفي السر والعلن، وإيثار المحبوب على الذات وكل شيء آخر سواه، باختيار تلقائي وبإرادة فطرية وليس بإرادة متكلفة والحب هو العمى عن غير المحبوب غيرة عليه والمعمى عن المحبوب هيبة له، فهو عمى كله، والمحبون سكارى لا يصحون أبدا إلا بمشاهدة محبوبهم، مرضى لا يشفون إلا بملاحظة مطلوبهم، حيارى لا يأنسون بغير مولاهم ولا يلهجون إلا بذكره ولا يجيبون غير داعيه[995]. لقد جمع الشيخ عبد القادر، في هذا التعريف المركب، كل مظاهر الحب وأشكاله، وهو ابتداء يميل الى تصنيفه بكونه حالا من الأحوال الصوفية وليس بكونه مقاما، لأن المقام يفترض الإرادة والسعي والقصد والدراية، وهذا الحال لا يصيب القلب إلا في مرحلة متأخرة من مراحل السلوك، لأنه يتطلب التوجه بالكلية نحو المحبوب، وهو ما يفترض الإخلاص والفناء الشهودي والفناء الوجودي، وهي كلها مقامات تخص الواصلين من أهل السلوك. ولكي يستمر الشيخ عبد القادر، على مواظبته على ربط مفاهيمه الصوفية بعجلة الشرع الإسلامي فإنه يؤكد على أن أساس محبة الله تعالى والقرب منه، هو طاعته وإتباع أوامره، وما البعد عنه في حقيقته إلا بمخالفته وعصيانه، وهذا ما يتجلى عنده بوضوح، في تفسيره خطيئة آدم هي أول الحجب التي حجبت آدم عن ربه، «فحضرة الله تعالى طاهرة لا توطأ بأقدام لوثتها مخالفة المحبوب، وأن من أوكد أسباب الهجر هو: أنك لا تطيق أن تقيم في دار عصيت فيها صاحبها»[996]. إذن فالمحبة الإلهية تحتاج الى سعي وجهد من العبد أولا[997]، ويتم ذلك بجلو البصائر إبتداء و البصيرة هي غير البصر، لأنها مدفونة في أعماق مكامن النفس، وأن إخراجها من الأمكان الى الوجود، يحتاج الى صبر ومشقة بحيث تكشف عنها الكثير من براقع الغفلة وكذلك الحال مع القلوب الصدئة، حيث لابد أن تصقل مراياها، كي تلتقط جواهر المعاني الربانية، وأن تنقى الأرواح، حتى تستوحش في مساكن هذه الأشباح، وأن تخرج من ديار هياكل الطين وتنتقل إلى أطوار مراتب القدس وأما الهمم فيجب أن لا تسعى إلا الى جنات جلال الوحدانية الحقة[998]. وفي الخلاصة فإن قلب المؤمن إذا كان هو عرش الرحمن، وأن الرحمن يحل في عرشه متى وأين شاء، فإن هذا لا يمنع العبد من أن يطهر هذا العرش ويزينه استعدادا لقدم مليكه فمتى ينبع الحب في قلب المريد، والى أين يتجه؟ إنه ينبع من مشاهدة بعض جمال المحبوب، ويتجه شوقا الى لقائه، وأما سبب هذا الحب، فهو صورة الجمال أي جمال المحبوب، الكامنة في مرايا الأرواح، والتائقة الى ملاحقة تجليات الجمال الحقيقي. وهي إشارة الى حياة الأرواح السابقة والتي تطلعت الى صور الجمال، ثم حرمت بعد ذلك باتصالها بهياكل الصلصال، وتتجسد هذه الإشارة في مواضع متعددة من أقوال الشيخ عبد القادر، فمثلا في ذكره قصة إبراهيم يقول: كان طفل إبراهيم مربى في مهد عهد لطف القدم تحت ظل

---

[995]- التادفي : المرجع السابق، ص 88.

[996]- الشطنوفي :المرجع السابق، ص 26.

[997]- على أن هذه العبارة لا تتناقى مع قول الشيخ عبد القادر أن المحبة من الأحوال، إذ إن جميع الأحوال وعلى الرغم من كونها مواهب رحمانية، تستوجب استعداد العبد بتصفية نفسه بالطرق المعهودة في التصوف.

[998]- الشطنوفي :المرجع السابق، ص 32.

شجرة الكرم، بروح مروح الفضل، بنسيم ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل حين جمع القدر ذرات الذوات وأرواح النسمات... حتى آن أوان ظهوره في سرادق الزمان ... فنهض ينشق محيا ذاك النسيم في براري الوله يهيم طالبا للتفرد ...[999] وكذلك قوله: «إن المشاهدة هي سلاف راح يطوف بها سقاة الأزل على ندماء الأرواح في أقداح الخطاب، وفي مجلس الوصل، عند سدرة منتهى الأمل، فوق غاية منى العارفين تحت ظلال جلال القدم...»[1000]

.

وكذلك قوله: «خرجت بعض طيور الأرواح من أنقاض الصدور، تتلمح أثرا من مطارها القديم، تستنشق نسمة من مهب التكليم تتذكر عيشها في ظل أل الوصول، تشكو جواها بعد بعاد الأحباب»[1001]. ثم قوله الذي يفصح عن هذه المسألة أكثر من سواه: «طافت سقاة القدم على أرواح بني آدم، بكؤوسي شراب ألست بربكم، في خلوة مجلس وإذ أخذ ربك أسكرهم الساقي لا الشراب، سكنت تلك النشوات في ذرات تلك الذوات، حتى انفلق صبح شرع أحمد»[1002]. ولنا أن نتساءل بعد ذلك هل الشيخ عبد القادر، وكثير غيره من متصوفة الإسلام، ممن قالوا بهذه الطريقة (الخطيرة)، أي وجود الأرواح السابق على الحياة الأرضية، قد تأثروا بشكر مباشر بنظرية الهبوط الأفلاطونية، أكان لهم في شرعهم الإسلامي ما يكفي من الأسانيد التي تسوغ نظريتهم؟ ولعل أقرب الأجوبة الى الصدق، هو الجواب الذي يجمع بين الأثرين، إذ يمكن القول أن نظرية الهبوط الأفلاطونية قد انتشرت بشكل سريع بين أوساط المفكرين المسلمين وأصبحت جزءا من ثقافتهم السائدة، ولكن لم يكن لهذه الفكرة (الغريبة) أن تسود، لو لم لها المسلمون في شرعهم، ما يدعمها ويسوغ الأخذ بها، فلقد ورد في القرآن الكريم، الكثير من الآيات التي تشير الى المعنى ذاته، كقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾[1003] وهذه الآية تشير صراحة الى إقرار أرواح جميع بني آدم بوحدانية الله تعالى، قبل اتصالها بالأبدان. كذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾[1004]. وهذه الآية تؤكد أيضا المعنى ذاته، ثم أن مجرد ذكر القرآن الكريم قصة آدم، وكونه قد سكن الجنة قبل هبوطه أو بالأحرى إبعاده عنها، وكون الجنة تعني في أخص ما تعنيه القرب من الله تعالى، فإن ذلك سيترك الباب مفتوحا أمام أي راغب في تبني تلك النظرية، وقد يسهل الحكم على هذا الرأي بتهمة التوفيقية، ولكن قبل ذلك ينبغي أن تحضر في أذهاننا حقيقتان: الأولى: أن مفكري الإسلام بمختلف اختصاصاتهم الفكرية،

---

(999)- الشطنوفي : المرجع نفسه ، ص 33.

(1000)- المرجع نفسه، ص 39.

(1001)- المرجع نفسه ، ص42.

(1002)- المرجع نفسه ، ص 70.

(1003)- سورة الأعراف [الآية 172].

(1004)- سورة آل عمران [الآية 81].

سواء منهم المتكلمون أم الفلاسفة أم الصوفية، كانوا حريصين أشد الحرص على الترافق مع عقيدتهم الإسلامية، ولم يكن من السهل عليهم التفريط بها، كما توحي بذلك أغلب الدراسات الإستشراقية، والثانية: هي أنه ليس من قبيل الولاء للتراث الإسلامي أو الإعتداد بالذات، أن نظن أن مفكري الإسلام كانوا بمعزل عن التأثيرات الفكرية والاجتماعية الوافدة عليهم أو المحيطة بهم، لأن هذا ضرب من المستحيل إذ أن أي حضارة، لا يمكن أن تنمو أو تزدهر ما لم تتفاعل مع غيرها من الحضارات أخذا وعطاء.

إن ما كنا نود أن نصل إليه، من وراء هذا الاسترسال، هو أنه ليس من الواجب علينا أن نقف من مفكرينا المسلمين من ذوي الإبداع المشهود، موقف رجال الكنيسة في القرون الوسطى من السحرة، فنتهمهم بالهرطقة والمروق من الدين، في مقابل أية فكرة تصدر عنهم ونلمس فيها بعض الغرابة أو نشعر حيالها ببعض الاستيحاش، بينما الأجدى و الأجدر، أ، نبحث لهذه الأفكار، عن مسوغاتها الاجتماعية والسياسية والاعتقادية، التي استوجبت ظهورها في حينها، ولعل هذا الطموح الأخير، وهو الذي سيمكننا مرة أخرى من إنتاج أفكارنا الجديدة الخاصة بنا والملائمة لعصرنا إضافة الى أنه سيمكننا من أن نقرأ مفردات تراثنا الفكري الإسلامي قراءة علمية عميقة وثرية وبعيدة عن كل أشكال التعصبات الضيقة، ثم نعود مرة أخرى الى موضوع الحب الإلهي عند الشيخ عبد القادر، فهو عنده لا يهبط على قلب المريد دفعة واحدة وبصورة ثابتة لا تتغير، بل أن معانيه ودرجاته تتغير تبعا لدرجة إيمان المريد واشتياقه وصدق الطريقة وامتزاجها في باطنه، إن محبة الله تعالى تعني في بداية سلوك المريد طاعته تعالى بالامتثال لأوامره والإنتهاء عن نواهيه، ثم بعد ذلك تعني القناعة بعطائه والرضا بقضائه ثم تعني: طلب نعمة الافتقار الى نواله وعطاياه، ثم أخيرا يبلغ العبد في حبه لربه مرتبة لا يطلب معها عوضا ولا ينتظر أجرا، إذ يكون شوقه خالص للقاء محبوبه والتقرب إليه، وهو ما يمكن أن نسميه بالحب الخالص، وهو حب خاصة الخاصة، وأما قبله فهو حب العامة الذين يطلبون الأعواض ويشكرون على النعم فهو حب المحبوب لعطائه وليس لذاته، وهكذا فإن المنهج الذي اختطه الشيخ عبد القادر لنفسه، لا يزال يعد (ساري المفعول) حتى مع المعوضات التي يمكن أن نظنها بعيدة أصلا، عن ساحة الشرع وأحكامه، فالحب عنده، وكما رأينا سابقا، أساسه التمسك بشريعة النبي محمد صلى الله عليه وسلم تسليما، أي التمسك بالتكاليف وليس كما يرى أو يدعي بعضهم بأنه مدعاة الى ترك التكاليف والتنصل عن أحكام الدين، إن وصول القلب الى مقام الحب لا يتم عند الشيخ عبد القادر، إلا بأداء الفرائض والصبر عن المحرمات والشبهات، ثم ترك تناول المباح في الشرع ولكن المقرون بالهوى والشهوة ووجود القلب، ولا تتوقف الشروط عند هذا الحد بل إنها تزداد مع تعمق المريد أكثر في بحار الحب، إذ يأتي بعد ذلك دور الورع الشافي في المعاملات البدنية والقلبية، وهو شاف لأنه يشفي النفس من أشكال الذنوب والكدورات كافة بكونه شرطا ضروريا لبلوغ محطة الصدق في الحب الإلهي، ثم بعد الورع يأتي الزهد الكامل – أي الزهد في الدنيا والآخرة – شرطا ضروريا آخر لبلوغ المحب ذروة الحب الإلهي الخالص، الذي ليس له تعلق بشيء آخر سوى ذات المحبوب، والزهد الكامل كما يعرفه الشيخ عبد القادر هو : ترك ما سوى الله تعالى ومخالفة هوى النفس والشيطان،

ثم طهارة القلب من الخلق في الجملة الى الدرجة التي يستوي عندها المدح والذم والحجر والمدر[1005]. وإذن فهل يعني الحب الإلهي عند الشيخ عبد القادر، شيئا آخر سوى خلاصة السلوك الصوفي الذي يعني بدوره الالتزام بالفرائض والنوافل والتمسك بالطاعات والأخذ بأسباب الزهد والورع، مما سبق يمكننا أن نلاحظ بوضوح، تمسك الشيخ عبد القادر بإظهار الترابط العضوي القائم بين فقرات نظريته الصوفية، إذ لا وجود عنده لمقام ولا حال ولا حب ولا رقي روحي، ليس له علاقة ببقية أجزاء تلك النظرية بل إن الكل مترابط بعضه مع بعضه الآخر، أولا، ثم كل هذه الأجزاء مع الشريعة المحمدية ثانيا، والتي تشكل بدورها، القاعدة الصلبة التي لا يمكن الانطلاق نحو آفاق الروح والملكوت إلا من ساحتها، وعليه، فيمكننا القول: أنه لا يمكن أن يقال عن أي شيخ ذو منهج صوفي وطروحات نظرية معروفة، أنه قد أصاب في هذه المسألة الفكرية واستقام فيها مع ظاهر الشرع، وأخطأ في الأخرى، وانحرف فيها عن (الصراط المستقيم)، لأن البناء الصوفي برمته، وعند أي شيخ صوفي، ومثله في ذلك مثل أي بناء فلسفي، لابد أن يرتكز على مقدمات وثوابت فكرية أو اعتقادية معينة، بحيث لا يخرج عنها أي جزء آخر من أجزاء ذلك البناء، وإن هذا القول هو رد على ما جاء في كتاب الشيخ عبد القادر الجيلاني وآراؤه الاعتقادية والصوفية[1006]. والذي جاء فيه: أن الشيخ عبد القادر، قد أكثر من دعوى الالتزام بالكتاب والسنة ونهج السلف الصالح، بينما أقواله جاءت مليئة بالمفارقات وعدم الالتزام بهذه الدعوى عند التطبيق، والغريب في الأمر أن مؤلف الكتاب، قد تبنى وبشكل منقطع النظير آراء من أطلق عليه شيخ الإسلام[1007] دون أن يكلف نفسه عناء دراسة المرجعيات الفكرية التي كان يحتكم إليها شيخ الإسلام، أو في الأقل، دراسة العوامل السياسية والاجتماعية التي أملت عليه الأخذ بتلك الآراء المتشددة[1008]. ولعل من اللطيف أن نذكر أن مؤلف الكتاب، قد تغاضى عن تمسكه بآراء شيخ الإسلام، في فقرة واحدة، وهي حين عمد هذا الأخير في معرض ذكره هفوات أهل التصوف على أن يبعد ساحة الشيخ عبد القادر عن كل هذه الهفوات، لا بل إنه عدّه من خيرة شيوخ التصوف الذين مثلوا التيار الصوفي النزيه.

غير شروط المحبة الإلهية يضع الشيخ عبد القادر، شروطا أخلاقية صعبة يجب توفرها في المريد السالك كي يستحق عن جدارة منزلة المحب، وكي يكون قلبه مفعما فقط بحب الله عز وجل، دون هذه الشروط، لا يكون العبد إلا داعيا مرائيا، أول هذه الشروط هو : أن لا يكون للمريد عينان ينظر بهما الى غير محبوبه، ويتم ذلك بأن يزيل من أمام عينيه كل ما سوى محبوبه، فالحب الحقيقي والخالص، إذا تمكن من قلب ما، فإنه يخرج من حب غيره، بحيث يصير هذا الحب، يتشرب في جميع الأعضاء، ويشتغل به الظاهر والباطن على حد سواء، وبحيث يصير هو صورة العبد ومعناه، ويتمكن منه ويغمره حتى يهيئه لتقبل الصورة الجديدة والمعنى الجديد المغاير لمعناه الأول، فيخرجه عن العادات، وعن التمسك فقط من العبادات والرسوم، ويضعه في قلب التدين النابض بالإخلاص والحب والطاعة

[1005]- عبد القادر الجيلاني : جلاء الخاطر من كلام الشيخ عبد القادر،المصدر السابق، ص 18.

[1006]- القحطاني:المرجع السابق،ص509

[1007]- ويعني به ابن تيمية.

[1008]- القحطاني :المرجع نفسه ، ص 507 .

الحقيقية لله تعالى، فإذا ما تم هذا للمريد، أحبه الله عز وجل، فأصبح مرادا بعد أن كان مريدا، وألقيت عنه أحمال طالما تثقل كاهله، وفتِّحت أمامه أبواب طالما منعت دونه[1009] فهذا الشرط الأول، بعني إذا: التحقيق بالإخلاص في العبادات والمعاملات وأنواع الطاعات ما ظهر منها وما بطن. والإخلاص الذي رأيناه فيما سبق، أنه يعد العامل الأساسي الذي ترتكز عليه بقية المقامات الصوفية، يعد هنا الشرط الأول الذي يستوجب قبل إدعاء الحب الإلهي الخالص. الشرط الثاني: يدور حول ضمان صحة الحب الإلهي وهو: أن لا يقبل المحب بقلبه الى غير محبوبه، فإن القلب إذا صدق في محبة الله تعالى فإنه سيحجم عن الميل الى كل ما يمكن أن يشترك مع ذلك الحب، والشيخ عبد القادر، يشبه القلب في هذه الحالة بالنبي موسى عليه السلام حين كان طفلا رضيعا فحرمت عليه كل المراضع إلا ما كان قد خصص له[1010]. إن العبد لا يمكن أن يكون له أكثر من قلب واحد في جوفه، فإذا ما امتلأ هذا القلب بشاغل معين، فإنه لا يقبل معه شاغل آخر، فالقلب الذي أحب الخالق – والمعنى هنا موقوف حصرا على الحب الخالص – لا يمكنه بعد ذلك أن يحب الخلق ولا يمكن لقلب أفعم بهذا الحب أن تجتمع فيه الدنيا والآخرة، بل الأحرى بصاحب هذا القلب وهذا الحب، أن يبيع نفسه وكل ما يملكه من أجل نظرة من محبوبه أو نوال قربة منه ولأجل هذه الغاية يرى الشيخ عبد القادر أن الذين يصدقون في عزائمهم، يسارعون بقطع المنازل النفسية، التي هي حجب ظلمانية، ويسرعون بطي مراحل الطريق من غير تلفت و«بعزم مجرد من جواذب الإرادات شوقا الى رؤية المحبوب ووله بنيل المطلوب»[1011]. ويمكننا أن نلمس في هذا الشرط، أنه يرتكز، إضافة الى الإخلاص على الصدق في التوجه الى الله تعالى، فالصدق وحده هو الذي يحرم على القلب التطلع الى غير محبوبه، حتى ولو وجد عند هذا الغير ما يحب ويشتهي، في الوقت الذي لا يجد عند محبوبه إلا المنع والجفاء، إن هذا الشرط يؤكد مرة أخرى على أن الحب عند الشيخ عبد القادر، هو أول وأهم وآخر الدوافع التي تدفع العبد الى تحمل مشقات الشلوك الصوفي، وهو وحده الذي يمكن أن يبلغ بالمريد، الى مرحلة الصفاء التام والقرب الأبدي، إذ أن من أحب الله تعالى فهو حتما سوف لا ينظر الى سواه، ومن سلك الطريق الى الله تعالى وصل إليه ومن وصل الى الله تعالى عاش في كنفه، ومن اشتاق الى الله تعالى أنس به وترك الأغيار، فصفا وقته مع محبوبه[1012]. وهكذا فبالحب وبالتحديد، الإخلاص والصدق في الحب، يسلك الطريق ويتحقق الوصول والفناء والبقاء بالله تعالى.

شرط المحبة الإلهية الثالث هو:مجافاة النوم، فقد كذب من إدعى محبته تعالى، ثم إذا جن عليه الليل ، نام عنه، على أن هذا الأمر المجهد، لا يكون إلا في حق المحب، الذي يتدنى في الرتبة عن المحبوب، كتدني المريد في الرتبة عن المراد، إن المحب فقط هو المعتوب، وأما المحبوب فمستريح، المحب طالب والمحبوب مطلوب، غير أن المحب والمحبوب

[1009]– عبد القادر الجيلاني :الفتح الرباني والفيض الرحماني،المصدر السابق، ص 250.

[1010]– عبد القادر الجيلاني : جلاء الخاطر،المصدر السابق، ص 17. وهو هنا يشير الى قوله تعالى: ﴿وحرمنا عليه المراضع من قبل﴾ سورة القصص [الآية 12].

[1011]– الشطنوفي: المرجع السابق ، ص 28.

[1012]– الشطنوفي:المرجع نفسه ، ص 69.

عند الشيخ عبد القادر، قد يتبادلان الأدوار لأنهما ليسا في مقامات ثابتة، إذ يمكن للمحب أن يكون محبوبا، فيما لو طهَّر قلبه من جميع أصناف السوى، بحيث أصبح لا بديل له عن مطلوبه ولا رجوع له عن حاله، إما مقتربان هذا الوصول فتبدأ من إدمان العبد وجوارحه ذكر الله تعالى، ابتداء من قول «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» مع مرافقة الإخلاص والصدق، ثم انتهاء، بعد سلسلة طويلة من المجاهدات والرياضات، الى فقد كل الأشياء وجميع الأغيار، قيمتها عنده، لأن من صح حبه لله تعالى، وإستوى عنده الحجر والمدر والمدح والذم والعافية والسقم والغنى والفقر، وإقبال الدنيا وإدبارها، فمن بلغ هذه الحالة، ماتت نفسه وسكن هواه، وانخمدت نيران طبعه وذل شيطانه، وكان إقباله على الله تعالى تاما، وصار بقلبه دربا يجوز به في وسط الخلق، الى الخالق[1013] وكما نلاحظ، فإن الشيخ عبد القادر، لا ينثني يذكر مريديه، حتى وهم في غمرة الحب بالمجاهدات والأذكار وأنواع العبادات، وكأنه يريد أن يخبرهم بأنه لا مناص لهم من ذلك، وأنه يعد من الواهمين من ظن غير ذلك.

الشرط الرابع: هو أن لا يرضى المحب بغير لقاء محبوبه، لأن المحبين لا راحة لقلوبهم ولو دخلوا ألف ألف جنة، حتى يروا محبوبهم، هؤلاء المحبون، لا يريدون أي مخلوق، وإنما يريدون فقط خالقهم، وهم لا يطلبون النعم، مع افتقارهم إليها، وإنما يطلبون المنعم، يبغون الأصل لا الفرع، إنهم المحبون حقا وهم كما يسميهم الشيخ عبد القادر نزَّع العشائر، أي المنبوذون من الخلق والذين لا انتماء لهم لقبيلة أو جماعة والذين ضاقت بهم الأرض بما رحبت على غيرهم. إنهم في شغل جسيم يشغلهم عن الخلق وعن دنيا الخلق، وعن جنتهم أرضا، إذ أن كل ذلك عندهم القيود والسجون والدنيا بما فيها تعني لهم الهم والعذاب والحجب الظلمانية، وهم يفرون منها فرارهم من السباع الضارية. إن هذا الشرط، لا يعدو كونه دعوة الى الأخذ بالزهد الكامل الذي يعني في حقيقته، عدم الرضا بغير المطلوب الحقيقي، وعند كل الصوفية، فإن من رضي بالنعمة دون المنعم، فقد أحدث شرخا في صدق توجهه، ولابد من الإشارة هنا الى أن الصوفية، إذ يزهدون في شهوات الدنيا ونعم الآخرة، فإن ذلك لا يعني استغناءهم عن ذلك ولكن يعني أنعم قد وضعوا نصب أعينهم هدفا محددا لا يحيدون عنه، ألا وهو التقرب الى المولى تعالى، وإلا فهم لا يسكنون الى أي ملاذ قبل بلوغهم هذا الهدف، فإذا ما بلغوا مرادهم فعندها سيتقبلون كل ما يأتيهم من الأقسام، ولكن تقبلهم هنا، سف لا يكون مصحوبا بالاستلاب وغفلات القلوب.

الشرط الخامس: وهذا يمكن أن نسميه بشرط فناء الإرادات، فإن من أحب الحب الخالص أو حب الخواص، فسوف لا تبقى له إرادة، لأن قانون الحب الثابت ينص على أنه لا إدارة لمحب مع إرادة المحبوب[1014] وهذا (القانون) يعده الشيخ عبد القادر، من البدائة التي يسلم بها كل محب ذاق طعم المحبة، وهو هنا في موضوع الإرادة، يربط بين الحب والفناء، إذ لا يمكن في رأيه، أن نتخيل المحب إلا فانيا في محبوبه، كالعبد بين يدي سيده، والعبد المطيع طبعا الذي لا يخالف سيده ولا يعارضه في شيء، أما من لم يبلغ هذه المرحلة ويشرب من هذا

(1013)- عبد القادر الجيلاني: جلاء الخاطر، المصدر السابق، ص 18.

(1014)- يقول الشيخ عبد القادر: أن معنى تلاشي إرادة المحب مع حضور إرادة الحبيب يعني أن لا يشتغل المحب عن محبوبه بدنيا ولا آخرة ولا خلق – أنظر الفتح الرباني والفيض الرحماني، المصدر السابق، ص 90.

الكأس، فليس هو محب ولا محبوب، ولا ذاق طعم المحبة ولا ذاق طعم المحبوبية[1015] إن هذا الشرط يفترض إضافة الى ذوبان إرادة المحب في إرادة الحبيب، التحقق بمقام الرضا، ولنا أن ندرك أهمية الحب في الرقي الروحي، فيما لو علمنا بأن الرضا يفترض الصبر والشكر والتوكل، على أننا لو دققنا النظر في مضمون هذا الشرط، لوجدنا أن الشيخ عبد القادر، يعود فيه مرة أخرى الى ربط الحب الإلهي بمعاني الطاعة والخضوع والتحقق بالعبودية المطلقة، ولكن هذه المعاني هي غير تلك التي وجدناها في المستوى الأول من مستويات الحب لأن الطاعة والخضوع والعبودية هنا، جاءت بعد طول مجاهدات ورياضات، فهي أصبحت إذن جزاء من السمات الروحية للمريد وليست مقصورة فقط على الطاعات والأوامر والنواهي.

الشرط السادس: هو شرط عدم التملك، فالمحب لا مال له ولا ملكية وهو في معية محبوبه، وهذا الشرط يعد مكملا للشرط الذي سبقه، إذ إن من محيت إرادته، لا يقول حتما: هذا لي وهذا مالي وملكي، إن المحب لا مال له ولا عرض له ولا خزانة ولا دار إضافة الى محبوبه. إن الكل عنده منذور لمراده ومحبوبه، وليس هو إلا مملوك وعبد بين يدي محبوبه، وإن شرع العبودية ينص على أ العبد وما ملك ملك لمولاه[1016] وعلى أساس ذلك وصف الشيخ عبد القادر المحب بالذليل، لأنه لا تطال يداه أي شكل من أشكال العزة، والتي أولها حرية الإرادة والملكية، غير أن هذا الحب وا ارتبط به من أحمال الفقر والاذلال، هو في حقيقته حال، وليس من صفات الحال والدوام والثبات، فلذلة أغلال الحب، ما هي إلا أمر مؤقت، وما تلبث أن تتحول الى حرية وسيادة، ولا يتم ذلك إلا بعد أن يصح للمحب تسليمه للمحبوب، فيعود المحبوب بعد ذلك فيسلم له ما تسلمه منه وفوضه إليه، عند هذا الحد، تنقلب جميع الأمور فيصير العبد حرا والذليل عزيزا والبعيد قريبا والمحب محبوبا، على أن هذا التحول والانقلاب، لا يتم بيس من غير مشقة، بل هو يحتاج، كغيره من أحوال الصوفية ومقاماتهم، الى كثير من كاسات الصبر ومقادير الصدق، صبر على محبة الله عز وجل، وصدق في طلبه، فيلازم بابه ولا يغادر هربا من سهام آفات أو يأسا من القرب والنوال، وتلك حال، يصفها الشيخ عبد القادر، بأنها حال خاصة جدا، لا يعرفها إلا من ذاقها واحتسى كأسها واكتوى بنارها، وهي حال «لا تجئ بالصفة – أي لا يمكن وصفها بدقة – لأنها من وراء معقول الخلق وفهمهم»[1017]. إن تأكيد هذا الشرط على عدم التملك هو في حقيقته تأكيد على ازالة جميع علائق النفس بالأغيار، ومن ثم إزالة عوامل الأنانية والأثرة فيها، وهو ما تعارف الصوفية على تسميته بالتجرد الذي يعني التخلص من الصفات الرديئة. إن الصوفي يعلم بسريرته، أو من خلال مجاهدته، أن كل ما يلتحق بنفسهمن هذه الصفات، إنما يحدث من جراء التصاقها بالدنيا وحاجاتها وشهواتها، وإن خير وسلة للتنصل عن ذلك، تتمثل في إزالة هذه العلائق عنها، فالنفس في أصل فطرتها، تعد صافية نقية عالمة محبة لربها، ولكن ما يلتحق بها من جراء ارتباطها مع متطلبات الجسد وحاجاته، وذلك هو أصل النقص وفصله، وبناء على ما سبق، يمكننا أن نفهم من الصوفية الإسلامية، أن الزهد في الدنيا عندهم، يعد أمرا تكتيكيا أو مرحليا يجتاز به الصوفي

(1015)– عبد القادر الجيلاني: جلاء الخاطر، المصدر السابق، ص 19.

(1016)– عبد القادر الجيلاني: جلاء الخاطر، المصدر نفسه ص19.

(1017)– المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

عقبة ويقطع به طريق، ليحوز بعد ذلك على ما كان يريد وينتظر، فإذا ما تحقق له ذلك، فقد صار سيان لديه أزهد أم لم يزهد.

الشرط السابع: ومع هذا الشرط، يعود الشيخ عبد القادر، مرة أخرى الى تأكيد التمسك بالطاعات، لأن من كان محبا فقد لزمت عليه الطاعة لم أحب، وإنه لا يصدق من ادعى محبة الله تعالى إلا إذا أطاعه، إن محبة الله عز وجل لا يمكن أن تتمكن من قلب العبد، ما لم يمتثل أولا الى أوامره تعالى وينتهي عن نواهيه ويقنع بعطائه ويرضى بقضائه، ويذكره ذكرا صادقا متواصلا بالقلب واللسان وكل الجوارح وبالجهر والسر، ويرى الشيخ عبد القادر، أن هذا الذكر الأخير، أي الذكر بالسر، هو الذي يصل بالمريد الى حالة الفناء في ذكر محبوبه، فإذا ما وصل الى هذه المنزلة من الحب والذكر، «باهى الله عز وجل به خلقه، وميزه عنهم بأحوال وأقوال عجيبة، لأنه حينئذ، سيكون حق في حق تفنى ذاته ولا يبقى في قلبه إلا الأول والآخر والظاهر والباطن»[1018].

إن الذكر يوضع عند الشيخ عبد القادر، جنبا الى جنب مع الطاعات والتمسك بالأوامر والنواهي، وهو تأكيد من جانبه على أن الطريق الصوفي إذا كان لا يمكن قطعه بغير واسطة الشرع، فإن طاعة الله تعالى، حق طاعته، لا يمكن أن تتحقق بغير ذكره وحبه، والذكر والحب هما من حيثيات التصوف، وعليه فلا وصول الى الله تعالى بشريعة لا تتزيا بزي الطريقة.

الشرط الثامن: يتعلق بالتوحيد وعدم الشرك في المحبة إذ إن المحبوب في غرف المحبين لا يمكن أن يكون إلا واحدا والمحبة أحادية لا تقبل شريكا، ويكون دعيا من تظاهر بالحب، وانشغل عن ضيفه المحبوب، أو أشرك غيره معه في قلبه، حتى وإن كان هذا الشريك مالا أو وادا أو هوى أو رغبة، ولذلك تجد أن الذين صدقوا في محبتهم لله تعالى، رضوا به دون غيره واستعانوا به وحده واقتصروا عليه وأحجموا عن سواه، حتى صار الفقر عندهم غنى، لا بل أن غناهم صار فقرهم تجاهه، ونعيمهم صار في سقم أجسامهم وأنسهم في وحشتهم عن الخلائق، وقربهم في بعدهم عن غيره وراحتهم في تعبهم من الدنيا ويأسهم من صفوها ودوام نعيمها[1019]. إن ما يشير إليه هذا الشرط يعد مطمحا يسعى كل مريد سالك الى بلوغه، إنه التوحيد الخالص، الذي لا يشوبه أي شكل من أشكال الشرك، مهما خفي أو دق، وأننا لو تمعنا في معنى الحب الإلهي عند الصوفية بوجه عام، لوجدنا أنه لا يعني عندهم شيء آخر سوى كونه توحيدا من نوع خاص، لا يتمكن منه إلا الخاصة من عباد الله تعالى، وهو توحيد يشمل القلب واللسان والخواطر والعقول وكل الجوارح في آن واحد، ولدلك نرى الشيخ عبد القادر قد ألحقه مع آخر شروط الحب، ليؤكد للآخرين أن الحب الإلهي والتصوف بوجه عام لا يعني شيئا أكثر من توحيد الله تعالى حق توحيده، والشيخ عبد القادر يلحق بالحب صفة لازمة من صفاته، وهي الغيرة[1020] والله تعالى وصف نفسه بأنه (الغيور)

[1018]- عبد القادر الجيلاني: جلاء الخاطر ، المصدر السابق، ص 20.

[1019]- عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني و الفيض الرحماني ، المصدر السابق، ص 143.

[1020]- يعرف الجرجاني الغيرة بأنها: كراهة شركة الغير في حقه. الجرجاني :التعريفات، المرجع السابق، ص 170. وأما الهروي فتعني عنده: سقوط الاحتمال ظنا والضيق عن الصبر نفاسة. ابن القيم الجوزية:منازل السائرين ،المرجع السابق، ص 90. وأما الأنصاري فيعدها من لوازم المحبة، ويوصف بها المحب والمحبوب كل واحد منهما على نفسه وعلى حبيبه ، مشارق أنوار القلوب ومفاتح أسرار الغيوب ، ص 80.

أي بمعنى أنه خلق العبد له، فلا ينبغي إذن أن تكون لغيره، فيما لو صدق في حبه، إنه إن لم يكن كذلك، وأحب شيئا من حظوظ الدنيا أو الآخرة، تشعبت محبته وانتقصت وتجزأت وصارت موزعة بين الله عز وجل وغيره، والله تعالى لا يقبل الشريك، وهو الغيور القاهر فوق كل شيء الماحي لكل شيء، لذلك فإن على قلب المحب، أن يتطهر من جميع الشركاء والأنداد واللذات والشهوات، وطلب الرئاسات والكرامات، بحيث لا يبقى له إرادة ولا مطلوب ولا أمنية «كالإناء المنثلم الذي لا يضبط فيه مائع»[1021] فهو لا تتبلور في إرادة شيء من الأشياء، لأنه انكسر بفعل محبة الله عز وجل وبحيث صار، كلما نجمت فيه إرادة ما كسرتها محبة الله تعالى وغيرته، وهو ما يمكن أن نسميه بالحفظ الإلهي الذي هو وليد صدق العبد مع ربه وحبه له وتوكله عليه. فإذا ما بلغ العبد هذه المرحلة حفه الله تعالى بأنوار العظمة والهيبة[1022] والجبروت، وضرب حوله، لأجل الحفظ، خنادق الكبرياء والسطوة، بحث صار لا يمكن أن تخلص الى قلبه إرادة شيء من الأشياء وحينئذ فقط، يمكن أن يطمئن القلب و يأمن ضرر الأسباب عليه، من الولد والأهل والأصحاب والأموال والكرامات، لا بل حتى الحكمة والعبادات، «لأن جميع ذلك يكون خارج القلب، فلا يغار الله عز وجل عليه، بل يكون جميع ذلك كرامة من الله تعالى لعبده ولطفا به ونعمة ورزقا ومنفعة للواردين إليه»[1023] وهكذا يصل بنا الحب الإلهي الى النتيجة نفسها التي وصل إليها المريد السالك عبر اجتيازه للمقامات الصوفية كلها، إن المحب لله تعالى، يصبح بهذا الحب عبدا حقيقيا لمولاه تعالى، ويدرك به فقره المطلق تجاه وحدانية وفردانية وألوهية وغنى الله عز وجل، ويدرك أيضا، أن كل الطرق مسدودة في وجه القاصدين للقرب من مولاهم، إلا طريق الإسلام والإيمان والإحسان، وهو الثلاثي الذي يشكل جماع القصد الديني، والذي ينحصر قصد السلوك الصوفي في جزئه الأخير. القلب إذن إذا أخلص وصدق في حبه لله تعالى، فسوف لا تضره بعد ذلك ألوان قطوف الحلال من شهوات الدنيا ولذاتها، لأنها بعد ذلك لا تمس قلبه بأي ظلمة أو حجاب، وهو من جهة أخرى، سيكون منارا يهتدي به بقية الخلق – الطالبين مطلبه – من ظلمة الطريق، إذ إن أكثر الناس حبا لله تعالى هو بالتأكيد أكثرهم قربا منه وعلما به وبأحكامه وحدوده وشرائعه، لقد تحمل مفهوم الحب الإلهي عند الصوفية، مفردات وعبارات وإشعارات كثيرة تشير الى معاني: الوصال واللقاء والقرب والمعانقة، وكذلك الهجر والصد والجفوة والمنع، وهي معان طالما أثارت حفيظة خصومهم من جهة، وحملت كلامهم في هذا الشأن، غير ما يحتمله من الإشارات والدلالات التي أرادوها من الجهة الأخرى، والشيخ عبد القادر، من جهته، لم يتردد في الخوض في بحر هذه المعاني، لا بل أنه تميز عن معاصريه من الصوفية برقة وعذوبة العبارات التي تناولت

[1021] – الشيخ عبد القادر الجيلاني : فتوح الغيب ، المصدر السابق، ص 76.

[1022]– الهيبة: وجود تعظيم في القلب يمنع النظر الى غير المحبوب وهذا المقام ذاتي للمحب لا يفارقه إلا أنه يشتد عند صفات الجلال. أنظر عبد الرحمن الأنصاري ، المرجع السابق، ص 79.

[1023]– القحطاني، المرجع السابق، ص 76.

موضوع الحب، الى درجة أنها شكلت لوحات بلاغية رائعة، يمكن أن تصلح للتداول بين العشاق في كل عصر[1024].

ولكنه من الجانب الآخر، وتماشيا مع منهجه الصوفي، لم يغفل عن تذكير مريديه وتنبيههم على أن كل ما يرد في كلامه مما سبقت الإشارة إليه من المعاني، غنما له تعلق بالقلوب دون الأبدان، وغنما قرب القرب والوصول هو وصول القلب، ولا يمكن لأي إمرء أن يتصور غير ذلك مما قد تشير إليه مثل تلك العبارات[1025]. على أن هذا التنبيه لا يقلل من شأن الحب الإلهي أو يشير الى كونه وهما أو ضربا من الخيال أو إرهاصات شاعر، إنه فقط ينفي القرب الجسدي والمشاهدة العيانية، وأما ما عدى ذلك فالشيخ عبد القادر لا يطعن في وجوده الحقيقي المحسوس بالقدر الذي يمكن الطعن فيه بوجود الأشياء المحسوسة في العالم الأرضي، إن المحبة الإلهية ما هي إلا أمر واقعي ويقين ملموس، وهي ليست من قبيل الأقوال الشعرية المنمقة أو من قبيل المجاز أو الادعاء المحض.

إن المحبة الإلهية حقيقة، ولها علامات دامغة لا يمكن أن تخطئها عين خبير، فهي في قلب المحب، كنار في بيت بلا باب ولا مفتاح يخرج لهيبها من فوقه قهرا واضطرارا «إن المحب يغلق باب محبته ويكتمها حتى تظهر عليه»[1026] فهو إذن لا يتظاهر بها أو يفتعلها، إنها تجربة روحية خارقة وقاهرة لا يخوضها المحب طائعا ولا يخرج منها مالكا لأمره أو إرادته، بل لا يخرج منها أصلا، إنها تجربة روحية ينقلب فيها كيان الإنسان وتتغير معها طباعه وتتهذب صفاته وترق خصاله وسجاياه، والمحبة نحو أي موضوع توجهت، فإنها تبقى تجربة سامية ترتقي بالمستوى النفسي والخلقي والوجداني للمحب، بما لم يكن يخطر له على بال، فأما إن كان موضوعها هو الذات الإلهية، فإنها لا يمكن أن تحد أو تستوعب أو توصف إلا إذا أمكن أن تحد وتوصف التجربة الصوفية برمتها، إذ لا فرق في النهاية بين الحب الإلهي والتجربة الصوفية العسيرة على الوصف، إن المحبة الإلهية، هي عند الشيخ عبد القادر، موهبة ربانية وفضل إلهي، وبذرة تلقى في قلب العبد، وهو لا فضل له ولا إرادته في غرسها أو استجلابها، لا بل «ليس للعبد فيها كسب ولا يصح وجودها في قلبه إلا بعد بروزها من جانب الغيب، على يد المشيئة، والعبد هنا ساقط الكسب ممحو السبب»[1027]. ومعنى هذا القول هو أن أي امرئ إذا لم يجد في قلبه من لواعج الحب وزفراته شيئا، فليس عليه أن ينكرها عند غيره أو يستهجنها أو يكفر القائل بها، إنها من مواهب الرحمان التي يختص بها من يشاء من عباده، وهذه العبارة الأخيرة تؤكد دون أدنى شك، أن الشيخ عبد القادر، يميل الى وضع الحب

[1024]- انهضوا الى هذا الوصال فكل ملذذ بسماع نعمة منشد هذه النغمة، أو مضطرب من طيب ألحان مضطرب بشجو حنين مكتئب على الفور بسعادة هذا المنقلب، أو متبتل بالهيام من الطرب بأصوات حادي الى النادي هذا العز البادي، فإنما ذلك محرك بهذا القدر، يذكر روحه حلاوة النظر في مجلس وإذ أخذ ربك، أو يثير دفين سره الى لذة سماع ما بقي من مسموعه في حضرة ألست بربكم، عند تجريد الأرواح عن صورة الأشباح ويفردها بنعت توحدها في العلم النوري، فإن وجدت مشام روحك روح الأنس، يهيب عليها من رياض ربيع الكرم عند ذكر الحبيب الأعظم، فذلك وارد من جانب الأبد، ويذكر التزام شرط بيعة المحب بحركات شمائل محاسن العهد القديم، فاضطرمت في سويداء القلب نار أسف المهجور لوحشة الانقطاع، وتوقدت في صميم السر، جمرة حرقة المحبوب بفرقة الأحباب، عبد القادر الجيلاني – أنظر: بهجة الأسرار ومعدن الأنوار ، المصدر السابق، ص 44.

[1025] – عبد القادر الجيلاني: جلاء الخاطر ،المصدر السابق،ص 21.

[1026]- القحطاني: المرجع السابق، ص 21.

[1027]- الشطنوفي : المرجع السابق، ص 123.

الإلهي في خانة الأحوال الصوفية وليس في خانة المقامات، إنها ناتج تفرزه حركة المقامات التصاعدية، ولكن مع التأكيد أ هذه المقامات تهيئ له ولا تحتم ظهوره، فالعبد مهما فعل فإنه لا يمكنه أن يتصف بصفة الحب ولكنه من جهة أخرى لا ينال مرتبة الحب، إلا إذا أعد له عدته، وهكذا هو ديدن الأحوال بوجه عام.

يصف الشيخ عبد القادر، المحبين لله تعالى، بخواص الناس ومختاريهم، إذ أنه تعالى اصطفاهم وميزهم وفضلهم بالمحبة على غيرهم، ثم نقلهم، بعد ما بث في قلوبهم محبته، من حال الى حال ومن غير سابق إشارة أو إنذار، حتى صاروا كأنهم في خلق جديد، لقد كانوا قبل أن يسري في عروقهم نسغ الحب الإلهي، نياما في مراقد العدم، رقودا في مهد الغيب، فتية في كهف الكرم، حتى استخرج سابق القدر من أجزاء الطين ذرات ذواتهم، وأذهب غشاها بنار الاصطفاء ونقش عليها صائغ الذهب في دار ضرب الأزل سطور (يحبهم) وقال عنهم وهم في طي العدم (ويحبونه)[1028]. فهو، يعني إذن تعيين قديم وقدر نافذ، لا يملك الإنسان معه دفعا أو إستجلابا، وهو إلهي مسطور في اللوح المحفوظ منذ الأزل، ومثله في ذلك مثل النبوة والولاية، فكما أن الإنسان مهما تعبد واجتهد، لا يمكنه من أن ينال درجة النبوة والولاية، فكذلك الحال هنا، فالعبد مهما فعل فإنه لا يبلغ درجة المحبين المحبوبين ما لم يكن مثبتا اسمه في ديوانهم (القديم)، وما كان لم تكن روحه مفتونة بالجمال الإلهي في سابق عهدها، وقبل أن تسكن قصور الصور ويختلط صفاؤها بكدرها ويمتزج نورها بالظلمة العنصرية. لقد حلت أرواح المحبين «محل الغريب في البلد النازح فاشتاقت الى ما أشرقت به جناب القدم، وحنت الى ما أنست به في مواطن القدس، وطال عليها في الفوق والتحت، فأصبحت ذرات ذواتهم هباء في فضاء الغرام، فلما خرجوا الى سعة ميدان القرب، ألبست يد العناية كلا منهم ما قدر له من مقدور القدر من خلع الحب وعقد لخواصهم في خلوة مجلس الأنس ألوية يحبونه ونصب لقدومهم أسرة العز على ساحل بحر – وسارعوا – وأمر كاتب ديوان الأزل أن يسجل لهم السعادة الكبرى، وجعل ختم كتابه – والله يدعوا الى دار السلام – وعنوان خطابه – فاتبعوني يحببكم الله»[1029] فهل يبقى بعد هذا الكلام البالغ الوضوح، شك في تبني الشيخ عبد القادر، لعقيدة حياة الأرواح السابقة والقديمة والتي كانت فيها قريبة من تجليات أنوار الحضرة الإلهية، والتي كانت تتمتع فيها بدرجة عالية جدا من الصفاء والمعرفة ونفاذ البصيرة والتي تم فيها تقدير الأقدار وتقسيم الأقسام وتثبيت المنازل، ثم من بعد هذه الحياة (الهنيئة)، أجبرت الأرواح على الهبوط «وعلى ارتداء ثياب الطين وعلى التطبع بطبائعه واشتهاء وجوع ورغبات هي ليست من تطلعاتها الأصلية، فلحقها ما لحقها من عتمات الصدأ والتكدرات، فخفت نورها ونسيت حقيقتها، ثم أنها عند أول بادرة نور، استعادت عشقها القديم واشتاقت الى لقاء يعيدها صفوها، فكان الحب وكان السلوك وكانت المقامات والأحوال، ولم يكن من وراء ذلك كله إلا ابتغاء وجه الله تعالى طلب مرضاته وتمني القرب منه على أن كون المحبة منة ولطفا إلهيا وكون المحب» «لا يطير الى محبوبه إلا بنجاح الاصطفاء وأنه يتميز و لا يصطفى ولا يكرم، إلا من اختاره الله عز وجل»[1030] فإن هذا لا يلغي في نظر الشيخ عبد القادر، قصد المحبين وإرادتهم في

[1028]- الشنطوفي:المرجع نفسه، ص 32.

[1029]- المرجع نفسه، ص 32.

[1030]- المرجع نفسه، ص35

تهيئة أنفسهم واستصلاحها لجعلها مستعدة لاستقبال بذور المحبة الإلهية وهو يستشهد هنا بسيرة النبي موسى عليه السلام، حين لاح له النور وهو في معرض النار – كناية عن تحقق اللقاء- فهو ما وصل الى هذه الدرجة من القرب، إلا بعد أن جعل الغرام غريم سره والوجد نديم روحه والشوق سمير قلبه والتوق جليس فؤاده والهوى حشو صدره[1031]. ويمكن أن يتم ذلك للعبد، إذا ما لازم الأطرق، الذي يعني المواظبة على الذكر والمرابطة والتفكر في عظمة الخالق ومطالعة نعمه معطاياه وفضله، وفي هذا إشارة الى أسبقية المعرفة على الحب، وكون الحب ناتج عن المعرفة وليس العكس. ويتم أيضا يالإجتهاد بالتحقق بالعبودية التي تنبثق من مواصلة الترقي بالمجاهدات والمقامات والأحوال.

ويتم أيضا عن طريق النظر الى النفس بعين النقص والتقصير، لأن من نظر الى نقصانه كان له الكمال ومن نظر الى كماله كان له النقصان، (اعكسوا تصيبوا)[1032] والنقصان بكونه شعورا إذا ما تكرس في النفس، فإنه سيزيد من إحساسها بالذل والافتقار تجاه خالقها أولا، لأن ذلك هو أول وأهم أشراط الحب الصادق، وتجاه ذاتها ثانيا، لأن هذا الشعور، سيزيد من اقدامها على الرياضات والمجاهدات، ومن ثم يعجل من بلوغها الغاية من الطريق.

إن ارادة وقصد العبد في سعيه الى اكتساب درجة المحبة، تتجسد أمامنا بوضوح، في سلوك المحبين أنفسهم، فهم طالما عالجوا أنفسهم وروضوها بأن جعلوها تختار الله تعالى على خلقه، وبأن جعلوها ترى النعم التي عندها، منه تعالى لا من غيره، بأن اجتهدوا في أن يتركوا الحرام والشبهة، لا بل إنهم اقتصروا من الحلال فقط، على الكفاف وعلى ما يقيم الأود، ثم هجروا النوم واستغنوا عن الراحة، وساروا الى الله تعالى بأقدام القلوب وأقدام الأسرار أقدام الإرادات وأقدام الهمم، وكل ذلك ينبع عندهم من منبعي الإخلاص وحسن الأدب مع الله تعالى والذي يعني عند الشيخ عبد القادر، أن لال يرى العبد من مصدر للنفع والضر أو الخير و الشر إلا منه تعالى، وأن يغيب ويفنى عن كل ما سوله من الخلائق و الأموال والنفس وهواها وإرادتها ومنها، ويعني حسن الأدب عنده، أن ينظر العبد الى من ينظر إليه ربه – أي من يكون موضع نظر الله تعالى وهو القطب – ويقبل على من عليه.

[1031]- الشنطوفي، المرجع نفسه، ص28.

[1032]- الجيلاني:جلاء الخاطر، المصدر السابق،ص 21.

وأن يحب من يحبه ويستجيب لمن يدعوه، وأن يوالي من يخرجه من ظلمات جهله وينجيه من هلكته ويغسله من أنجاسه وأوساخه وأوهامه الرديئة ومن نفسه الأمارة بالسوء وأقران الجهل وإخلاء الأوهام، الذين يقطعون عليه الطريق الحق ويحولون بينه وبين كل نفس وثمين وعزيز[1033] وهكذا فيمكننا أن نرى، أن حسن الأدب عند الشيخ عبد القادر، لا يعني أكثر من كونه الانخراط في السلوك الصوفي، ولكن ليس سلوك بل فقط ما كان منه مدعما بأحكام الشريعة، وما كان مأخوذا من يد شيخ مرشد عارف مشهود له بالتقوى والصلاح والولاية

ويمكننا أن نرى من خلال ما سبق أن الشيخ عبد القادر، قد ظل متمسكا بحرصه على توخي الموازنة بين ما هو للقدر وبين ما هو من حصة القدرة الإنسانية، بين الأمر المحتوم وبين حرية الاختيار، فالعبد كما رأينا حتى وهو يجتهد في التحقق بالمحبة الإلهية ويسعى الى نيل درجاتها، فإنه يعجز عن ذلك، لولا أن يدركه فضل من الله تعالى، وهذا الفضل بدوره، لا يؤتي أكله ويثمر في قلب العبد، إلا بعد أن يكون هذا العبد قد هيأ قلبه وأصلحه بضروب العبادات والطاعات وخلقي الإخلاص وحسن الأدب، على أن تكون كل هذه الأعمال مصبوغة بصبغة الصدق التي أولياء الله تعالى من سواهم.

[1033]- عبد القادر الجيلاني: فتوح الغيب، تح نصوح عزقول، مطبعة مصطفى الحلبي، مصر، ط2 ، 1973م، ص 144.

المبحث السادس:وحدة شهود لا وحدة وجود عند الجيلاني:

قبل الخوض في تفاصيل موضوع **وحدة الشهود** عند الشيخ عبد القادر، لابد من الاشارة أولا، الى ضرورة التفريق بين مفهومي: **وحدة الوجود** و**وحدة الشهود** في الفكر الصوفي الاسلامي، فكثيرا ما يتم الخلط بينهما في أذهان الناس.

إن **وحدة الوجود** هي : نظرية صوفية ظهرت متأخرة نسبيا في تاريخ التصوف الإسلامي، وقد تجسدت بشكلها الواضح والمحرر عند ابن عربي (ت 638 هـ) ومن جاء بعده، وبناء هذه النظرية يقوم أساسا أن لا موجود على الحقيقة إلا الله تعالى، فهو الموجود الأوحد في هذا الكون وكل ما عداه لا يمثل الا أعيانا ممكنة موجودة بحكم التبعية، على أن كون الله تعالى، على وفق هذه النظرية، الوجود الأوحد، فإن ذلك لا يعني أنه قوة هائلة أو إرادة مسيطرة على الكون، كما هو الحال في الديانات القديمة، ولا يعني أنه معشوق الموجودات الأوحد مثلما في فلسفة أرسطو، ولا يعني الأنوار مثلما تذهب الديانات الثانوية والفلسفات الإشراقية، إن الذي يعنيه بالتحديد هو أنه الحقيقة الوجودية المطلقة والواحدة والتي تظهر في صور متعددة، وهي كما يسميها ابن عربي (أعيان الممكنات) التي هي الموجودات المستمرة، أي لا تتناهى في الظهور، وعلى وفق هذه النظرية أيضا، فإن الوجود متضمن شيئين: الله تعالى أو الحق من جهة وهو ما يمثل الوجود الحقيقي، وما سوى الله أو الخلق من الجهة الأخرى وهو ما يمثل الوجود الممكن[1034]. ولكن ذلك لا يعني القول بثنائية الحقيقة، بل العكس من ذلك، إذ إن من أخص خصائص هذه النظرية هو إيمانها بالحقيقة الوجودية الواحدة، أما هذه الكثرة البادية للعيان فما هي إلا مظاهر وتعينات في تلك الحقيقة الواحدة، أي بمعنى آخر أن الخلق الظاهر هو الحق الباطن وإن الذات الإلهية بما هي ذات لا يمكن معرفتها إلا من خلال الأسماء والصفات، فالوجود المحض، أو الوجود بالذات، ليس له اسم ولا وصف من حيث هو كذلك، فإن ما خرج عن إطلاقه قليلا، وظهر في عالو الظواهر، ظهرت الأسماء والصفات منشقة فيه ومجموع هذه الصفات هو العالم الظاهر، وهو ظاهر، لأن به يظهر الحق في صورة خارجية[1035]. و يلزم عن القول بوحدة الوجود: أن كل وجود مهما كانت حقيقته وكل فكر وكل عمل، إنما هو الحقيقة، لله تعالى، فالشر والقبح وكل النقائص والأشياء الدنيئة تنضوي تحت هذا المقولة، وهذا ما تسبب في لإحراج مواقف القائلين بهذه النظرية، والحديث في هذا الموضوع يطول بما لا مجال له في هذا المبحث وهناك أيضا ملاحظة أخيرة وهي أن كون هذه النظرية، هي نظرية الوجود، أو رؤية وجودية، لا يلغي كونها ثمرة من ثمار السلوك الصوفي، فالصوفي السالك، بعد أن يتحقق بالتوحيد الخالص، وبعد أن يتلبس قلبه بالمحبة الإلهية وبعد أن تتفتح بصيرته، يطلع على الحقيقة الكونية التي تتجسد في (وحدة الوجود). نعم هذه النظرية تستحصل عبر الإدراك، ولكنه إدراك قلبي ومعنوي وليس إدراكا عيانيا أو عقليا.

[1034]- كامل مصطفى الشيبي: صفحات مكثفة من تاريخ التصوف الإسلامي، دار صادر، بيروت، ط1، 1997م، ص 167.

[1035]- نيكلسون: في التصوف الإسلامي وتاريخه، دار النهضة العربية، القاهرة، ط1، 1947م، ص 86-88.

وحدة الشهود تعني رؤية الحق بالحق، وبمعنى آخر: رؤية الأشياء بدلائل التوحيد، وقد تطلق تسمية وحدة الشهود بإزاء رؤية الحق في الأشياء، وتطلق كذلك بإزاء حقيقة اليقين من غير شك[1036]. إذن فنحن مع وحدة الشهود أو حال المشاهدة نبتعد عن التنظيرات والبناءات الفكرية، وندخل في الحيز العملي والمعرفة الذوقية، وبالتحديد فنحن هنا نتحرك ضمن مساحة الأحوال الصوفية. يرى القشيري، أن المشاهدة تعني الحضور، فالشاهد الحاضر، وأن كل ما هو حاضر في قلبك فهو شاهد، وأن من حصل له مع مخلوق تعلق بالقلب، يقال أنه شاهده، يعني حاضر في قلبه فإن المحبة توجب دوام ذكر المحبوب واستيلائه عليه. وبعضهم تكلف في مراعاة هذا الاشتقاق فقال إنما سمي الشاهد من الشهادة، فكأنه إذا طالع شخصا بوصف الجمال، فإن كانت بشريته ساقطة عنه ولم يشغله شهود ذلك الشخص عما هو به من الحال ولا أثرت فيه صحبته بوجه فهو شاهد له على فناء نفسه، ومن أثر فيه ذلك فهو شاهد عليه في بقاء نفسه وقيامه بأحكام بشريته إما شاهد له أو شاهد عليه[1037] فالشهود هنا هو ناتج عن الفناء الذي ينتج عن المحبة، وهو حال اللازم عن كثرة ذكر المحبوب ودوام حضوره في القلب فالشهود هنا إذن، هو التتويج النهائي لثمرة السلوك الصوفي عند الطوسي، تعني المشاهدة أيضا، المحاضرة، والمداناة وزيادة القرب، وتعني أيضا: القرب المقرون بعلم اليقين وحقائقه، وبالتأكيد، فإن علم اليقين وحقائق اليقين، لا تستحصل إلا عن طريق المشاهدة التي هي من أوصاف أوثق مصادر المعرفة.

و المشاهدة إذا وقعت بين الله تعالى وبين العبد، فإنها تفترض أن لا يبقى في سر العبد ولا في همه غير الله تعالى، أي أن تتم المشاهدة بكل شيء ومشاهدة كل الكائنات به، ويكون المشاهد في هذه الحالة، غائبا شاهدا، غائبا عن نفسه شاهدا لتجليات أنوار ربه.

ويري الطوسي في النهاية، المشاهدة، هي حال رفيع، وهي من لوائح زيادات حقائق اليقين، وهي تقتضي حال اليقين[1038]. فأما كونها حالا رفيعا فذلك لأنها لا تنال إلا في خواتيم الطريق الصوفي وهي بالتأكيد لا تسطع إلا في القلب تيقن في كل آثار وتجليات وقدرات ربه، فوهبه ربه لأجل ذلك حال اليقين.

أما الهجويري (ت465 هـ) فيرى: أن مراد هذه الطائفة – أي الصوفية – من المشاهدة هو الرؤية بالقلب، لأن المشاهد يرى الحق تعالى بالقلب في الخلا والملا وحقيقة المشاهدة عنده تنقسم على نوعين: نوع يأتي من صحة اليقين، ونوع من غلبة المحبة، لأنه حين يصل المحب في حال المحبة الى درجة تصير معها كليته كلها حديث الحبيب، فإنه لا يرى سواه[1039]. الصنف الأول يتجسد في قول بعضهم : «ما رأيت شيئا قط إلا ورأيت الله فيه» أي بصحة اليقين. أنه يرى الفعل الإلهي وهو في رؤيته للفعل يرى الفاعل بعين السر ويرى الفعل بعين الرأس، فطريقه إذن استدلالي يجعل من إثبات الدلائل سندا في رؤية الحقائق. الصنف الثاني يجسده قول الآخرين: «ما رأيت شيئا قط إلا الله» يعني بغلبة المحبة وغليان المشاهدة، حيث تسلبه المحبة من الكل، فيرى الكل فاعلا فطريقه إذن هو

[1036]- الجرجاني :المرجع السابق،ص 291.

[1037]- القشيري: المرجع السابق، ص 291.

[1038]- المرجع نفسه ، ص 74.

[1039]- الهجويري: كشف المحجوب، ترجمة د إسعاد قنديل ، بيروت، د ط، 1980م، ص 575.

طريق جذبي استلابي، لأن من عرف شيئا لا يهاب غيره، ومن أحب شيئا لا يطالع غيره، فالأحبة تركوا المنازعة مع الله تعالى والاعتراض عليه في أحكامه وأفعاله[1040]. الهجويري كسابقيه يحصر المشاهدة في مجال فعليات القلوب، وهي عنده لا تعني أبدا الرؤية العيانية، فإن هذه لا تتحقق إلا في الآخرة، على أن الملفت للنظر عنده هو تقسيمه المشاهدة على قسمين، قسم نظري استدلالي، وهو ما يستند إليه أصحاب التصوف الإشراقي وقسم جذب عملي، وهو ينجم عن الحب والاستغراق في ذكر المحبوب ولا يخفي الهيجويري ميله الى الشق الثاني منها، أما السهروردي صاحب كتاب (عوارف المعارف) فإنه لا يؤمن بحصول المشاهدة، إلا تلك التي تحصل بالسلوك العملي والتي تفترض التسليم المطلق والفناء الوجودي والحب الخالص. إن المشاهدة تعني عنده: أن لا يشهد العبد غير خالقه ولا يتصل بسره خاطر لغير صانعه، وهذه المشاهدة إن شئت سميتها إخلاصا أو توكلا أو فناء، فكل هذه المعاني تنطبق عليها، أو تنضوي تحتها، فالمخلص والمتوكل والفني، من دون بقية العباد، من يشتمل باطنه على أنوار اليقين والمشاهدة، وهو وحده الذي يغيب في شهوده عن وجوده، وهذا ما يعده السهروردي ضربا من تجلي الذات لخواص المقربين الواصلين الذين لا يحجبهم عن الحق شيء، وبعد المشاهدة تأتي مرتبة الشهود وهي تعني: سريان النور المشاهدة في كلية العبد، حتى يحظى به روحه وقلبه ونفسه وحتى قالبه، وهو أعلى رتب الوصول[1041] إذ أنه لا يقتصر بحظى القلب وحده، بل يسري منه الى كل كيان العبد المادي منه والروحي.

ومما سبق يمكننا أن نخلص الى ما يأتي: أن وحدة الشهود أو حال المشاهدة، هي حالة شعورية يبلغها المريد في خواتيم مجاهداته ورياضاته الروحية، فهي ليست نظرية ولا عقيدة ولا دعوى فلسفية يمكن البرهنة عليها واقناع الغير بها، إنها حال صوفي أو تجربة روحية، يعانيها السالك ويعيشها ويحسها، ثم بعد ذلك يحاول أن يشير إليها رمزا من أجل الفات النظر الآخرين، إنها بمعنى آخر: وجدان صوفي تطوي فيه الحجب ما هو إلهي عن عين النفس، ثم تشرق فيه النفس بنور ربها، فيرى العبد من خلال ذلك: أن كل شيء في الوجود هو في الله تعالى، وأن اله تعالى يشاهد في كل شيء، على أن هذا الحال لا يلغي الحدود الفاصلة بين ما هو إلهي وبين ما هو من عالم الخلق، فالله تعالى يبقى فوق كل شيء ويبقى مخالفا كل مخلوق، إذن فصاحب الشهود لا يقول أن الكل هو الله، كما يمكن أن يفهم ذلك من صاحب (وحدة الوجود) بل يقول: «إن لا مشهود على الحقيقة إلا الله عز وجل، وإنه – أي صاحب المشاهدة – لا يرى شيئا إلا ويرى الله تعالى معه»[1042] إن العبد لا يبلغ حال المشاهدة، إلا بعد أن يكون قد فنى عن كل شيء سوى الله تعالى وأصبح لا يشاهد في الوجود غيره، فيغيب عن شهود نفسه وغيره من المخلوقات، ويغيب عن إرادته وحوله وقوته، ويتحقق غيره، فيغيب عن شهود نفسه وغيره من المخلوقات، ويغيب عن ارادته وحوله وقوته، ويتحقق بأن الإرادة الحقيقية هي إرادة الله تعالى فلا يشعر بعد ذلك إلا بفعاليته تعالى. وفي حال الشهود، يشهد العبد ما لا يمكن التعبير عنه لجلاله والعجز عن حصره، ولأنه لا مقابل في لغة الكلام،

[1040]- الهجويري: المرجع السابق، ص 576.

[1041]- السهروردي: المرجع السابق، ص 516 - 517.

[1042]- نيكلسون : المرجع السابق، ص 131.

على أن ذلك لا يقلل من حقيقة أن الشهود هو اليقين عينه، لأنه يستحصل بمعاينة عيون القلوب وما كان مصدره المعاينة فهو مما لا يتطرق اليه شك.

إن ما يراه الصوفي بعين قلبه من معاني الوحدة الإلهية، وكل ذلك يتم من خلال حال خاص يجل عن الوصف ويستعصي عن العبارة، على أننا واستنادا الى ما سبق، يمكن أن نشير الى ملاحظتين مهمتين الأولى منها هي: إن اعتقاد الصوفية بوحدة الشهود، يعد بعيدا تماما عن اعتقاد غيرهم بعقيدة الحلول أو الإتحاد أو التجسيم أو حتى التعطيل، لأن كل هذه العقائد تنطلق من مقدمات فكرية هي بالتأكيد غير معتقلات أصحاب وحدة الشهود، ولا يعني هذا القول أن هؤلاء الآخرين موقفا مبيتا سواء في السلب أو في الإيجاب، من هذه الاعتقادات، ولكن يعني أن حالهم هذا، وبما أنه حال ذوقي تجريبي، فهذا أنه لا يتقاطع أبدا وتلك المعتقدات، وأما الثانية فهي: أن الصوفي الذي يبلغ حال المشاهدة وينفذ الى صميم الحقيقة المطلقة، فانيا عن نفسه وعن كل ما يحيط به من عوالم، فإن ذلك لا يلغي أنيته أو يضعه محو سلبية، كما قد يسبق الى الأوهام بل إن حضوره في هذا الحال سيمنحه وجودا استثنائيا وفئقا وإن بقاء الله تعالى سيشعره بنوع من الفاعلية، لا عهد له بها من قبل، فسيرى نفسه وكأنه منفذ للإرادة الإلهية ومدبر لكل ما يجري في الوجود، وسيري نفسه – لقربه من الله تعالى وفناء إرادته في إرادته – وكأنه القطب الذي يدور حوله كل شيء[1043]. إن أهمية موضوع وحدة الشهود، في التصوف الإسلامي وتأكيد متصوفة الإسلام عليه بلا استثناء تقريبا، يأتي من كونه يعد عندهم، تجسيدا مثاليا للهدف الصعب الذي يسعى كل مريد الى بلوغه، وأعني به الوصول الى أقصى درجات القرب من المولى تعالى وإحساسا بهذا القرب الى درجة التي يبتعد فيها المتصوف ابتعادا مطلقا عن بقية الأشياء الأخرى، والتي تحسب ذاته من بينها. وأن هذا القرب الذي يمكن أن نسميه بـ« حقيقة التوحيد أو التوحيد الحق أو الألوهية المطلقة أو وحدة الشهود» لا ينال بطول تأمل أو تفكر أو بعد دراسة نظرية متعمقة، وإنما يتأتى الإحساس به، بعد استعداد المريد له، بطول المجاهدات والرياضات والمكابدات التي يصارع فيها الصوفي أهواء نفسه ونوازعها الرديئة، والتي كانت تضرب حول قلبه وبصيرته، حجبا ظلمانية، تحول بينه وبين ادراك حقيقة الوجود المطلقة، أو بالأحرى الاحساس بها. إذن فوحدة الشهود بهذا المعنى، تعد أقرب (شيء) الى حال الفناء الوجودي الذي سبق الحديث عنه، وقد علمنا أن حال الفناء الوجودي عند الصوفية، لا يتم أو ينال، إلا بعد قطع جميع المراتب والمراحل والمقامات الصوفية، أي لا يتحقق إلا بعد زوال العلائق كافة التي تحول بين الإنسان وإدراك مبتغاه، فالفناء، على وفق هذه الآلية يعد توحيدا حقيقيا أو فناءا شهوديا أو وحدة شهود.

من جانبه أولى الشيخ عبد القادر، كثير عناية واهتمام بموضوع وحدة الشهود فقد قدمه لطلابه ومريديه بصيغة واضحة وقريبة من الإفهام، وفي الوقت نفسه وتماشيا مع منهجه المعتاد، منسجمة مع ظاهر الشرع الإسلامي، الى درجة ربما لا يستطيع معها أن يستهجنها العوام من غير أهل التصوف. إنه يرى أن المريد الذي يسعى لأن يكون صوفيا، أي يكون صافيا، من جميع أشكال الكدورات والشوائب، بحيث يصير كأنه «إناء مملوء ماء صافيا تتبين

[1043]- أبو العلا عفيفي: التصوف الثورة الروحية في الإسلام، المرجع السابق، ص 64.

فيه الأشياء»[1044]. فإن عليه أن يفني عن نفسه وعن حظه، وأن لا يوجد إلا لمولاه وأمر مولاه، والصوفي وهو بهذه الحالة، لا يرى حتما غير ربه وأنوار ربه، وهذا الوصول الحق، وهو ثمرة المجاهدات وتحمل ألوان المشقات وترك الفضول والتمسك بالطاعات وأنواع العبادات. وحال الشهود هذا، يعد من أرفع و أرقى الأحوال التي تطرق قلوب السالكين، وهو لذلك حال صعب وثقيل الوطأة، بحيث لا يحتمله إلا من أعد له عدته التي يعرفها أهل الطريق، ولذلك فإنه، أي حال الشهود، لا يقذف في قلب المريد دفعة واحدة، بل يتم ذلك بشكل وعبر مراحل متصاعدة تبدأ أولا بالارتقاء الى مرتبة الأنس، الذي هو انبساط المحب الى المحبوب واستيحاشه من الأكوان كلها، على أن حال الأنس هذا لابد من أن يصاحبه الإحساس بالهيبة والتعظيم من تجاه الحضرة الإلهية، وإلا فإنه قد يفضي الى رفع الكلفة والتخلي عن الطاعات، وهو ما يقع فيه الكثير من قصيري النظر ممن لا يحتكمون الى شيخ مرشد يدلهم على هفوات الطريق، ثم بعد ذلك تأتي مرتبة التوحيد، وليس أي توحيد، بل الخواص الذي يكون فيه العبد بسره ووجده وقلبه، كأنه قائم بين يدي الله عز وجل، تجري عليه تصاريف تدبيره، وتجري عليه أحكام قدرته في بحار توحيده، بالفناء عن نفسه وذهاب حسه بقيام الحق في مراده منه، فيكون كما كان قبل أن يكون، يعني في جريان أحكام الله عليه وإنفاذ مشيئته فيه، فهذا التوحيد هو وحده الذي يضمن تلخيص قلب العبد وتصفيته من جميع أشكال الشرك الخفي والظاهر. فإذا ما تحقق العبد بهذه المرتبة، رفعت عنه الحجب ورفع الى مرتبة الفردانية، فإذا كانت مرتبة التوحيد تنفي القلب من جميع الأغيار فإن مرتبة التفريد تعني تجرد العبد عن الأغراض فيما يفعله، بحيث لا يأتي بما يأتي به نظرا الى الأغراض في الدنيا والآخرة، بل ما كوشف به من حق العظمة يؤديه حسب جهده، عبودية وانقيادا ومن غير تلفت الى نفس أو كسب. فإذا تم ذلك للعبد كشف لقلبه عن نوري الجلال والعظمة، فإذا ما طغت هذه الأنوار على القلب وهي أنوار قاهرة لا تبقي ولا تذر شيئا على ساحة القلب بقي العبد عندها، بلا هوية، فانيا عن نفسه وصفاته وعن حوله، وقوته وحركته وإرادته ومناه ودنياه وأخراه، لا يطلب أي شيء حتى ولو كان هذا الطلب هو الخلوة مع الله تعالى، لأن الخلوة للموجود، وهو غير موجود، حينئذ فقط يسمى المريد: صوفيا «على معنى أنه يصفى من التكدر بالخليقة والبريات»[1045] وإذا كان قد مر بنا سابقا أن المريد لا يسمى صوفيا إلا بعد أن يجتاز المراتب والمقامات كافة ثم يتحقق أخيرا بمقام البقاء في الله تعالى وهو الذي سماه الشيخ عبد القادر (الوجود الجديد) فإنه هنا أيضا، لا يكون صوفيا إلا بعد أن يتمكن من حال المشاهدة، الذي هو نهاية المطاف في الأحوال الصوفية، ولعل باستطاعتنا أن نلمس في هذا التدرج الروحي الصاعد، جانبا معرفيا، إذ عن طريق المشاهدة فقط، يمكن للمريد من أن يكتسب العلو اليقيني، الذي لا يتطرق إليه الشك، لأنه

[1044]- الجيلاني – الغنية ، المصدر السابق، ج3، ص 1272.. وفي هذا المعنى ورد في إحدى مخطوطات الشيخ عبد القادر قوله الذي يتداخل فيه تفسير القرآن الكريم مع توارد الأفكار الصوفية، وهو أسلوب طالما استخدمه في كتابته، إذا لاحت لوامع أسرار الله، نور السموات والأرض، على مشكواة الضمائر، فستتنور من تأثيرها زجاجة القلب، نور المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب دري، وتلمع بوارق كشوف يوقد من شجرة مباركة، من سرادقات غمام لا شرقية ولا غربية، وتسرج قناديل فكرة يكاد زيتها يضيء. أنظر –الشيخ عبد القادر – خمسة عشر مكتوبا – مترجمة عن اللغة الفارسية – مخطوطة – تحت رقم – (4689).

[1045]- الجيلاني: الغنية، المصدر السابق، ج3، ص 1272.

مستحصل عيانا وتجربة لا ظنا أو استدلالا، ومن هذا العلم فقط، يمكن أن ينبثق الإيمان الراسخ الذي يخشى عليه من التقلب، الذي هو إيمان أولياء الله تعالى النابع من عين اليقين، يعني الشهود، في أخص ما يعنيه، عند الشيخ عبد القادر، رؤية الحق بالحق، أي رؤيته تعالى بقدرته ومشيئته هو، لا باستطاعة العبد وإرادته إذ إن حقيقة الحق لا تحد بأي حدود ولا تدرك بالأبصار، وعليه فإن المشاهدة هي منة وفضل من الله تعالى، وهي لا يمكن تفسيرها أو الحديث عنها، إنها بكونها حالا صوفيا، تعد من قبيل الكرامات الإلهية التي يغدق المولى تعالى على قلوب محبيه، وأن من أخص خصائص الكرامات هي: أن لا تطالها تفسيرات العقول ولا تهضمها الآن الأفهام، وهذه الرؤية قلبية لا رؤية مادية عيانية – لأن هذه لا تتحقق إلا في الآخرة – رؤية بصيرة لا رؤية بصر، وهذه الرؤية تتم في الدنيا قبل الآخرة، لأنها في الآخرة تحصل لكل المؤمنين، وأما في الحياة الدنيا فإنها تعد ثمرة من ثمار المجاهدات والرياضات والوردة الصوفية، وهذه الثمرة صعبة المنال، بحيث لا ينالها إلا النادر من الرجال، ممن تساقطت الحجب عن نفوسهم وقلوبهم وبصائرهم، ممن محيت مباينهم ولم تبق إلا معانيهم وممن تقطعت فيهم الأوصال وانخلعت عنهم الأرباب، قلم يبق لهم سوى الحق عز وجل، وممن صاموا عن الكلام وعن الحركة وعن الفرح بأي مطلوب من مطلوبات الدنيا والآخرة، وعاهدوا ربهم على أن لا يفطروا إلا إذا صحت لهم هذه الحال – أي المشاهدة – لأنهم يعلمون يقينا أنها إن صحت لهم وتم الأمر في حقهم، فعندها فقط سينتضلون من رق الدنيا والعبودية للشهوات، ومن كل ما سوى الحق عز وجل في الجملة[1046]. إذن فلا يمكن أن يطمع في بلوغ حال المشاهدة إلا من زهد في الدنيا وفي كل ما سوى ربه تعالى بحيث لم يبق أمامه إلا مطلب واحد، وهو: حب مولاه وطلب القرب منه، وأما ما عدى ذلك فهو إدعاء ورياء لا يطلب إلا للاستزادة من أرض الدنيا والطمع بما في أيدي الناس.

و يعني الشهود عنده أيضا: العماء عن الكونين، أي كون الدنيا وكون الآخرة، بعين الفؤاد، لأنها أهم من عين الرأس، إذ إن الإنسان يمكنه أن يأخذ ويعطي من أمور الدنيا الشيء الكثير، ومن دون أن يمس ذلك شغاف قلبه، وبالعكس من ذلك، يمكن للإنسان أن يمنع يديه ويغمض عينيه ويصوم عن كل الشهوات الدنيوية، ولكن من جانب آخر، ترى أن هذه الشهوات تعتمل في قلبه وتطلبها نفسه، وهو لا يمتلك حيال ذلك أية قدرة على السيطرة أو إرادة للتجرد، وهو حال أكثر عوام المؤمنين من غير أهل التصوف. فعماء عين الفؤاد، يعني أن لا يكون لها تلفت الى أي أمر في خارج خط سير العبد الحثيث الى مولاه. ويعني الشهود أيضا مطالعة الغيب وما يتضمنه من الأنوار بعين المعرفة التي هي اليقين، لأن أية مطالعة بغير المعرفة ستقتصر درجتها عن بلوغ اليقين، على أن هذه المطالعة، يجب أن لا يخالطها توهم استدراك الشهود بالكلية، أي توهم الإحاطة بالحقيقة، وهو توهم يطعن في عبودية الشاهد، ولا يخالطها كذلك طمع في تصور الحقيقة أو تكييفها، لأن التصور والتكييف يفترض تحديد الذات الإلهية تشبيهها وهو مما يتنافى والاعتقاد الصحيح. وأخيرا فإن مطالعة القلوب هذه التي تتم بصفاء اليقين، لا تتجاوز حدود ما أخبر الحق به تعالى من الغيوب، أي ما يتيحه الله تعالى للعبد ويعينه عليه، وهو قول

[1046]- الجيلاني : الفتح الرباني والفيض الرحماني ،المصدر السابق، ص 233.

الشيخ عبد القادر، رؤية الحق بالحق[1047] هذه الرؤية ما اكتسبت درجة علم اليقين، في الصدق والتحقق، إلا لأنها جمعت بين المعرفة والنظر، أي أنها اعتقاد مؤيد بأوكد سبل اليقين وهو النظر، أو أن هذه الرؤية، هي علم قبله القلب المؤمن، بيقين، فاكتسب المعرفة، ثم كشف له عن النظر فصار علما يقينا، وهو ما يجسده قول الشيخ عبد القادر: إذا اظهرت تباشير صبح نور التوحيد – اي توحيد الخواص الذي تتقطع معه جميع العلائق وتسقط جميع صور الأغيار – على القلوب من أفق مشارق : ﴿ وَ الصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾[1048] – أي بلوغ حال المشاهدة – واستوت شموس عين اليقين على برج أفلاك: ﴿وَ الشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍ لَهَا﴾[1049] – أي اكتساب المشاهدة درجة علم اليقين، أي المعرفة المصحوبة بالنظر – توارت ظلمات وجود البشرية في ضوء لمعان ﴿نُورُهُم يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِم﴾[1050] –وهو بلوغ مقام الفناء الوجودي – وظهر سر ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾[1051] – أي تحقق الوجود الجدي الذي تنبثق فيه الصفات الربانية الجديدة، من وسط ركام ظلمة الصفات البشرية القديمة[1052] – وهذه هي السيرة الصوفية الخاصة التي تبدأ من تباشير المشاهد، وتنتهي ببلوغ الحقيقة العظمى والوجود الفائق.

إذن، فلا صفاء ولا تصوف على الحقيقة إلا بعد حصول حال المشاهدة، فأما قبل ذلك فإنه مجرد استعداد وتهيؤ ومقارعة لجذبات النفس والدنيا، اي أن سيرة السالكين قبل المشاهدة هي سيرة المريدين، وأما بعدها فيه سيرة المرادين المرفوع عنهم الجهد والعناء والمخففة عنهم أحمال وهؤلاء ما حصل لهم هذا اللطف إلا لأنهم بعد بلوغهم حال المشاهدة، وصلوا الى مرحلة علم اليقين. إن كل ما يتجلى وينكشف لقلب المريد، في المشاهدة من أنوار الغيوب، ينقسم عند الشيخ عبد القادر، على أربعة أقسام: تجلي ذات وتجلي أسماء وتجلي صفات وتجلي أفعال، على أن هذه التجليات عنده، هي سبب ابتداء الخلق وهي سبب الحركة والاختلاف والتنوع الحاصل في الكون، وأن كل جزء في هذا الوجود، له نصيب من هذا التجلي وله سهم من أسرار أنواره، وعلى قدر هذا النصيب وهذا السهم، يقترب الكائن من حقيقة الوجود العظمى أو يبتعد، وأن كل معراج روحي فإلى باب اسمه العالي انتهاؤه، وكل سلم للصعود، فباسمه عز وجل ابتداؤه، تجلى في أسمائه وهو أول مراتب التجليات، فظهر التجلي في أفعاله، فكان الوجود، وإشراق في كل مكون ذلك التجلي، وفصلته شواهد التفصيل في الوجودين – الوجود الظاهر والوجود الباطن – وظهر تباين حكم العدل في العالمين – علم الغيب وعلم الشهادة، وأن لكل واحد من هذه العوالم، حكمه من العدل الخاص به – فبرزت الأسماء وتفرقت الصفات واختلفت اللغات وتقابلت الأفعال وتنوعت الأنواع وتجانست الأجناس. ثم بعد ذلك يأتي دور الحفظ والهيمنة، إذ إن كل موجود هو بقهر العدل معتدل، وكل يوحده بما ظهر فيه من التجلي ويشير إليه بما أبطن فيه من أسرار أسمائه ويعرفه بما تآلف فيه من

[1047]– الشطنوفي: المرجع السابق، ص 124.

[1048]– سورة التكوير [الآية 18]

[1049]– سورة يس [الآية 38]

[1050]– سورة التحريم [الآية 08]

[1051] سورة فاطر [الآية 13]

[1052]– عبد القادر الجيلاني: رسالةفي التصوف خمسة عشر مقولة في التصوف، المرجع السابق،ص38.

علمه في أزله من إيجاده به[1053]. وقد لا نبالغ كثيرا إذا قلنا أن هذا القول يمثل إرهاصا فكريا لنظرية وحدة الوجود التي ظهرت بشكلها الواضح بعد الشيخ عبد القادر بمائة عام تقريبا، فهو يتضمن جميع الأسس الفكرية لتلك النظرية، ولعل في هذا التقارب إلفات نظر الى أنه لا جديد في كل التجارب الصوفية، فهي متشابهة في جميع خطواتها، وإنما الذي يختلف فيها فقط، هو تسليط الصوفي السالك الضوء على هذه الناحية من تجربته دون الأخرى وبالتأكيد فإن هذا (التسليط) بدوره يحتكم للظروف السياسية والسلطوية السائدة في عصر صاحب التجربة.

إن التجلي إذا كان مبتدؤه الذات، من غير اعتماد صفة من الصفات، سمي بتجلي الذات[1054] وأما إن كان مبتدؤه صفة من الصفات، من حيث تعيينها وامتيازها من الذات، كان تجلي صفات، فأما إن كان المبتدأ فعلا من الأفعال – أي من أفعاله تعالى – فإن الذي سينكشف لقلب السالك هو تجلي الأفعال، وأخيرا فإن تجلي الأسماء يقترب كثيرا من تجلي الصفات، لأن الاسم لا يتجلى إلا من خلال الصفة القربة منه، على أن هذا التجلي الأخير، أي تجلي الأسماء، هو آخر ما يطرق قلب السالك من التجليات، حيث يقابل هذا السالك بنور أسمائه، مقابلة تملأ عليه كيانه ظاهرا وباطنا، فتمحى عن ناظريه خطوط الأشكال كلها[1055] فإذا ما بلغ السالك هذه الدرجة من المحو، يكشف له عن بصره الداخلي فينظر الى نفسه والى ما سواه بنور اسمه تعالى المتجلي على قلبه، فيرى الكمال المطلق ويصير يمشي بين الناس، بما أشهده ربه في آفاق الملكوت، فيصبح الى عند الناس ظنا عنده يقينا وهذه أولى إمارات الشهود.

ويضرب لنا الشيخ عبد القادر لنا مثلا آخر لتجلي الأفعال فيقول: إذا تجلى الحق تعالى على قلب السالك، بفعل من ؟أفعاله، نكشف لهذا القلب، جريان قدرته تعالى في الأشياء، فيرى أنه هو تعالى على الحقيقة، المحرك والمسكن والماحي والمثبت، شهودا حاليا لا يعرفه إلا من ذاقه وجربه. على أن يكون هذا الشهود (حالي) يدل على أنه كباقي الأحوال، غير مستمر أو دائم الورود على قلب السالك من جهة، ولا قدرة للعبد على التحكم فيه، دفعا أو استجلابا من جهة أخرى، إنه فيض من المواهب الإلهية يغدقها على قلوب محبيه، وقت ما شاء وكيف ما شاء وعلى من شاء. على أن هذا النوع من الشهود لا يخلو من بعض المخاطر التي يخشى على العبد فيها من مزلة الأقدام حيث يخشى عليه، فيما لو اطلع على حقيقة قدرته وإرادته وفعله في الأشياء، أن ينفي الفعل عن العباد بالكلية[1056] وهذا الخطر، لا ينفع معه الحذر ولا الاستعداد، لأنه متعلق أصلا بطريقة نظر الشاهد للأشياء، وإنه

(1053) – زين الدين السائح: الدر الفاخر من مناقب الشيخ عبد القادر، د تح، د ط، د تخ، ص 142.

(1054) – يذكر الشيخ عبد القادر في هذا الصدد، أن أكثر العلماء ينكرون هذا النوع من التنجلي ويقولون عنه لا يحصل إلا بواسطة صفة من الصفات، لكون الذات بذاتها لا يمكن أن تتمثل لبصيرة العبد دون الارتكاز على اسم او صفة ما. والشيخ عبد القادر حين يذكر هذا التجلي من بين بقية التجليات، فإنه ضرورة لا يأخذ بهذا الاعتراض – حول هذه المداخلة – أنظر زين الدين السائح – الدر الفاخر في مناقب الشيخ عبد القادر – ص 143.

(1055)– زين الدين السائح: المرجع السابق، ص143.

(1056)– المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

لا ينجي منه إلا الله تعالى ذاته، فهو وحده القادر على تثبيت الأقدام والقلوب، ولكن ليس جميعها، بل فقط منها ما ثبت على قدم الصدق والإخلاص.

يضع الشيخ عبد القادر، للتجليات الإلهية مراتب متتالية في الظهور، تبدأ أولا بتجلي الأفعال ثم يليه تجلي الصفات ثم تجلي الأسماء[1057]، وهو يضع هذا الترتيب عى وفق درجة التجريد المعرفي أولا ودرجة الرقي الروحي للسالك ثانيا، فالأفعال هي أقرب الشواهد الإلهية الى النفس الإنسانية لأنها متغلغلة في كل مظاهر الإبداع والخلق، فلا يخلو أمر، بما فيه النفس ذاتها من إظهار فعل من أفعاله تعالى، وأما تجلي الصفات فإنه يحتاج الى درجة أعلى من الاستعداد النفسي للشاهد، إذ إن الصفة تحتاج الى من يبحث عنها ويستدل عليها، ثم بعد ذلك يأتي تجلي الأسماء الذي يمكن أن يدق عن كثير من البصائر. فإذا ما تناولنا النقطة التي بقيت معلقة فيما سبق، وهي التي تتناول شهود الذات وما يلتحق بها من أشكال عقلي أو ما يواجهها من اعتراض عقائدي. ولأجل أن يوضح الشيخ عبد القادر حقيقة هذه الشهود، فإنه سيعمد الى توضيح بقية الأنواع، كي يصل بالضرورة المنطقية الى مبتغاه، فهو يذهب إبتداء الى أن الذي يرى من العبد في حالة شهوده هو سره، السر هو آخر المراتب التي يمكن للنفس الإنسانية أن ترتقي إليها، بعد أن تكون قد قطعت مراحل الرقي الروحي والمعرفي كافة وبعد أن تكون قد وصلت الى تخوم التوحيد الحق المتمثل بإخراج الدنيا والشهوات والخلق وجميع الأغيار من القلب، ثم الانسلاخ عن الطباع الرديئة والتحلي بأضدادها، ثم التسليم لرب العزة والرضا به دون سواه، فإذا ما تلبس السر جميع ذلك، ثم بلغ مرحلة الشهود، ثم شهد ما يقوم بغيره ويحتجب إلا بموصفها الذي هو الذات والتي لابد في شهودها من تواري طرف من أطرافها، لفقد شهود الذات مع ذلك الوصف الجاذب الى وجوب وجود غيره، أي الذات، ويحتجب بخلافه، أي ما يخالفه من بقية الصفات، ويستدل الشيخ عبد القادر على ذلك، بالشاهد الذي يشهد صفة الجمال فإنه لا يقوى على الثبوت أمام تجلي صفة الجلال، فحال الجلال أشد طرقا على النفس من حال الجمال، إذ أن هذا الأخير يطرأ على النفس مصحوبا بالحبور، أو ما يعرف عند الصوفية بحال البسط، بينما شهود الجلال يرافقه دائما القبض[1058] والهيبة. وكذلك الحال مع من أنس بحالي الكمال والبهاء، فإنه لا يثبت لبدو شهودي العظمة والكبرياء، وفي هذه النقطة ينبه الشيخ عبد القادر على أنه: إذ ظهر وصف ما للشاهد، دون غيره من الأوصاف، في حقيقتها لا تنمحي عند ظهور غيرها، وإنما فقط تحتجب عن شهود الشاهد، لقهر الوصف البادي قوة شهود الوصف الخافي الذي يستتر في معناه، «لأن معنى كل وصف قائم بوصفه فإذا بدت قوى أفعال معانيها اللازمة لموصوفها في عين الأزل لأن معنى كل وصف قائم بوصفه، فإذا بدت قوى أفعال معانيها اللازمة لموصوفها في عين الأزل استترت أثار بواديها في أفعال معانيها، لتعالي الوحدة عن مجاورة التعدد. فهنالك التفت أطرافها المتفرقة في وصف فرد ومعنى وتر يبدو مع وجود سواه، لأن السر قد شهد الصفات مع بقاء رسوم البشرية، واقتحم

[1057]- عبد القادر الجيلاني: آداب السلوك، المصدر السابق، ص122.

[1058]- القبض والبسط: هما حالتان يبلغهما العبد بعد ترقيه على حالة الخوف والرجاء، والقبض العارف بمنزلة الخوف للمستأنف والبسط للعارف بمنزلة الرجاء للمستأنف، والرجاء والخوف متعلقان بالمستقبل وأما ما تعلق القبض والبسط ففي الوقت والحين الحاضر، القشيري المرجع السابق، ص 55.

بحرها في سفينة من لحظ كونه ولمحة وجوده وجواذب منازعاته»[1059]. أي أن الشاهد، لو كان خالصا في تجرده، صافي النفس، وغير متعلق بالأغيار ولا متلفت صوب انيته، فإنه سيثبت أمام شهود الكثرة في الوحدة والوحدة في الكثرة، ومن دون أن يصدمه ذلك أو يحيره، لأن هذا التعدد هو حقيقة (حق اليقين) ومن أراد أن يبلغ هذه الحقيقة، فإن عليه أن يفنى عن ذاته، كي تتفتح بصيرته وتصفو مرآة قلبه، وإذن فلا وجود للمفارقة والاختلاف في عين الحقيقة ذاتها، وإنما هذا يحصل في ذات الشاهد فقط. ولعل في هذا النص الأخير تفسيرا لمشروعية الفناء وضرورته المعرفية غند الصوفية بوجه عام فإذا تحققت استحالة حصول الشهود مع وجود الذات وعلائقها والنفس ومتطلباته، وإذا كان الطريق لا يقطع إلا بالشهود، لزم عن ذلك ضرورة سعي السالك للتخلص من تلك العلائق عن طريق الفناء، إذن فالتوقف عند شهود الصفات دون الذات، له علاقة بالمستوى الروحي محصورا بشهود الصفات، ويخلص الشيخ عبد القادر من هذا القول الى النتيجة الآتية: أن الشهود بما أنه متعلق بالشاهد فإن الله عز وجل لا يتجلى للعبد في صفتين – وذلك لارتباط العبد في لحظة الشهود بتلاؤم، في وقته، مع صفة معينة دون بقية الصفات – ولا في صفة لعبدين – لا استحالة تساوي عبدين في العلائق نفسها – ما دام الوقت موجودا[1060]. أما الشهود المطلق، فإنه لا يكون الا عند تجريد الشهود من شهوده – أي الفناء عن الذات – وانخلاعه استتارت المركبات ومتواريات المؤتلفات – أي الفناء عن جميع العلائق و الأغيار، أي التجرد – لفنائه بين كل مركبين مخالفة توجب التباسا وفي كل مؤتلفين تغايرا يورث اشتباها[1061]. وعليه فإن الشيخ عبد القادر، يبيح للسالك شهود الذات، فهذا الشهود رغم صعوبة حصوله وندرته ممكن الحدوث. ولشهود الصفات عند الشيخ عبد القادر، ثلاث علامات لازمة، لا يصح الشهود إلا بتوفرها وهي: أولا: شهود البصيرة بقوة كانت لها قبل هذا الشهود، وهو ما يمكن أن نسميه بتهيئة الذات وجلي البصيرة عن طريق المجاهدات الصوفية، وهو تحت باب المقامات التي هي من كسب العبد وحاصل جهده.

ثانيا: الاستدلال بتعقل المشهود على كنهه بعد فقد شهوده، تميزا له من خيلات النفس وأوهامها التي لا تطالها أفهام العقل ولا يعلق منها شيء يستدل به على يقينية الشهود وحقيقة المشهود.

وهذا باب في غاية الأهمية بالنسبة الى مشروعية حال المشاهدة، أو مشروعية الأحوال الصوفية بوجه عام لأنه يؤكد عدم فقد العبد عقله، ويؤكد حضور إدراكه في حال شهوده، وفي هذا رد على من يرى في الشهود حالة فقدان للوعي وتغيب للعقل، وفي أحايين أخرى، حالات رؤى مرضية (هلوسات).

[1059]– الشطنوفي : المرجع السابق، ص 120.

[1060]– الوقت: اسم لطريق سالك يسير بين تمكن وتلون، لكنه الى التمكين أميل، والوقت يطلق على من يسلك الحال ويلتفت الى العلم، العلم يشغله في حين والحال يحمله في حين، فبلاؤه بينهما يذيقه شهودا طورا ويريه غيرة تفرق طورا– الهروي :المرجع السابق، ص 101.

[1061]– الشطنوفي: المرجع السابق،ص 82 – وقد ورد في بعض أدعية الشيخ عبد القادر مما يصيب في هذا المعنى قوله: اللهم طهرنا من قاذورات البشرية وصنعنا بصفاء المحبة الصدقية، من صدأ الغفلة ووهم الجهل، حتى تضمحل رسومنا بفناء الأنانية ومباينة الطبيعة الإنسانية في حضرة الجمع والتخلية والتحلي بالوهبة الاحدية والتجلي بالحقائق الصمدانية في شهود الوحدانية، حيث لا حيث ولا أين ولا كيف ويبقى الكل للع وبالله ومن الله والى الله ومع الله عبد القادر الجيلاني: الصلوات الكبرى، نسخة مصورة لمخطوطة، د تح ، د ط ،

ثالثا: شهود مشهودين مختلفين بشهود واحد في وصف واحد، للدلالة على أن المصدر لجميع الشهود واحد، وهو الذات الإلهية المتعددة الصفات والمختلف المشاهد، على أن هذا الاختلاف يعود الى ذات الشاهد وليس الى حقيقة المشهود الذي يلتحق به الوصف الواحد.

فإذا ما انتفت تلك العلامات التي ترافق الشهود الصحيح الذي هو شهود الصفات، ثم وقع الشهود، وشاهد السر موجودا قائما بنفسه بوجود مطلق، ليس له تعلق بصفة أو دلالة أو كيفية أو جهة، فذلك هو شهود الذات الذي لابد فيه من سقوط كل المشهودين لعدم التهيؤ في هذا الحال إلا لمشهود واحد وهو الذات الإلهية المخصوصة بالوحدانية والتفرد، والذي لابد فيه من نفي تعلق اللحظ – أي عين السر وهي البصيرة- بالحين والوقت والأين[1062]، فهذه كلها حدود لا تطال الذات الإلهية المطلقة التي لا تحددها كيفية محددة والذي لابد فيه من محو ثبوت الفرق[1063] و الجمع والقرب[1064] والبين لرمق العين، لأنه تعالى ليس كمثله شيء ولا يحده زمان ولا مكان. ويعني هذا الشرط، إضافة الى ضرورة انسلاخ ذات الشاهد عن كل أسباب الاختلاف والتباين، عدم ثبوت الذات بالبصيرة، لعدم مطابقة (الصورة) للكيفية المعهودة في عالم ومن هنا يأتي سر الغموض والترميز الذي يكتنف لغة أهل التصوف بوجه علام. ثم لابد أيضا من محق الشهود – أي محق شهود ذات الشاهد (لذاتها) تحقيقا للشهود المحض – وزهق الوجود – الذي هو عالم الخلق والفناء ومجمع الأغيار التي تشوب التوحيد الحق – وانفراد الشهود بوصف المشهود – أي توجهه لمطلق الذات دون سواها من المشهودات – وبروزه أي الشاهد – في عين الأزل – قدرا واصطفاء وتعيينا – لمقابلة الأزل بقوة من لم يزل – إذ لا حول ولا قوة على الشهود إلا به تعالى – عند سلب أوصاف الحدوث منه وخلوه من معانيه وصفا وحكما وعينا وحالا – وهو معني التفرد والتجرد واستعداد الظاهر والباطن – وذلك لفناء وجود الشاهد والمشهود، «فهنالك رجع أول كل كون الى آخره، لمحق وصف القبلية في العدم ومحو نعت البعدية في الأبد، واختفى كل باد (من الأكوان) في ركن عدميته لهيبة سرمديته، فإنه تعالى لا يبقى إلا وجه بعد أن يهلك كل شيء»[1065] أما شروط صحة هذا الشهود فهي:

[1062]– الأين هو حالة تعرض للشيء بسبب حصوله في المكان الجرجاني: التعريفات،المرجع السابق، ص 22.

[1063]– الفرق: هو اشارة الى خلق بلا حق وقيل مشاهدة معبودية، والفرق أيضا هو ما نسب اليك والجمع هو ما سلب عنك، والفرق كسب للعبد من اقامة وظائف العبودية والجمع هو ما يأتي من قبل الحق من ابداء معاني وابداء لطف. – الجرجاني :المرجع السابق،ص 80.

[1064]– القرب – هو قرب العبد من الله تعالى بكل ما يعطيه السعادة، لا قرب الحق من العبد، لأنه قرب سواء أكان العبد سعيدا أم شقيا. – الجرجاني المرجع السابق، ص 183.

[1065] الشطنوفي :المرجع السابق، ص 120. والشيخ عبد القادر يستند بهذه العبارة الى قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيهَا فَان وَيَبْقَى وَجْهُ رَبّكَ ذُو الجَلاَلِ وَالإِكْرَام﴾ سورة الرحمن [الآية 26-27]. وهو يمثل لهذا الشهود لما نبي الله موسى عليه السلام فلقد غلب على قلبه هيمان العشق وخرقت لذة التكليم منافذ سمعه حتى وصلت الى بصره، فطلب البصر نصيبه من النظر ووافقه توق القلب، فقال: ﴿أَرِنِي أَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ سورة الأعراف [الآية 7]، قيل يا موسى انظر أولا الى مرآة الجبل، فالتفت بعن سره الى الطور فخر صعقا، قيل يا موسى معدة طبعك ضعيفة عن تناول شراب التجلي وأنيق عينيك ضيق عن مقابلة أنوار سبحات: ﴿أَرِنِي أَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ فإن عين الحدث لا تنفتح في شعاع شمس القدم – الشطنوفي – بهجة الأسرار ومعدن الأنوار – ص 28. وتجدر الاشارة الى أن الصوفية يرون في طلب نبي الله موسى عليه السلام، (للرؤية) وعدم قدرته على احتمالها، من الخصائص التي يفضله فيها النبي محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم الذي قال تعالى في حقه: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نزلة أُخرَى ، عِنْدَ سِدْرَةِ المُنْتَهَى، عِنْدَهَا جَنَّةُ المأوَى، إذ يَغْشَى السِدْرَةَ مَا

أولا:أنه وصف غير مستصحب من وجوده – أي أنه يأتي مجردا عن كل الدلائل والإشارات – فلا ترافقه علامة ولا تسبقه لوائح[1066]. ثانيا: غير باق حكمه بعد تواري عينه، لعدم مجانسته مادة الخيال وملكة التصور فلا يمكن تشبيهه بشبيه ولا تمثيله بمثل، ثالثا: غير منعقد به كنه ما شوهد به ولا مستدل به على حقيقته بعد اتصال الشاهد بطوره وانفصاله عن هذا الوصف، لأن كنه المشاهدة كان قد تم بالذوق الذي صاحب فناء أوصاف الشاهد، فإذا ما زال عنه الفناء، زال عنه الذوق وانمحق الشهود[1067] وبما أنه لا دوام لحال الفناء الوجودي عند الشاهد، لشد الواعز الطبيعي والخضوع لحكم الجبلة والخلقة، فإذن لاستمرار لتوهج ملكة الذوق الشهوي، ومن ثم فلا دوام لحال الشهود. فيما عدا شهود الذات، فإن بقية أنواع الشهود عند الشيخ عبد القادر، أو ما ينكشف لبصائر الأولياء، مما يبهر العقول ويخرق العادات والرسوم، يقع على قسمين لا ثالث لهما وهما: شهود جلال وشهود جمال: فأما شهود الجلال الذي هو مما يلتحق بالعظمة الإلهية، فإنه يورث الخوف المطلق والوجل المزعج والمعلة العظيمة على القلب مما يظهر أثره بوضوح في بقية الجوارح بحيث يبدو الشاهد أمام الناس، في حالة فرق واضطراب وترقب وعدم استقرار. أما شهود التجلي لقرب الشاهدين بالأنوار والسرور والألطاف والكلام اللذيذ والحديث الأنيس والبشارة بالمواهب الجسام والمنازل العالية والقرب منه تعالى[1068] وهذا الشهود ، أي شهود الجمال هو من قبيل اللطف الإلهي والمنة الربانية، فهو يحصل تظمينا لقلوب المحبين المشتاقين، خشية أن يفتك بهم فرط المحبة وشدة الشوق إليه عز وجل.

والشهود بصورة كافة، يعتمد عند الشيخ عبد القادر، على ثلاثة أركان وهي: التوحيد الذي يعني تجريد الذات الإلهية عن كل ما يتصور في الأفهام ويتخيل في الأوهام والأذهان، «والتفريد الذي يعني أن لا يرى العبد نفسه فيما يأتي به، بل يرى منة الله تعالى عليه، ثم التجريد الذي يعني تجرد العبد عن الأغراض فيما يفعله، بحيث لا يأتي بما يأتي به نظرا الى الأغراض في الدنيا والآخرة، بل ما كوشف به من حق العظمة يؤديه حسب جهده عبودية وانقيادا» وهذه الأركان جميعها تصب في معنى واحد وهدف واحد وهو تطويع السر على عدم النظر لغير المنعم، وهذا الهدف يصنفه الشيخ عبد القادر، بكونه نوعا من أنواع شكر القلوب الذي يستحصل عن طريق الاعتكاف على بساط الشهود – أي دوام التطلع الى مشاهدة تجليات الأنوار الإلهية مع التفكر فيها والغموض في معانيها وأسرارها – بإدامة حفظ الحرمة، وهذا شرط لازم على كل مريد سالك كي لا يخرجه القرب والأنس والتقلب في خلع الشهود، الى فسحة اسقاط التكاليف والتنصل عن آداب العبودية وهيبة الربوبية، ثم بعد ذلك، الترقي بعد حضور هذه المشاهدة الى الغيبية في رؤية المنعم عن رؤية النعمة التكاليف والتنصل عن آداب العبودية وهيبة الربوبية

﴿يَغْشَى، مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ سورة النجم [الآية 13 – 17]. وهو من ما يؤكد حالة الرؤية مع قدرته صلى الله عليه وسلم على احتمالها لرفعت مقامه مع علو منزلته عند ربه.

[1066] – اللوائح: هي ما يلوح من الأسرار الظاهرة عند الارتقاء من حال الى حال. الجرجاني:المرجع السابق، ص 291.

[1067]– الشطنوفي: المرجع السابق، ص 120.

[1068] – المرجع السابق، ص 57.

، ثم بعد ذلك، الترقي بعد حضور هذه المشاهدة الى الغيبة في رؤية المنعم عن رؤية النعمة[1069]، وهو فحوى التوحيد الحق والتقرب الخالص الذي لا يتعلق بجلب نفع أو دفع ضر، وإنما يتعلق فقط بدوام التطلع الى النظر الى المحبوب ذاته والسعي الى القرب منه. إن الذي يعني الشيخ عبد القادر هو توحيد الخواص أو توحيد الخاص الذي هو أمر داخلي ينبع من قلب المريد الصابر على مجاهدة نفسه وذلك بالتزام الصمت حيال نوازعها وأهوائها، أي إنه لا خلاص من هذه النوازع وتلك الأهواء لأنها مغروسة في أصل الطبيعة البشرية، وإنما الاشارة هنا فقط، الى إخفاء سر لا يسطع نوره ويبين سلطانه إلا في المراحل المتأخرة من السلوك الصوفي – لفحوى السرائر، بما تشتمل عليه تلك السرائر من خواطر ونوازع وميول، على أن ذلك لا يحدث في كل الأوقات، إذ أن للحياة الطبيعية حصتها من طاقة المريد وفعله، وإنما يحدث فقط، عند ورود الحضرة، ومجاوزة القلب منتهى مقامات الأفكار أي الى المستوى الذي تعجز في هذه الأفكار، عن الإحاطة بالموضوع المفكر فيه، ويتم ذلك حين يرتقي سر الشاهد فوق أعلى درجات الوصال ومنازل أسرار التعظيم، ولا أعلى من أعلى درجات الوصال، ولا أرفع من أرفع منازل أسرار التعظيم إلا الفناء الوجودي الذي يفضي الى شهوة الذات والذي يثمر تحقق وحدة الشهود فإذا ما بلغ السر هذه المنزلة، فليس عليه التوقف، بل لابد له أن يتخطى ذلك بإعتياد التقرب بأقدام التجريد، أي التخلص من جميع أشكال العلائق الحاجبة عن مطالعة أنوار الشهود ورقيه الى التداني بسعي التفريد، أي بعدم النظر الى غيره بما في ذلك النظر الى شهود الشهود، وكل ذلك يكون مصحوبا، في قلب المريد، بتلاشي الكونين، أي الدنيا والآخرة وتعطل الملكين، الملك الظاهر والملك الباطن، وخلع النعلين، أي التخلص من سلطان غرائز النفس وأهوائها، واقتباس النورين إي نور الحقيقة ونور الشريعة، وفناء العالمين وهما عالم الغيب والشهادة، وكل ذلك يتم تحت لمعان بروق الكشف الذي لا يبقي نوره ولا يذر، إلا ما كان حقيقيا وصادقا وخالصا لله تعالى. والبروق هنا يدل على أن الشهود هو من قبيل الأحوال التي لا تنال بالمكاسب بل تستحصل بالمواهب، ولا تؤخذ بالوسائل بل تعطى بالسوابق،أي بما سبق من رحمة الله ومنته وفضله، فالمشاهدة التي هي عبارة عن الرؤية ببصائر الأسرار، «تخرج تواقيع مقاماتها من ديوان يختص برحمته من يشاء، فيا أيها المريد الصادق الشواق التواق، فاستقم على جادة الصدق حتى يأتيك اليقين وتنقل إن شاء الله تعالى الى دار الصادقين، فتنظر الى مطلوبك وتأخذ نصيبك من رؤية محبوبك»[1070].

ولكن لابد من الإشارة هنا الى أن تأكيد الشيخ عبد القادر على أن الشهود كله هو من قبيل الهبة الربانية المحضة، وأنه لا يأتي بإرادة بشرية سابقة على حصوله، ويشمل العطاء فقط لا يشمل استعداد العبد لتلقي هذا العطاء، فإن هذا الفعل الأخير يعد كسبا ذاتيا خالصا للمريد، الذي لا بد من أن يستعد ويتهيأ من خلاله، ثم بعد ذلك ينتظر فضل ربه تعالى، والمريد هنا مثله مثل العبد الذي يريد أن يجعل من قلبه عرشا للرحمن، فهو يهيئ هذا العرش بالأذكار والعبادات والطاعات والتفكر في ملكوت الله تعالى ومطالعة عظمته وقدرته، وهذه كلها من فعله الخالص

[1069] – الشطنوفي: المرجع نفسه، ص 123.

[1070] – المرجع السابق، ص 28.

الذي هو كسب له، أو ما يلي ذلك من فضله تعالى على عبده، إن شاء فعل وإن لم يشأ لم يفعل. وتمييزا لتوحيد الشهود من غيره من أنواع التوحيد الأخرى، يضرب لنا الشيخ عبد القادر مثلا هو من صميم الفعل الصوفي، إذ أنه يتعلق بأذكار المريدين وأورادهم. يقول الشيخ عبد القادر: إن أغلب المريدين يؤدون أذكارهم باللسان فقط، ومن دون أن يرافق ذلك ذكر القلب، الذي يعني في أخص ما يعنيه حضور القلب الكلي في حضرة الذكر والتمعن في مشارق أنواره.

إن أغلب المريدين المبتدئين، يذكرون ورد التوحيد: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»[1071] من غير أن يتلذوا بمعناه، لأن توحيدهم في هذه المرحلة يعد توحيد أفعال، أي أنهم يرون فعله تعالى ظاهرا في خلقه وفي عظيم صنعته، أما توحيد الشهود، الذي يتم من خلاله إدراك المعنى العميق لذكر «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» فإنه لا ينال إلا بعد أن تنجلي عن قلب المريد الحجب الظلمانية الحاصلة من تراكم الذنوب الماضية، وهذه الحجب لا تنقشع إلا على بالمواظبة على هذه الأذكار وهكذا، أما بعد أن تشرق الأنوار وتزال تلك الظلمات عن أعين البصائر والأسرار، فسيشاهد المريد بعين اليقين: «أن لا محرك ولا مسكن ولا معطي ولا مانع ولا ضار ولا نافع إلا الله عز وجل شهود ذوق وحال، لا شهود اعتقاد وقال»[1072]. أي شهود معرفة لا يقينية لا شهود علم ظني، على أنه لا يذوق هذا الحال إلا من له ذائقة قلبية، ولا يمتلك هذه الذائقة إلا من استعد لها وسعى لها سعيها بأن «هجر الفرحة – أي الفرحة المتعلقة بعطايا الدنيا وملذاتها – وحمل الأحمال على كاهله، وعلم يقينا: أن لا قرار لعيونه ولا سلوة لمصابه، حتى يلاقي ربه عز وجل في الدنيا قبل الآخرة، وعندها يجيئه الهناء والفرح، أما قبل هذا فمصيبته دائمة»[1073] وهنا يعود الشيخ عبد القادر ليؤكد لنا من جديد: أن الغاية الحقيقية من كل فعاليات التجربة الصوفية هي ملاقاة العبد ربه تعالى، وهي الملاقاة التي علمنا أنها لا تتم إلا بعد التحلي بأخلاق الاستقامة والصلاح، ولا تدوم مصيبة المريد ويتواصل عليه العناء إلا بعد فهمه لتلك المعادلة وبعد التوحيد، يتم التحقق بحال التفريد، وهو إشارة من المفرد – هو الله تعالى – وهو الشاهد أي أنه أمر خارجي يلقى في قلب الشاهد عن تفرده – أي الشاهد – عن الكونين وتعيه عن الملكين وانخلاعه عن وصف وجوده وحكم ذاته، وكل ذلك تهيؤ واستعداد، لمطالعة ما يرد على سره من الخواطر من لدى الحق تعالى، لتصحيح التفريد وطلبا لصدقه في وصفه حال الشهود، وذلك أن صفة الفردية التي لها تعلق بالذات الإلهية، تقتضي إشارة منفردة، غير متعلقة بجهة أو كيفية، فيصعد السالك، معتصما بتلك الإشارة، الى نفسه التي يفترض أنها قد استعدت لهذا الحال وصفت مرآتها لعكس أنوار صورته، فأما ما قدح في هذا المعنى غيب سبب، له تعلق بأحكام الحظوظ والأقسام والأقدار أو علة كدر، لها بالطبائع والأهواء والعلائق، غن فصل العبد عن معتصمه أي حال التفريد عن متمسكه الذي هو إشارة الفردية، ورجعت الإشارة القهقري الى البشر، أي غادرت حال التفريد وعادت الى الطبيعة ذات العلائق المتعددة، «واحتجبت عن مطالعة الحق وقت هيجان شوق الأرواح،

[1071]– ذكر: (لا إله إلا الله) هو الأول من بين الأوراد التي وضعها الشيخ عبد القادر لمريديه، وهو لا يزال معمولا به على نفس هذا الترتيب حتى الوقت الحاضر.

[1072]– عبد القادر الجيلاني: آداب السلوك، المصدر السابق، ص97.

[1073]– عبد القادر الجيلاني : الفتح الرباني والفيض الرحماني، المصدر السابق، ص 127.

عند تلميع برق الشفقة عن حجب طور البشرية، وصفة الفردانية عليه من وصول إشارات التمويه ونيل معاني الأرواح ووصف أعداد الأفراد»[1074]. أي أنه لا يمنع العبد عن التحقق بحال التفريد إلا سببان: أحدهما رباني له علاقة بالأقسام والآخر بشري له علاقة بدرجة صفاء أو كدر النفس، الأول يلتحق بالأحوال والثاني يلتحق بالمقامات.

أما التجريد: فهو يعني: تجريد السر عن التدبر بثبات السكون عن طلب المحبوب، لأن الثبات على هذا السكون يعني عدم الصدق في طلب المحبوب والشوق إليه، ثم تعري السر عن التزمل بلباس الطمأنينة على مفارقة المحدود والرجوع من الخلق الى الخالق منيبا[1075]. أي أن التجريد يفترض عدم الاطمئنان للوصول، ودوام المراقبة للنفس، واما الإنابة فإنها تفترض الرجوع الى الأصل إذ أن اللجوء الى الخالق، هو حقيقة الإنسان وهدف حياته. التجريد إذن، يعني إضافة الى تخليص النفس من علائقها وآفاتها وثم تهيئتها لحال الشهود، إدامة هذا التخليص والاستزادة منه، وعدم الركون الى ما تحقق منه، وتطبيقا لما أورده الشيخ عبد القادر من آراء تخص وحدة الشهود، فإنه يستشهد بحال الشيخين: أبي يزيد البسطامي (ت 261 هـ) والحسين بن منصور الحلاج (ت – 309 هـ). على أننا لو استحضرنا الحيثيات السياسية والاجتماعية والفكرية للعصر الذي عاش في كنفه الشيخ عبد القادر، وهو العصر الذي كان الموقف الصوفي فيه لا يخلو من حساسية وحرج ملحوظ، لاستطعنا أن نقدر مدى جرأة وشجاعة الشيخ عبد القادر، في الأقل، في تبينة آراء هذين الشيخين اللذين طالما عرضا على معارض المروق لقد وضع الشيخ عبد القادر، آراء هذين الشيخين على محك بنائه النظري علمنا فيما سبق، أنه يجمع بين نوري الشريعة والحقيقة، فتقبل منهما الكثير من الآراء والشطحات، بعد أن أزال عنهما الكثير من الغموض واللبس ولكنه في الوقت نفسه، آخذهما بقصور الحال عن بلغ درجات الحب والقرب، وكذلك الجهر بالسر الذي لا ينم إلا عن عدم الدراية الكافية.

يقول الشيخ عبد القادر عن أبي يزيد البسطامي: « أنه دل بتصريحه على محبته ولا أنبأ عن عشق، مقام المحبة يقصر مقام العشق، ومع العشق لا يجد العاشق مجالا للإفصاح عن مشاهداته، لقد وقع على البسطامي غبار تعب الطريق وذلك بعد تحكمه في غايات درجات النهايات، أي درجات القرب، فقال: سبحاني شكرا للوصول وبلسان التوحيد، ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾[1076] وذلك بعد أن طاب منزله أي المنزلة التي بلغها في قربه من الحضرة الإلهية واخضر مرتعه، وقد ضربت نوبته في القرب، بيد القدرة التي سبقت بها العناية، في ذلك الفناء (الشهودي) ونصبت سرادقات المشاهدة بسابق العناية، في ذلك الحمى المحرم على غير أهله، فصار له لسانان ينطقان ونوران يشرقان، لسان ينطق بطرب التمجيد ولسان ينطق بحقائق التوحيد، الأول يخص الشاهد وهو غارق في بحر فنائه، والثاني له تعلق بالشهود وحقائق المشهود، فترنمَّ لسان طرب تمجيده فقال: ما نظرت الى شيء، إلا رأيت الله قلبه، فأجاب لسان حقائق توحيده: سبحاني. فصاح نور الوجدان، أي لسان سر الشاهد: أن القرب

(1074)– الشطنوفي : المرجع السابق، ص 121.

(1075)– المرجع السابق، ص 121.

(1076)– سورة الضحى [الآية 11]

أفناني ثم أحياني، ونادى نور الوصل، الذي هو حقيقة الشهود: أنا الحق، أبقاني، وهو البقاء الجديد الذي يعقب الفناء، م رقَّاني، من ثقل البشرية الى مصافي القرب والوصول، فسبحاني لديايي ورحماني» [1077]. وهذه العبارة الأخيرة تنم عن أعلى درجات الوصول، فهي تشير الى توحد اللسانين لسان الشاهد ولسان حقائق الشهود، بحيث إن العبارة ذاتها تنبئ عن التوحيد والتمجيد في الوقت نفسه، لقد أزال الشيخ عبد القادر الكثير من اللبس والغموض بتسليطه الضوء على لساني حال البسطامي، وكشفه في داخل عبارته التي جهر بها عن منطقين مختلفين ولسانين متغايرين، أولهما: لسان حال الشاهد الذي طرب فرحا بالقرب والوصول، والثاني: لسان التوحيد الذي نطق عن حقيقة الشهود، وكونه متعلقا بالذات الإلهية (موضوع الشهود) مع فناء الشاهد وغيبته، وذلك لشدة حبه وقربه، عن مشهد عبوديته، وهذا ما لم يفهمه المحجوبون، وأما الحلاج، فإن مصيبته أعظم، أمره قد بلغ الى درجة من الخطورة، أنه أودى بحياته وأهدر حرمته، فلقد أعدم أمام أعين الناس بسهام الشريعة وتحت مظلة الدين، وبصبر بين وتقبل ولحوظ من قبله، وكل ذلك حصل في نظر الشيخ لسببين، الأول غفلته عن حكم البشرية واستغراقه التام في بحر الشهود، والثاني جهره بالسر الكنون وإفصاحه عن غير المباح الإفصاح عنه.

يقول الشيخ عبد القادر عن الحلاج: أنه بعد أن قطع طريق العشق، وهذا يعني أنه في هذه النقطة قد تفوق على صاحبه، وأخذ من جوهرة سر المحبة، التي قدت من معدن الاتحاد الشهودي وأودعها في أخفى مكامن خزانة قلبه وه سر السر وعين البصيرة، مثيرا لحاله بالغيبة والاستغراب فلما قابل بصره بصيرته شعاع نور جمالها أي جمال جوهر سر المحبة عمي عن النظر الى الموجودات، وهذا هو موضع ذنبه الأول فظن خلو المكان من الأعيان، لإشارة الى تمكن حال الشهود منه وليس تمكنه هو من هذا الحال، فاعترف بالأخذ وهذا هو موضع ذنبه الثاني فاستحق قطع اليد والقتل، فأما قطع اليد، فهو لادعائه ما لا يعطيه إياه ظاهر الشرع وحكم العقل وأما القتل فلإفشائه موضع السر، وفي كل المواضع الذي ذكر فيها الشيخ عبد القادر الحلاج فإنه لم يذكر قاتليه بسوء ولم يعد قتله إلا أمرا محتوما استوجبته ضرورات الطريق إذ إن من ملك تلك الجوهرة أي حقيقة الشهود وطالع أنوار الغيب، فإنه لا يقنع إلا بأوفى درجات المحبة، وهي درجة الفناء في المحبوب، أو الفناء الوجودي الذي إن تحقق في الظاهر، فإنه يعني الموت، ولذا فإن الحرج لما وصل الى باب القرب وطرقه نودي: يا حرج لا يدخل هذا الباب إلا من تجرد عن صفات البشرية وفنى عن السمات الأدمية، فمات حبا وذاب، عشقا، وسلم روحه لدى الباب وجاد بنفسه عند الحجاب، فوقف مقام الدهشة على أقدام الحيرة، فلما أخرسه الفناء بعد إزالته لسلطان العقل، أنطقه السكر، وهو لسان الوجدان، طربا فقال: أنا الحق فأجابه حاجب الهيبة: اليوم قطع وقتل، وغدا قرب ووصل[1078]. إذن فقتل الحلاج كان قدرا محتوما ومرحلة ضرورية من مراحل تمام الأمر وكمال الخطة وقطع الطريق والفوز بالقرب الحقيقي وأما ما قاله وصرح به قبل تنفيذ الحكم فهو من قبيل لسان الحال الذي لا يمكن قياسه بأحكام ظاهر الشرع، لأن النفس فيه قد تهلك عن وجودها وغرقت في بحر المشاهدة والسكر والفناء، ولتكريس هذا المعنى، فقد شبه الشيخ

[1077]- الشطنوفي: المرجع نفسه، ص 212.

[1078]- المرجع السابق، ص 121.

عبد القادر حال الحلاج بالعارف الذي طار طائر عقله من وكر شجرة صورته الجامعة لأقطار العلائق والأغيار، وعلا في السماء تنصلا من غمد البشرية خارقا صفوف الملائكة،تفوقا وتمكننا من تلابيب الحب والاشتياق. كان بازيا من بزات الملك، فهو شديد المراس، ولكنه كان مخيط العينين بخيط: ﴿وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴾[1079] لكونه محكوما بحكم الوجود، فلم يجد في السماء ما يحاول من الصيد لعد اكتمال أدواته التي لا تكتمل إلا في الحياة الأخرى، فلما لاحت له فريسة ﴿رأيت ربي﴾[1080] برقت في سمائه بارقة أمل، ولكن خيرته ازدادت في قول مطلوبه: ﴿أَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَ وَجْهُ الله﴾[1081] فهل يطالبه في الأرض أم في السماء، في جهة معينة أم في كل الجهات، فعاد هابطا الى حضيرة خطة الأرض، أي عاد الى حال صحوه، وطلب في هذا الحال ما هو أعز من وجود النار في قعور البحار، ثم تلفت بعن عقله فما شاهد سوى الأثار، ثم فكر بعقل وجوده، فلم يجد في الدارين مطلوبا سوى محبوبه، فعلم يقينا أنه قد عاد الى نقطة البداية ولكن بعد تخلصه من جميع العلائق والأغيار فطرب لهذا الحال وقال بلسان سكر قلبه، وهو أعلى درجات السكر الذي هو الفناء: (أنا الحق) إحساسا بالاتحاد وفقدانا للحدود، ولكنه من شدة فرحه ترنم بلحن غير معهود من البشر، وصفر في روضة الوجود صفيرا لا يليق ببني آدم، ولحن بصوته لحنا عرضه لحتفه[1082].

إذن فليس في الحلاج ذنب سوى أنه قد استبد به الشوق فأخرجه عن طور أدبيته، لقد أراد الشيخ عبد القادر، من وراء تبنيه تلك الآراء التي يعسر تقبلها من عامة الناس وفي كل الزمان، أن يدل الأفهام على سلامة الموقف الديني لكبار رجال التصوف لكونه من أولياء الله تعالى الذين لا يصدر عنه إلا ما هو خير وصلاح، وإن الارتباك كله الذي حصل، يمكن في تعدد ألسنة أحوالهم ومواجيدهم، وتعدد ألوان مراجعهم المعرفية التي اقتصر الناس على لون واحد منها، وهذه الأسباب وغيرها كثيرة، هي التي أشكلت عليهم المواقف وعاكست بين تصاريحهم وما يفهمه الغير من ظاهر حكم الشرع.

من كل ما سبق، يمكن أن نستدل على أن حال وحدة الشهود يعد مرتبة متقدمة من مراتب الطريق الصوفي، بل أخر المراتب التي يطمح جميع الرجال الى بلوغها، ولكن هيهات إذ لا يبلغها إلا النادر والعزيز منهم. إن من أخص خصائص المشاهدة، هو أن تبلغ بإيمان الشاهد الى مرحلة اليقين، إذ أنها تلقي على الغيب أنوار المشاهدة وتجمع بين ظن العقل ويقين النظر. إذن فلا يقين قبل الشهود وبما أن هو مطمح معرفي لكل مؤمن، إذن فلا مناص من التعلق بأسباب المشاهدة، لأنها من صلب الفعالية الدينية، وبالتحديد، من تصلب عقيدة التوحيد التي جاء الإسلام كي يبثها بين الناس.

إن بلوغ السالك مرتبة الفناء الشهودي، لا يمكن أن يعد، بأي حال من الأحوال فعلا كماليا زائدا عن حاجة العبد الإيمانية والروحية، بل هو في حقيقته، يمثل توحيد صحيح ونقيا وغير مشوه بأي شكل من أشكال الشرك،

(1079)- سورة النساء [الآية 28].

(1080) - حديث : رأيت رب جل اسمه مشافة لا شك فيه – حديث صحيح رواه الطبراني عن جابر – مجمع الزوائد- ج/1 – ص 78.

(1081) - سورة البقرة [الآية 115]

(1082)- الشطنوفي : المرجع السابق، ص 52.

ما خفي منه وما ظهر ومن جهة أخرى، فإن السعي الدائب الى بلوغ حال الفناء الشهودي، يدفع بالسالك الى أن يهيئ باطنه لذلك الحال، فيصير حريصا على أن لا يكون في قلبه غير توحيد الله تعالى، ولا ظاهره غير طاعته وعبادته والأخذ بما أمر ونهى لأنه «ليس له إلا مسؤول واحد ومعط واحد ومرجو واحد ومخوف واحد وموجود واحد وهمة واحدة»[1083] و يكون هذا دأبه وشعاره دائما حتى يبلغ مرامه من محبوبه الواحد الذي يحب الوحدانية في المحبة والتي يجسدها عدم حب غيره أو الاعتقاد به والافتقار إليه، ويحب الواحد في محبته، وهو المتفرد الذي قطع العلائق بكل الأكوان الأغيار.

إن مداومة الصوفي على ذكر محبوبه في جميع الأوقات، وبقلبه ولسانه وكل جوارحه، مع إغماضه عينيه وسده جميع منافذ حواسه، ومع عدم مغادرته مساحة ظل المراقبة القلبية التي تعني: استدامة القلب، أي علم العبد، باطلاع الرب عليه في جميع أحواله[1084]. ولهذه المراقبة إضافة الى فوائدها الروحية الكثيرة، فائدتان عظيمتان، الأولى: اكتساب صفة الحياء الناجمة عن دوام المثول بين يدي الحضرة الإلهية، وهو ما يجنب العبد الإقدام على الكثير من المساوئ والآثام، لا بل يجنبه حتى مجرد التفكير فيها، والثانية: زيادة وهج جذوة الحب في قلب العبد تجاه ربه، وهو ما ينجم عن كثرة المراقبة والمصاحبة، فإذا ما داوم العبد على هذا الذكر وهذه المراقبة، بحي يصير الوجود أمام ناظريه وكأنه ليس فيه إلا صفاته وأفعاله تعالى، فإنه سيؤلف هذا الشهود ويداوم عليه بحيث يكون له حالا ملازما لا ينفك عنه عندها، ستطبع شموس المعارف الإلهية، من مطالع سموات السرائر، لأنها مغروزة أصلا في تربيتها، فتنور أراضي القلوب، من نور: ﴿فَأَشْرَقَتِ الشَّمْسُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾[1085] وترتفع أغطية ظلام الجهالة المخيم على النفوس قبل الشهود، عن بصائر العقول بكحل: ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ﴾[1086] فتتحير عيون بواطن الأفهام، يضيق كأسها من مشاهدة لوامع أنوار القدس، وتتعجب خواطر من مكاشفة عجائب أسرار أن العبد إذا ما بلغ حال الشهود، فإنه سيصل الى بر الأمان وهو علم عين اليقين الذي لا يتطرق إليه شك ولا يحجب صاحبه بالخلق عن الحق لأنه قد حاز على مرتبة التفريد، و لا بالكثرة عن الوحدة، لأنه سيكون قد حاز على مرتبة التوحيد، وسوف لا يرضى بالخير دون المعاينة، لأنه وصل الى ربه واطلع على ملكه، وعرف أن ليس في السماء ولا في الأرض غيره، فصار يراه بعين قلبه وسره، وصارت الدنيا وملكها لا تساوي عنده شيء في مقابل ذلك الشهود، زهدا فيها من جهة وحبا بالله عز وجل من الجهة الأخرى، إذ أن « من أحب الله، لا يرى غير الله، وأن من سلك طريق الله وصل الى الله ومن وصل الى الله عاش في كنف الله ومن اشتاق الى الله أنس بالله وأن من ترك الأغيار، صفا وقته مع الله»[1087]. وهذا يدل على أن العلاقة متلازمة وحتمية بين الحب والإخلاص والتوحيد والوصول،

(1083)- الجيلاني: فتوح الغيب، المصدر السابق،ص 48.

(1084)- الجيلاني : آداب السلوك، المصدر السابق، ص104.

(1085)- سورة الزمر [الآية 69]

(1086)- سورة ق [الآية 22]

(1087)- الشطنوفي : المرجع السابق، ص 69.

فكل واحدة من هذه المراتب والأحوال تفضي الى الأخرى ضرورة وإن مجموعها يساوي السيرة الصوفية للسالك الواصل.

ويؤكد الشيخ عبد القادر أيضا، على أن حال وحدة الشهود أو الفناء الشهودي، هو غير (التوحيد المقالي)[1088] أي بمعنى: أن هذا التوحيد، هو غير نظريات التوحيد الكلامية أو الفلسفية، أو حتى ما تسمى بنظريات التوحيد الإشراقي التي تناول التوحيد بكونه أفكارا عقلية تدرك بالحدس والتأمل الباطني، وأصحاب هذا الاتجاه يرون أن كل من عرف هذه النظرية يمكنه أن يبلغ أرقى درجات الكمال الروحي والعقلي ويكون موحدا على الحقيقة، ويكون أيضا من الواصلين، وهذا ما يرفضه أصحاب التصوف العملي ويرون خلافه، فعندهم أن المعرفة هذه النظريات لا تفيد صاحبها فائدة روحية يعتد بها، بل إنها قد تورثه لبسا وخلقا في معتقده، وأنها قد تشكل حجابا ظلمانيا يحجب قلبه عن إدراك حقيقة التوحيد وعليه فيرى الشيخ عبد القادر، أن الذي ينفع السالك ويوصله الى الحقيقة هو: شهود الوحدة ومعايشتها ذوقا[1089]، بحث أنه يصل الى هذا الشهود، بعد أن يكون قد هيأ نفسه مسبقا وأزال عنها الحجب الظلمانية ، وصار يكاشف لها من أفعال الله عز وجل ما يبهر العقول ويخرق الرسوم والعادات، وهذا الكشف سوف لا يقتصر على حال الشهود، بل هو سيتجلى في كل الموجودات، لأنه تعالى: « قد أشرقت أنواره في كل موجود، إشراقا أظهر شر وجوده لشهود فاعترف به له اعتراف عبودية وقهر»[1090] إن هذا التوحيد الذي يصفه الشيخ عبد القادر، هو ضرورة يقع خارج ساحة العقل ونظرياته، إنه نور يلقى في القلوب ومعرفة تقدح في الصدور ويقين يحل في الأسرار، بحيث لا يحيط به جدل ولا تستوعبه أفهام، ولا يعني هذا الكلام أنه علم غير معقول، وإنما يعني أنه لا يصدر عن العقول، وإنما يستحصل عن طريق البصائر والأسرار ثم يستقر أخيرا في العقول. لقد ظل الشيخ عبد القادر، يعمل جاهدا على تقديم أرائه الصوفية الى مريديه وأهل عصره بشكل مبسط وعملي ومنسجم مع ظاهر الشرع، مع تأكيده لهم: إن أعظم الأفكار الصوفية وأكثرها إثارة للإعجاب لا يمكن أن تنفع ناقلها أو تنجيه، لا بل إنها قد تؤدي به الى الضر والتهلكة، فيها لو أساء فهمها أو نقلها، فالإنسان لا يمكن أن ينتفع إلا بالرداء الذي يرتديه، وأما ما يتظاهر به فإنه يدل على النقص أكثر من دلالته على الكمال، إن الأفكار والنظريات الصوفية، ليس بناءات طوبانية مستخلصة من مادة الخيال، بل هي في الواقع، مشاريع عمل أخلاقية ومناهج سلوك روحية وضعها شيوخ التصوف كي يستفيد منها الناس، ويسعوا ويجتهدوا الى التحقق بها و الترقي من خلالها، لأنها في حقيقتها تشكل المعنى المطلوب والصحيح والجوهري للدين، وما الخلاف الحاصل بين رجال الدين حول مشروعيتها إلا نتيجة لقصور فهم بعضهم من جهة وسوء استخدامها من بعضهم الآخر من جهة أخرى، وأن الحقيقة والغاية واحدة عند الجميع – هذا مع افتراض حسن النية – وإن اختلفت وجهها وتباينت صورها. إن الغاية من كل ما يأتيه الصوفي من أفعال وأحوال وأقوال، هي الوصول الى

[1088] – الجيلاني : آداب السلوك، المصدر السابق، ص107.

[1089]– مع الأخذ بعين الاعتبار: إن الشهود عند الشيخ عبد القادر، لا يعدو كونه حالة اضطرارية حاصلة من المجاهدة والمكابدة والرياضة المتعبة والذل والافتقار والمسكنة مع ملازمة الشريعة انظر:الجيلاني اداب السلوك ،المصدر السابق،ص137.

[1090]– زين الدين السائح : المرجع السابق،ص 143.

مرحلة العبودية الحقة وهذه الغاية لكل الأديان السماوية، لا بل إنها مطلب طبيعي بكل فطرة سليمة فإذا ما وصل العبد الى هذه المرحلة، فإنه سيبلغ أعلى درجات التوحيد والإيمان بألوهية الخالق ووحدانيته وهو ما تعارف الصوفية على تسميته بـ (حق اليقين) الذي هو عبارة عن فناء العبد في الحق والبقاء به علما وشهودا وحالا لا علما فقط[1091].

وتعد فكرة الإنسان الكامل[1092]، من بين أكثر الأفكار خصوبة في التراث الصوفي الإسلامي، ولسنا هنا بصدد مناقشة أو استعراض الدراسات والآراء، وخصوصا الاستشراقية منها، التي حاولت جاهدة، وكما فعلت مع غيرها من مفردات الفكر العرب الإسلامي، أن تفكك بناء هذه النظرية وأن تجردها من طابعها المحلي، وثم أن ترجعها الى أصول غير إسلامية، لا بل غير عربية أصلا[1093] وإنما يعنينا هنا فقط أن نسلط الضوء مدى ارتباط هذه النظرية بالفكر الإسلامي عموما والفكر الصوفي على وجه الخصوص، وأن نبين أنها نتاج طبيعي لهذا الفكر وثمرة شرعية من ثماره الكثيرة والمتنوعة. إن سعي الصوفية الى تحقيق أكبر قدر ممكن من الكمال الخلقي والروحي والديني، وتطلعه الى إتباع النبي محمد صلى الله عليه وسلم تسليما، بكونه التجسيد الأمثل لهذا الكمال، هما ما دفعاه وبشكل تلقائي، الى أن يمعن النظر كثيرا ويفصل الكلام في بيان سمات هذه الشخصية – الإنسان الكامل – وإظهار فضائلها وامتيازاتها الروحية، بكونها أعلى مقامات التمكين وآخر مراتب الكمال التي يمكن أن يبلغها الصوفي السالك، فيما لو ثبت على سلوكه ومجاهداته وأوراده من جهة، وأدركته يد الرحمة والعناية الربانية من الجهة الأخرى. فإذا ما وصل الصوفي (المراد) الى تلك الغاية وتمكن منها وفني عن إرادته وبقي بإرادة الله تعالى، وصارت نفسه نفسا كاملة، وصارت يد الله تعالى هي يده التي يبطش بها ونور الله هو عينه الذي يبصر بها وصار هو المنبع الذي يفيض منه العارفين معرفة بربهم، على نحو ما يعرف هو ربه، وصارت تصل اليهم من العطايا والمنح الإلهية وصار هو الحقيقة الإلهية السارية في الوجود بأسره، وهو خليفة الله تعالى الذي ظهر في هذا العالم كي يظهر فيه جلال من أوجد. وهذا الإنسان لولاه ولولا خلافته الباطنة لخرب العالم وعمته الفوضى، لأنه مكمل سلسلة النور الذي يجب أن لا ينطفيء، وهو النور الذي ظل متواليا بعد انتقال النبي صلى الله عليه وسلم تسليما الى مولاه، والإنسان الكامل هو الذي يظهر الى حيز الوجود والتحقيق كل تجليات القدرة الإلهية التي أودعها الله تعالى في بحر الإمكان البشري، وعليه فهو يجمع بين طرفي الوجود، أي الحق والخلق وهو الواسطة بينهما. لقد جعل الله تعالى الإنسان الكامل على صورته وجعله أنموذجا ظاهرا للذات الإلهية فهو عة وجود العالم والحافظ له وهو القطب الذي تدور حوله أفلاك العالم.

(1091) –الجرجاني:التعريفات،المرجع السابق،،ص 95.

(1092)– الإنسان الكامل: هو الجامع لجميع العوالم الإلهية والكونية، الكلية والجزئية، وهو كتاب جامع للكتب الإلهية والكونية، فمن حيث روحه وعقله فهو كتاب عقلي يسمى بأم الكتاب ومن حيث قلبه فهو اللوح المحفوظ ومن حيث نفسه فهو كتاب المحو والإثبات وهو الصحف المكرمة المرفوعة المطهرة التي لا يمسها ولا يدرك أسرارها إلا المطهرون من الحجب الظلمانية – الجرجاني: التعريفات ،المرجع،ص 39.

(1093)– للمزيد من التفصيل حول هذه الآراء أنظر د. عبد الرحمن بدوي : الإنسان الكامل، الكويت،ط 2، 1976.

فمن صحت له هذه الرتبة وتلك الصفات، صحت له الوراثة والخلافة العظمى، وتلك رتبة كما يقول ابن عربي (ت- 683هـ)، لا يستحقها إلا من خلق لها، أي أنه يكون قد خلق على الصورتين: الإلهية والكونية فجمع في ذاته حقائق الحق ومظاهر العالم، فهو قادر على التعامل مع الحق من جانب ومع العالم من جانب آخر، وبتوازن تام ومن دون خلل أو ارتباك، لأنه مخلوق على صورة الكمال، ولأنه الخليفة، فلا بد من أن يظهر فيما استخلف عليه بصورة مستخلفة، وإلا فهو ليس بخليفة له فيهم[1094] . أي بمعنى أنه لابد من أن يظهر بين الناس – لكونه خليفة الله تعالى – بتفويض إلهي مطلق وقدرة ربانية ليس لها حدود، إذن فالإحساس المفرط: الوازع الأخلاقي، هو الذي حدا بالمتصوفة الى تبني نظرية الإنسان الكامل والعمل الحثيث على تحقيقها في حيز الواقع. لقد أدرك هؤلاء المتصوفة، بحدسهم الفائق، ما تشتمل عليه تلك (النظرية) من جانب أخلاقي كبير[1095] إذ أن شخصية الإنسان الكامل، مستوحاة أصلا من السيرة الروحية والأخلاقية للنبي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي قال الحق تعالى في حقه: ﴿إِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1096] والذي أدبه ربه فأحسن تأديبه والذي بعث ليتمم مكارم الأخلاق. فإذا ما تتبعنا بعض خصائص الإنسان الكامل وتبين لنا أنه هو منبع الفيوضات الرحمانية وأن بنظرته النورانية تتوزع الدرجات الروحية وتتغير رتب الرجال وتتم الولايات، وعلى يده تسير الأمور الظاهرية وتنتظم الأمور الباطنية، ولأنه لا يخفى عليه شيء من مجريات الأحداث، ما دق منها وما عظم، لأنه قطب الأرض وموضع نظر الرب وخليفة الرسول صلى الله عليه وسلم[1097] و الإنسان الكامل، يعد عند الصوفية النموذج الأمثل الذي يمكن لأي إنسان على وجه الأرض أن يبلغه، والصوفي حتى وإن كان رلا يطمح الى بلوغ مقام الإنسان الكامل، إلا أنه يضعه نصب عينية إبان سعيه الحثيث الى الترقي والوصول، فما دام هذا المثال شاخصا أمامه، فهو لا يرضى بأي منزلة يصل إليها دونه، بل يسعى دائما للاستزادة من زاد الأرواح، حتى يبلغ به ذلك السعي الى مقام اليقين.

[1094]- ابن عربي :الفتوحات المكية، ج1، ص 263.

[1095]- ناجي التكريتي : الفلسفة الأخلاقية عند مفكري الإسلام، ص 467.

[1096]- سورة القلم [الآية 4].

[1097]- الشيخ محمد الكسنزاني: الطريقة العلية القادرية الكسنزانية ، ص 147

تبرئة علماء الامة للصوفية من تهمة الحلول والاتحاد:

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى في تبرئة السادة الصوفية من هذه التهمة الباطلة ما نصه: ليس أحد من أهل المعرفة بالله يعتمد حلول الرب تعالى به أو بغيره من المخلوقات ولا اتحاده به وإن سمع شيء من ذلك منقول عن بضع أكابر الشيوخ فكثير منه مكذوب اختلقه الأفاكون من الاتحادية الإباحية الذين أضلهم الشيطان وألحقهم بالطائفة النصرانية[1098].

وقال أيضا : «كل المشايخ الذين يقتدى بهم في الدين متفقون على ما اتفق عليه سلف طالأمة وأئمتها من أن الخالق سبحانه مباين للمخلوقات وليس في مخلوقاته شيء من ذاته ولا في ذاته شيء من مخلوقاته وأنه يجب إفراد القديم عن الحادث وتاميز الخالق عن المخلوق وهذا في كلامهم أكثر من أن يمكن ذكره هنا[1099]. »

وقال الإمام الشعراني رحمه الله تعالى: «ولعمري إذا كان عُباد الأوثان لم يتجرؤوا أن يجلوا آلهتم عين الله بل قالوا: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾[1100] ».

فكيف يظن بأولياء الله تعالى أنهم يدعون الاتحاد بالحق على حد ما تتعقله العقول اضعيفة؟! هذا كالمحال في حقهم رضي الله عنهم إذ ما من ولي إلا وهو يعلم أن حقيقته تعالى مخالفة لسائر الحقائق وأنها الخارجة عن جميع معلومات الخلائق لأن الله بكل شيء محيط[1101].

وقد تحدث الإمام الغزالي عن هذه العقيدة الفاسدة وأظهر بطلانها مقسما اياها في القسم الرابع وهو الاتحاد: فذلك أيضا أظهر بطلانا لأن قول القائل: إن العبد صار هو الرب كلام متناقض في نفسه بل ينبغي أن ينزه الرب سبحانه وتعالى عن أن يجري اللسان في حقه بأمثال هذه المحالات ونقول قولا مطلقا: إن قول القائل: إن شيئا صار شيئا آخر محال على الإطلاق لأننا نقول إذا عقل زيد وحده وعمرو وحده ثم قيل إن زيدا صار عمرا واتحد به فلا يخلو عند الاتحاد إما أن يكون كلاهما موجودين أو كلاهما معدومين أو زيد موجودا وعمرو معدوما أو بالعكس ولا يمكن قسم وراء هذه الأربعة فإن كانا موجودين فلم يصر عين أحدهما عين الآخر بل عين كل واحد منهما موجود وإنما الغاية أن يتحد مكانهما وذلك لا يوجب الاتحاد فإن العلم والإرادة والقدرة قد تجتمع في ذات واحدة ولا تتباين محالها ولا تكون القدرة هي العلم ولا الإرادة ولا يكون قد اتحد البعض بالعبض وإن كانا معدومين فما اتحدا بل عدما ولعل الحادث شيء ثالث.

وإن كان أحدهما معدوما والآخر موجودا فلا اتحاد إذ لا يتحد معدوم بموجود فالاتحاد بين شيئن مطلقا محال وهذا جار في الذات المتماثلة فضلا عن المختلفة فإنه يستحيل أن يصير هذا السواد كما يستحيل أن يصير هذا السواد ذلك البياض أو ذلك العلم والتباين بين العبد والرب أعظم من التباين بين السواد والعلم فأصل الاتحاد إذا باطل.

[1098]- ابن تيمية :الفتاوى، ج11،ص74-75..

[1099]- المرجع نفسه: ج2، ص223.

[1100]- سورة الزمر [الآية 3].

[1101]- الشعراني: اليواقيت والجواهر: المرجع السابق، ج1،ص83.

وأما القسم الخامس وهو الحلول: فذلك أن يتصور أن يقال: إن الرب تبارك وتعالى حل في العبد أو العبد حل في الرب تعالى رب الأرباب عن قول الظالمين وهذا لو صح لما وجب الاتحاد ولا أن يتصف العبد بصفات الرب فإن صفات الحال لا تصير صفة المحل بل تبقى صفة للحال كما كان.

ووجه استحالة الحلول لا يفهم إلا بعد فهم معنى الحلول فإن المعاني المفردة إذا لم تدرك بطريق التصور لم يمكن أن يفهم نفيها أو إثباتها فمن لا يدري معنى الحلول فمن أي يدري أن الحلول موجود أو محال.

فنقول : «المفهوم من الحلول أمران:

أحدهما: النسبة التي بين الجسم ومكانه الذي يكون فيه وذلك لا يكون إلا بين جسمين فالبريء عن معنى الجسيمة يستحيل في حقه ذلك.

والثاني: النسبة التي بين العرض والجوهر فإن العرض يكون قوامه بالجوهر فقد يعبر عنه بأنه حال فيه وذلك محال على كل ما قوامه بنفسه.فدع عنك ذكر الرب تعالى وتقدس في هذا العرض فإن كل ما قوامه بنفسه يستحيل أن يحل فيما قوامه بنفسه إلا بطريق المجاورة الواقعة بين الأجسام فلا يتصور الحلول بين عبدين فكيف يتصور بين العبد والرب» [1102].

وقال الشيخ محي الدين بن عربي رحمه الله تعالى في عقيدته الصغرى: « تعالى الحق أن تحله الحوادث أو يحلها.

وقال في عقيدته الوسطى: اعلم أن الله تعالى واحد بالإجماع ومقام الواحد يتعالى أن يحل فيه شيء أو يحل في شيء أو يتحد في شيء.و اكد في الباب التاسع والستين والمائة: القديم لا يكون قط محلا للحوادث ولا يكون حالا في المحدث» [1103].

و في الباب الثاني والستين ومئتين : من أعظم دليل على نفي الحلول والاتحاد الذي يتوهمه بعضهم أن تعلم عقلا أن القمر ليس فيه من نور الشمس شيء وأن الشمس ما انتقلت إليه بذاته وإنما كان القمر محلا لها فكذلك العبد ليس فيه من خالقه شيء ولا حل فيه.

و في الباب الرابع عشر وثلاثمائة: لو صح أن يرقى الإنسان عن إنسانيته وذلك عن ملكيته ويتحد بخالقه تعالى لصح انقلاب الحقائق وخرج الإله عن كونه إلها وصار الحق خلقا والخلق حقا وما وثق أحد بعلم وصار المحال واجبا فلا سبيل إلى قلب الحقائق أبدا.

وقال في الباب التاسع والخمسين وخمسمائة بعد كلام طويل: وهذا يدلك على أن العالم ما هو عين الحق ولا حل فيه الحق إذ لو كان عين الحق أو حل فيه لما كان تعلى قديما ولا بديعا.

وقال في باب الأسرار: لا يجوز لعارف أن يقول: أنا الله ولو بلغ أقصى درجات القرب وحاشا العارف من هذا القول حاشاه إنما يقول: «أنا العبد الذليل في المسير والمقيل» [1104].

[1102]- ابي حامد الغزالي :المقصد الأسنى،تح بسام الجابي،دار الجفان والجابي، قبرص،ط1، 1407هـ- 1987م، ص 168.

[1103]- ابن عربي:الفتوحات المكية،المرجع السابق،ج1، ص80. كما فيالشعراني: اليواقيت والجواهر ،ص81.

[1104]- نفس المرجع نفس الصفحة.

-من قال بالحلول فهو معلول فإن القول بالحلول مرض لا يزول وما قال بالاتحاد إلا أهل الإلحاد كما أن القائل بالحلول من أهل الجهل والفضول.

-الحاث لا يخلو عن الحوادث ولو حل بالحادث القديم لصح قول أهل التجسيم فالقديم لا يحل ولا يكون محلا.

وجاء في شعره ما ينفي الحلول والاتحاد كقوله:

ودع مقالة قوم قال عالمهم بـــــــأنه الإله الواحد اتحدا

الاتحاد محال لا يـــقول به إلا جهـــول به عن عقله شردا

وعن حقيقته وعن شريعته فاعبد إلهك لا تشرك به أحدا

ويؤكد صاحب كتاب نهج الرشاد في الرد عل أهل الوحدو والحلول والاتحاد: حدثني الشيخ كمال الدين المراغي قال: اجتمعت بالشيخ أبي العباس المرسي تلميذ الشيخ الكبير أبي الحسن الشاذلي وفاوضته في هؤلاء الاتحادية فوجدته شديد الإنكار عليهم والنهي عن طريقهم وقال: أتكون الصنعة هي عين الصانع ؟![1105].

وأما ما ورد من كلام السادة الصوفية في كتبهم مما يفيد ظاهرة الحلول والاتحاد فهو إما مدسوس عليهم بدليل ما سبق من صريح كلامهم في نفي هذه العقيدة الضالة وإما لم يقصدوا به القول بهذه العقيدة الضالة ولكن المغرضين حملوا المتشابه من كلامهم على هذا الفهم الخاطئ ورموهم بالكفر والضلال أما العلماء المنصفون فقد فهموا كلامهم على معناه الصحيح الموافق لعقيدة أهل السنة والجماعة وأولوه بما يلائم ما ورد عنهم من نصوص صريحة موافقة لعقيدة أهل السنة والجماعة.

وقال ابن تيمية رحمه الله تعالى وأما قول الشاعر في شعره:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا

فهذا إنما أراد به الشاعر الاتحاد المعنوي كاتحاد أحد المحبين بالآخر الذي يحب أحدهما ما يحب الآخر ويبغض ما يبغضه ويقول مثل ما يقول ويفعل مثل ما يفعل وهذا تشابه وتماثل لا اتحاد العين بالعين إذ كان قد استغرق في محبوبه حتى فني به عن رؤية نفسه كقول الآخر :

غبت بك عني فظننت أنك أني

فهذه الموافقة هي الاتحاد السائغ[1106].

وقال ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى في كتابه (مدارج السالكين) ما نصه : «.. الدرجة الثالثة من درجات الفناء: فناء خواص الأولياء وأئمة المقربين وهو الفناء عن إرادة السوى شائما برق الفناء عن إرادة ما سواه سالكا سبيل الجمع على ما يحبه ويرضاه فانيا بمراد محبوبه منه عن مراده هو من محبوبه فضلا عن إرادة غيره قد اتحد مراده بمراد محبوبه أعني المراد الديني الأمري لا المراد الكوني القدري فصار المرادان واحدا... وليس في العقل اتحاد صحيح إلا

[1105]- السيوطي: الحاوي للفتاوي ،تح حسن عبد الرحمان،دار الكتب العلمية، ط1، 1421هـ -2000م ،ج 2 ،ص134.

[1106]- ابن تيمية:الفتاوى، مرجع السابق،ج 1،ص 52.

هذا والاتحاد في العلم والخير فيكون المرادان والمعلومان والمذكوران واحدا مع تباين الإرادتين والعلمين والخبرين فغاية المحبة اتحاد مراد المحب بمراد المحبوب فهذا الاتحاد والفناء هو اتحاد خنواص المحبين وفناؤهم قد فنوا بعبادة محبوبهم عن عبادة ما سواه وبحبه وخوفه ورجائه والتوكل عليه والاستعانة به واطلب منه عن حب ما سواه ومن تحقق بهذا الفناء لا يحب إلا في الله ولا يبغض إلا فيه ولا يوالي إلا إياه ولا يستعين إلا به فيكون دينه كله ظاهرا وباطنا لله ويكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما فلا يواد من حاد الله ورسوله ولو كان أقرب الخلق إليه بل:

يعادي الذي عادى من الناس كلهم جميعا ولو كان الحبيب المصافيا

وحقيقة ذلك فناؤه عن هوى نفسه وحظوظها بمراضي ربه تعالى وحقوقه والجامع لهذه كله تحقيق شهادة أن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ علما ومعرفة وعملا وحالا وقصدا وحقيقة هذا النفي والإثبات التي تضمنته هذه الشهاد\ة هو الفناء والبقاء فيفنى عن تألهه ما سواه علما وإقرارا وتعبدا ويبقى بتألهه وحده فهذا الفناء وهذا البقاء هو حقيقة التوحيد لذي اتفقت عليه الرسل صلوات الله عليهم وأنزلت به الكتب وخلقت لأجله الخليقة وشرعت له الشرائع وقامت عليه سوق الجنة وأسس عليه الخلق والأمر وهذا الموضع مما غلط فيه كثير من أصحاب الإرادة والمعصوم من عصمه الله وبالله المستعان والتوفيق والعصمة.

وقال أيضا: وإن كام مشمرا للفناء العالي وهو الفناءعن إرادة السوى لم يبق في قلبه مراد يزاحم مراده الديني الشرعي النبوي القرآني بل يتحد المرادان فيصير عين مراد الرب تعالى هو عين مراد العبد وهذه حقيقة المحبة الخالصة وفيها يكون الاتحاد الصحيح وهو الاتحاد في المراد لا في المريد ولا في الإرادة»[(1107)].

وقال العلامة جلال الدين السيوطي رحمه الله تعالى في كتابه (الحاوي للفتاوى) واعلم أنه وقع في عبارة بعض المحققين لفظ الاتحاد إشارة منهم إلى حقيقة التوحيد فإن الاتحاد عندهم هو المبالغة في التوحيد والتوحيد معرفة الواحد والأحد فاشتبه ذلك على من لا يفهم إشارتهم فحملوه على غير محمله فغلطوا وهلكوا بذلك..).

إن أصل الاتحاد باطل محال مردود شرعا وعقلا وعرفا بإجماع الأنبياء ومشايخ الصوفية وسائر العلماء والمسلمين وليس هذا مذهب الصوفية وإنما قاله طائفة غلاة لقلة علمهم وسوء حظهم من الله تعالى فشابهوا بهذا القول النصارى الذين قالوا في عيسى عليه السلام اتحد ناسوته بلاهوته وأما من حفظه الله تعالى بالعناية فإنهم لم يعتقدوا اتحادا ولا حلولا وإن وقع منهم لفظ الاتحاد فإنما يريدون به محو أفسهم وإثبات الحق سبحانه ... وقد يذكر الاتحاد بمعنى فناء المخالفات وبقاء الموافقات وفناء حظوظ النفس من الدنيا وبقاء الرغبة في الآخرة وفناء الأوصاف الذميمة وبقاء الأوصاف الحميدة وفناء الشك وبقاء اليقين وفناء الغفلة وبقاء الذكر... وأما قول أبي يزيد البسطامي رحمه الله تعالى الله تعالى : «سبحاني ما أعظم شأني» فهو في معرض الحكاية عن الله وكذلك قول من قال: (أنا الحق) محمول على الحكاية ولا يظن بهؤلاء العارفين الحلول والاتحاد لأن ذلك غير مظنون بعاقل فضلا عن المميزين بخصوص المكاشفات واليقين والمشاهدات ولا يظن بالعقلاء المتميزين على اهل زمانهم بالعلم الراجح والعمل الصالح والمجاهدة وحفظ حدود الشرع الغلط بالحلول والاتحاد كا غلط النصارى في ظنهم ذلك في حق

(1107)- بن قيم الجوزية: مدارج السالكين،المرجع السابق،ج1،ص90-91.

عيسى عليه السلام وإنما حدث ذلك في الإسلام من واقعات جهلة المتصوفة وأما العلماء العارفون المحققون فحاشاهم من ذلك.. والحاصل أن لفظ الاتحاد مشترك فيطلق على المعنى المذموم الذي هو أخو الحلول وهو كفر ويطلق على مقام الفناء اصطلاحا اصطلح عليه الصوفية ولا مشاحة في الاصطلاح إذ لا يمنع أحد من استعمال لفظ في معنى صحيح ولا محذور فيه شرعا ولو كان ذلك ممنوعا لم يجز لأحد أن يتفوه بلفظ الاتحاد وأنت تقول: بيني وبين صاحبي زيد اتحدا وكم استعمل المحدثون والفقهاء وغيرهم لفظ الاتحاد في معان حديثية وفقهية ونحوية كقول المحدثين: اتحد مخرج الحديث وقول الفقهاء اتحد نوع الماشية وقول النحاة: اتحد العامل لفظا أو معنى.

وحيث وقع لفظ الاتحاد من محققي الصوفية فإنما يريدون به معنى الفناء الذي هو محو النفس وإثبات الأمر كله لله سبحانه لا ذاك المعنى المذموم الذي يقشعر له الجلد وقد أشار إلى ذلك سيدي علي بن وفا فقال من قصيدة له:

يظنوا بي حلولا واتحادا وقلبي من سوى التوحيد خالي

فتبرأ من الاتحاد بمعنى الحلول وقال أبي أبيات أخر:

وعلمك أن كل الأمر أمري هو المعنى المسمى باتحاد

فذكر أن المعنى الذي يريدونه بالاتحاد إذا أطلقوه هو تسليم الأمر كله لله وترك الإرادة معه والاختيار والجري على مواقع أقداره من غير اعتراض وترك نسبة شيء ما إلى غيره[1108].

وقال الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي حفظه الله تعالى ما نصه: «ولقد كان من تأثير التباس تلك الفلسفة الفكرية الجانحة بهذه الحالة الشهودية الوجدانية على كثير من الناس جهلهم بتلك التعابير والكلمات التي تطفح على ألسنة أصحاب تلك الأحوال كتلك الألفاظ التي اشتهرت عن أبي يزيد البسطامي رحمه الله فظنوا أن قوله «ما في الجبة إلا الله» عقيدة فكرية يتبناها الشيخ فهو يعتنق إذن عقيدة الحلول وينادي بها ولو أنهم تمهلوا وأمعنوا في حقيقة الأمر وواقعه ووقفوا علىتراجم هؤلاء الرجال وأحوالهم لما تسرعوا في الانجراف في هذا الفهم الباطل والتهمة الشنعاء! بل لعلموا أنه ما من مؤمن بالله حق الإيمان إلا وله حظ من هذا الفناء ولكنه ليس فناء الشعور عن كل ما سوى الله بل هو فناء الإرادة لكل ما عدا الله وهو يتمثل في اليقين بأن الله هو النافع والضار وفي صدق التوكل عليه والتفويض إليه واخضاع إرادته وحبه لما يحبه الله ويرضاه إلا أن هؤلاء الرجال رحمهم الله تعالى لما استرسلوا في هذا الحال وواصلوا مراقبتهم لله عز وجل وعودوا أنفسهم أن لا يبصروا شيئا من مظاهر الكون إلا وتتجلى لهم صفات الله من خلاله تجاوزوا مرحلة ذلك الفناء الإرادي إلى الفناء الشعوري فمنهم من استمر على منهج التنسيق بين الجمع والفرق وذلك هو المقام السامي الذي بعث به الرسل والأنبياء وتحلوا به وهو الذي يجب أن يكون مطمح أبصار السالكين إلى الله عز وجل»[1109].

إن وجود الله عز وجل ذاتي أي لا تأثير لغيه به إذ أن الله تعالى هو الأول فليس قبله شيء وقد رود في الحديث: «كان الله ولم يكن شيء غيره»[1110].

[1108]- ابن تيمية : الحاوي للفتاوى،المرجع السابق،ج 2 ،ص 134.

[1109]- رمضان البوطي:المرجع السابق،ص201-202.

[1110]- أخرجه البخاري (3019/2).

أما وجود الموجودات فهو حاصل من إيجاد الله عز وجل لها ومستمر بإمداد الله تعالى لها بالوجود ولو انقطع الإمداد لعادت عدما.

وعليه فمن نظر الى الموجد الممد سبحانه وتعالى رآه هو الموجود حقيقة ومن لاحظ الإمداد رأى الأياء عدما لولاه سبحانه فوجودها ليس ذاتيا كوجوه الله عز وجل ولذلك قالوا: الوجود الحقيقي واحد وهو الله سبحانه وتعالى ووجود غيره لا يشابه وجوده.

وعن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل»[1111].

وقال أحدهم:

فالكل دون الله إن حققته عدم على التفصيل والإجمال [1112]

أي عدم حقيقة أصله موجود بمدد الله تعالى له وهذه هي واحدة الوجود.

وقال الشيخ عبدالقادر عيسى رحمه الله تعالى في كتابه (حقائق عن التصوف) : إن الوجود نوعان: وجود قديم أزلي وهو واجبوهو الحق سبحانه وتعالى ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ﴾ [1113] أي الثابت الوجود المحقق ووجود جائز عرضي ممكن وهو وجود من عداه من المحدثات.

وإن القول بوحدة الوجود وأن الوجود واحد هو الحق تعالى يحتمل معنيين :

أحدهما حق والثاني كفر ولهذا فالقائلون بوحدة الوجود فريقان: الفريق الأول أرادوا به اتحاد الحق وأنه لا شيء في هذاالوجود سوى الحق وان الكل هو وأنه هو الكل وأنه عين الشياء وفي كل شيء له آية تدل على أنه عينه... فقوله هذا كفر وزندقة وأشد ضلالة من اباطيل اليهود والنصارى وعبدة الأوثان وقد شدد الصوفية النكير على قائله وأفتوا بكفره وحذروا الناس من مجالسته.

قال العارف بالله أبو بكر محمد بناني المتوفي1284هـ رحمه الله تعالى : «فاحذر يا أخي كل الحذر من الجلوس مع من يقول: ما ثم غلا الله ويسترسل على الهوى فإن ذذلك هو الزندقة المحضة إذ العارف المحقق إذا صحح قدمه في الشريعة ورسخ في الحقيقة وتفوه بقوله: ما ثم إلا الله لم يكن صده من هذه العبارة إسقاط الشرائع وإهمال التكاليف حاشا لله ان يكون هذا قصده» [1114].

الفريق الثاني: قالوا ببطلان وكفر ما ذكر من أن الخالق عين المخلوق وإنما ارادوا بوحودة الوجود القديم الأزلي وهو الحق سبحانه فهو لا شك واحد منزه عن التعدد ولم يقصدوا بكلامهم الوجود العرضي المتعدد وهو الكون الحادث

[1111]- أخرجه البخاري (3628/2).

[1112]- احمد الصاوي:شرح الصاوي،تح عبد الفتاح البزم،دار ابن كثير ، بيروت،ط 3، 1999م، ص (77).

[1113]- سورة الحج [الآية 62].

[1114]- ابي بكر بناني: مدارج السلوك إلى ملك الملوك،تح د ابراهيم الكيالي ،دار الكتب العلمية،ط 3، 1997م ،ص129.

نظرا لأن وجوده مجازي وفي اصله عدمي لا يضر ولاينفع فالكون معدوم في نفسه هالك فإن في لك لحظة قال تعالى ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾[1115].

وإنما يظهره الإيجاد ويثبته الإمداد والكائنات ثابتة بإثابته وممحوة بأحديه ذاته وإنما يمسكه سر القيومية فيه وهؤلاء قسمان : قسم اخذ هذا الفهم بالاعتقاد والبرهان ثم الذوق والعيان وغلب عليه الشهود فاستغرق في لجج بحار التوحيد ففني عن نفسه فلا عن شهود غيره مع استقامته على شرع الله تعالى وهذا قوله حق.

وقسم ظن أن ذلك علم لفظي فتوغل في تلاوة عبارته وتمسك بظواهر إشاراته وغاب في شهودها عن شهود الحق فربما هانت الشريعة في عينيه لما يلتذ به من حلاوة تلك الألفاظ فيقع على أم رأسه ويتكلم بما ظاهره أن الشريعة في جهة يختص بها أهل الغفلة والحقيقة في جهة أخرى يختص بها أهل العرفان ولعمري إن هذا لهو عين الزور والبهتان وما ثمَّ إلا شريعة ومقام إحسان[1116].

[1115]- سورة القصص [الآية 88].

[1116]- عبد القادر عيسى:حقائق عن التصوف، ص 553-556..

العارية الوجودية:

إن الوجود كما يراه المتصوفة عموما والشيخ الجيلاني خصوصا وجود وهمي ووجود زائف. لا يعتبر حقيقة في ذاته، إلا بقدر ماهو لمحة من لمحات التجلي الإلهي وموجة من موجات بحر النور الإلهي الممدد لجميع الموجودات في الأكوان.

وليست للأشياء عند الجيلاني وجودا ذاتيا وإنما "هي محض خيالات استعارات صفة الوجود من الحق تعالى"[1117]

حيث يقول: "يا عارية... أي يا إنسان لا يغرنك ما تعطيك إياه الحواس والعقل من معطيات، تجعلك تظن أنك موجود ذاتك بذاتك مستقل عن غير، أو عن أي قوة خارجية أخرى، انتبه إنما أنت وجود معار، مستعار كل الوجود والموجودات بما فيهم أنت. ليس مستقل بذاته إنما تابع لمدد الموجود الأعظم موجد الموجودات، الله سبحانه وتعالى؛ بالمدد الوجودي. يقول: كمال الدين القاشاني: " المدد الوجودي هو وصول كل ما يحتاج الممكن في وجوده على الولاء حتى يبقى، فإن الحق يمده من النفس الرحماني بالوجود حتى يترجح وجوده على عدمه الذي هو مقتضي ذاته بدون موجده"[1118]

فواجب الوجود وجود أصيل كون وجوده ذاته بذاته لا يتعلق على الاطلاق بغيره، وهذه فكرة ناقشتها الفلسفة اليونانية وأعلامها وكثر من فلاسفة الإسلام المشائين سار على نهجها في اثبات أصالة الوجود لواجب الوجود واثبات زيف الوجود لممكن الوجود كونه وجوده، مستمد من وجود أشرف منه أنطولوجيا بمده بوجوده وإن أوقف عنه المدد استحال عدما.

لذا نرى أن الجيلاني مثله مثل كل المتصوفة والفلاسفة يؤكد على عدم أصالة الوجود الإنساني إنما هو "عارية " أعاره الله عز وجل عن طريق الإمداد، فما الإنسان إلا مرآة تعكس حضرة الأسماء والصفات والأفعال الإلهية وتجليتها فيه على قدر ما أودعه خالقها من استعدادات.

وهذا ما أكده تلميذ الجيلاني عبد الكريم الجيلي حيث قال: "إن العارية الوجودية في الأشياء ماهي إلا نسبة الوجود (الخلقي) إليها مع كون الوجود الحقي أصل لها في الحقيقة[1119] فقد أعار الحق تعالى للأشياء وجودا من ذاته لتظهر بذلك أسرار الألوهية في الكون، وقال تعالى في كتابه العزيز: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾[1120] فالكون كالثلجة التي نرى فيها شكلا معينا في حين أن الماء هو حقيقة وجودها، ففي هذا المثال نجد اسم الثلج معار من اسمه الماء.

وهذه العارية الوجودية التي أعار الحق تعالى بها المخلوقات وجودها في العالم الدنيوي لا تعني أن نقول بوجود المخلوقات ووجود الخالق. فما ثم غير الخالق عز وجل فالصورة لا ينبغي لها أن تقرن بالأصل، فإذا قرن

[1117] – يوسف زيدان: عبد الكريم الجيلي، ص159.

[1118] – القاشاني: اصطلاحات الصوفية،المرجع السابق، ص81.

[1119] عبد الكريم الجيلي، الإنسان الكامل الجزء الأول ص28.

[1120] سورة الحجر [الآية 85].

المحدث بالقديم لم يعد له وجود، ومن هنا ما ثم غير الله في الوجود وما الموجودات إلا انعكاس وجوده وحضرة تجليات أسمائه وصفاته وأفعاله، فكل الموجودات تتلاشى ولم لها وجود حقيقي إنما زيف في زيف ووهم في وهم إذا ما أردنا أن نلحقها بجنابه، فالحق تعالى هو من ينفرد بالوجود الأزلي والأبدي الحق.

فمعنى العارية إذا أن الله تعالى وحده هو الموجود وكل ماعداه إنما هو وجود فان ملحق بالعدم، إذ لا يعدو كونه صورة من تجليات الحق تعالى التي لا يتوقف فيضها الصابغ فتظهر هذه التجليات في صور متعددة تبدو على سطح مرآة الكون حينا من الدهر، لا تلبث أن تبدو بعدها أخرى لتجليات الحق تعالى الذي كل يوم هو في شأن. فتكون هذه المجالي في جملتها هي مظاهر الذات الإلهية في عالم الخلق؛ الذي أعار الحق تعالى صفة الوجود له من حيث النسبة والالتحاق بذاته العلية.

ومن كبار الصوفية في الإسلام الذين أشاروا إلى العارية الوجودية، الشاعر الصوفي عمر بن الفارض الملقب بسلطان العاشقين، وذلك حين يطلق ابن الفارض تجلي الذات الإلهية في الوجود دون تقييد هذا التجلي في صورة معينة من صور الحسن والجمال، الذي هو في الحقيقة "معار" من الذات الإلهية حيث قال:

وصرح بإطلاق الجمال ولا تقل **** بتقييده مبال لزخرف زينته

فكل مليح حسنه من جمالها **** معار له بل حسن كل مليحة.[1121]

رغم الفارق الزمني بين الجيلاني والجيلي وابن فارض إلا أننا نجدهم أكدوا أن الموجودات إنما هي موجودة وجودا اعتباريا معارا من وجود الله الذي أفاض عليها بالعارية الوجودية فظهرت للعيان في الصورة الكونية.

كما اتفق المتصوفة الثلاثة على أن الوجود الحقيقي لا ينسب إلا لله تعالى وحده، أما ما عداه فموجود بهذه الصفة الإضافية وظاهر بتلك العارية.

أما ابن عربي فقد اتخذ موقف بصدد العلاقة بين الله والموجودات، فيرى أن الحقيقة الإلهية تتعالى أن تشهد بالعين، لذلك فقد جعل الله الموجودات بمثابة مرآة تتجلى فيها أسماؤه وصفاته وبذلك يظهر الكنز المخفي الذي أشير له في الخبر[1122].

ومن هنا فالخلق عند ابن عربي صور أو مثال –الحق– وليس الوجود فيما يذهب إليه إلا: حق وخلق في المستوى الأول وهذا لعامة الخلق، أما في المستوى الثاني ولخاصة أهل الخلق من أهل الكشف فإنه لا يشاهد إلا الحق تعالى متجليا فيها، وهذا ما أكده في مؤلفاته وخاصة فصوص الحكم؛ على أنه ما ثمة إلا حقيقة واحدة تقبل النسب والإضافات، وهذه الحقيقة هي الذات الإلهية التي تعطي لكل اسم يظهر في الوجود صورته التي تميزه عن غير من صور الموجودات ومنه ينتهي ابن عربي إلى أن العالم ليس له في بصيرة العارف وجود حقيقي، بل وجود متوهم وهذا كما يقول في الفصوص –معنى الخيال– وبذلك تتطابق رؤية معظم الصوفية مع رؤية الجيلاني فكلهم يرى العالم محض خيال ووهم زائف، فحسبهم ما ثم غير الله في الكون فلا يرى غيره، ولا وجود إلا وجوده.

[1121] ابن الفارض، الديوان، التائية الكبرى، أبيات 241-242.

[1122] الحديث المنسوب لرسول الله: كنت كنزا مخفيا.

وإن كان ابن عربي لم يستعمل كلمة العارية أو العارية الوجودية، فإنه قد أشار إلى أن قيام الموجودات إنما هو بنوع من الإضافة إلى موجدها. وأن صفة الوجود لا تضاف إلى المخلوقات إلا على سبيل النسبة والإضافة إلى وجود الحق عز وجل. أما السهروردي فقد أشار إلى أن الوجود مراتب نورانية تستمد وجودها من الله أو نور الأنوار، كذلك ابن سبعين أكد على أن الصوفي المحقق إنما هو من أسقط الكثرة من الوجود ولم يثبت إلا الله.

على أن التأصيل اللغوي والصوفي استخدامه الأول كان للجيلاني والتأصيل الفلسفي العرفاني كان لعبد الكريم الجيلي فهو من استخدم تحليلا مطنبا حولها في كتابه الإنسان الكامل.

الخاتمة

لقد اجمع الكثير من المؤرخين على أن الشيخ عبد القدر الجيلاني يعد من بين كبار علماء الدين ورجال الفقه،خاصة الحنبلي منه ،كما يعد من ابرز أهل التصوف في العالم الإسلامي، وبالرجوع إلى ما سبق أن تناولناه في بحثنا المتواضع يتبن لنا عدة نتائج أهمها:

-لقد تلقى الشيخ ثقافته الإسلامية الواسعة على يد علماء الشريعة الاسلامية الممتازين ،وعلى يد رجال التزكية والتربية الروحية من اكابر الصوفية، حتى اصبح واحدا منهم .

-حرص الشيخ حرصا شديدا على الدفاع عن الدين بعقائده طوال حياته ،وهو سليل آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

- اشتهر بالعلم والجد والكفاح ،ورحل وقرأ الفقه وأصول الفقه وأصوله وكان زاهدا ورعا.

-لقد ربط مفكرنا بين محاسن الشريعة وضوابط العقول السليمة.

-وضعه أساسا لنفسه أولا ثم لتلاميذه و لمريديه ،و منهاج مؤسس على علم عقيدة فقهية بالكتاب والسنة .

-كما يعتبر أن كل قول لا سند له من الكتاب والسنة ولا دليل له فهو منقوض.

-اخذ على عاتقه نصرة الحديث وأهله مستمسكا بما كان عليه السلف من ترك الخوض في عويص الكلام ودقيق الجدال العقيم الذي يشق صف الأمة دون سد باب الاجتهاد والتجديد والإبداع .

-لقد عالج الشيخ المشاكل التي تصدى للرد عليها بطريقة تأثر فيه بأفق تكوينه المزدوج الفقهي –الصوفي.

-منهجه وأسلوبه المتمكن من الشريعة والحقيقة جعله حلقة وصل بين مذهب أهل الشريعة وأهل الحقيقة،ومنقذا من اشد الفتن التي كادت تكسر ظهر الأمة.

-كما تميز منهجه العقائدي بروح الاعتدال و الوسطية ،والابتعاد عن التعصب والعنف الديني –خاصة الدموي منه- المتصادم ضد الأخر من الفرق الإسلامية، فكان مخمدا لنار للفتن الطائفية.

-كونه أكد على تحريم ديننا لتكفير المسلم وإقصائه من دائرة الإسلام والإيمان مهما زلت به القدم.

-أكد على الجانب الأخلاقي التربوي الصوفي لما له من دور هام في تأطير عامة الناس وخاصتهم بالعلم

- الاعتماد على العمل السوسيو ديني (الاجتماعي- الديني).

-الطريقة الصوفية القادرية لم تكن طريقة سلبية اعتزالية للخلق وانطوائية ،بل كان الشيخ يدمجها في كل فعاليات الامة الاسلامية والمجتمع العراقي الفارسي ،فمارست كل الانشطة الثقافية والعلمية نالسياسية والادارية والجهادية الحربية..

-تميز تصوفه بأنه تصوف سني على الكتاب والسنة ،لا تصوف بدعي فمن تصوف ولم يتفقه في الدين فقد تزندق،لا حقيقة بدون استقامة في الشريعة.

-من اجل سد كل الطرق أمام الطرق الصوفية البدعية وأهل الضلالات ،وحماية التلاميذ والمريدين والسالكين من الاستدراج الشيطاني كالالتفات للقشور والتفاهات من خوارق العادات والكرامات، وترك لباب الأمر من تربية النفس وإعدادها للقاء بارئها على أحسن هيئة من التخلق بالأخلاق الربانية.

-اعتبر التصوف عنده حال ذوقي عملي مؤطر بعلم الشريعة ،لا حال أوهام وخيالات أو أضغاث أحلام .

-أكد الجيلاني على أن إدراك حقيقة الوجود لا يكون بالمعرفة العقلية أو الحسية المجردة وحدهما ،إنما بالتضافر مع المعرفة الذوقية القلبية .

-لا سبيل للاتحاد بين الله ومخلوقاته وان يحل فيهما حلولا ،إنما هو شهود حال القرب وانس بالموجود الأعظم .

-الأمر عنده وحدة شهود لا وحدة وجود، فالله ليس عين ذاته عين الموجودات ذاتها ، إنما هي موجودات هو أوجدها وما هي الا تجليات لحضرة أسمائه وصفاته وأفعاله .

-وحدة الشهود لا تعني وحدة الوجود ولا تعني الاتحاد العياني بين الواجد والموجود ،كما يتصوره البعض بل إنها حالة ذوقية عند مشاهدة ظهور التجليات الخاصة لله في هذا العالم ليس ظهور حلوليا ولا اتحاديا.

-وحدة الشهود حسبه حقيقة شعورية قلبية واقعية، أساسها مشاهدة مستوى من التوحيد الخالص للموجود الأعظم الله ،بظهور اسمائه وصفاته وافعاله ظهورا خاصا،مما يؤكد الطبيعة الذوقية العقلية للمعرفة الصوفية.

- يعتبر الزهد عند الجيلاني ادات رئيسية في اليات التجري من المادية ،وبه يتم رفع الحجب للوصول الى الحالة الذوقية المنشودة لكي تشتعل الذات بحب الله، وخاصة الزهد القلبي الباطني ،لا الزهد الظاهر السطحي المرتبط بمظاهر الظواهر.

- كما أكد علمنا على ان الحب هو المحرك الاساسي لكل اليات السلوك في الطريق الصوفي ،ويستحيل الوصول الى اعلى مراتب التجرد الزهدي بغير حب الله ومقاماته العليا كالفناء والفناء عن الفناء ،كلها باحب ،فماثمة غير حب.

- حسب الجيلاني ماثمة غير الله ،فهو الوجود الوحيد والأصيل ،وغيره من موجودات ماهي الا وهم وزيف ،فهي عارية وجودية اي وجود مستعار ومستمد من انعكاس الاصل ،فكل الموجودات ماهي الا انعكاس حضرة اسمائه وصفاته وافعاله عز وجل وفقط.

-والحب والزهد هما من يحققان تلك الرؤية الذوقية الكاملة لشهود الوجود الحقيقي على حقيقته الاصلية:وحدة الشهود لا وحدة وجود.

-لا سبيل للاتحاد او الحلول او وحدة الوجود حسب الجيلاني فالقديم لايكون محلا للحوادث ولا يكون حالا في المحدث،و من قال بالحلول فهو معلول ،وما قال بالاتحاد الا اهل الالحاد ،فهل تكون الصنعة عين الصانع.

فهرس الآيات:

		الصفحة
سورة البقرة		
رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ	201	45
وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ	205	86
وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ	255	95
وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا	83	123
وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ	63	156
يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ	185	162
وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ	216	164
وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ	31	227
إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ	153	228
فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ	152	238
وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ	165	264-257
إِنَّ الله يُحِبُ التَوَّابِينَ وَيُحِبُ المتطَهِرِين	222	264
أَيْنَمَا تُوَلوُا فَثَمَ وَجْهُ الله	115	296
سورة آل عمران		
وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ	139	94
كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ	37	103
كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ	110	109
فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ	07	141
وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا	07	141
رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ	38	148
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ	200	177-164
قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُونَ الله فَاتبَعُونِي يُحْبِبْكُمُ الله	31	-247-243

		257
وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ	81	268
سورة النساء		
فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا	69	48
وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا	164	84
كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ	135	137
يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ	28	162
وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا	69	178-165
وخلق الإنسان ضعيفا	28	296
سورة المائدة		
يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ۚ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ	67	87
وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ	23	160
مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ	06	162
يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ	16	176-175
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ	54	-257-238 258
يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ	54	264
سورة الأنعام		
وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ	18	93-92
وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ	03	95
وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ	151	125
وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ	153	176

وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ	52	180
سورة الأعراف		
وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ	156	46
فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا	51	91
إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ	206	92
وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ	127	93
قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ	33	125
إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي	144	148
وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ	172	268
سورة التوبة		
وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ	36	110
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ	119	128-165-178
رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ	100	177
سورة يونس		
وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ۚ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ	107	85
لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ	26	87
لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ	02	97
سورة يوسف		
وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ	30	247
سورة الرعد		
اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ	26	45
يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ	39	85
سورة ابراهيم		
وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا	12	176

لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ	07	177
سورة الحجر		
وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ	85	310-308
سورة النحل		
يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ	50	92
وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ	127	164
سورة الكهف		
وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا	25	107-103
وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ	28	-118-116 180-122
فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا	110	124
سورة مريم		
وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا	64	88
وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا	25	103
سورة طه		
الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ	05	83-82
قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ	68	94-93
وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي	41	137
سورة الأنبياء		
لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ	23	85
يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ	104	95
وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ	107	123
لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا	22	141
سورة الحج		
وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ	07	45
ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ	62	306
سورة النور		
فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ	63	98
رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ	37	123

وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ	31	157
سورة الشعراء		
نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (*) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (*) بِلِسَانٍ عَرَبِيّ مُّبِينٍ	193- 195-194	87
يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (*) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ	88- 89	125
سورة النمل		
أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ	39	103
إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ۖ	34	180
سورة القصص		
كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ	88	307
سورة العنكبوت		
وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا	69	160-175- 176
وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا	69	175
لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا	69	176
وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا	69	176
مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ	05	259
سورة لقمان		
وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ	17	109
سورة السجدة		
يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ	05	83
إِنَّا نَسِينَاكُمْ	14	88
تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ	16	123
سورة الأحزاب		
وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا	43	46
سورة سبأ		
وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ	23	92
سورة فاطر		

إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ	10	79-80-83-99
يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَار	13	286
سورة يس		
وَ الشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍ لَهَا	38	286
سورة ص		
وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ	17	91
وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ	44	147
وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ	26	186-190
وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ	26	190
سورة الزمر		
وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ	67	84
وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ	07	86
وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ	67	95
إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ	10	162
فَأَشْرَقَتِ الشَّمْسُ بِنُورِ رَبِّهَا	69	297
مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ	03	301
سورة غافر		
وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (*) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ	36 - 37	93
وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ	37	94
سورة فصلت		
ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ	11	92
سورة الشورى		
لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ	11	79-84-90-93-90 142
وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ	26	162
سورة الجاثية		
وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ	13	79-80
سورة الحجرات		

وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ	18	45
وَلَا تَجَسَّسُوا	12	109
يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ	13	184
سورة ق		
وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ	16	96-94
فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ	22	297
سورة الذاريات		
وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ	47	91
سورة الطور		
هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ	28	45
سورة النجم		
ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (*) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ	08 - 09	141
سورة الرحمن		
كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (*) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ	26 - 27	45
سورة الحديد		
هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ	03	95-94
وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ	04	96-94
وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ	27	146
سورة المجادلة		
مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ	07	96-94
سورة الحشر		
هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ	24	45
وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ	09	49
نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ	19	90
وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ۚ	07	146
رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا	10	188
سورة الصف		

كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ	03	152
سورة الجمعة		
كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا	05	152
سورة المنافقون		
وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِين	08	38
سورة الطلاق		
وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ	03	-162-160 176
سورة التحريم		
نُورُهُم يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهم	08	286
سورة الملك		
أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ	17	94-92
أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ	16	94
تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ	01	106
سورة القلم		
يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ	42	91
وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ	04	300-177
سورة القيامة		
وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (*) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ	22 - 23	87
سورة الإنسان		
وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ	30	181
سورة النازعات		
وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (*) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ	40-41	119
سورة التكوير		
وَ الصُبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ	18	286
سورة البروج		
وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ	20	95
سورة الأعلى		
سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى	01	92

إِنَّهُ يَعْلَمُ الجَهْرَ وَماَ يَخْفَى	07	243
سورة الفجر		
وَجَاءَ رَبُّكَ	22	91
سورة الليل		
وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ (*) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ	19	122
سورة الضحى		
وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ	11	294
سورة الشرح		
فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (*) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا	06 - 05	36
سورة البينة		
وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ	05	125
سورة الإخلاص		
اللَّهُ الصَّمَدُ (*) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (*) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ	4-3-2	79

فهرس الأحاديث النبوية:

مطلع الحديث	الصفحة
فو الله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من أن تكون لك حمر النعم	25 - 27
عن ابن عباس رضي الله عنهما : إذا كانت ليلة القدر يأمر الله تعالى جبرائيل عليه السلام أن	57
روي عن أم مسلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم تسليما في قوله عز وجل : (الرحمن على العرش استوى)	81
قرأ رسول الله صلى الله عليه سلم على المنبر والسموات مطويات بيمينه	82
لا تزال جهنم تقول هل من مزيد حتى يضع فيها رب العزة تبارك وتعالى قدمه فتقول قط قط وعزتك ويزوي	82
الكيف غير معقول والاستواء غير مجهول والإقرار به واجب والجحود به كفر	83
ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حتى يبقى ثلث	84
ينزل ربنا تبارك وتعالى أي أمره	84
والنبي صلى الله عليه وسلم تسليما قال:«من رأى منكم	86
المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي خير احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز	86
يا ابن آدم مرضت فلم تعدني قال: يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين	88
اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل	89
يضحك الله من رجلين يقتل أحدهما الآخر يدخلان الجنة	90
أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا فيه	94
ابن آدم مرضت فلم تعدني	94
لآخر وطأة وطئها الرحمن	94
فيعرفهم نفسه يعني يتجلى لهم	94
ينزل ربنا تبارك وتعالى أي	94
حتى يضع الرب جل جلاله قدمه فيها ، أي جهنم	95
من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد	96
أفشوا السلام بينكم تحابوا	96
لم يتكلم من المهد إلا ثلاثة : عيسى وكان في بني إسرائيل رجل يقال له جريج	101
سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول ﴿انطلق ثلاثة رهط ممن كان	102

وعن سيدنا ابي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم «بينما رجل راكب	102
وعن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «لقد كان فيمن قبلكم من الأمم	102
وعن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه : (أن أسيد بن حضير وعباد بن بشر رضي الله عنهما	102
وعن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه : أن خبيبا كان أسيرا عند بني الحارث	103
وعن سيدنا جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: شكا ناس من أهل الكوفة	103
وفي صحيح البخاري تعليقا أن سيدنا أبا بكر الصديق كان عنده أضياف فقدم لهم الطعام فلما أكلوا منه ربا من أسفله حتى إذا شبعوا قال لامرأته : يا أخت بني فراس ما هذا	103
وعن سيدنا عروة بن الزبير رضي الله عنه : (أن أروى بنت اويس ادعت على	103
وعن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه قال: (رأيت من العلاء بن الحضرمي ثلاثة أشياء	103
وعن سيدنا أبي السفر رضي الله عنه قال: (نزل خالد بن الوليد الحيرة	103
وعن سيدنا عثمان بن القاسم رضي الله عنه قال: (خرجت ام أيمن مهاجرة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من	104
وعن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما قال: ضرب أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم خباءه على قبر وهو لا يحسب أنه	104
وأخرج البيهقي عن سيدنا قيس رضي الله عنه قال: (بينما ابو الدرداء	104
وعن سيدنا محمد بن المنكدر رضي الله عنه ان سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (ركبت البحر فانكسرت سفينتي	104
وأخرج البيهقي عن سعيد بن المسيب رضي الله عنه قال: (دخلنا مقابر المدينة	104
وقال التاج السبكي رحمه الله تعالى : (كان عمر رضي الله عنه قد	104
وذكر التاج السبكي رحمه الله تعالى في الطبقات وغيره: (أنه دخل على عثمان رضي الله عنه	105
الرجل الذي أضل راحلته في الصحراء وعليها طعامه وشرابه ومتاعه	106
ويقول النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف	107
وعن أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال: «قلت يا رسول الله أي العمل أفضل	108
يقول النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «أفضل الجهاد كلمة حق	108- 173
بقوله: (هذا جبريل عليه السلام أتاكم	118
أن تعبد الله كأنك تراه فإن	118- 169
وقال سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه (لا تحقر أحدا من	120

ورد في الأثر : (اهل الجنة كل هين لين سهل قريب وأهل	120
فقال (إن الله لا ينظر إلى أجسامكم	122
قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم (لا تحاسدوا ولا تناجشوا	123
ويقول عليه الصلاة والسلام: (إن الله تعالى لا	123
قال فيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (إن الرجل ليبلغ بحسن الخلق	123
ويقول عليه الصلاة والسلام: (اتق الله حيثما كنت	123
بقوله «الإحسان أن	132
عن عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : عليكم بالصدق	162
يقول النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «إن الحلال بين وإن الحرام بين وبينهما أمور	152
ويقول أيضا: «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى	152
يقول النبي صلى الله عليه وسلم تسليما: «اعقلها وتوكل	174
روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: (قيل يا رسول الله: أي المؤمنين أفضل	174
وقال صلى الله عليه وسلم تسليما: « أفلا أكون عبدا	174
روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما: « ذاق طعم الإيمان	174
حديث ابن عمر وعيينة بن حصن " والله ما بطنها	202
الزهد ههنا، التقوى ههنا، الإخلاص ههنا، ويشير الى قلبه	227

فهرس مطالع الأبيات الشعرية:

مطلع البيت	الصفحة
نحن من أولاد خير الحسنين	23
وارحمتا للغريب بالبلد النا	29
قد ينعم الله بالبلوى وان عظمت	50
ومن يك وجده وجدا صحيحا	85
وأثبتن للأولياء الكرامة	106
مالي وألفاظ زيد	106
تنازع الناس في الصوفي واختلفوا	113
وأمر بعرف واجتنب نميمة	124
وأمر بعرف واجتنب نميمة	125
قد رفضوا الآثام والعيوبا	125
علم التصوف علم لانفاد له	128
علم التصوف علم ليس يعرفه	129
قوم همومهم بالله قد علقت	136
طريقتنا تنجي الفؤاد من الغوى	166
إني جعلتك في الفؤاد محدثي	245
و لما أدعيت الحب قـــالت كذبتني	246
بين المحبين سر ليس يفشيه	251
رجال خيموا في حي ليلى	253
لقد صار قلبي قابلا كل صورة	253
أزوركم و الهوى صعب مسالكه	257
ودع مقالة قوم قال عالمهم	300
أنا من أهوى	300
غبت بك عني	300
يعادي الذي عادى	301
يظنوا بي حلولا واتحادا	302
وعلمك أن كل الأمر أمري	302

فالكل دون الله إن حققته	303
وصرح بإطلاق الجمال ولا تقل	305

قائمة المصادر و المراجع:

المصادر:

1. **القران الكريم.**
2. **الحديث النبوي الشريف.**
3. **مصادر عبد القادر الجيلاني.**

- عبد القادر الجيلاني : رسالة في التصوف خمسة عشر مقالة في التصوف،د تح، دط، د تخ،.
- عبد القادر الجيلاني: آداب السلوك والتوصل الى منازل الملوك، تح نصوح عزقول، دار السنابل، دمشق، ط1، 1997م.
- عبد القادر الجيلاني: الصلوات الكبرى، نسخة مصورة لمخطوطة، د تح ، د ط ،
- عبد القادر الجيلاني: الغنية لطالبي طريق الحق، تح صلاح بن عويضة، دار الكتب العلمية،بيروت ط1417،1هـ –1997م،2ج
- عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني والفيض الرحماني،تح انس مهرة،دار الكتب العلمية،بيروت،ط، 2010م.
- عبد القادر الجيلاني: سر الأسرار ومظهر الأنوار فيما يحتاج إليه الأبرار، تح عدنان الزرعي–نصوح عزقول، دار السنابل، دمشق، ط3، 1994م
- عبد القادر الجيلاني: فتوح الغيب، تح عبد العليم الدرويش، مطبعة مصطفى الحلبي، مصر، ط2، 1392هـ- 1973م.
- عبد القادر الجيلاني، في الباطن والظاهر المسمى جلاء الخاطر، تح خالد الزرعي–عبد الناصر سري، دار اللجين، دمشق، ط1، 1994م.

المراجع:

- إبراهيم بسيومي: نشأة التصوف الإسلامي، دار المعارف بمصر، دط، 1969م.
- ابن الأثير: الكامل في التاريخ ،تح عبد الله القاضي،ط1،دار الكتب العلمية،بيروت،1407هـ-1987م،مج9 .
- ابن الاثير: جامع الأصول في احاديث الرسول، تح عبد القادر الارناؤوطي و التتمة بشير عون،مطبعة الملاح-دار البيان ،مصر،ط1، 1389هـ-1969م، 6 ج .

- ابن الجوزي: المتظم في تاريخ الملوك والامم،د تح ،دار الكتب العلمية،بيروت،ط2، 1415هـ-1995م،ج9.
- ابن الحجر الهيتمي: الفتاوى الحديثية،د تح،دار الفكر،بيروت،د ط،د ت،
- ابن الصابوني: تكملة إكمال الإكمال في الأنساب والأسماء والألقاب،تح مصطفى جواد،المجمع العلمي العراقي،ط1، 1377هـ-1957 .
- ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب،تح عبد القادر الارناؤوطي محمود الارناؤوطي،دار ابن كثير،دمشق-بيروت1406هـ،ج6.
- ابن القيم الجوزية: مدارج السالكين في منازل اياك نعبد واياك نستعين،تح ناصر السعوي،الرياض، دار الصميعي،ط1، 1432هـ- 2011م
- ابن الملقن: طبقات الاولياء،تح نور الدين شريبه، مكتبة الخانجي،القاهرة،ط 4، 1415هـ- 1994م.
- ابن تيمية: الصوفية والفقراء،د تح،دار المنهاج،الرياض،د ط، د تخ،
- ابن تيمية: مجموع الفتاوى،تح عامر الجزار-انور الباز،دار الوفاء،بيروت، ط2008،1م،
- ابن تيمية: مختصر الفتاوى المصرية،تح عبد المجيد سليم و حامد الفقهي، دار الكتب العلمية، ط1، 1997م
- ابن حجر : تهذيب التهذيب ،تح ابراهيم الزيبق-عادل مرشد،مؤسسة الرسالة،الرياض،ط1، 1336هـ،ج3.
- ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري،تح نظر الفاريابي،دار طيبة،الرياض،ط1، 1426هـ- 2005م
- ابن حجر الهيتمي: الزواجر عن اقتراف الكبائر،د تح ،دار الفكر ،دمشق،ط1 ،1407هـ -1987م،
- ابن خلدون: المقدمة ، تح محمد الدرويش،دار يعرب، القاهرة،ط1، 1425هـ – 2004م
- ابن خلكان: وفيات الأعيان وانباء ابناء الزمان،تح احسان عباس،دار صادر، بيروت، ط1972،1م
- ابن رجب: الذيل على طبقات الحنابلة،تح محمد الفقي، مطبعة السنة المحمدية، مصر، ط1، 1372هـ-1925م،كج9،ص139

- ابن رشد: تفسير ما بعد الطبيعة ، مجلد 7، دار المشرق، المكتبة الكاثوليكية، بيروت، 1990م.
- ابن رشد: تلخيص ما بعد الطبيعة، تحقيق عثمان أمين، مكتبة مصطفى الحلبي، القاهرة، 1957م.
- ابن رشد: تهافت التهافت، ح1، تحقيق سليمان دنيا، دار المعارف المصرية، القاهرة، 1980م.
- ابن سينا: الشفاء، الإلهيات ، ج1، تحقيق الأب قنواتي وسعيد زايد، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1960م.
- ابن سينا: النجاة في الحكمة المنطقية والطبيعية والإلهية، القاهرة، 1938م.
- ابن عابدين: رد المحتار على الدر المختار ،تح عادل عبد الموجود و علي معوض،دار الفكر،بيروت، ط2 ،1992،مج1،.
- ابن عجيبة :إيقاظ الهمم في شرح الحكم العطائية، تح عاصم إبراهيم الكيالي،دار الكتب العلمية.بيروت،ط2009،1م.
- ابن عجيبة: معراج التشوف إلى حقائق التصوف ،تح د عبد المجيد خيالي،مركز التراث الثقافي المغربي،الدار البيضاء، ،د ط، د تخ،ص 4.
- ابن عربي: الفتوحات المكية، تح احمد شمس الدين،دار الكتب العلمية،بيروت، ط1420،1 هـ – 1999م،
- ابن كثير: البداية والنهاية،تح عبد الله التركي ،مركز البحوث والدراسات العربية والاسلامية بدار هجر، الرياض،1410هـ-1990م،ج12
- أبو البقاء: الكليات، د تح ،د ط ، د تخ ،المكتبة المركزية لجامعة ،القاهرة .
- ابو العلاء عفيفي : التصوف الثورة الروحية في الإسلام ،دار الشعب، بيروت، ط7، 2009م
- ابو الوفاء التفتازاني:المدخل إلى التصوف،د تح، دار الثقافة،القاهرة ،ط3، د تخ
- ابو اليسر عابدين، حكايا الصوفية،دار البشائر،بيروت،ط1، 1413هـ-1993م
- ابو ذر القلموني: السالكون إلى الله ففروا الى الله،مكبة الصفا،دمشق،ط5، 1424هـ
- أبو طالب المكي: قوت القلوب في معاملة المحبوب، تح نسيب مكارم، دار صادر، بيروت، ط1، 1973 م
- ابي احسن الندوي: رجال الفكر والدعوة في الاسلام، دار ابن كثير،دمشق،ط1428،3هـ -2007م.

- ابي الحسن الاشعري: الابانة عن اصول الديانة، د صالح التميمي ،مدار المسلم ، الرياض، ط1، 1432هـ-2011م.
- ابي بكر بناني: مدارج السلوك إلى ملك الملوك،تح د ابراهيم الكيالي ،دار الكتب العلمية،ط 3، 1997م ،ص129.-
- ابي حامد الغزالي: المنقذ من الضلال ،تح جميل صليبا وكامل عياد، دار الاندلس،بيروت،ط7، 1967م
- أبي محمد الخلال: كرامات الأولياء ،تح أسامة الشريف،دار المشاريع،بيروت،ط1، 1428هـ-2007م،
- أتين جيلسون: روح الفلسفة الاوربية في العصر الوسيط،تر امام الفتاح،دار الثقافة للنشر والتوزيع،القاهرة،1982م.
- أتين جيلسون: روح الفلسفة الاوربية في العصر الوسيط،تر امام الفتاح،دار الثقافة للنشر والتوزيع،القاهرة،1982م،
- احمد السحمراني: التصوف منشؤه ومصطلحاته،دار النفائس، بيروت،ط1، 1987م
- احمد الصاوي: شرح الصاوي،تح عبد الفتاح البزم،دار ابن كثير ، بيروت،ط 3، 1999م،
- احمد الطحطاوي: حاشية الطحطاوي على مراقي الفلارح شرح نور الإيضاح. تح محمد الخالدي، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق،مصر،ط ،1318 ه-1997م
- احمد حران: حاضر العالم الإسلامي:اشبيليا للنشر،الرياض،ط1، 1422هـ-2009م
- أحمد زروق: الفتوحات الإلهية في شرح المباحث العطائية، تح عبد الحليم محمود، دار الشعب، القاهرة، ط1، 1405هـ-1975م.
- احمد زروق: قواعد التصوف،تح عبد المجيد خيالي،،دار الكتب العلمية،بيروت،ط2، 2005م
- احمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي،مكتبة النهضة المصرية،القاهرة،ط1984،7م
- أحمد فؤاد الأهواني: فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط1، 1954م .
- إسماعيل القادري: الفيوضات الربانية في الماثر والاوراد القادرية،د تح، مطبعة مصطفى الحلبي،مصر،د ط،د ت.
- أفلاطون: الجمهورية، ترجمة فؤاد زكريا ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1985م.

- اميل بورتو: فلسفة كانط، تررجمة عثمان أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1971م.
- إيروين شرودنجر: الطبيعة والإغريق، ترجمة عزت قرني، دار النهضة العربية، القاهرة، 1962م.
- الباجوري: شرح جوهرة التوحيد ، تح علي جمعة و محمد الشافعي،دار السلام ،مصر،ط1، 1422هـ-2002م
- بدير عون: التصوف الإسلامي: الطريق و الرجال، مكتبة سعيد رأفت، مصر، دط، 1983م.
- تاج الدين السبكي: معيد النعم ومبيد النقم ،مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت ط1407،،1هـ-1986م.
- تومالإكويني: الوجود والماهية، ضمن كتاب(نماذج من الفلسفة المسيحية)، ت حسن حنفي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1978.
- جلال الدين السيوطي: الأشباه والنظائر،د تح ،دار الكتب العلمية،بيروت،ط1، 1411هـ- 1991م.2 مج.
- حاجي خليفة: كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون،تح محمد يالتقايا،دار احياء التراث العربي، لبنان،ط1943،7م.
- حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون ،تح محمد بالتقايا و رفعت الكليسي، مكتبة المثنى،بغداد ،ط1، 1941م
- حافظ الحكمي: سلم الوصول في علم الاصول،دار عمار،مصر،ط1، 1979م،
- حامد ابراهيم: نور التحقيق في صحة اعمال الطريق، د تح، دار التاليف مصر،ط1390،2هـ- 1970م،
- حامد صقر: نور التحقيق في صحة أعمال الطريق ،دار التاليف، مصر،ط2، 1390هـ- 1970م،.
- حسين بكرلي: تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس،د ت،د ط،دار صادر بيروت،ج2،
- خير الدين الزركلي: الأعلام ،د تح،د ،دار العلم للملايين،ط15، 2002م،
- الذهبي: التفسير والمفسرون،د تح ،مكتبة وهبة، بيروت،ط 7، 2000م.
- الذهبي: العبر في خبر من غبر، ويليه ذيول العبر، تح محمد زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1405هـ-1985م.

- الذهبي: سير أعلام النبلاء،تح مج ت اشراف محمد الارناؤوطي،مؤسة الرسالة،ط1405،1هـ-1985م،مج21 ،ص360
- الذهبي: قلائد الجواهر، في ذكر الغوث الرفاعي واتباعه الاكابر،تح محمد علي،دار الكتب العلمية،بيروت،دط،د ت.
- الرازي: التفسير الكبير للرازي،د تح، دار الفكر،دمشق،ط1، 1981م،
- الرفاعي الحسيني: البرهان المؤيد،تح عبد الغاني نكهمي،دار الكتاب النفيس،بيروت،ط1، 1408هـ.
- الرفاعي: البرهان المؤيد ،تح عبد الغني النكري،دار الكتب العلمية،بيروت،ط 1، 1999م .
- الرفاعي: النظام الخاص لأهل الاختصاص،د تح.
- الرفاعي: حكم السيد أحمد الرفاعي،تح د نوال ناظم، دار الكتب العلمية، بيروت،ط1 ،2016م .
- رمضان البوطي: السلفية مرحلة زمنية لا مذهب اسلامي، دار الفكر،دمشق، ط1، 1408هـ- 1990م.
- الزبيدي: إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين،د تح، د ط ، د تخ، ج9.
- زين الدين السائح: الدر الفاخر من مناقب الشيخ عبد القادر، د تح، د ط، د تخ.
- سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان في تواريخ الاعيان ،تح مج م محمد بركات، دار الرسالة العالمية، دمشق ، ط1 ، 2013م.
- السراج الطوسي: اللمع في التصوف،تق تح تخ عبد الحليم محمود و عبد الباقي سرور،دار الكتب الحديثة ،مصر،ط1 ، 1380هـ-1960م.
- سعيد حوى :تربيتنا الروحية،دار السلام،مصر،ط2، 1410هـ- 1990م.
- السهروردي: عوارف المعارف، تح د سمير شمس، دار صادر، بيروت، ط1، 1979م.
- سهيلة عبد الباعث: نظرية وحدة الوجود بين ابن عربي والجيلي، مكتبة خزعل، بيروت، ط1، 2002م
- السيوطي: الأشباه والنظائر للسيوطي ،د تح،دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1403هـ-1983م
- السيوطي: الحاوي للفتاوي ،تح حسن عبد الرحمان،دار الكتب العلمية، ط1، 1421هـ -2000م، ج 2 ،ص134. .

- الشطنوفي : بهجة الاسرار ومعدن الانوار في مناقب الباز الاشهب الشيخ عبد القادر الكيلاني،تح د فالح الكيلاني،دار التراث ،حيدراباد
- الشعراني: الطبقات الكبرى ،تح محمد عطا، دار الكتب العلمية ،بيروت، ط1، 1410 هـ- 1990م
- الشعراني: اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الاكابر،د تح،دار احياء التراث العربي،بيروت،ط2، 1973م، ج2.
- الشعراوي: لطائف المنن والأخلاق بوجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق ،دار التقوى،القاهرة،ط2009،7م،ج1،
- شهاب الدين الدمشقي: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصالحية،تح ابراهيم الزيبق، دار الكتب العلمية،ط1 ، 1418هـ- 1997م،5 مج.
- الشيرازي: الأسفار، ج2، دار صادر، بيروت، 1978م.
- صديق القنوجي: التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول، وزارة الاوقاف قطر،ط1، 1428هـ-2007م
- الطبري: تفسير الطبري جامع البيان عن تاويل أي القران،تح عبد الله التركي،دار هجر،الرياض،ط1، 1993م.
- الطحطاوي: حاشية الطحاوي على مراقي الفلاح شرح نور الإيضاح،تح محمد الخالدي،،المطبعة الكبرى الاميرية ،بولاق،مصر،ط1، 1997م.
- الطوسي: اللمع في التصوف،تح د عبد الحليم محمود-عبد الباقي سرور،دار الكتب الحديثة،مصر،ط1380،1هـ- 1960م
- عبد الباري الندوي: بين التصوف والحياة،دار الفتح ،دمشق،د ط، د تخ
- عبد الرحمان السلمي: طبقات الصوفية :تح عبد القادر عطا،دار الكتب العلمية،بيروت،1419هـ - 1998م.
- عبد الرحمان بدوي: تاريخ التصوف الإسلامي من البداية حتى نهاية القرن الثاني ، وكالة المطبوعات، الكويت،ط2003،1م.

- عبد الرحمان بدوي: تاريخ التصوف الإسلامي،دار الشعاع،القاهرة ، ط3، 2001م .
- عبد الرحمان بدوي: شطحات الصوفية،وكالة المطبوعات،الكويت،ط3، 2007م.
- عبد الرحمان بدوي: رابعة العدوية، دار القلم، بيروت، دت،د ط.
- عبد الرحمن الأنصاري: مشارق انوار القلوب ومفاتيح أسرار الغيوب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1959م،
- عبد القادر الدمشقي: الدارس في أخبار المدارس ،تح جعفر الحسيني،دار الشرق، دمشق،ط1، 1397هـ، ج.
- عبد القادر عيسى: حقائق عن التصوف، دار الكتب العلمية،بيروت،ط1 ،1997م.
- عبد الكريم السمعاني: كتاب الأنساب، تح عبد الرحمن اليماني وآخرون، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ط 8، 2006م.
- عبد الكريم السمعاني: كتاب الأنساب، تح عبد الرحمن اليماني وآخرون، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ط8، 2006.
- عبد الكريم القشيري: الرسالة القشرية،تح عبد الكريم العطا،مكتبة ابي حنيفة،دمشق،ط2، 2007م.
- عبد الله الهروي : منازل السائرين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1408هـ –1988م.
- عزت قرني: الحكمة الأفلاطونية، دار النهضة العربية، القاهرة، 1974م.
- علاء الدين عابدين: الهدية العلائية لتلاميذ الكاتب الابتدية في الفقه الحنفي،دار ابن حزم ،بيروت،ط1، 1424هـ- 2003م.
- عماد الدين:حقيقة التصوف،دار المشاريع،بيروت،ط1 ، 1435هـ-2013م.
- عيسى دياب: الميزان العادل لتمييز الحق من الباطل،تق الشيخ حسين و عبد الله البكري،دار التقوى، الرياض،ط3، 1993م.
- فخر الدين الرازي: مفاتيح الغيب التفسير الكبير، د تح ،دار الفكر،دمشق، ط1، 1401هـ-1981م ،32مج .

- فخري الكيلاني: الموجز في تاريخ القطب الغوث والباز الأشهب عبد القادر الكيلاني، دار الجيل الصاعد، بيروت، ط1، 1991م.
- فريدريك كوبلستون: تاريخ الفلسفة تر امام عبد الفتاح،المجلس الاعلى للثقافة ،القاهرة،ط1، 2002،ج1،
- فؤاد الأهواني: فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط1، 1954م.
- القحطاني: الشيخ عبد القادر الجيلاني،دارالشعلة الاباضية،عمان،ط1، 1989م .
- القديس أنسلم : الإنسان الباحث عن العقل، ضمن كتاب (نماذج من الفلسفة المسيحية)
- كامل مصطفى الشيبي : صفحات مكثفة من تاريخ التصوف الإسلامي،دار صادر، بيروت ، 1977
- الكتبي: فوات الوفيات،تح احسان عباس،دار صادر ،بيروت، دط، 1973،ج2.
- الكلاباذي: التعرف لمذهب أهل التصوف،تح ارثر جون اربري،مكتبة الخانجي،القاهرة،ط2، 1415هـ - 1994م.
- الكندي: رسائل في الفلسفة الأولى، دار الفكر العربي، القاهرة، 1978م.
- ماجد عرسان: هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، دار القلم، دبي،ط3،1423هـ-2003م
- مارتن هيدجر: نداء الحقيقة ، تر عبد الغفار مكاوي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة،1975م.
- محمد الخلال :كرامات الاولياء، تح اسامة االشريف،دار المشاريع،بيروت،ط1 ،1428 هـ
- محمد الزمزمي: الانتصار لطريق الصوفية،د تح،كتب التراث،القاهرة،دط، دتخ
- محمد العيني : عبد القادر الكيلاني،تر محمد زيان،دار الجمل ،طرابلس،ليبيا،ط1998،1
- محمد بناني: مدارج السلوك إلى ملك الملوك، د تح ،د ط،د تخ.
- محمد حسين يعقوب: أصول الوصول الى الله،الكتبة التوفيقية،القاهرة،ط3، 2013م،
- محمد عمارة: المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية،بغداد،ط2، 1984.
- محمد فايز المط: من كنوز الاسلام،دار الارقم،الكويت،ط2003،1م،

- محمود غراب: شرح كلمات الصوفية والرد على ابن تيمية من كلام ابن عربي،مطبعة نضر،دمشق،ط2، 1413هـ- 1993م
- مصطفى المدني: النصرة النبوية في شرح الرائية للفاسي، تح محمد الادريسي،دار الرائد،الدار لبيضاء،ط1، 2009م.
- مهدي الرواس: بوارق الحقائق،تق ابراهيم الرفاعي،دار الافاق العربية،مصر،ط 1، 2002م
- مهدي الرواس: رفرف العناية في الوراثة والولاية، تح فريد المزيدي، دار الافاق العربية، القاهرة،ط1431،1هـ -2010م،
- مهدي الرواس: مسلك ناجية الفطين في مراحل السالكين ،تح فريد المزيدي،دار الافاق العربية،مصر،ط2010،1م
- ناجي التكريتي : الفلسفة الأخلاقية الأفلاطونية عند مفكري الإسلام ، دار الاندلس،الرياض،ط1 ،2009م
- النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، دار المعارف، ط2، دت، ج3.
- النفري، غيث المواهب العلمية فيشرح الحكم العطائية ، تح عبد المقصود هيكل، دار الخير،القاهرة، ط1، 1408 هـ- 1988م ،ج1،
- النووي: بستان العارفين، تح محمد الحجار،دار البشائر،بيروت،ط6، 1428هـ- 2006م.
- نيكلسون: في التصوف الإسلامي وتاريخه، دار النهضة العربية، القاهرة، ط1، 1947م
- الهجويري: كشف المحجوب، ترجمة د إسعاد قنديل ، بيروت، د ط، 1980م
- هيراقليطس: جدل الحب والحرب، ترجمة المجاهد عبد المنعم مجاهد، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1980م،
- اليافعي: روض الرياحين في حكايات الصالحين، تح محمد عزت، المكتبة التوفيقية،مصر ،ط1975،1م،
- اليافعي: نشر المحاسن الغالية في فضل المشايخ الصوفية اصحاب المقامات العالية،تح خليل عمران المنصور،دار الكتب العلمية،ط 1.
- يوسف ابن تغري بردي:النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة،وزارة الثقافة،مصر، 1383هـ- 1963م ،ج5.

- يوسف زيدان: الطريق الصوفي و الفروع القادرية بمصر، دار الجيل ،بيروت، ط1، 1411هـ - 1991م.
- يونس السمرائي: الشيخ عبد القادر الكيلاني،دار لكتب العلمية، بيروت،ط1، 1978.

المعاجم والقواميس:

- باللغة العربية:

- ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، 1987م.
- ابن هبيرة: الافصاح عن المعاني الصحاح،تح فؤاد عبد المنعم احمد، دار الوطن، الرياض، ط1، 1417هـ،8 مج.
- اندريه لالاند :الموسوعة الفلسفية،تر خليل احمد خليل ،منشورات عويدات،بيروت،ط1، 1996م.
- جميل صليبا:المعجم الفلسفي ،دار الكتاب اللبناني ،بيروت،ط 1، 1982م.
- حسن الشرقاوي :معجم ألفاظ الصوفية،دار الفكر العربي،دمشق،ط1، 1998م.
- الطبراني: المعجم الكبير،تح حمدي السلفي،مكتبة ابن تيمية،القاهرة،ط1415،1هـ -1994م، ج25.
- عبد الرزاق القاشاني: معجم اصطلاحات الصوفية،تح د عبد العال شهين، دار المنار، ط1990،1م.
- عبد المؤمن البغدادي: مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تح علي بجاوي، دار الجيل، بيروت ، ط1، 1373هـ-1954م، 3مج.
- ياقوت الحموي: معجم البلدان،تح فريد عبد العزيز الجندي ، دارالكتب العلمية،بيروت لبنان 1993م-1397هـ،ط1،

- باللغة الأجنبية:

- Edwards, Pauel,The Encyclopidia of philosophy, published in 1967 by Macmillan.

المجلات والدوريات:

- د. احمد العلوش:بحث في التصوف، ضمن مجلة العشيرة المحمدية، عدد محرم (1376هـ)

فهرس المواضيع:

الصفحة

مقدمة. ..... أ

الفصل الأول: أهم محطات حياة عبد القادر الجيلاني. 08

المبحث الأول: خصائص عصر الشيخ عبد القادر. 11

المطلب الأول – لمحة جغرافية. 11

المطلب الثاني – الحالة السياسية. 14

المطلب الثالث – الحالة الاجتماعية. 16

المطلب الرابع – الحالة العلمية. 17

المبحث الثاني: ولادته ونسبه. 20

المطلب الأول – مولده ونشأته. 20

المطلب الثاني – نسبه. 22

المطلب الثالث – طفولته. 24

المبحث الثالث: رحلاته وطلبه للعلم. 26

المطلب الأول : – رحلته إلى بغداد. 26

أ –انتقاله إلى بغداد. 26

ب–الشيخ عبد القادر في بغداد. 28

المطلب الثاني: – طلبه للعلم. 29

أ –مرحلة التمدرس والتحصيل العلمي. 29

ب–شيوخه وأساتذته. 31

ج – ظروف حياته العلمية في بغداد. 33

المبحث الرابع: انتقاله للتدريس و الوعظ و الإرشاد. 38

المطلب الأول: –جلوسه للتدريس والإصلاح. 38

المطلب الثاني: –المشيخة وتربية المريدين. 41

المطلب الثالث: –علومه ودروسه. 42

المبحث الخامس: مكانة الشيخ العلمية وآثاره. 47

المطلب الأول: مكانته العلمية..... 47

أ –صفات الشيخ. 47

ب–وفاته..... 52

ج–موقف العلماء من الشيخ. 53

د–المؤلفون الذين ذكروا الشيخ في كتبهم. 59

المطلب الثاني: آثار الشيخ وخلفه العلمي. 65

أ –تلامذته. 65

ب-مؤلفات الشيخ. 67
ج- مدرسة الشيخ عبد القادر..... 69
الفصل الثاني:أصول العقيدة عند الشيخ عبد القادر الجيلاني. 72
المبحث الأول: المنهاج العقائدي للشيخ عبد القادر. 72
المطلب الأول: -عقيدته. 72
المطلب الثاني: -منهجه في توضيح العقيدة. 74
المبحث الثاني: - مفهوم التوحيد عند الشيخ عبد القادر. 76
المطلب الأول: -توحيد الربوبية. 79
المطلب الثاني: -توحيد الالوهية. 80
المطلب الثالث: -توحيد الأسماء والصفات. 80
المبحث الثالث:-مسألة الصفات عند الشيخ عبد القادر. 81
المطلب الأول:-الصفات الذاتية(صفة اليدان/صفة القدم/صفة الأصابع/صفة العلو). ... 82
المطلب الثاني :-الصفات الفعلية(الاستواء/صفة النزول/صفة الكلام). 83
المبحث الرابع: -عقيدة الشيخ في بعض المسائل. 85
المطلب الأول:- عقيدته في القضاء والقدر. 85
المطلب الثاني:- عقيدته في القرآن الكريم. 87
المطلب الثالث:- عقيدة رؤية الله عز وجل عند الشيخ. 87
المطلب الرابع: - التأويل عند السلف الصالح واثبات المجاز. 88
المبحث الخامس: -ردع الجيلاني للابتداع والاستدراج الشيطاني. 96
المطلب الأول:-البدعة وموقف الشيخ منها 96
المطلب الثاني:-الفرق بين الكرامة والاستدراج. 97
المطلب الثالث: -الشطح وموقف الشيخ منه. 106
المبحث السادس: -دعوته لمواقف عقائدية عملية. 107
المطلب الأول:- دعوته للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. 107
المطلب الثاني:- دعوته إلى الجهاد في سبيل الله. 108
الفصل الثالث:معالم التصوف عند عبد القادر الجيلاني. 113
المبحث الأول: -تاريخانية التصوف. 113
المطلب الأول: -اشتقاق اسم التصوف. 113
المطلب الثاني: - منشأ التصوف. 115
المطلب الثالث:-أسس التصوف. 119
المطلب الرابع:-أهمية التصوف. 121
المبحث الثاني: -الظبط المفاهيمي لمعالم التصوف عامة. 127
المطلب الأول :-ماقيل في تعريف التصوف. 127

المطلب الثاني:-ما قيل في تعريف الصوفي. 133
المطلب الثالث:-ما قيل في تعريف الصوفية. 136
المطلب الرابع: -عقيدة الصوفية. 138
المبحث الثالث: -الظبط المفاهيمي لمعالم التصوف عند الجيلاني. 143
المطلب الأول: -مفهوم التصوف عند الجيلاني.... 143
المطلب الثاني: -مفهوم المتصوفة عند الجيلاني. 146
المطلب الثالث: -مفهوم الصوفي عند الجيلاني. 146
المطلب الرابع: -العوامل التي أدت إلى تصوفه. 147
المبحث الرابع: -تصوف المقامات والأحوال العملية. 149
المطلب الاول:-موقفه من العلم والعمل. 149
المطلب الثاني:-الورع. 152
المطلب الثالث: -المقامات والأحوال. 154
الفصل الرابع:**عبد القادر الجيلاني وطريقته الصوفية**. 165
المبحث الأول :تأسيس الطريقة القادرية. 166
المطلب الاول: -معنى الطريقة والحقيقة 166
المطلب الثاني: -أقوال العلماء والعارفين في معنى الطريقة والحقيقة. 166
المطلب الثالث: حكمة تعدد الطرق. 172
المطلب الرابع: -أسس الطريقة القادرية. 173
المبحث الثاني:-آداب الشيخ والمريد. 177
المطلب الاول :.الفيصلة بين الشيخ وبين المريد والمراد.... 177
أ –الارادة. 177
ب-المريد والمراد. 177
ج-الشيخ المرشد. 181
المطلب الثاني : واجبات المريد. 184
المطلب الثالث : آداب المريد مع الشيخ.... 185
المطلب الثالث: الآداب المتعلقة بالشيخ تجاه مريده. 186
المبحث الثالث:-آداب الصحبة 187
المطلب الاول: صحبة الإخوان. 187
المطلب الثاني: صحبة الأجانب. 188
المطلب الثالث: صحبة الأغنياء. 188
المطلب الرابع: -صحبة الفقراء. 188
المطلب الخامس:- الآداب الواجبة على الفقير نفسه. 189
المطلب السادس:- آداب المعاشرات.... 189

المبحث الرابع: -انتشار المدارس القادرية في ربوع الدولة. 190
المطلب الأول:-مدارس القرى والأرياف البوادي. 190
المطلب الثاني:-التعاون بين مدارس الإصلاح والدولة. 193
الفصل الخامس:**الحب الإلهي و مشاهدة الوجود عند عبد القادر الجيلاني**. 198
المبحث الأول: تاريخانية وجيزة لمفهوم كلمة الوجود. 201
المطلب الاول: ضبط مفهوم كلمة الوجود.... 201
أ- مفهوم كلمة الوجود لغة.... 201
ب- مفهوم كلمة الوجود اصطلاحا 202
المطلب الثاني :مفهوم الوجود في تاريخ الفلسفة. 204
أ- في الفلسفة اليونانية. 204
1-مفهوم الوجود عند هيراقليطس. 204
2-مفهوم الوجود عند بارمنيدس. 205
3-مفهوم الوجود عند افلاطون.... 207
4-مفهوم وجود عند ارسطو.... 209
ب- في الفلسفة الاسلامية. 210
ج-في الفلسفة المسيحية. 212
د-في الفلسفة الغربية. 215
1-مفهوم الوجود عند ديكارت. 215
2-مفهوم الوجود عند ليبنتز. 216
3- مفهوم الوجود عند كانط. 218
المبحث الثاني:التجرد الباطني بالزهد لمكاشفة الوجود. 222
المبحث الثالث:الذكر كفاعلية لشهود الوجود. 233
المبحث الرابع:المحبة عند الصوفية. 243
المطلب الأول: لمحة تاريخية عن ظهور المحبة عند الصوفية. 245
المطلب الثاني: مفهوم المحبة عند الصوفية.... 247
المطلب الثالث: علاقة الشوق بالمحبة عند الصوفية. 256
المطلب الرابع :الحب كمبدأ للوجود عند الصوفية.... 258
المبحث الخامس: الفناء بالحب الالهي لمشاهدة الوجود عند الجيلاني.... 261
المبحث السادس:وحدة شهود لا وحدة وجودعند الجيلاني. 277
تعقيب:تبرئة علماء الامة للصوفية من تهمة الحلول والاتحاد و وحدة الوجود. 298
العارية الوجودية. 304
خاتمة.... 308
فهارس.... 310

- **فهرس الآيات**. 311
- **فهرس الأحاديث النبوية**. 321
- **فهرس مطالع الأبيات الشعرية**. 325

قائمة المصادر والمراجع. 328

فهرس المواضيع. 324

ملخص باللغة الأجنبية – باللغة العربية. 348